

حقائق ورقائق

(١)

الباحثون عن الله

رواية

الجزء الأول

د. نور الدين أبو لحية



دار الأنوار للنشر والتوزيع

الباحثون عن الله

رواية

الجزء الأول

د. نور الدين أبو لحية



دار الأنوار للنشر والتوزيع

dar.elanwar@gmail.com

الطبعة الثانية

٢٠١٥-١٤٣٦



دار الأنوار للنشر والتوزيع

dar.elanwar@gmail.com

الحمد لله رب العالمين
والصلاة والسلام على
سيدنا محمد وآله الطيبين
الطاهرين

من القرآن الكريم

﴿فَقَرُّوا إِلَى اللَّهِ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥٠) وَلَا تَجْعَلُوا مَعَ اللَّهِ

إِلَهًا آخَرَ إِنِّي لَكُمْ مِنْهُ نَذِيرٌ مُبِينٌ (٥١)﴾ (الذاريات)

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا

اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ

تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ (٦٤)﴾ (آل عمران)

من الكتاب المقدس

(اِحْمَدُوا الرَّبَّ.. اَدْعُوا بِاسْمِهِ.. عَرَّفُوا بَيْنَ الشُّعُوبِ بِأَفْعَالِهِ..

ذَكِّرُوا بِأَنَّ اسْمَهُ قَدْ تَعَالَى) (إشعياء: ١٢ / ٤)

(وَالْحَيَاةُ الْأَبَدِيَّةُ هِيَ أَنْ يَعْرِفُوكَ أَنْتَ الْإِلَهَ الْحَقَّ وَحْدَكَ، وَالَّذِي

أَرْسَلْتَهُ: يَسُوعَ الْمَسِيحَ. أَنَا مَجَّدْتُكَ عَلَى الْأَرْضِ، وَأَنْجَزْتُ الْعَمَلَ

الَّذِي كَلَفْتَنِي. فَمَجَّدْنِي فِي حَضْرَتِكَ الْآنَ) (يوحنا ١٧: ٣-٥)

مقدمة السلسلة

تهدف هذه السلسلة (حقائق ورقائق) إلى أمرين:

الأول: البحث عن الحقائق التي يهتم لها العقل الإنساني، والتي جاءت الأديان والإسلام خصوصاً للدلالة عليها، ولكنها - للأسف - صادفت الكثير من التشويه من طرف الذين خلطوا بين المقدس والمدنس، وبين الدين والأهواء، وبين الإلهي والبشري.

وهي لذلك تحاول أن تقوم بالاستعانة بالمصدرين المقدسين: العقل والنقل، أن تصل إلى الحقائق السامية التي تجتمع على قبولها الفطر السليمة التي هي الحصن الحصين الذي يلجأ إليه عند الخلاف.

الثاني: هو الصياغة الرقيقة الجميلة المسالمة لتلك الحقائق .. فلا تلقى بعنف ولا بشدة، ولا بألفاظ تجرحها، ولا بجدل يبعدها عن غايتها .. بل تلقى برقة ولطف وعذوبة حتى تستمتع بها النفس .. وحتى تسري إليها من غير أن تخذش مشاعرها أو تفرض أي وصاية عليها.

وانطلاقاً من هذين الهدفين جاءت أكثر أجزاء هذه السلسلة في شكل روايات بسيطة ممتلئة بالحوار الذي يخاطب العقل والعاطفة وكل اللطائف الإنسانية.

ونحب أن ننبه هنا إلى أن بعض ما في هذه السلسلة من روايات - كهذه الرواية التي نفتتح بها السلسلة - أصله من سلسلة (أشعة من شمس محمد ﷺ)، ولكننا فصلناها عنها هنا، وأجرينا عليها الكثير من التعديلات التي تجعلها في متناول القراء بمختلف مستوياتهم، ومن تلك التعديلات:

١ - تحويل الرواية والأحداث المرتبطة بها إلى رواية مستقلة تماما ليتسنى للقارئ قراءة كل كتاب منفصلا عن غيره من الكتب.

٢ - حذف الكثير من التفاصيل التي قد تهتم المختصين، ولا تهتم القارئ العادي، أو قد تصرفه عن الأفكار الأساسية التي تهدف لها الرواية.

٣ - تقليل الاقتباسات، والاكتفاء بالمهم منها فقط، ومن أراد الرجوع إلى تفاصيل أكثر يمكنه الرجوع للرواية في طبعتها الأولى.

ونبه في هذه الطبعة كما نبهنا في الطبعة السابقة إلى أن هدف هذه السلسلة هو أن تكون مدرسة تعلم فنون الحوار الإيماني، والجدال بالتي هي أحسن، ولذلك اهتمنا في أصل كل جزء منها بما يحقق هذا الغرض، ولم نشغل عنه بأي شاغل.. ولكن الكثير من المعلومات التفصيلية أو التوثيقية قد يحتاج إليها لتحقيق هذا الغرض، وهي مما لا يمكن إدراجه في الأصل.. فلذلك اكتفينا بإيرادها في الهوامش..

ونبه كذلك إلى أننا لم نهتم كثيرا بتوثيق كل ما نرجع إليه من مصادر، لأن توثيقها يستهلك صفحات كثيرة، وقد يشغل القارئ عن المهمة التي تهدف إليها الرواية.. بالإضافة إلى أن أكثر ما نورده مما توزع وجوده في الكتب الكثيرة.. ولهذا نكتفي بذكر المراجع العامة التي لجأنا إليها دون التدقيق في التوثيق في كل محل.

ونبه أخيرا إلى أننا من منطلق الحرص على الوحدة الإسلامية، واعتقادنا بحرية الرأي والخلاف بين المسلمين، جعلنا أبطال هذه الروايات من مختلف المدارس الفكرية المنتشرة في العالم الإسلامي، وهذا لا يعني تأييدنا الكلي لكل الشخصيات التي نختارها، بل أردنا فقط تعريف القارئ بها، وخدمة بعض الجوانب الفنية التي يتطلبها أي عمل يحاول الجمع بين العلم والفن.

ونحب أن نشير هنا كما أشرنا في سائر كتبنا إلى أن حقوق الطبع لهذا الكتاب
وغيره متاحة لكل ناشر بشرط أن يحترم محتوى الكتاب ولا يتصرف فيه، ولكن نتمنى
أن يتصل بنا قبل نشره، لعلنا نعدل في بعض محتوياته، وهذا بريدنا الإلكتروني:
bn٧٧.tk@gmail.com

البداية

في تلك اللحظات المؤلمة التي لم يمر عليها مثلها في حياتي، سمعت بعض أهل البيت يردد بصوت مرتفع (الله!!)، يقولها متعجبا أو مستحسنا كما تعودنا أن نقولها، من غير أن نشعر بها أو نلتفت لها.

لكنني في تلك اللحظة شعرت بها شعورا لم أشعر بمثله في حياتي..
لقد رحت أبحث عن تلك الكلمة، وعلى من تطلق.. فكدت أسقط..

إن (الله) هو اسم صاحب الوجود الحقيقي في هذا الكون جميعا.. أما ما عداه فليس إلا ظلال أو آثار أو مظاهر، ليس لها من هدف إلا الدلالة عليه والتعريف به..

و(الله) هو اسم أكبر غني في هذا الوجود.. فهو اسم الملك الذي يملك هذا الكون جميعا بأرضه وشمسه وأقماره ونجومه ومجراته وأفلاكه الواسعة ما نرى منها، وما لا نرى..

و(الله) هو اسم القادر على كل شيء.. والذي يستوي عنده كل شيء.. وليس عنده أي مستحيل.. فيإمكانه أن يحول من الأرض جنة ونعيما مقيما.. وإمكانه أن يحول منها نارا تلظى..

وإمكانه أن يشفي من عجز جميع الأطباء عن شفائه..

وإمكانه أن يعلم من عجز جميع المعلمين عن تعليمه..

وإمكانه أن يحول من الشقي الذي امتلأ كدورة وألما سعيدا يمتلئ فرحا وسرورا..

و(الله) هو اسم العليم بكل شيء.. والذي لا محل عنده للجهل.. فهو يعلم ما كان وما يكون وما لا يكون لو كان كيف يكون.

و(الله) يعلم - لذلك - كل الأسرار التي حار فيها العلماء والمفكرون والفلاسفة
وجميع العقول..

الله يعلم أسرار الحياة والموت.. وأسرار السعادة والشقاء.. وأسرار الصحة
والمرض.. وأسرار الوجود والمصير.. وجميع الأسرار التي نقدم أرواحنا فداء لأجل
كشف بعض حروفها.. ومع ذلك لا ننال منها إلا الهباء..

و(الله) هو اسم الحي السميع البصير المتكلم.. الذي له من القدرات الذاتية ما لا تطيق
العقول والأوهام تخيله.

و(الله) هو اسم القدوس الذي لا يعرف الموت ولا المرض ولا المكان ولا الزمان..
فهو الغني بذاته عن كل شيء.. وكل شيء مفتقر إليه، متواضع بين يديه، لا يملك لنفسه من
الضر والنفع إلا ما أعطاه الله.

و(الله) هو اسم القيوم الذي لا قيام لوجودنا ولا لحياتنا.. ولا لوجود كل شيء وحياته
إلا به.. فكل شيء به يقوم.. وكل شيء إليه يفتقر.

و(الله) هو اسم الرحيم الرحمن الذي ملأ الكون بمظاهر رحمته..

و(الله) هو اسم الودود الذي تودد لكل شيء.. وتودد إليه كل شيء..

وهو اسم الحنان الذي حن على كل شيء..

وهو اسم البديع الجميل الذي ملأ الكون إبداعا وجمالا.

وهو اسم السلام الذي لا يعرف الصراع.. فليس له من يصارعه، وليس ما يصارع من

أجله.. فهو الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد..

بقيت لحظات طويلة وأنا واقف في مكاني أحاول أن أختصر في ذهني المعاني

العظيمة الجليلة الكثيرة التي يحملها اسم (الله).. إلى أن كدت أغيب عن بيتي وعن نفسي وعن الكون جميعا..

في تلك اللحظات المقدسة قلت لنفسي، وأنا ممتلئ همة وعزيمة: أليس من الهممة الدنية يا نفس أن ترغبي عن صحبة هذا الملك الجليل.. لتبحثي في القمامات والمزابل عن الأصنام لتطأطي رأسك لها خاضعة ذليلة.. وتأبى الأصنام إلا أن تذيبك من الهوان ما يذيبه كل مستبد بكل ضعيف؟

أليس من الهوان أن تصحبي العجزة وأنت قادرة على صحبة القادر الذي لا يعجزه شيء؟

أليس من الجهل أن تصحبي الجهلة الممتلئين خرافة وأوهاما وترغبي عن صحبة العليم الذي بيده خزائن علوم كل شيء؟

أليس من الضعة أن تصحبي الفقراء الذين لا يملكون شيئا.. حتى أنفسهم لا يملكونها.. وترغبي عن صحبة الغني المالك لكل شيء.. ابتداء منك وانتهاء بأصغر ذرة في هذا الوجود؟

لكن الكدورة التي تعودت أن تغير بجحافل جيوشها على مشاعر سعادتي، فتحولها إلى ألم وشقاء.. أبت إلا أن تزورني في تلك اللحظات الممتلئة بالسعادة:

لقد قالت لي نفسي، وكأنها تسخر مني: من أنت أيها القزم الحقيق، وصحبة الملك الجليل الذي تنقطع العقول والقلوب دونه؟

من أنت - أيها الممتلئ بالخطوط الدنية - حتى تتخطى رقاب الصديقين الذين سلكوا المفاوز والقفار وباعوا كل الحظوظ، ليشتروا بذلك نعمة المعرفة بالله، ونعمة المصاحبة له؟

من أنت أيها المملطح بالأوزار، الممتملى بالأقذار، الممدنس بأرجاس الليل والنهار..
والتطلع لصحبة الملك الجليل الجبار؟

ألا تستحيي من نفسك؟

أنت لا تليق لصحبة ملك ولا وزير.. بل ولا شرطي ولا خفير.. فكيف تتطلع لصحبة
من الأمر كله بيده، منه يبدأ، وإليه ينتهي..؟
من أنت أيها..

قاطعتها، وأنا ممتلى بالألم، قائلاً: كفي عني أيتها النفس.. فلطالما كدرت سعادتي..
أنا إن لم أصحبه، فمن أصحاب.. وأنا إن لم أبحث عنه فعلى من أبحث.. أليس من الدناءة
أن أتركه لغيره؟.. أليس من الغبن أن أربح كل شيء، ثم أخسره؟.. أليس من العجز أن
أستعمل جميع قدراتي من أجل تحقيق أطفه الأشياء، ثم لا أستعملها من أجله وأجل البحث
عنه؟.. أليس من..؟

قاطعتني نفسي.. نفسي الأمارة بالسوء.. وقالت: وأنا.. لمن تتركني.. إن انشغلت عني
به.. فمن يشتغل بمطالبي.. من يشتغل بمصالحي.. من يشتغل بأهوائي..؟
رفعت يدي، وكأنني أريد أن أبطش بشيء.. لكنني لم أجد سواي.. فارتخت يدي..
وامتلأت بالعجز عند ارتخائها.. وخرجت من كل تلك العوالم الجميلة بعد أن ملأتني
نفسي إحباطاً وكآبة.

لم أجد بعدها إلا أن أسير إلى ذلك الضيف الغريب الممتملى بأنوار القداسة، والذي لم
أعرف إلى ذلك الحين من أين جاء، ولا أين يقصد..

عندما اقتربت من غرفته سمعته يردد بصوت خاشع ما ورد في الآثار القدسية من
حديث الله لعباده.. لقد سمعته يقول:

(عبدى.. متى جئتني قبلتك..

إن أتيتني ليلاً قبلتك.. وإن أتيتني نهاراً قبلتك.

إن تقربت مني شبراً تقربت منك ذراعاً.. وإن تقربت مني ذراعاً تقربت منك باعاً.. وإن

مشيت إلى هرولت إليك.

لا تحجبك الخطايا عني، فلو لقيتني بقراب الأرض خطايا، ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً
أتيتك بقرابها مغفرة..

ولو بلغت ذنوبك عنان السماء، ثم استغفرتني غفرت لك.

هل هناك من هو أعظم مني جوداً وكرماً..

عبادى يبارزوننى بالعظائم، وأنا أكلؤهم على فرشهم.

إني والجن والإنس في نبأ عظيم: أخلق ويعبد غيري، وأرزق ويشكر سواي، خيرى
إلى العباد نازل وشرهم إلى صاعد، أتحب إليهم بنعمي وأنا الغني عنهم ويتبغضون إلي
بالمعاصي وهم أفقر شيء إلي.

من أقبل إلي تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، ومن ترك لأجلي
أعطيته فوق الميزان، ومن أراد رضاي أردت ما يريد، ومن تصرف بحولي وقوتي ألت له
الحديد.

أهل ذكري أهل مجالستي، وأهل شكري أهل زيادتي، وأهل طاعتي أهل كرامتي،
وأهل معصيتي لا أفتنهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم فأني أحب التوابين وأحب
المتطهرين، وإن لم يتوبوا إلي فأنا طيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعاييب.
من آثرني على سواي آثرته على سواه، الحسنة عندي بعشر أمثالها إلى سبعمائة ضعف
إلى أضعاف كثيرة، والسيئة عندي بواحدة، فإن ندم عليها واستغفرتني غفرتها له.

أشكر اليسير من العمل وأغفر الكثير من الزلل.
رحمتي سبقت غضبي وحلمي سبق مؤاخذتي وعفوي سبق عقوبتي، أنا أرحم بعبادي
من الوالدة بولدها..^(١)

لست أدري كيف دخلت عليه، وأنا ممتلئ فرحا وسعادة بعد أن سمعت منه هذا
الحديث الرباني الجميل.
لقد دخلت، وأنا أردد بصوت مرتفع ممتلئ فخرا وزهوا: لكأن الله يخاطبني بهذا.. أنا
العبد الضعيف.. لقد كانت نفسي تثبطني عن السلوك إليه وطلبه.
التفت إلي الشيخ الصالح مبتسما، وقال: النفس هي الحجاب الأكبر الذي يحول بينك
وبين ربك.. فمتى سمعتها لم تسمعه.. ومتى رأيته لم تره.. ومتى صحبتها لم تصحبه..
ومتى عشت من أجلها لم تعش من أجله.
قلت: ولكنني لست سوى نفسي.. فكيف أصفّعها صفعه تعيد إليها وعيها؟.. إنني أراها
كالمخدر الذي يرتمي في المزابل، وهو يحسب نفسه في القصور..
قال: عندما تشغل به عنها ستتشغل عنك بما كلفت به من خدمتك.
قلت: لكنها لا تحول بيني وبينه فقط.. بل إنها تسرب إلي من الأوهام ما تنهد الجبال
دون سماعه.
قال: ذلك سلاح من أسلحتها.. فهي إن لم تطق أن تشغلك عنه.. شغلتك بالأوهام
والشبهات التي تحول بينك وبينه.

^(١) وردت هذه العبارات في أحاديث قدسية متفرقة.

قلت: فأين المصير؟

قال: إليه..

قلت: ولكنني أخاف أن يكون مصيري إلى الآلهة التي تصنعها الأوهام.. ألا ترى أن كل ملة من الملل، وكل نحلة من النحل تحسب أنها على الحق.. وأن الحق لن يتجاوزها إلى غيرها.. فما أدراني لعلي مثلها.. وأني عندما أضحك عليها لا أضحك إلا على نفسي؟
قال: لقد جعل ربك للحقائق علامات وشروطا وقوانين يستحيل أن تتخلف..

قلت: أي قوانين؟

قال: لقد خلق الله لنا العقول.. وبرمجها بالبرامج المهيأة لإدراك الحقائق.. فمن سار على ضوئها يستحيل أن يصل إلا إلى الحقائق.

قلت: أليس للبشر جميعا عقول يفكرون بها؟

قال: بلى..

قلت: فلم يختلفون إذن؟

قال: لأن فيهم من يغلب عقله.. وفيهم من يغلب هواه.. وفيهم من يمزج عقله بهواه..
وفيهم من يسخر عقله لهواه.

قلت: فكيف نميز بين ما يقوله العقل، وما يقوله الهوى؟

قال: لقد جعل الله في قدرة العقول هذا التمييز.

قلت: لا يزال عقلي كليلا دون إدراك صدق ما تقول.

قال: أرايت لو أن رجلا من الناس زعم لك استحالة تحول الماء إلى بخار.. كيف تخلصه من هذا الوهم؟

قلت: ما أسهل ذلك.. سأحضر نارا وماء.. فما تلبث النار حتى تغلب على الماء،

وتحوّله إلى بخار.. وحينها سيتبخّر وهمه.

قال: فهكذا من سرب إليك وهمه.. أحضر له ما يتبخّر به وهمه.

قلت: الأمر مختلف تماما.. ذلك ماء ونار.. وكلاهما تدركه حواسي.. ولكن الحقائق

التي نتحدث عنها تختلف تماما.

قال: هي تختلف من حيث الصورة فقط.. لكنها في الحقيقة لا تختلف.. لقد جعل

الله لكل حقيقة السلم الذي يصعد إليها به.. والباب الذي يدخل إليها منه.

قلت: ما دام الأمر بهذه البساطة.. فلم كانت أعقد قضية في هذا الوجود هي معرفة

الله؟

قال: لقد عرفت أن النفس هي أكبر حجاب بين الإنسان وبين ربه.. ولذلك فإنها إن لم

تطق أن تملأ القلوب والعقول غفلة أسرع فملأتها أوهاما.

قلت: لم تسرع إلى الأوهام؟

قال: لتعبد من خلالها.. فالنفس في طغيانها لا تردد إلا ما رده فرعون عندما قال: ﴿

أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى ﴾ (النازعات: من الآية ٢٤).. بل إنها لا ترضى بالشرك، ولذلك، فهي

تردد مع فرعون قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي ﴾ (القصص: من

الآية ٣٨).. ولذلك فهي تلبس من الألبسة المختلفة ما تعبد به من خلالها.

قلت: أكل أولئك الذين لم يعبدوا الله كانوا يعبدون أنفسهم؟

قال: أجل.. فكل من لم يعبد الله لابد أن يقع في عبادة هواه.. وقد قال ﷺ: (ما تحت

ظل سماء من إله يعبد من دون الله أعظم عند الله من هوى متبع)^(١)

(١) رواه الطبراني وأبو نعيم.

قلت: المسيحيون واليهود والبوذيون.. وكل أولئك الجموع..
قاطعني وقال: كل أولئك الجموع.. حتى الكثير من المسلمين ممن امتلأت عقولهم
بالأهواء.. هم لا يعبدون إلا الأوهام.. ولا يركعون إلا للأوهام.. وإذا سجدوا لا يسجدون
إلا للأوهام.

قلت: أراك تملؤني مخافة.
قال: من لم يخف في هذا الباب لن يصل إلى شيء.. ومن لم يحرص في هذا الباب
فلن يطمع في شيء.
قلت: ما تعني؟

قال: ألا ترى الخلق كيف يحرصون من أجل مصالحهم المحدودة.. فيتحرون
ويدققون في التحري حتى لا يقعوا في أحبولة أي محتال؟
قلت: أجل.. وقد اخترعوا لذلك القوانين الكثيرة التي تحميهم من دجل الدجالين
واحتيال المحتالين وزيف المزيفين.

قال: ولكنهم في هذا الباب تجدهم.. أو تجد أكثرهم يصم أذنيه، ويغلق عينيه.. ولا
يكاد يتساءل عن الحقيقة.

قلت: لم أفهم ما الذي ترمي إليه؟
قال: لو أن البشر.. جميع البشر.. تعاملوا مع الله كما تعاملوا مع الأطباء.. لصاروا
كلهم مسلمين لله خاشعين لله ظافرين بالله.
قلت: كيف ذلك؟

قال: ألا تراهم لا يسلمون أجسادهم إلا لمن يثقون فيهم من الأطباء ممن تبين لهم
أنهم قد حصلوا من العلوم ما يصلح لأن يسلموا أجسادهم لهم؟

قلت: أرى ذلك.. بل إنهم أحياناً يحتاطون لذلك أعظم الاحتياط، فيختارون أكثرهم خبرة وتجربة.

قال: فلو أن هؤلاء تعاملوا مع ربهم على هذا الأساس.. فراحوا يتحرون عن إلههم.. انتفضت غاضباً، وأنا أقول: التحري لا يكون إلا عن المجرمين.
رد علي بهدوء: صدقت.. ولذلك لا بد من التحري.

قلت: كيف يتحرى عن الله.. التحري لا يكون إلا على المجرمين؟
قال: لأن هناك كثير من المجرمين ملأوا هذا الباب خرافات وأباطيل راحت تراحم الله.. فلذلك لن تسلم لأحد معرفته بالله حتى يخلص عقله من الأوهام التي يسربها المجرمون.

قلت: التحري يكون بين جمع من الأطباء.. فكيف يكون التحري في معرفة الله؟
قال: مثل التحري بين الأطباء.. فهناك (الله) الحقيقي.. الذي خلق هذا الكون ودبره.. وهناك آلهة كثيرة مزيفة أنشأتها النفوس المذنسة تريد أن يمنح لها من القداسة ما يمنح لله.. ولا ترضى بدون ذلك.

قلت: وما أدرانا أن يكون (الله) الحقيقي بين هذه الآلهة الكثيرة المزيفة.. ألا يمكن أن لا يكون لأي أحد من الناس الحقيقة المرتبطة بهذا؟

قال: ذلك مستحيل.. فالله الذي خلق هذا الكون ودبره.. بل دبر أبسط ذراته يستحيل أن يترك هذا الكون من غير أن يعرفه بنفسه.

قلت: فكيف نصل إلى تلك المعرفة؟

قال: بالسيرين.. السير العقلي.. والسير الحسي.. بكليهما تستطيع هذه البشرية التأهية أن تصل إلى ربها الحقيقي وتميزه عن الآلهة الكثيرة المزيفة..

قلت: فهل سرت مثل هذا السير؟

قال: لقد رزقني الله في رحلة من رحلاتي من اختصر لي الكثير من الأسفار.. وقد رزقني الله في تلك الرحلة من الأشعة الهادية إلى شمس محمد ﷺ ما لا يمكن للعقل وصفه.

قلت: فهل ستحدثني عنها؟

قال: أجل.. فلا يمكن لمن لم يتنعم بهذا النوع من الأشعة أن يعرف محمدا ﷺ.. فلا يعرف محمدا ﷺ من لا يعرف الله.. فلا يعرف الرسول من لم يعرف مرسله.

اعتدل الشيخ الصالح في جلسته، وحمد الله، وصلى وسلم على نبيه ﷺ مستغرقا في كل ذلك.. ثم قال: في يوم من أيام الله المملوءة بالنفحات والبركات.. شعرت فجأة بمشاعر ملحة تدعوني للبحث عن الله..

وقد بدأني ذلك الشعور، وأنا أنظر إلى المرأة.. وقد أرعبني ما رأيته من شيب يشتعل في رأسي كما يشتعل النار في الهشيم..
لم أحزن في ذلك الحين على دنيا فاتتني.. فقد بدأ الزهد يملأ قلبي أنفة من الدنيا ورغبة عنها.

ولم أحزن على لذات أو شهوات تتحرك لها النفوس.. فقد امتلأت بالعفة التي جعلت بيني وبينها من الحواجز ما نغصها في عيني.

لم أحزن على أي شيء.. فكل شيء لا يستحق أن يحزن عليه.
ولكنني عندما تذكرت (الله) امتلأت هما وغما..

لقد قلت لنفسني: ها هو قطار العمر يمضي إلى محطته النهائية.. وقد ركب الكل في

عربات قطاري.. الكل ما عدا (الله)^(١)

لقد جلست مع الكل، ولكنني لم أجلس مع الله لحظة واحدة.

واتصلت بالكل، ولكنني لم أتصل بالله.

وبحثت عن الكل، ولكنني لم أبحث عن الله.

أصابني ألم عظيم، وأنا أردد في ذهني المقولة التي سمعتها كثيرا في جميع ديار

الإسلام (إلهي ماذا وجد من فقدك.. وماذا فقد من وجدك)

في تلك الأيام كنت أردد هذه العبارة كثيرا.. إلى أن سمعني مرة أخي، وكان رجلا من

كبار رجال الكنيسة.. فاستدعاني إلى مكتبه، وقال: أعرف المشاعر التي تشعر بها.. لقد

مررت مثلك بهذه المرحلة.. ولم يعالجني منها إلا مؤتمر كبير لعلماء اللاهوت.. حضرته..

وهناك عرفت الله، واتصلت به، وسمعته..

قلت: أنت؟!.. كيف لم تخبرني؟

قال: أأنت إنسانا؟!.. إن كل إنسان يحن إلى مصدره.. كل إنسان يحن إلى ربه..

لست أدري كيف قلت من حيث لا أشعر: أنت مسلم إذن؟

غضب أخي غضبا شديدا، وقال: مسلم؟!.. وما علاقة الإسلام بهذا؟

تداركت الموقف، وقلت: لا أعني بالإسلام دين الإسلام.. وإنما أعني به الاستسلام

لله والركون إليه والخضوع بين يديه.

قال: صدقت في هذا.. فليس هناك ما يعبر عن تلك الروحانية مثل هذه اللفظة.. لولا

أن شوهاها الإسلام.

(١) لا يخفى ما في هذا التعبير من المعاني.. فالمراد بـ (الله) هنا هو معرفة الله والاتصال به لا ذات الله..

قلت: كيف شوهاها؟

قال: ألا تعلم الصورة المشوهة التي يحملها المسلمون عن ربهم؟

قلت: كنت أتصور أن ربنا وربهم واحد.. وأنا لا نختلف كثيرا في تصورنا لله، وإنما نختلف فيما عدا ذلك..

قال: أنت لا تعرف عقيدة المسلمين في الله إذن.. إن المسلمين يحملون صورة من أخطر صور الانحراف عن الله..

إن ربهم الذي يدينون له بالعبودية ليس إلا إفرازا من إفرازا الحقد التي تمتلئ بها نفوسهم..

إن إلههم مكر ومخادع ومستهزئ.. وهو منتقم جبار.. وهو ينسى ويمل.. وهو..

قاطعته وأنا أقول: أهذه عقيدة المسلمين في الله؟

قال: هذه بعض عقيدة المسلمين في الله.. ليتك كنت قد حضرت معنا ذلك المؤتمر لتسمع بأذنك من التشويهات ما لا يتحملة عقلك وقلبك.

قلت: ألا يمكن أن تكرر مثل هذه المؤتمرات؟

قال: من حسن حظك أن هناك مؤتمرا سينعقد في هذه الأيام في البلاد التي كانت مقرا للشيوعية في يوم من الأيام.. نحن نريد أن نعيد إحياء الإله الذي قام الشيوعيون بقتله هناك.. وقد أرسلت إليك لأجل ذلك.

قلت: وما دوري في هذا المؤتمر؟

ضحك، ثم قال: أريد أن أرسلك لتقوم بعملية غسيل لدماغك الذي ملأه المسلمون بالشبهات.

قلت: إن كان الأمر كذلك.. فسأكتفي بغسل دماغي هنا ولا حاجة بي للسفر الطويل

من أجل هذه المهمة؟

ابتسم، وقال: كنت أمزح فقط.. أنا أعلم صعوبة إقناع أي شخص لك.. عداي..

قلت: ما دام الأمر كذلك.. فما الوظيفة التي تريد إسنادها لي في هذه الرحلة؟

قال: سأرسلك مرافقا للهيئة العلمية التي يرسلها الفاتيكان لحضور هذا المؤتمر..

وكل هذه الهيئة من العلماء الراسخين في العلم ممن تثق الكنيسة في قدراتهم.

قلت: ما أعظم سروري بهذه الوظيفة..

قال: فحضر نفسك لحضور هذا المؤتمر، فليس بيننا وبينه إلا أيام معدودات.

كانت تلك الأيام التي انتظرت فيها تلك الرحلة الموعودة طويلة ثقيلة مملة.. لقد كنت

أعد ساعاتها ساعة ساعة، ودقيقة دقيقة، وثانية ثانية..

كنت أرقب قرص الشمس كل يوم في انتظار تلك اللحظات التي أسمع فيها الحديث

عن الله.. لأزيد من خلالها معرفتي بالله.. لأنني علمت علمت علم اليقين أنه لا يمكن أن

أتصل بالله إلا من خلال معرفتي به.

في عشية تلك الرحلة قدر الله لي أن ألتقي بمعلمك معلم السلام.

قبل غروب الشمس بلحظات كنت بجانب بيتي أسير.. فإذا بي ألمحه من بعيد..

فأسرعت إليه.. وأمسكت بيده، وقلت: ها أنت أخيرا بجانب بيتي.. لا بد أن تدخله.. لا بد

أن أتشرف باستضافتك اليوم.. لطالما حلمت بهذا.

نظر إلي مبتسما، ثم قال: أترى أن دخولي بيتك سيسرك؟

قلت: لا يسرنني شيء مثل دخولك بيتي.

قال: لم؟

قلت: أراك رجلا ممتلئاً حكمة.. وليس هناك أشرف من أن تدخل الحكمة بيتك.

ابتسم، وقال: وكيف تدخل الحكمة إلى البيوت؟

قلت: بدخول أهلها.. إذا دخل الحكماء دخلت الحكمة معهم.

قال: ألا أدلك على من هو أشرف مني وأكرم.. وهو أولى مني بالدخول إلى بيتك؟

قلت: من هو؟

قال: لقد ذكرت لك أن مهمتي هي الدلالة لا التعريف.. فلذلك سأصفه لك.. لتبحث عنه.. ثم لتدخله بيتك.. بيتك الذي لا تنهد جدراناه.

قلت: أهنالك بيت لا تنهد جدراناه؟

قال: أجل.. هو بيتك الحقيقي الذي يسير معك حيث رحلت، ويأوي معك حيث أويت.

قلت: أراك تقصد قلبي؟

قال: أقصد قلبك وعقلك وروحك وحقيقتك.. فهذه المحال هي بيتك الحقيقي الذي لا تفارقه ولا يفارقك.

قلت: فصف لي من تراه أهلاً ليسكن فيه.

قال: لا تدخل بيتك معدوما.. فالعدم هباء.. ولن تنال من الهباء إلا ما يناله الظمآن من السراب.

قلت: وهل يمكن لأحد عاقلاً كان أو مغفلاً أن يدخل بيته معدوما؟

قال: ما أكثرهم.. إنهم يتشرون في الأرض.. ويملاؤن قاراتها.. وليس في بيوت قلوبهم وعقولهم إلا الهباء.

قلت: هذه الأولى.. فما الثانية؟

قال: إن اجتمعت الحكمة في واحد.. فاكثف به.. فلن يفيدك التعدد إلا التشتت.. ولن يفيدك التشتت إلا التمزق والضياع.

قلت: فما الثالثة؟

قال: لا تدخل بيتك مدنسا.. فالمدنس يوشك أن يدنسك، ويدنس حقيقتك..

قلت: فما الرابعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا كاملا اجتمع له الكمال بجميع معانيه.

قلت: فما الخامسة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا بديعا اجتمع له الجمال بجميع معانيه.

قلت: فما السادسة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا من لا ملك لأحد عليه.. وهو فوق ذلك ملك الملوك.

قلت: فما السابعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا عدلا اجتمع له العدل بجميع معانيه.

قلت: فما الثامنة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا رحيما اجتمعت له الرحمة بجميع معانيها.

قلت: فما التاسعة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا الودود المحب الذي لا يريد لك ولا يريد منك إلا الخير.

قلت: فما العاشرة؟

قال: لا تدخل بيتك إلا المقصود في كل الحوائج.. فمن الغبن أن تدخل من يردك

أحوج ما تكون إليه.

قلت: أراك تشير إلى الله.

قال: إن كان (الله) هو اسم الذي ذكرت أوصافه.. فلا يصح للعاقل أن يغفل عن البحث عنه، أو يغفل عن الاتصال به.

قال ذلك، ثم سار، وتركني كعهدي به.

في صباح اليوم التالي قصدت المطار.. وهناك رأيت عشرة من الرجال.. كلهم قد امتلأ شعره بالشيب الذي ملأ شعري.. بل إن بعضهم أحنت ظهره الأيام، فطأ رأسه لها. ذهبت إليهم وسلمت عليهم واحدا واحدا.. ثم ركبنا الطائرة.. وقد قدر الله أن لا نصل إلى مبتغانا..

لقد حصل للطائرة - ونحن في وسط الطريق - من العطب ما كاد يقضي على حياتنا.. ولولا مهارة السائق لكنا جميعا في عداد الموتى.

لكن السائق بعد جهد جهيد استطاع أن يحط بها في غابة موحشة ممتلئة بالظلمات والبرد الشديد..

وقد ملأنا السائق والطاقم الذي معه حزنا حين أخبرنا أن كل أجهزة الطائرة قد حصل لها من العطب ما يحول بينها وبين أي تحرك.. بل حصل لكل أجهزة الطائرة من العطب ما يحول بينها وبين الاتصال بأي جهة من الجهات.

ثم عاد وأخبرنا بأننا في مكان يستحيل على أي جهاز في الدنيا أن يرقبه.. فالباحث في تلك الغابة كالباحث عن إبرة في كومة عظيمة من القش.

قالوا لنا ذلك.. ثم راحوا يوزعون علينا ما بقي من الزاد القليل..

بقينا في تلك الغابة شهرا كاملا إلى أن أدركنا الله بفرجه..

قلت: كيف حصل ذلك، وقد أخبركم السائق أنكم في مكان لا يمكن أن يتعرف عليه

أحد من الناس؟

قال: لا تعجل.. فإن لذلك قصة كانت هي المفتاح الأكبر الذي اهدت به إلى الإسلام.. بل إني في نهاية رحلتي هذه أعلنت لربي استسلامي له، وإسلامي بين يديه..
امتألت سرورا، وقلت: كيف كان ذلك؟

قال: سأحكى لك الحكاية من البداية.. فلا يمكن أن تفهم النهاية من دون العروج على البداية.

قلت: لقد ذكرت لي أن الطائرة نزلت بكم في ذلك المحل الموحش الذي لا يمكن أن يعرفه أحد من الناس.

قال: أجل.. وقد تقلبت بنا الأحوال في تلك الأيام تقلبات عجيبة.
أما في الأيام الأولى.. حيث كان الزاد موفرا، فقد انشغلنا، وانشغل الكثير منا باللهو واللعب.. وكأن الموت لا ينتظرنا، بل إن بعضنا عندما عوتب في لهوه ولعبه، قال ما قال قبله امرؤ القيس: اليوم خمر، وغد أمر.. وقال آخر: دعني.. لأن أموت وأنا أضحك خير من أن أموت وأنا أبكي.
هذا في الأيام الأولى..

أما عندما بدأ الزاد ينفذ، وبدأت الحقيقة تنجلي.. فقد بدأ الإحباط ينشر أشعته على أكثر من امتطوا معنا الطائرة مع كون الكثير منهم من المثقفين.. بل إن الأمر وصل ببعضهم إلى حد الانتحار، ووصل بآخرين إلى حد الجنون..

ففي يوم من تلك الأيام الممتلئة بالغفلة سمعنا صوتا مزعجا، فأسرعنا إلى مصدره، فوجدنا أحد رفاقنا قد طعن نفسه بخنجر قاتل.. بحثنا في ثيابه عن هويته، فتعجبت إذ رأيت

أن اسمه عربي.. كان اسمه (إسماعيل أدهم)^(١).. ولكن عجبني زال عندما رأيته في جواز سفرته رحلاته الكثيرة إلى روسيا في الوقت الذي تزعمت فيه الإلحاد في العالم.. وزال عجبني أكثر عندما رأيت عضويته في جمعية اسمها (المجمع الشرقي لنشر الإلحاد).. وزال عجبني أكثر من ذلك كله عندما رأيت في حقيقته كتاباً من تأليفه سماه (لماذا أنا ملحد؟) وفي يوم آخر.. بل في اليوم التالي لذلك اليوم، أصيب آخر بالجنون، وكان في جنونه كثيراً ما يردد، وكأنه يخطب في المجمع قوله: (الجدول الرياضية) و(الطاقة الذرية)

(١) أشير به إلى إسماعيل بن أحمد بن إسماعيل بن إبراهيم باشا أدهم: عرفه صاحب الأعلام بأنه عارف بالرياضيات، وله اشتغال بالتاريخ، ولد بالإسكندرية وتعلم بها، ثم أحرز الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو عام ١٩٣١، وعين مدرساً للرياضيات في جامعة سان بطرسبرج، ثم انتقل إلى تركيا فكان مدرساً للرياضيات في معهد أتاتورك بأنقرة، وعاد إلى مصر سنة ١٩٣٦ فنشر كتاباً وضعه في (الإلحاد) وكتب في مجلاتها، أغرق نفسه بالإسكندرية منتحراً.

وقد وجدت الشرطة في مساء الثالث والعشرين من شهر يوليو عام ١٩٤٠م جثته طافية على مياه البحر المتوسط، وقد عثرت في معطفه على كتاب منه إلى رئيس النيابة يخبره بأنه انتحر لزهده في الحياة وكرهيته لها، وأنه يوصي بعدم دفن جثته في مقبرة المسلمين ويطلب إحراقها.

قال في رسالته التي سماها (لماذا أنا ملحد؟) متحدثاً عن نفسه: (أسست جماعة لنشر الإلحاد بتركيا، وكانت لنا مطبوعات صغيرة أذكر منها: ماهية الدين، وقصة تطور الدين ونشأته... وبعد هذا فكرنا في الاتصال بجمعية نشر الإلحاد الأمريكية، وكانت نتيجة ذلك تحويل اسم جماعتنا إلى المجمع الشرقي لنشر الإلحاد)

وقد رد على رسالته هذه: الدكتور أحمد زكي أبو شادي برسالة عنوانها: (لماذا أنا مؤمن؟)، ورد عليها محمد فريد وجدي بمقالة عنوانها (لماذا هو ملحد؟)

وقد كان له من العمر عند انتحاره تسعة وعشرون سنة؛ فكانت نهايته نهاية مأساوية لشاب موهوب، قال عنه الأستاذ أحمد حسن الزيات: (كان شديد الذكاء.. واسع الثقافة)، وقال عنه الأستاذ محمد عبد الغني حسن بأنه صاحب ذهن متوقد لامع)، كان الأول على دفعته في البكالوريا، ثم حاز الدكتوراه وألف مؤلفات كثيرة، ودرس، وكان يحسن التحدث بست لغات، كل هذا وهو في هذا العمر.. (انظر: الأعلام للزركلي ١/ ٣١٠ بتصرف). وله ترجمة في الأعلام الشرقية لزكي مجاهد (ص ٨٥٨-٨٦٠)، وفي تراجم عربية، لمحمد عبد الغني حسن)

و(الطاقة الهيدروجينية) و(طائرات الميغ) و(الأقمار الصناعية) و(حضارة القرن العشرين)
و(موسكو) و(نهر الراين) و(جبال هيمالايا)

ثم يصيح بصوت عال، وبهستيرية: (إن الله قد مات، أو هو في طريقه إلى الموت)..
ثم يسير كما يسير في الجنازات.. وهو ممتلئ حزنا وهما، وهو يقول: (إن كان من شأن
فكرة الله أن تسقط ضلال الخطيئة على براءة الأرض، فإنه لابد للمؤمنين بالحس الأرضي
أن يهواو بمعاولهم على تلك الفكرة)

ويقول: (طوبى لأتقياء القلب، لأنهم لا يعاينون الله.. لقد صرنا بشراً، ولهذا فإننا لا
نريد إلا ملكوت الأرض، إلى أين مضى الله؟ سأقول لكم إلى أين مضى؟ لقد قتلناه، أنتم
وأنا.. أجل، نحن الذين قتلناه، نحن جميعاً قاتلوه، ألا تشمون رائحة العفن الإلهي؟ إن
الآلهة أيضاً تتعفن، لقد مات الله وسيظل ميتاً)

سألت صاحباً له عن سر الرجل، وسر كلماته، فقال: هذا نيتشة.. وهو رجل كان في
أصله مؤمناً.. ولكنه كان ضعيفاً في إيمانه.. وقد بلغ به الانبهار بالحضارة الحديثة إلى أن
أسلم كيانه كله لها.. وقد سقط بين يدي جماعة كانوا كل حين يحشرون له الإلحاد تحت
هذه العبارات.. وها أنت ترى المسكين قد نسي كل علومه، ولم يبق له منها إلا هذه الألفاظ
يرطن بها.

في يوم آخر بعد ذينك اليومين المشؤمين، جن رجل آخر.. كان اسمه (أوجست
كونت)^(١).. كان اسمه يشبه اسم ذلك الفيلسوف الفرنسي المعروف.. وكان في مظهره

(١) أشير به إلى (أوجست كونت) (١٧٩٨-١٨٥٧) عالم اجتماع وفيلسوف اجتماعي فرنسي، أعطى لعلم
الاجتماع الاسم الذي يعرف به الآن، أكد ضرورة بناء النظريات العلمية المبنية على الملاحظة.

ومخبره لا يكاد يختلف عنه.. وقد عجبت له في جنونه إذ كان يقف كهيئة المصلي.. ولكنه لا يردد في صلاته إلا اسم امرأة لست أدري من كانت بالنسبة له.

أهمني أمر هذا الرجل.. فرحت أسأل عنه إلى أن ظفرت برجل من أهل بلده كان صديقا له.. وقد أخبرني أن هذه النوبة من نوبات الجنون كانت تعرض له كل مرة يتعرض فيها لأي أزمة..

وأخبرني أنه في صغره لما بلغ سنّ الرابعة عشرة من عمره نبذ الإيمان بمبادئ الدين.. وأنه حينها عكف على كتب الفلسفة، معتمداً على قراءته الخاصة لا سيما كتب (هيوم) و(دي مستر) و(دي بونالد)

وأخبرني أنه تعرّف بعد ذلك على كاتب من أهل بلده يسمى (سان سيمون)، وأن هذا الكاتب كان من رواد المذهب الاشتراكي في ذلك الحين..

وأخبرني أنهما اتفقا على الاشتغال معاً بالعلم والسياسة، أما (سان سيمون) فقد كان شغوفاً بالسياسة وذا بصر نافذ فيها، وأما (أوجست كونت) فقد كان شغوفاً بالعلم، وغير مهتم بالأمر السياسية.

وأخبرني أنه افترق بعد ذلك عن أستاذه، لأنه كان يختلف معه في الاتجاه.. وانصرف بعدها للمطالعة والبحث طلباً لأن يصير مثل سميهِ الفيلسوف الفرنسي..

لكن المسكين ما إن ألقى ثلاث محاضرات إلحادية حتى انتابته أزمة عقلية، فعُيِّنَ بِهِ

أسس المذهب الوضعي القائل ان لا سبيل إلى المعرفة إلا بالملاحظة والخبرة، وهو يرى أن تاريخ البشرية ينقسم إلى ثلاث مراحل من التقدم الشامل: المرحلة الدينية؛ والمرحلة الميتافيزيقية، ثم المرحلة العلمية.

وقد قدم مقترحات على جانب كبير من التعقيد لإقامة دولة وضعية تقوم على صفوة من علماء الاجتماع لإدارة المجتمع وتوجيهه.. من أهم أعماله كتاب (الفلسفة الوضعية) الذي ظهر لأول مرة في ستة أجزاء (١٨٣٠-١٨٤٢)

ونبه إلى أن كل ما ذكرنا في الرواية عن سميهِ كان قد حصل له مع بعض التصرف الذي اقتضاه المقام.

زَوجته، حتى عاد إليه اتزانة العقلي، فاستأنف محاضراته بعدها.

ولم يطل به الوقت حتى تعرض لأزمة عقلية أخرى، كان من أسبابها هيامه بسيدة تعرّف عليها، ثم توفاهما الأجل بعد سنتين فقط من تعرفه عليها، فأخذ منها دينا سماه (الإنسانية)، وكان يتوجه لها كل حين بالفكر والصلاة كل يوم.

في يوم آخر.. انتحر رجل آخر عرفت بعد انتحاره أن اسمه (فان جوخ)^(١).. وأنه من هولندا.. وكان كسميه الرسام المشهور مستغرقا طول الوقت في لوحاته.. وتنتابه بين الحين والحين نوبات صرع كان يصيح فيها صياحا لا يزيدنا إلا أسى ومرارة..

لم يكن ملحدا.. ولكنه كان يحمل صورة مشوهة عن الإله.. وكان تصوره للحياة لذلك مملوءا بالكدورة.. فقد كان يتصور أن الله يتسلى بتعذيب عباده.. وأنه لم يخلقهم إلا ليعذبهم بأصناف العذاب..

لم يكن راضيا عن هذا التصور الذي كان يصرخ به كل حين.. ولكن المسكين لم يجد من يصحح له هذا التصور..

في ذلك اليوم وجدناه مشنوقا.. وأمامه لوحة من لوحاته كلها سواد.. وقد كتب فيها عبارة فيها من التهجم على الله والاعتراض عليه ما لا يطيق لسانی التعبير عنه.

وبجانها عبارة أخرى لا تقل عنها بذاءة.. ولكنه وجهها لرجال الدين..

قال لي صاحبه: لقد كتب في لوحته هذه ما ظل طول عمره يحلم بأن يقوله لكنه لم يطلق.

قلت له: لم؟

(١) أشير به إلى (فان جوخ، فينسنت) (١٨٥٣ - ١٨٩٠ م).. وهو واحد من أكثر الرسامين شهرة في فن التصوير التشكيلي.. وقد انتحر عام ١٨٩٠ م.

قال: لقد شعر ذات يوم بحاجته إلى الله.. فراح يبحث عنه.. لكنه اصطدم برجال صوروا له صورة مشوهة عن الله.. ولم يكن للمسكين القدرة على أن يعارضهم، فكتّم ذلك في نفسه إلى أن باح به في هذا الموقف.

قلت: فلم لم يبحث عند غيرهم؟

قال: لقد ذكرت لك عجزه.. لقد قعد به العجز عن البحث.. فلذلك استسلم.. وتعذب باستسلامه.. وقد كانت نهايته ما رأيت.

بعد هذه الحوادث وغيرها رأيت خوفا كبيرا بدأ يدب إلى قلوب المسافرين معنا.. وقد استحث ذلك بعض المسافرين معنا، وكان - على ما يبدو رجلا حكيما - لكنني لم أعرف سره إلى الآن.. لقد استحثه ذلك على أن يجمع من بقي من المسافرين عدانا، ثم ينفرد بهم، ويناجيهم ويناجونه بما لم نتمكن من سماعه..

وبعد تلك المناجاة أتوا إلينا، وقالوا: لقد علمنا أنكم رجال عارفون بالله.. وأنكم ما خرجتم من بلادكم إلا لتعرفوا الخلق بالله.. فها عرفونا بربنا لندعوه ليتقّنا مما نحن فيه.. قال رجل منهم: نحن من بلاد مختلفة.. منا من يؤمن بالله.. ومنا من لا يؤمن به.. ونحن نختلف فيما بيننا اختلافا شديدا في معارفنا المرتبطة بالله.. ولا يمكن لدعواتنا أن ترتفع للآلهة المزيفة.. فلذلك لا مناص لنا من البحث عن الإله الحقيقي حتى نرفع أكفنا بالضراعة إليه.

قال آخر: نحن كمرضى نحتاج إلى طبيب.. ولذلك نحتاج إلى التعرف على الطبيب قبل أن نطلب منه أن يعالجنا.. حتى لا نسلم أجسادنا للدجالين.

قال آخر: في موقفنا هذا لا تجدنا إلا الحقائق.. فحدثونا بالحقائق لا بالرسوم.. فقد

فانيت في موقفنا هذا كل الرسوم.

طأطأنا رؤوسنا جميعا.. ثم ركننا إلى صمت طويل.. قطعه أحدنا بقوله: اسمحوا لي أيها الجمع أن أعترف الآن بين أيديكم في هذه اللحظات - التي ربما تكون آخر لحظات حياتي - بأنني لم أكن مسافرا للتعريف بالله.. وإنما كنت مسافرا للتجارة بالله..

سرت ضوضاء في الجمع الملتف بنا، قطعها بقوله: لا تتعجبوا.. هذه هي الحقيقة التي كنت أنفن في سترها بأنواع الطلاء.. نعم أنا مكلف بأن أقدم محاضرة تحاول أن تعرف بالله.. ولكنها في الحقيقة محاضرة لم تؤسس إلا على مطامعي وأهوائي، لا على الحقائق التي تفرضها العقول، ويدعو إليها المنطق.

قال آخر: مثلك أنا في هذا.. فلم أخرج من بلدي إلا لأنصر مذهبي وطائفتي سواء كان الحق معها أو لم يكن.. ولا يمكن لمن هذا حاله أن يمسك إلا بالسراب.

قال آخر: ومثلكما أنا في ذلك.. لقد صنعت صنما لإلهي، وعجته بجميع أهوائي.. وقد حملته معي لأقدم له من الإشهار ما تخدم به مصالحه، وتنتصر به أهوائي.

ردد أصحابي الباقون ما ردد هؤلاء.. فقال رجل من الجمع: فماذا نفعل إذن.. كيف نبحث عن ربنا.. فلا يمكن لدعواتنا أن تصل إلا إلى الله الحقيقي.. هكذا أخبرنا الحكيم؟

أولا - الله

بعد صمت طويل ممتلئ بالألم، قام أحدنا، وكان - على ما يبدو - أكبرنا سنا، وقال: سأحدثكم أنا عن بعض لحظات الصدق التي عشتها عساها تكون مقدمة لبحثنا عن الله.. بل لا يمكن لمعرفتنا بالله إلا أن تؤسس عليها.

في البداية أعرفكم بأن اسمي (آرثر شوبنهاور)^(١).. كنت في يوم من الأيام تلميذا من تلاميذ أكبر الملاحظة الذين عرفهم العالم.. فلذلك لم أكن أعرف الله، ولم أكن أو من بوجوده.

لقد امتدت بي هذه الحال أعواما طوالا.. كنت حينها أصبح بملء في ساخرا من

(١) نشير به إلى (آرثر شوبنهاور) (١٧٨٨-١٨٦٠م)، وهو فيلسوف ألماني، ولد في داننبرج (غدانسك ببولندا).. أهم أعماله: العالم رغبة وعرض (عام ١٨١٩م، الطبعة الثانية عام ١٨٤٤م). إضافة إلى مجموعة مقالات بعنوان باريرجا وباراليومينا عام (١٨٥١م) جلبت له شهرة عالمية حتى نهاية حياته.

وقد اخترناه هنا بسبب كون آرائه من الدعائم التي اعتمد عليها الإلحاد في العصر الحديث، فقد كان فكره يدور حول (أن الدين هو من صنعة البشر ابتكروها لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية، وكان الغرض منه تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسبا وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية وأنه من المستحيل أن تكون كل هذه الديانات من مصدر واحد فالاله الشديد البطش الذي أنزل ١٢ مصيبة على المصريين القدماء وقتل كل مولود أول ليخرج اليهود من أرض مصر هو ليس نفس الإله الذي ينصحك بأن تعطي خدك الآخر ليتعرض للصفع دون أن تعمل شيئا)

وقد تزامنت هذه الأفكار مع أبحاث تشارلز داروين الذي كان مناقضا تماما لنظرية نشوء الكون في الكتاب المقدس وأعلن فريدريك نيتشه من جانبه موت الخالق الأعظم وقال: إن الدين فكرة عبثية وجريمة ضد الحياة إذ أنه من غير المعقول أن يعطيك الخالق مجموعة من الغرائز والتطلعات وفي نفس الوقت يصدر تعاليم بحرمانك منها في الحياة ليعطيك إياها مرة أخرى بعد الموت.

المتدينين، أقول لهم عابثاً أو ماجناً^(١): (أنتم تقولون إن الله خلق الدنيا لأنه لا بد لكل مخلوق من خالق.. ولا بد لكل صنعة من صانع.. ولا بد لكل موجود من موجود.. صدقت وآمنت.. ولكن أخبروني من خلق الله.. أم أنه جاء بذاته.. فإذا كان قد جاء بذاته، وصحّ في تصوركم أن يتم هذا الأمر.. فلماذا لا يصح في تصوركم - أيضاً - أن الدنيا جاءت بذاتها بلا خالق، وينتهي بذلك الإشكال الذي تطرحونه)

كنت أقول هذا وأنا ممتلئ زهواً وفخراً، فتصفر من حولي الوجوه، وتنطلق الألسنة تمطرني باللعنات، وتتسابق إليّ أحياناً اللكمات.. أما أصحاب القلوب الثقية فيكتفون بأن يستغفروا لي ويطلبون لي الهداية.. أما المتمردون، فيجدوني فرصتهم السانحة، فيجتمعون معي ويتزلفون إليّ.

لست أدري هل كان ما أتفوه به هو حقيقة ما كان يملأ وجداني، أم أن زهوي بعقلي الذي بدأ يفتح، وإعجابي بموهبة الكلام ومقارعة الحجج التي انفردت بها كان هو الحافز والمشجع والدافع.. لست أدري.. وإلى الآن لا أزال لا أدري.

لكن الذي أدريه هو أنني رفضت التسليم بوجود الله لسبب واحد هو أنني استغرقت في عبادة نفسي، وأعجبت بومضة النور التي بدأت تومض في فكري مع انفتاح الوعي وبداية الصحوّة من مهد الطفولة.

كانت هذه هي الحالة النفسية وراء المشهد الجدلي الذي كان يتكرر كل يوم.. لقد غاب عني حينها المنطق الذي كنت أدعيه.. فلم أدرك - بسبب عبوديتي لنفسي - أنني أتناقض مع نفسي إذ كيف أعترف بالخالق، ثم أقول: ومن خلق الخالق، فأجعل منه

(١) بعض الحكاية المذكورة هنا منقولة بتصرف من كتاب (رحلتي من الشك إلى الإيمان...) لمصطفى محمود، وهو كتاب يؤرخ فيه المؤلف للطريق الذي سلكه للإيمان.

مخلوقاً في الوقت الذي أسميه خالقاً، وهي السفسطة بعينها..

هذه بدايتي.. وقد احتاج الأمر مني بعدها سنين طويلة من الغرق في الكتب، والغرق في التأمل، والحوار مع النفس، وإعادة النظر وتقليب الفكر على كل وجه لأقطع الطريق الشائكة التي أيقنت من خلالها بوجود الله.

لم يكن الأمر سهلاً.. لأنني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذاً سهلاً.. فلو أنني أصغيت إلى صوت الفطرة، وتركت البدهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل.. ولقادتني الفطرة إلى الله.. ولكنني جئت في زمن تعقد فيه كل شيء، وضعف صوت الفطرة حتى صار همساً، وارتفع صوت العقل حتى صار لجاجة وغروراً واعتداداً..

لقد كنت أردد في تلك الفترة مع سميي (آرثر شوبنهاور) دعواه بأن الدين بما يحمله من العقيدة في الله هو من صنعة البشر ابتكروه لتفسير ما هو مجهول لديهم من ظواهر طبيعية أو نفسية أو اجتماعية.. وأن الغرض منه لا يعدو تنظيم حياة مجموعة من الناس حسب ما يراه مؤسس الدين مناسباً، وليس حسب الحاجات الحقيقية للناس الذين عن جهل قرروا بالالتزام بمجموعة من القيم البالية.

وكنت أردد مع كارل ماركس بأن الدين أفيون الشعوب.. فهو يجعل الشعب كسولا وغير مؤمن بقدراته في تغيير الواقع، وأن الدين تم استغلاله من قبل الطبقة البورجوازية لسحق طبقة البسطاء.

وكنت أردد مع سيغموند فرويد دعواه بأن الإله وهم كانت البشرية بحاجة إليه في بداياتها، وإن فكرة وجود الإله هي محاولة من اللاوعي للوصول إلى الكمال في شخص مثل أعلى بديل لشخصية الأب.

كانت الصيحة التي غمرت العالم حينها هي.. العلم.. وليس إلا العلم.. ولا شيء غير

العلم.

كان أكثر المثقفين يصيح: (لنرفض الغيبيات، ولنكف عن إطلاق البخور، وترديد الخرافات)

وكان كثير من العامة يردد: (من يعطينا الدبابات والطائرات ويأخذ منا الأديان والعبادات)

قام رجل من الجمع، وقال: لكأنك تتحدث عن الكثير منا.. كلنا ذلك الرجل.. كلنا قد بهرنا العلم.. وكلنا قد بهرنا منجزات هذه الحضارة حتى انصرفنا انصرافا كلياً عن الله.. والشأن ليس في أن نتحدثنا عن هذا.. وإنما الشأن أن نتحدثنا في كيفية خروجك منه. قال آرثر: صدقت.. فما يجديكم أن تعرفوا ذلك الماضي المر الذي عشته.. ولذلك سأمر بكم إلى المسلك الذي أخرجني الله به من تلك الدوامة العنيفة التي كنت أقلب فيها. في يوم من الأيام.. ولست أدري السبب.. شعرت بنور يقذف في قلبي يدعوني إلى البحث عن الله^(١)..

(١) نشير بهذا النور إلى ما وضعه الله في فطرة الإنسان من المطالبة كل حين بالبحث عن الله واللجوء إليه، وهو ما يشير إليه قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٧٢)

وقد ورد في الحديث ما يدل على هذا، فقد سئل النبي ﷺ عن قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ﴾ (الأنعام: من الآية ١٢٥) قالوا: كيف يشرح صدره يا رسول الله؟ قال: (نور يُقذف فيه، فينشرح له وينفسح)، قالوا: فهل لذلك من أمانة يُعرف بها؟ قال: (الإجابة إلى دار الخلود، والتَّجَافِي عن دار الغرور، والاستعداد للموت قبل لقاء الموت) (تفسير عبد الرزاق (١/ ٢١٠) ورواه الطبري في تفسيره (١٢/ ٩٩) من طريق عبد الرزاق به) وقد أشار الغزالي إلى تأثير هذا النور في إخراجه من حالة الشك التي عرضت له، فقال في (المنقذ من الضلال): (لما خطر لي هذه الخواطر، وانفذت في النفس حاولت لذلك علاجاً فلم يتيسر، إذ لم يكن دفعه إلا بالدليل، ولم يمكن نصب دليل إلا من تركيب العلوم الأولية. فإذا لم تكن مسلمة لم يمكن تركيب الدليل. فأعضل الداء، ودام قريباً

وقد ارتبط ذلك بظروف كثيرة جعلتني أراجع نفسي، وأراجع كل الأفكار التي كنت أحملها..

وقد رأيت بعد بحث طويل ومراجعات كثيرة أن وجود الله قضية يقينية لا تختلف في قوتها عن كل القضايا التي نسلم لها.. بل نرمي بالجنون والسفسطة من ينكرها.
لقد رأيت العلم والعقل جميعاً يتظافران على الدلالة على وجود الله.. بل على الدلالة على أن وجود الله هو أعظم حقيقة في هذا الوجود.

من شهرين، أنا فيهما على مذهب السفسطة بحكم الحال، لا بحكم النطق والمقال، حتى شفى الله تعالى من ذلك المرض، وعادت النفس إلى الصحة والاعتدال، ورجعت الضروريات العقلية مقبولة موثقاً بها على أمن ويقين، ولم يكن ذلك بنظم دليل وترتيب كلام، بل بنور قذفه الله تعالى في الصدر، وذلك النور هو مفتاح أكثر المعارف، فمن ظن أن الكشف موقوف على الأدلة المحررة فقد ضيق رحمة الله تعالى الواسعة)

١ - العلم

قال رجل منا: أليس العلم هو الذي صرفك عن الله.. فكيف تزعم أن العلم هو الذي ذلك على الله؟

قال آرثر: لقد ذكرت لكم أنني في الفترة التي تخلت فيها عن زهوي وكبريائي راجعت كل ما كنت أعرفه من معلومات كانت تحجبني عن الله.. فوجدت من يدلني على العلم الصحيح البديل الذي لا يدل إلا على الله^(١).

سأضرب لكم أمثلة على التطورات الكثيرة المتلاحقة التي قضت على كل ذلك الزهو الذي كان يملأ أقطار نفسي بسبب العلم الذي نلته من أساتذتي القدماء:

المادة:

وسأبدأ لكم حديثي بالنظريات المرتبطة بالمادة..

^(١) استفدنا الكثير من المعلومات حول التطور العلمي هنا من كتاب (العلم في منظوره الجديد)، وهو كتاب من سلسلة (عالم المعرفة) التي كان يصدرها المجلس الوطني للثقافة بالكويت، وعنوان الكتاب الأصلي هو (The New Story of Science) من تأليف Robert M. Augros وGeorge N. Stanciu.

وقد قام بترجمة الكتاب الأستاذ (كمال خلايلي) الذي عرف الهدف من الكتاب بقوله في (ص٧): (صنف هذا الكتاب اثنان من الأساتذة المعروفين في أمريكا الشمالية أحدهما متخصص في فلسفة العلوم والآخر في الفيزياء النظرية، والهدف الذي يرمى إليه المؤلفان هو هدم أركان المادية العلمية، تلك النظرية الكونية التي استهلها فرانسيس بيكون وجاليلو في مطلع القرن السابع عشر، واستمرت إلى العقود الأولى من القرن العشرين، ثم إثبات وجود الله تعالى، وبيان الحكمة والغاية من إبداع الكون وخلق الإنسان، وذلك بالاستناد إلى النتائج التي انتهى إليها أقطاب العلماء والباحثين المعاصرين في مجالات الفيزياء والكوزمولوجيا ومبحث الأعصاب وجراحة الدماغ وعلم النفس الإنساني.

لقد كان النظام الذي تعلمته في الفيزياء هو نظام نيوتن^(١).. وقد تعلمت من هذا النظام ثلاث حقائق: المادة، والمكان، والزمان.

أما المادة، فقد رأيتها - حسب نظر نيوتن - مكونة من جسيمات كبيرة وصلبة ومتحركة وغير قابلة للاختراق وذات أحجام وأشكال مختلفة.. أما خواص المادة فقد عدت لي نيوتن منها: التمدد، والصلابة، واللااختراقية، والقصور الذاتي..

وكنت أوقن إلى جانب هذا - على حسب ما تعلمت من نيوتن - أن طبيعة هذه الجسيمات - أي الذرات - وخواصها ثابتة إلى الأبد.. وأن الذرة هي أصغر جسيم يمكن تصوره.

أما الزمان والمكان فكلاهما - على حسب ما تعلمت من نيوتن - حقيقتان مطلقتان، وأنهما سيظلان كوجودين حتى لو فُتيت كل الأشياء المادية في الكون..

أما التغيرات الحاصلة للمادة، فقد قصرها لي نيوتن على مجرد عمليات انفصال هذه الجسيمات الثابتة، وعلى عمليات اتحادها وحركاتها الجديدة.

وفسر لي كيفية طرؤ التغيرات بأن القوانين الطبيعية تنظم حركة المادة في إطار الزمان والمكان المطلقين.

ووصف لي الهدف المثالي لنظامه قائلاً: (إن استخلاص مبدئين عامين أو ثلاثة مبادئ عامة للحركة من الظواهر، ثم إظهار كيفية انبثاق خواص ونشاط جميع الأشياء المادية من هذه المبادئ التي يكون قد تم استجلاؤها، سيمثلان خطوة كبيرة في ميدان الفلسفة)

(١) هو السير إسحق نيوتن، (١٦٤٢-١٧٢٧م). عالم رياضيات وفلكي إنجليزي، اكتشف كيفية تماسك مكونات الكون بعضها ببعض من خلال نظريته عن الجاذبية، كما اكتشف أسرار الضوء والألوان، وابتكر فرعاً من الرياضيات يسمى حساب التفاضل والتكامل.

لقد كنت شديد الإعجاب بكل هذه الحقائق التي تعلمتها من نيوتن.. ولم أكن فريداً في ذلك.. فقد حقق نظام نيوتن نجاحاً في العديد من المجالات، ولاسيما في مجالي الفيزياء والكيمياء، وتمت له الغلبة بشرحه ظواهر الحركة والحرارة والضوء والكهرباء. ولكن هذا الإعجاب لم يتوقف عند المعاني التي طرحها نيوتن^(١).. فقد ولدت في تلك المعارف كما ولدت في كثير من العلماء الذين تتلمذت عليهم رغبة في توسيع نطاق هذا الأسلوب في الشرح بحيث يشمل جميع حقول المعرفة بما فيها علوم الأحياء والنفس والتاريخ والاقتصاد.

وقد أسفرت إمكانية الكشف عن أسرار جزء كبير من العالم الطبيعي، بافتراض وجود المادة وحدها عن دفع بعض العلماء تدريجياً إلى اعتبار المادة جزءاً من الأسلوب العلمي ذاته، على نحو جعل الباحث العلمي، بصرف النظر عن معتقداته الشخصية، يمضي في حججه العلمية على أساس افتراض كون المادة وحدها هي الحقيقة، أو أنها، على الأقل، كل ما يمكن معرفته بطريقة علمية.

وقد كتب لهذا البرنامج البقاء وحقق بالفعل آمالاً كبيرة.. وكان لدى العلماء في القرن التاسع عشر كل ما يدعوهم إلى الاعتقاد بأن القرن العشرين سيكمل بناء هذا النظام، بل كان كثير من علماء الفيزياء يعتقدون أن دورهم في تقديم هذا التفسير قد اكتمل أساساً.

قال رجل منا: فهل خيب القرن العشرون ما كان يأمله علماء القرن التاسع عشر؟

(١) نحب أن ننبه هنا إلى أن نيوتن لم يكن ملحداً، بل حاول أن يحتفظ بمكان للألوهية في نظامه الميكانيكي الخاص بالسموات، ففي رسالة وجهها إلى الدكتور ريتشارد بنتلي في عام ١٦٩٢ أكد له فيها على أن الله ضروري لإحداث حركة الكواكب وإرساء البنية الأصلية للمجموعة الشمسية قائلاً: (إن حركات الكواكب الراهنة لا يمكن أن تكون قد انبثقت من أي علة طبيعية فحسب، بل كانت مفروضة بفعل قوة عاقلة)

قال آرثر: أجل.. فالاكتشافات الجديدة لم تكمل فيزياء نيوتن، بل أطاحت بها: فقد هدم أينشتاين في عام ١٩٠٥ ركنين أساسيين من أركان النظام القديم.. فنظرية النسبية الخاصة قادت علم الفيزياء إلى التخلي إلى الأبد عن فكريتي المكان المطلق والزمان المطلق.. ذلك أن أينشتاين أثبت أن علاقات المكان والزمان وقوانين الحركة لا يمكن تعريفها إلا بوصفها الموقف الشخصي للمراقب ولظروفه المادية..

أما السمات الأخرى لنظرية النسبية الخاصة، كتكافؤ المادة والطاقة، فهي في الواقع نتائج مترتبة على محورية المراقب.. وبفضل النسبية الخاصة أضحى المراقب - فجأة - جزءاً أساسياً من عالم الفيزياء، ولم يعد في مقدور الباحث العلمي أن يعتبر نفسه متفرداً حياًدياً كما في نظام نيوتن.

ثم حدث ثورة متشابهة في فيزياء الجسيمات، فقد أثبت إيرنست رزفورد عام ١٩١١ أن الذرة تتكون من نواة متناهية الصغر يحيط بها حشد من الإلكترونات.

لقد حاول الفيزيائيون - حينها - أن يفسروا تركيب الذرة استناداً إلى فيزياء نيوتن، غير أن كل محاولة من محاولاتهم كانت تسفر عن تناقضات تبعث على الإحباط.. وقد أدى هذا الفشل إلى التخلي كلياً عن نظام نيوتن على المستوى الذري، وإلى التعجيل بتطوير (ميكانيكا الكم)^(١) في العشرينات من هذا القرن على أيدي علماء من أمثال نيلزبور وفيرنر

(١) ميكانيكا الكم: هي ميدانٌ من ميادين علم الفيزياء، يصف تركيب الذرة وحركة الجسيمات الذرية، ويوضح كيف تمتص الذرات الطاقة في شكل ضوء، وكيف تطلقها، ويوضح طبيعة الضوء.. وهي تتجاوز الحدود القصوى للفيزياء التقليدية، التي تقوم على أساس القوانين التي صاغها نيوتن.. وهي تُعد من المُنتجرات العلمية الكبرى التي تحققت في القرن العشرين.. وبالإضافة إلى أهميتها النظرية، فقد ساهمت في تطوير أجهزة عملية مثل أجهزة الليزر والترانزستور، كما مكنت العلماء من تحقيق فهم أفضل للروابط والتفاعلات الكيميائية.

هايزنبرغ، وبمجيء ميكانيكا الكم تضاعفت أهمية دور المراقب في النظرية الفيزيائية..
لقد قال الفيزيائي ماكس بورن^(١) يعبر عن ذلك: (لا يمكن وصف أي ظاهرة طبيعية
في مجال الذرات إلا بالرجوع إلى المراقب رجوعاً لا إلى سرعته فحسب كما في حالة
النسبية، بل إلى جميع أنشطته لدى قيامه بالمراقبة وتركيب الآلات وما إلى ذلك)
وهكذا أصبحت أصغر جسيمات المادة غير قابلة للتعريف بمعزل عن خيارات
وأفعال المراقب الذي هو ضروري لا كشاهد فحسب، بل كمشارك أساسي.
وقد وصف فيغنر وجهة نظر النظام القديم فقال: (كان جل العلماء الطبيعيين إلى عهد غير
بعيد، ينكرون بشدة وجود العقل أو الروح على أن النجاح الباهر الذي حققه علم الفيزياء
الميكانيكية والعيانية بصورة أعم، وكذلك علم الكيمياء، قد حجب الواقع الجلي، ذلك
الذي يقول أن الأفكار والرغبات والعواطف ليست من صنع المادة، وكان مقبولاً عند
العلماء الطبيعيين على نحو يشبه الإجماع إن لشيء هناك سوى المادة)
ونتيجة لهذا، فإن نظرية النسبية وميكانيكا الكم تمثلان خروجاً مشتركاً بينهما على
تفسير نيوتن بإدخالهما العقل في المعادلة.
وهكذا حلت الفيزياء في القرن العشرين تدريجياً محل المذاهب المادية بتأكيد أنها
الفكر يقوم بدور جوهري في الكون، وأنه لأمر مثير حقاً أن يصدر هذا التأكيد عن علم
الفيزياء.. فلو قدر للمادة أن تصادف نجاحاً في أي مكان لتوقع لها المرء أن تنجح في مجال
دراسة المادة ذاتها.

(١) هو ماكس بورن (١٨٨٢ - ١٩٧٠م) فيزيائي ألماني أدى دوراً كبيراً في تطوير ميكانيكا الكم.. في عام ١٩٥٤م
نال جائزة نوبل للفيزياء مناصفة مع فالتر بوته تقديرًا لأعماله.. ساهم بورن أيضاً في مجالات علم البلورات والبصريات.
وحصل على شهادة دكتوراه من جامعة جتجين عام ١٩٠٧م. وُلد في برسلو، بألمانيا (حالياً روكلاو في بولندا)

العقل:

بعد أن انهار كل ذلك البنيان الذي كنت أبنيه على المادة.. وبعد أن عرفت حاجة المادة إلى العقل رحت أبحث عنه ^(١)..

لقد كانت نظرتي البدائية إلى العقل في غاية البساطة والتفاهة.. وكانت مرتكزة على ذلك الأساس المادي الذي كنت أفسر به الكون جميعاً..

لقد كنت أرى بأن جميع الأشياء الطبيعية تنشأ في نهاية المطاف عن تفاعلات بين جسيمات تتكون منها هذه الأشياء.. فالماء سائل لأن جزيئاته تتزلق بجانب بعضها بعضاً بقليل من الاحتكاك.. والمطاط متمغط لأن جزيئاته بحكم مرونتها تغير شكلها بسهولة.. وهكذا قست الأمر على العقل.

وقد أكد لي هذا النظر أساتذتي الكبار الذي تتلمذت على أيديهم.. منهم عالم الأحياء الشهير توماس هـ. هكسلي ^(٢).. لقد علمني هذا الأستاذ أن الأفكار التي أعبر عنها بالنطق، إنما هي عبارة عن تغيرات جزيئية.. فخير طريقة للبحث في العقل هي إظهار كيفية انبثاق العقل من المادة.

لقد كنت أحمل مع هذه التصورات مفاهيم خاطئة عن العقل الإنساني.. فقد كنت أتصور أن العقل البشري لا يستطيع أن يختار بحرية، لأن المادة لا تتصرف إلا بضرورة ميكانيكية.. ولهذا فقد كنت أميل إلى تفسير تصرفات الإنسان بلغة الغريزة، و(علم وظائف الأعضاء)، والكيمياء والفيزياء، لأنه لا مجال لحرية الاختيار.. فالتغيرات المادية هي التي

(١) انظر: (العلم في منظوره الجديد)

(٢) هو توماس هنري هكسلي (١٨٢٥ - ١٨٩٥ م). عالم حيوان ومحاضر ومؤلف.. وكان من الذين مالوا إلى نظرية تشارلز داروين التحليلية الخاصة بالتطور العضوي، كما أنه توسع في هذه النظرية ودافع عنها.

تسبب الأفكار، لا العكس.

ومن المستلزمات التي نتجت عن هذه التصورات.. والتي كنت أوقن بها يقينا لا شك فيه هو أن لا شيء في الإنسان يمكن أن يبقى بعد الموت.. فإذا كان التفكير والإرادة نشاطين من أنشطة الدماغ، فليس هناك سبب يجعلنا نفترض أن هذين النشاطين يمكن أن يستمرا بعد فناء الدماغ.. وإذا كان كل جزء من أجزاء الإنسان مادة فلا بد من أن يكون كل جزء منه عرضه للفناء.. فلا خلود إلا للمادة.

ومع كل هذا اليقين لم يكن لدي ولا لأي أحد من أساتذتي الكبار الذين لقنوني هذه التعاليم أي تفسير لكيفية انبثاق العقل من المادة..

لقد كان أساتذتي الكبار من علماء الفسيولوجيا يتوقعون أن يأتي المستقبل بالجواب.. ولكن الأيام والمراجعات لم تثبت صدق تبؤاتهم..

لقد جاءت البحوث الجديدة الكثيرة بكشوف رائعة عن الفسيولوجيا، ولكنها لم تكن بأي حال من النوع المتوقع.

لقد بدأت المراجعات بالسير تشارلز سرنغتون الذي يعتبر مؤسس فسيولوجيا الأعصاب الحديثة.. ونتيجة بحوثه الرائدة في الجهاز العصبي والدماغ خلص سرنغتون إلى هذه النتيجة التي عبر عنها بقوله: (هكذا ظهر فرق جذري بين الحياة والعقل، فالحياة هي مسألة كيمياء وفيزياء، أما العقل فهو يستعصي على الكيمياء والفيزياء)

لقد قصد سرنغتون بالحياة الإشارة إلى التغذية الذاتية، واستقلاب الخلايا والنمو، فهو يذكر أن هذه الظواهر تتم بواسطة قوانين الفيزياء والكيمياء، ويمكن تفسيرها بلغة هذين العلمين، أما أنشطة العقل فهي تتجاوز آليات الفيزياء والكيمياء.

وعلى هذا المنهج سار السير جون اكلس، المتخصص في مبحث الأعصاب، الذي

عبر عن نتيجة أبحاثه بقوله: (التجارب التي تنم عن الوعي تختلف في نوعها كل الاختلاف عما يحدث في آلية الأعصاب، ومع ذلك فإن ما يحدث في آلية الأعصاب شرط ضروري للتجربة، وإن كان هذا شرطاً غير كاف)

سأورد لكم مثالا يقرب ما يريد أن يقوله اكلس وشرنغتون..

أجيوني.. ماذا يحدث، مثلاً، عندما يرى أحدنا شجرة؟

قال رجل منا: تدخل أشعة الشمس المنعكسة من الشجرة في بؤبؤ العين، وتمر من خلال العدسة التي تركز صورة مقلوبة ومصغرة للشجرة على شبكة العين، فتحدث فيها تغيرات فيزيائية وكيميائية.

قال آرثر: فهل ترون هذا هو الإبصار؟

قال الرجل: هذا ما نعرفه عن الإبصار.

قال آرثر: لا.. ليس هذا هو الإبصار.. فلو سلطنا هذه الصورة على عين فاقد الوعي، فإنها ستحدث نفس التغيرات الفيزيائية والكيميائية، ومع ذلك لا يبصر شيئاً.. وبالمثل، تركز آلة التصوير على صورة ما، فيتعرض الفيلم الموجود في الآلة لتغيرات فيزيائية وكيميائية، ولكن آلة التصوير لا تبصر بالمعنى الحرفي في الألوان والأشكال التي تسجلها.

قال الرجل: فكيف تفسر الإبصار؟

قال آرثر: إذا أردنا أن نفسر الإبصار فنحن بحاجة إلى أكثر من ذلك.. فالشبكية - وهي صفحة من المستقبلات شديدة التراص - تبدأ حين ينشطها الضوء المنبعث من الشجرة بإرسال نبضات إلى العصب البصري الذي ينقلها بدوره إلى قشرة الدماغ البصرية..

قاطعته الرجل، وقال: إن ما تذكره أيضاً يفسر بلغة الفيزياء والكيمياء..

قال آرثر: أجل.. ولكن أين مكان اللون الأخضر من كل هذا؟ فالدماغ نفسه رمادي

اللون أبيضه.. فكيف يستطيع أن يتلقى لونا جديداً دون أن يفقد لونه السابق؟.. وكيف يستطيع الدماغ أن يبصر الضوء إذا كان مغلقاً ومعزولاً تماماً عن أي ضوء؟
إن الأمر يكون معقولاً لو أننا حين نوجه أبصرنا نحو الشجرة، لم نحس إلا بأزيز الكهرباء في أدمغتنا.. ولكن النشاط الكهربائي والكيميائي لأدمغتنا الذي يمكننا من الإبصار بطريقة ما لا نراه، وبدلاً من ذلك نرى الألوان والأشكال والحركات والضوء، وكلها بأبعادها الثلاثة.. بل من العسير أن نتخيل كيف يمكن لأي من هذه الأشياء أن تنشأ عن المواد الكيميائية والكهرباء.

لقد عرفت من خلال هذا وغيره أن عالم الإحساس لا يتوقف على عالم الفيزياء والكيمياء.. بل يتوقف على عوالم أكبر من أن نحيط بها..
سأقربها لكم بمثال.. أنتم تعلمون أن وجود كتاب ما يتوقف على عناصر الورق والصمغ والحبر التي يتكون منها، ومن دونها لا يمكن أن يوجد الكتاب.. ومع ذلك، فالكتاب لا يُفهم فهماً كافياً بمجرد إجراء تحليل كيميائي للحبر ولألياف الورق.. حتى لو عرفنا طبيعة كل جزء من جزئيات الورق والحبر معرفة كاملة، فإن ذلك لا يكشف لنا شيئاً عن محتوى الكتاب.. فمحتوى الكتاب يشكل نظاماً أسمى يتجاوز عالم الفيزياء والكيمياء.

على هذا النهج يؤكد العلم في آخر تطوراتها أن أحاسيسنا لا تتوقف على أعضاء الجسم، فلا يمكن حصر الأحاسيس في الخواص الفيزيائية والكيميائية للمادة.
بعد أن اقتنعت بكل هذا.. وبعد أن علمت أن الإدراك الحسى ليس هو المادة، ولا هو من خواص المادة، وليس فى مقدور المادة أن تفسره، رحت أبحث عن حقيقة العقل..
لقد بدأت ذلك بالبحث عن سائر الطاقات الحسية التي يستخدمها العقل..
أنتم تعلمون أن الإدراك الذي يعني (المعرفة أو الوعي) يبدأ بالإدراك الحسى..

فالحواس الخارجية هي الأساس الأول لكل المعارف الإنسانية ومصدرها.. ومن دون المعلومات الآتية من هذه الحواس لا يكون لدى الذاكرة أى شىء تتذكره، ولا للخيال أى شىء يتصوره، ولا للعقل أى شىء يفهمه.

وإلى جانب الحواس الخارجية نجد تحت تصرفنا مجموعة كبيرة من ملكات الإحساس الداخلى.. يدل على ذلك أننا نملك القدرة على المقارنة بين الإحساس بالبياض وبحلاوة الطعم مع عظم الفارق بينهما.. فالعين تدرك البياض، ولا تدرك الحلاوة، واللسان يدرك الحلاوة، ولا يدرك البياض، فلا اللسان ولا العين يستطيعان التمييز بين البياض والحلاوة، لأن أيا منهما لا يدرك الاثنين معا، وما من حاسة خارجية تستطيع أن تؤدى هذه المهمة.. فلذلك لا بد من أن تكون فينا حاسة داخلية تستطيع أن تدرك جميع الصفات التى تدركها الحواس الخارجية، وأن تميز بينها.

ونحن كذلك نملك القدرة على أن نستدعى أموراً لم تعد حاضرة، فعملية التذكر شىء حاضر بالفعل، ولكن الشىء الذى نتذكره ليس كذلك، إذ أن إدراكنا الحسى الأسمى قد زال على نحو ما، ولكنه مع ذلك تحت تصرفنا، فالذاكرة لا تستحضر التجربة الماضية فحسب، بل تستحضرها بوصفها حدثاً ماضياً، وتستطيع ترتيبها من حيث صلتها بتجارب أخرى ماضية.. بل إن المدهش هو قدرتنا على أن نجعل أنفسنا نتذكر الشىء المنسى.

بالإضافة إلى كل هذا.. فالخيال ملكة حسية داخلية أخرى نستطيع بواسطتها أن نتصور لا الأشياء المدركة بالحواس فحسب، بل الأشياء التى لا تدركها هذه الحواس كجبل من ذهب أو فيل بحجم البرغوث، فالخيال، بخلاف الذاكرة، يستخدم المعلومات الواردة من الحواس الخارجية بحرية وبطريقة إبداعية.

بالإضافة إلى كل هذا، فلدينا على قدرات عجيبة على الإحساس بالعواطف، كالحب

والغضب والفرح والخوف والأمل والرغبة والحزن، تربطنا بالعالم بطريقة أخرى مختلفة كذلك.. فكل عاطفة تنشأ من فعل ملكة حسية، سواء كانت حاسة خارجية كالخيال، أو الذاكرة.

بعد أن وصلت إلى كل هذا عرفت أنني لم أصل بعد إلى عقل الإنسان.. فأكثر الحيوانات تمارس معظم القدرات المذكورة حتى الآن..

لقد قلت لنفسى: (إذا كان الإنسان أكثر من مجرد حيوان، فمن المحتمل أن تكون هناك قدرة خاصة تميزه من سائر الحيوانات الأخرى)
لقد دلني على هذا نظري في مراتب الأحياء:

لقد عرفت أن النباتات تحرك نفسها، ولكنها لا تدرى إلى أين تمضى.. وأن الحيوانات تدرك إلى أين تمضى، ولكنها لا تعرف السبب..
وقد دلني هذا على أنه - لإكمال مراتب الأحياء - لا بد من وجود مخلوقات لا تعرف فقط إلى أين تمضى، ولكن لماذا تمضى أيضا..

وقد عرفت من خلال تأمل بسيط أننا نحن البشر هم الذين نشكل هذه المخلوقات، والملكة التى تمكنا من فهم علل الأشياء تسمى العقل أو الفكر، وهى تسمى كذلك سلطان العقل، لأننا بواسطتها نتعرف على علل الأشياء، وما من قوة حسية تستطيع أن تؤدى هذه الوظيفة.. فاللسان، مثلا، يدلنا على أن البحر مالح، ولكنه لا يفسر لنا علة ملوحته.

والعقل كذلك يمكننا من إدراك ماهية الأشياء.. وهو أمر لا تستطيع الحواس القيام به، ولا ملكة الخيال ذاتها، فإذا حاولنا مثلا أن نتخيل ما هو الحيوان، فالصورة التى ترسم فى أخیلتنا الحسية تختص بحيوان بعينه له صفات محددة من حيث الحجم والشكل واللون، ومن المستحيل تكوين صورة حسية لما يشترك فيه جميع الحيوانات، ومع ذلك فليس من

المستحيل على العقل أن يفهم ما هو الحيوان.

بالإضافة إلى هذا الرقي الذي يتميز به الإنسان عن الحيوان.. فإن هناك شيئاً آخر لا يقل عن هذا أهمية.. إنه الإرادة.. فالحيوان يتبع حكم الإحساس والعاطفة، ولكن الإنسان يتمتع بقدرة على الاختيار وفقاً لما يفهمه عقله.. فالأعمال الجريئة التي يقوم بها الإنسان تبرهن على أن الإرادة تفرض نفسها حتى على الخوف من الموت، فالعواطف تثيرها الحواس، ولكن الإرادة تختار وفقاً لما يراه العقل.. بل إننا كثيراً ما نقول إن فلاناً من الناس قد تغلب على عاطفته، لأنه كان عنده سبب وجيه للقيام بذلك.

بعد كل هذا.. وبعد أن أُنغيت من عقلي كل تلك المفاهيم التي كانت تقيده، وتحمل صورة مشوهة عنه.. يسر الله لي أن أؤكد كل هذا بدليل حسي من خلال عمليات جراحية أجراها صديقي ويلدر بنفيلد^(١) على أدمغة ما يربو على ألف مريض في حالة الوعي. لقد كانت ملاحظات بنفيلد حول وظيفة الدماغ تفوق في حجيتها وكمالها جميع الأدلة السابقة غير المباشرة المستفادة من بحوث أجريت على حيوانات، ومن عمليات جراحية أجريت على أدمغة أشخاص مبنجين.

لقد اكتشف بنفيلد عام ١٩٩٣ بمحض الصدفة أن تنبيه مناطق معينة في الدماغ بالكهرباء تنبئها خفيفاً يحدث استرجاعاً فجائياً للذاكرة عند المريض الواعي.

لقد ساورت بنفيلد الشكوك أول الأمر، ثم أخذته الدهشة، فعندما لامس القطب الكهربائي قشرة مخ شاب تذكر هذا الشاب أنه كان جالساً يشاهد لعبة (بيسبول) في مدينة صغيرة، ويراقب ولداً صغيراً يزحف تحت السياج، ليلحق بجمهور المتفرجين، وهناك

(١) هو بنفيلد، وايلدر جريفز (١٨٩١-١٩٧٦م). اختصاصي أعصاب كندي.

مریضة أخرى سمعت آلات موسیقیة تعزف لحنا من الألحان.. لقد حدثني بنفیلد عن هذا الخبر، فقال: (أعدت تنبيه الموضوع نفسه ثلاثین مرة محاولا تضليلها، وأملت كل استجابة على كاتبه الاختزال، وكلما أعدت تنبيه الموضوع كانت المريضة تسمع اللحن من جدید، وكان اللحن يبدأ فی المكان نفسه، ويستمر من اللازمة إلى مقطع الأغنية، وعندما دندنت، مصاحبة الموسيقى، كان إيقاعها يسیر بالسرعة المتوقعة له)

لقد كان المریضی يحسون دائما بالدهشة لتذكر الماضي بمثل هذه التفاصيل الحية، ويفترضون على الفور أن الجراح هو المسؤول عن تنبيه الذاكرة التي ما كانت تتاح لولاه، وكان كل مریض يدرك أن التفاصيل هي من واقع تجاربه الماضية، وكان من الواضح أن الأشياء التي كان قد أولاها عناية هي وحدها التي أودعها فی محفوظات دماغه.

وكان بنفیلد من وقت لآخر يحذر المریض أنه سينبه دماغه، ولكنه لا يفعل ذلك، وفي مثل هذه الحالات لم يكن المریض يذكر أى ردود فعل إطلاقا.

ونتيجة مراقبة مئات المریضی بهذه الطريقة انتهى بنفیلد إلى أن عقل المریض الذى يراقب الموقف بمثل هذه العزلة والطريقة النقدية لا بد من أن يكون شيئا آخر يختلف كليا عن فعل الأعصاب اللاإرادي، ومع أن مضمون الوعي يتوقف إلى حد كبير على النشاط، فالإدراك نفسه لا يتوقف على ذلك.

وباستخدام هذه الأساليب المراقبة استطاع بنفیلد أن يرسم خريطة كاملة تبين مناطق الدماغ المسؤولة عن النطق والحركة وجميع الحواس الداخلية والخارجية غير أنه لم يكن فى المستطاع تحديد موقع العقل أو الإرادة فى أى جزء من الدماغ، فالدماغ هو مقر الإحساس والذاكرة والعواطف والقدرة على الحركة، ولكنه ليس مقر العقل أو الإرادة.

لقد أعلن بنفیلد عن نتائج أبحاثه قائلا: (ليس فى قشرة الدماغ أى مكان يستطيع التنبيه

الكهربائي فيه أن يجعل المريض يعتقد أو يقرر شيئاً، والقطب الكهربائي يستطيع أن يثير الأحاسيس والذكريات غير أنه لا يقدر أن يجعل المريض يصطنع القياس المنطقي، أو يحل مسائل في الجبر، بل إنه لا يستطيع أن يحدث في الذهن أبسط عناصر الفكر المنطقي، والقطب الكهربائي يستطيع أن يجعل جسم المريض يتحرك، ولكنه لا يستطيع أن يجعله يريد تحريكه، إنه لا يستطيع أن يكره الإرادة، فواضح إذا أن العقل البشري والإرادة البشرية ليس لها أعضاء جسدية)

قال رجل منا: لقد قدم بنفيلد بهذه الكشوف البرهان الحسي على شيء كان من المستحيل أن يبرهن عليه بالحس.

قال آرثر: عندما يتخلى العلم عن كبريائه لا بد أن يصل إلى هذه النتائج.. لقد كان بنفيلد كما ذكرت لكم صديقاً لي.. وكان يؤمن بكل ما كنت أؤمن به من النظرية المادية.. وعندما انطلق في أبحاثه لم يكن له من غرض إلا إثباتها.. لكن الحقيقة التي أراد محوها أبت إلا أن تظهر على يده.. لقد قال معبراً عن ذلك: (طوال حياتي العلمية سعت جاهداً كغيري من العلماء إلى إثبات أن الدماغ يفسر العقل)

الإنسان:

بعد أن عاد إلي عقلي الحقيقي.. عقلي الذي حجبنى عنه العلم المغرور.. رحت أراجع تلك الأفكار الكثيرة التي كنت أحملها عن الإنسان.. والتي كانت تملؤه بالتشويه.. لقد كنت - قبل أن اكتشف عقلي - أعتقد أن المادة أساسية والعقل ثانوي.. ولذلك، فقد كنت أنظر نظرة زراية للعقل البشري في مقابل إعلاء شأن الكون المادي اللامحدود واللاشخصي.. لقد كنت أقول كل حين: (من هو الإنسان.. إنه ليس شيئاً إذا قيس بالأرض أو الشمس أو المجرة.. إنه تافه من حيث الحجم.. وغير ذي شأن من حيث القوة)

وكنْتُ أقول كل حين: إن كوبرنيكوس^(١) قد خلع الإنسان المغرور عن عرشه في مركز الكون، وأن عليه أن يدرك أنه مخلوق بالغ الصغر يسكن كوكباً تافهاً يدور حول نجم لا شأن له.

لكنني بعد أن راجعت ما تعلمته من علم متخلصاً من رداء الكبرياء الذي كنت أتوشح به رأيت الإنسان أعظم بكثير من تلك الصورة المزرية الحقيرة التي كنت أحملها عنه، ويشاركني في حملها أولئك الذين انبهروا بالعلم ولم يتثبتوا فيه.

لقد تحدث ويلر عن جملة الأكوان، ولكنه يشير إلى أن عدداً صغيراً جداً منها كان يمكن أن يصلح للحياة، وبعد أن استعرض دايسن هذا النمط العريض ينتهي إلى أن ذلك يدل على غاية مستهدفة، لا على الصدفة، قائلاً: (كلما ازدادت دراسة للكون وفحصاً لتفاصيل هندسية وجدت مزيداً من الأدلة على أن الكون كان يعرف بطريقة ما أننا قادمون). فبعض الظروف الضرورية للحياة كان قد ركب تركيباً في الانفجار العظيم منذ بداية البداية. ويؤكد ويلر أنه (لم يظهر سبب واحد يفسر لماذا يكون لبعض الثوابت والظروف الأولية ما لها من القيم سوى أنه لولا ذلك لما تسرت المراقبة كلما نعرفها)

وهو تبعاً لذلك، يتساءل قائلاً: (أليس من الأرجح أن نقول إنه ما من كون يمكن أن يبرز إلى حيز الوجود ما لم يكن مضموناً له أن ينتج لحياة والوعي والشهود في مكان ما ولمدة قصيرة من الزمن في تاريخه المقبل؟)

(١) كوبرنيكوس، نيكولاس (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) عالم فلك بولندي، طور نظرية دوران الأرض، ويعتبر مؤسس علم الفلك الحديث.. ونحب أن ننبه هنا إلى أن ديفيد كينج اكتشف عام ١٩٧٠م أن كثيراً من النظريات المنسوبة لنيكولاس كوبرنيكوس هي للفلكي العربي ابن الشاطر (ت ٧٧٧هـ، ١٣٧٥م)، وبعد ذلك بثلاث سنوات (١٩٧٣م) عثر على مخطوطات عربية في بولندا اتضح منها أن كوبرنيكوس قد اطلع عليها. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

ويؤكد ويلر أن (ميكانيكا الكم قادتنا إلى أن نأخذ بجدية ونفحص وجهة النظر المعاكسة تماماً، وهي أن المراقب لازم لخلق الكون لزوم الكون نفسه لخلق المراقب) ومع أن الإنسان ليس مادياً في مركز الكون فهو علي ما يظهر في مركز الغاية من خلقه^(١)، وكما يقول إيرون شروود نفر، فالكون من دون الإنسان يكون أشبه بمسرحية تمثّل في قاعة تخلو مقاعدها من جمهور المشاهدين.

والكون الذي يستهدف ظهور الإنسان يستلزم بداهة وجود عقل يوجهه، لأن المادة لا تستطيع من تلقاء نفسها أن تهدف إلى أي شيء..

ولهذا، فإن النظرة العلمية الدقيقة تقود مرة أخرى إلى الاعتقاد بوجود عقل يوجه الكون بأكمله وجميع نوايس الطبيعة وجميع خواص المادة إلى غاية..

وهذا يناقض تماماً ما كنا ندعيه في ميكانيكا نيوتن وجميع الأجزاء الأخرى من الفيزياء الكلاسيكية التي صيغت على نسقها، والتي انطلقت من الافتراض القائل بأن المرء يستطيع أن يصف العالم من غير التحدث عن الله أو عن أنفسنا، أي عن عالم ليس وراءه عقل يدبره.. ولكن النظرة العلمية الدقيقة بينت أن العكس هو الصحيح في كلتا الحالتين.. فالانفجار العظيم والمبدأ الإنساني كلاهما يشير إلى وجود عقليين في كلا طرفي الكون.

الكون:

(١) مما يشير إلى هذا ما ورد في الأثر الإلهي: (لولاك لما خلقت الأفلاك)، وهو وإن جزم العلماء بوضعه إلا أن الشيخ الفارسي قال فيه: (لكن معناه صحيح فقد روى الديلمي عن ابن عباس مرفوعاً: أتاني جبريل فقال: يا محمد لولاك ما خلقت الدنيا، ولولاك ما خلقت النار)، وفي رواية ابن عساکر: (لولاك ما خلقت الدنيا) ووجه الإشارة في هذا أن رسول الله ﷺ هو المثل الأعلى للإنسان.. وبالتالي تكون غاية الكون هي الإنسان.. وغاية الإنسان هو المثل الأعلى فيه.. والمثل الأعلى فيه هو رسول الله ﷺ كما قال ﷺ: (أنا سيد ولد آدم ولا فخر)

بعد أن عرفت الإنسان وقيّمته.. رحت أبحث عن تصوراتي عن الكون.. فلا شك أن الأخطاء المنهجية التي كنت أحملها أثناء بحثي فيه قد تسربت إلى نظرتي إليه.. لقد وجدت تصوري البدائي للكون هو أنه مجرد كائن مادي عملاق لا غاية له.. وقد دعاني إلى هذه النظرة ما كان يسيطر علي من منطق المادية التي تنكر الغائية.. ولذلك فإن الكون في نظرها ليس سوى مادة، وبالتالي لا يمكن أن يكون في الأشياء الطبيعية أي هدف، لأن المادة لا تستطيع أن تقصد هدفاً أو ترسم خطة، بل هي تتصرف بضرورة ميكانيكية داخلية فحسب.

ولهذا، فإن التفسيرات العلمية تفرض على الباحث أن يقتصر على الأسباب المادية والميكانيكية فحسب.. فبيكون وديكارت كلاهما يستبعد من العلوم الطبيعية أي دعوة إلى الغائية^(١).. يقول بيكون: (إن مطلب الغائية يفسد العلوم بدلا من أن يرقى بها).. ويقول ديكارت: (كل ضروب الغائية لا قيمة لها في الأشياء المادية أو الطبيعية) وانطلاقاً من هذه النظرة.. فإنه لا مكان لله في مثل هذا الكون..

لقد سأل نابليون الرياضي والفلكي الشهير بيير سيمون لابلاس^(٢) عن مكان الله في نظامه الميكانيكي الخاص بالأجرام السماوية، فأجابه بقوله: (يا سيدي لست بحاجة إلى هذا الافتراض)

لقد كان العلماء في ذلك الحين يحتاجون لهذا بأن الكون آلة تدبر نفسها بنفسها، وبالتالي لا تحتاج إلى أي سبب فوق الطبيعة.. وإذا كانت المادة أزلية فلا يبدو أن هناك

(١) هذا الرفض - كما هو معلوم - يستند إلى أسباب منهجية، لأن بيكون وديكارت لم يكونا من المؤمنين بالمذهب المادي أو من الملاحدة.

(٢) بيير سيمون لابلاس (١٧٤٩ - ١٨٢٧ م). فلكي ورياضي فرنسي اشتهر بنظريته حول أصل النظام الشمسي.

حاجة إلى خالق.. وهكذا اعتبر الكثيرون أن الإلحاد أدنى إلى الصدق وأكثر اتساقاً مع العلم.

وفرويد كان أحد ممثلي هذا الموقف من الدين^(١)، فهو يعلن أن (أديان البشر يجب أن تصنف باعتبارها وهماً من أوهام الجماهير، فالإنسان في الأديان إنما يبحث عن مهرب من الواقع)

ويتابع فرويد حديثه قائلاً: (إن الأفكار الدينية نشأت من ضرورة حماية الإنسان لنفسه من قوة الطبيعة المتفوقة والساحقة)

والناس في رأي فرويد يميلون إلى الاعتقاد بوجود أب وراء هذا الكون لأنهم بوصفهم أطفالاً، بحاجة ماسة إلى رعاية أب، وهكذا فإن الإنسان هو الذي يخلق الله، لا العكس.

وانطلاقاً من هذا تنبأ فرويد بأن هذه الطفولية مقدور لها أن تتجاوز بالتأكيد، ويتحتم على الإنسان أن يتحلى بالشجاعة للاعتراف بأنه وحيد في هذا الكون الفسيح واللاشخصي.

لم يدل على هذه النظرة ما ذكرته لكم من تصريحات فقط.. بل كانت نظرة سائدة لها ما ينشرها ويؤكددها في أذهان الجماهير.. ففي سنة ١٨٧٥ كتب جون و. دريبر - وهو أول رئيس للجمعية الأمريكية لعلوم الكيمياء - كتابه الذي يحمل عنوان (تاريخ الصراع بين الدين والعلم) .. وبعد ذلك بعشرين عاماً، أي في ١٨٩٥، ألف أندرو د. وايت - وهو أول رئيس لجامعة كورنيل - كتابه (تاريخ المعركة بين العلم واللاهوت في المسيحية) .. ويكفي

(١) وهذا لا ينفي تشبته بيهوديته كما ذكرنا ذلك في مواضع مختلفة من هذه السلسلة.. فاليهودية تتقبل مثل هذا النوع من الأفكار.

عنوانا الكتابين دليلاً على الاتجاه السائد آنذاك.

في ذلك الحين كان أكثر الناس اعتدالاً من ينتسبون إلى اللاأدرية (أو الغنوصية).. بل إن لفظة (لا أدرية) كانت من ابتكار عالم الأحياء توماس هكسلي في عام ١٨٦٩.

كانت هذه هي نظرتي عندما كنت مزهوا بالعلم فانيا فيه..

لكنني بعد أن ارتد إلي وعيي وصحوت من سكرتي رأيت أن الأمر مختلف تماماً.. وأن الكون لا يحمل تلك الصورة المشوهة التي حملها العلماء الذين سكروا بما اكتشفوه من اكتشافات عن حقيقة العلم.

لقد قال عالم الفيزياء الفلكية دنيس شياماً يعبر عن النظرة الجديدة: (لعل أهم اكتشاف علمي من اكتشافات القرن العشرين هو أن الكون بأكمله، بوصفه كلية واحدة، قابل للبحث العقلاني باستخدام أساليب علمي الفيزياء الفلك)

لقد تسرت هذا بمجيء نظرية النسبية العامة لأينشتاين، فهي - خلافاً لنظرية نيوتن في الفيزياء - قد جمعت بين الجاذبية والمكان والزمان.. يقول ويلر: (لقد علمنا أينشتاين أن المكان عنصر مشارك في الفيزياء، لا ميدان للفيزياء فحسب).. والأمر نفسه ينطبق على الزمان.

وعملية التوحيد هذه زودت الفيزيائيين للمرة الأولى بأدوات البحث المفصل في بنية الكون بأكمله وفي أصله ومآله.. فبعد نشر النسبية العامة رأينا الفلكي ويلم دي سيتر، والرياضي ألكساندر فريدمان يستنتجان كل على حدة، أن الكون أخذ في التمدد.

ثم جاءت إشارة ثانية من مجال الفيزياء النووية.. فقد كان كيميائيو القرن التاسع عشر يعرفون أن الشمس لا يمكن أن تحرق وقوداً تقليدياً.. فالاحتراق الكيميائي العادي لم يكن يصلح تفسيراً لطاقة الشمس، إذ لو كانت كتلة الشمس كلها فحماً لأحرقت نفسها في

غضون ثلاثمائة عام..

وظلت الشمس لغزاً إلى حين اكتشاف الطاقة النووية في السنوات الأولى من القرن العشرين عندما تمكن الفيزيائيان هانز بيته، وكارل فون فايتزساكر في عام ١٩٣٨ من تقديم تفسير كامل لكيفية إنتاج الشمس للطاقة من خلال تحول العناصر النووية.

وأخيراً، تقدم الفيزيائي جورج غاموف في عام ١٩٤٨، بعد أن جمع الأدلة المستمدة من تباعد المجرات ومن دورة حياة النجوم، برأي مفاده أن الكون نفسه نشأ من تمدد بدئي للمادة أطلق عليه اسم (الانفجار العظيم)

لقد زودنا العلم من خلال هذه الكشف الكثيرة أن عالمنا تولد في أعقاب تمدد هائل في المادة، وفي جزء من السكستليون (أي ٦ على مليون) من الثانية.. بعد البداية كانت كل المادة الموجودة في الكون معبأة في مساحة أصغر كثيراً من الحيز الذي يشغله بروتون واحد.. وكانت الكثافة في تلك المرحلة تهول الخيال.. تصوروا أن الكواكب والنجوم والمجرات بكاملها، وكل المادة والطاقة في الكون كانت جميعها محتواة في حيز لا يكاد حجمه يعادل شيئاً.. وفي لحظة الصفر من بداية الزمن كانت الكثافة غير متناهية دون حدوث أي تمدد في المكان على الإطلاق.. وكانت تلك اللحظة لحظة بداية المكان والزمان والمادة..

لا ينبغي أن تصوروا أن الانفجار العظيم أحدث تمدداً في المادة في مكان قائم بالفعل.. فالانفجار العظيم هو نفسه تمدد المكان.. وهذا يمكن أن يفهمه العقل، ولكن لا يمكن أن يتصوره الخيال.

عندما ظهرت هذه النظريات هب الكثير ممن لا زالوا سكارى العلم المتكبر.. ليتداركوا ما لقنه لهم أساتذتهم.. فراحوا يضعون نظريات بديلة في أصل الكون لاستقاذ

أزلية المادة..

لكن كل تلك النظريات باءت بالفشل .. وثبت علمياً أن المادة ليست أزلية بالرغم من كل شيء.. هكذا أعلن عالم الفيزياء الفلكية جوزف سلك حين قال: (إن بداية الزمن أمر لا مناص منه)

وهكذا أعلن الفلكي روبرت جاسترو حين قال: (سلسلة الحوادث التي أدت إلى ظهور الإنسان بدأت فجأةً وبعنف في لحظة محددة من الزمن، وفي ومضة ضوء وطاقة) لقد جعلني هذا أبحث عن إله يحكم هذا الكون.. فقد كانت كل الدلائل تدل عليه.. وصار كل العلماء الذين لقحوا أنفسهم ضد فيروس الكبر يعترفون به..

يقول الفيزيائي ادموند ويتكر: (ليس هناك ما يدعو إلى أن نفترض أن المادة والطاقة كانتا موجودتين قبل الانفجار العظيم، وأنه حدث بينهما تفاعل فجائي، فما الذي يميز تلك اللحظة عن غيرها من اللحظات في الأزلية؟ والأبسط أن نفترض خلقاً من العدم، أي إبداع الإرادة الإلهية للكون من العدم)

ويتهى الفيزيائي إدوارد ميلن بعد تفكره في الكون المتمدّد، إلى هذه النتيجة: (أما العلة الأولى للكون في سباق التمدد فأمر إضافتها متروك للقارئ، ولكن الصورة التي لدينا لا تكتمل من غير الله)

٢ . العقل

بعد أن عجزت معارفي العلمية أن تقاوم الأدلة الكثير التي لا تدل إلا على الله.. وبعد أن شعرت بحلاوة وجود الله.. وشعرت بأن البحث عنه لا يقل عن البحث عن أي حقيقة من حقائق الوجود التي نتفانى في البحث عنها مع أنه قد لا توجد بيننا وبينها أي صلة.. تحركت في عزيمة شديدة إلى خوض غمار البحث عن الله..

لكنني بعد أن علمت هذا.. وشعرت بهذا.. وعزمت على هذا.. جاءت جحافل الشياطين تريد أن تعترضني بالسواوس والشبهات..

في ذلك الحين شعرت بالآلام كثيرة.. ولم تطل تلك الآلام إذ أنني ومن غير أن أقصد سمعت رجلاً يقول، وأنا في السوق: (في بلدة من البلاد.. يقال لها (الله أباد)^(١) يذوب الإلحاد، وتتفني وسواوس العباد)

أسرعت إلى الرجل أسأله عن هذه البلدة العجيبة التي يذوب فيها الإلحاد، فابتسم الرجل، وذكر لي أنه لم يقل شيئاً، وأن ما سمعته منه قد لا يكون سوى بعض تلك الأحاديث التي نسمعها من غير أن نعرف مصدرها.

لكنني صممت أن أبحث عن مدينة تحمل ذلك الاسم.. فسألت عنها.. إلى أن وجدت من يدلني عليها ..

عندما دخلت إليها تعجبت من نظامها البديع وجمالها الباهر، فقلت لنفسى: أيمكن لمن يعيش في مثل هذه البلدة المتطورة أن ينشغل بالله؟

(١) الله أباد، اسم فارسي يعني (مدينة الله)، وأقصد بها مدينة رمزية، وهي في الواقع إحدى مدن ولاية أوتار براديش التي تقع في شمال الهند، وهي المركز الإداري لمقاطعة الله أباد.

فأمسك بيمني رجل منهم، وقال: لاشك أنك تبحث عن الله..
قلت: وما أدراك؟

قال: لا يقصدنا هذه الأيام أحد إلا لأجل هذا.

ضحكت، وقلت: وهل حل (الله) ببلاذكم حتى تأتي الخلائق لتزوره^(١)؟

تغير وجهه تغيرا شديدا، وقال: الله أعظم من أن يحل ببلدة، فالله لا يحيط به المكان ولا الزمان.. وكيف يحيط به، وهو الذي خلق المكان والزمان.

قلت: فما الذي تقصد بزيارة الخلق لبلاذكم بحثا عن الله؟

قال: أنت تعلم أن للإلحاد سوقا في هذا الزمان، وأنه ينتشر في بلاد الله كما ينتشر النار في الهشيم..
قلت: أعلم ذلك.

قال: لقد تعذب الخلق بهذا.. ولهذا تراهم يبحثون عن الله.. ويبحثون عن الأدلة على وجوده وكماله ليقضوا بها على تلك الوسواس التي ملأهم بها الشياطين.

قلت: أعلم كل ذلك.. ولكنني أتساءل عن علاقة ذلك ببلدكم.

قال: عندما رأى رجال من أهل الله من هذه البلاد ما حل بالخلق راحوا يبحثون في موازين العقول عن الأدلة التي تنفي كل شبهة، وتقمع كل وسواس.. ونحن نسميهم هنا (المتكلمون).. وهم حقيقة (متكلمون)، فلديهم من القدرات العقلية.. ولديهم من طرائق الإقناع الحقيقي لا الوهمي ما يملؤك بالعجب.. وهم فوق ذلك نذروا أنفسهم لله، فلا تراهم يحامون إلا عنه، ولا تراهم ينتصرون إلا له.

^(١) لم نذكر مثل هذه التعابير في هذا المحل إلا للضرورة التي استدعتها، وإلا فلا يجوز الحديث عن الله بمثل

قلت: لقد شوقني إليهم.. فدلني عليهم.

قال: سر فقط في هذه البلاد.. سر في شوارعها شارعاً شارعاً.. فلن نعدم في أي شارع من أي متكلم.

قلت: وكيف أعرفهم والخلق كثير؟

قال: يسير ذلك.. حيثما رأيت الخلق مجتمعين، فثمة متكلمون.

قال لي ذلك، ثم انصرف.. وقد رأيت كل ما ذكره لي.. فلم أسر في شارع من الشوارع، إلا ورأيت فيه من ينتصر لوجود الله، وينفي كل الشبه التي تقذفها الشياطين.
لن أحدثكم بكل ما سمعت.. سأكتفي بعشر مناظرات فقط.. لعل فيها ما يقنع أي عاقل..

وقد اخترت لكم ما يتناسب مع العقول المختلفة.. فالتكلمون نهجوا مناهج مختلفة، لأنهم يخاطبون عقولا مختلفة.

المناظرة الأولى:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الأولى.

قال: في شارع من شوارع (الله أباد) رأيت قوما من الناس يلتفون حول رجلين^(١)..
أما أحدهما، فيلبس ما يلبسه علماء الأزهر من ثياب.. وقد كانوا يطلقون عليه لقب

(١) تعمداً في هذا البحث أن نذكر في كل مناظرة حقيقية أو افتراضية رجلين: أما أحدهما فيكون من المتكلمين وقد حاولنا أن نختار متكلمين من مدارس مختلفة لنبين أنهم جميعاً - مهما اختلفت مدارسهم - لا يقصدون إلا خدمة الحقيقة.

وأما الثاني، فهو من الملاحدة، باختلاف مدارسهم كذلك.. وذلك لأن من مقاصد هذه الرسالة التأريخ للإلحاد والتعريف بالملحدين وشبههم.. وننبه هنا كما نبهنا مرات كثيرة إلى أن أكثر ما نذكره من مناظرات هي مناظرات افتراضية، وذلك حتى لا يرمينا أحد من الناس بالكذب والدجل.

(الباقلاني)^(١).. ويظهر من خلال حديثه أن له براعة وخبرة طويلة في المناظرة.
وأما الثاني.. فهو - على ما يبدو - يوناني الأصل، فقد كان الناس يطلقون عليه لقب
(ديموقريطس)^(٢)، ولست أدري هل هو لقبه.. أم أنه تسمى به تأثراً بذلك العالم اليوناني
الكبير الذي ينسب إليه (المذهب الذري)^(٣)

سأنقل لكم بعض ما وصل إلى سمعي من حديثهما:
قال الباقلاني لديموقريطس: أنت الآن تريد أن تحيي بيننا ما ذهب إليه ديموقريطس
من أفكار.. ولا ألومك في ذلك.. ولكنني أريد أن أسألك: هل دعاك لذلك المنهج العلمي
الذي تفرضه العقول السليمة، أم أنه مجرد تعصب لرجل تزعم أنه من أجدادك؟
قال ديموقريطس: بكليهما أنا أحتج.. ولكليهما أنا أجنح.

(١) نشير به إلى القاضي أبي بكر الباقلائي (٣٣٨-٤٠٣ هـ)، وهو محمد بن الطيب بن محمد بن جعفر، قاضي من كبار علماء الكلام، انتهت إليه الرياسة في مذهب الأشاعرة، ولد في البصرة، وسكن بغداد فتوفي فيها. وقد قيل: إنه صنف سبعين ألف ورقة في الدفاع عن الدين.. كل ليلة خمسة وثلاثين ورقة.. بيد أن أشهر كتبه على الإطلاق هو كتابه (إعجاز القرآن) الذي حدّد فيه مفهومه للإعجاز القرآني. (انظر: الأعلام وغيره)

(٢) نشير به إلى ديموقريطس (٤٦٠ ق.م - ٣٧٠ ق.م)، هو فيلسوف ماڠي يوناني، حاول أن يبرهن أن العالم مكوّن من عدد غير محدود من الذّرات، يتحرك في فراغ لا حدود له. وهذه الذّرات جُسيمات من المادّة غير المريّة، وغير القابلة للانقسام، وغير المولّدة أو القابلة للإتلاف. وتختلف عن بعضها في الحجم والشّكل والوضع. وكل شيء في هذا العالم مكوّن من مجموعة مختلفة عن غيرها من هذه الذّرات، وقد جاء عالمان من تركيب عَرَضِي لهذه الذّرات. وبسبب وجود عدد غير محدود من الذّرات، فقد وجدت عوالم أخرى أيضًا.

(٣) المذهب الذريّ هو عبارة عن فكرة فلسفية تطوّرت في اليونان خلال القرن الخامس قبل الميلاد.. وهي ترى أن العناصر الأساسيّة للحقيقة تتشكّل من الذرة غير القابلة للانقسام والإتلاف، وهي مادة سابحة في الفضاء.. ويظنّون أن الذّرة لها حركة، ولكنها تنعدم وترتدّ بعد ارتطامها. وقد تكوّنت الدنيا نتيجة هذه الحركات. ووجدت لفترة من الزمن ثم اختفت. وهذه العوالم والأشياء الظاهرية التي وجدت عليها تختلف فقط في الحجم والشكل وموضع ذراتها.

قال الباقلاني: لا أستطيع أن أناظرك في الثاني.. فقد علمنا قرآناً أن المنهج الذي يعتمد على الآباء والأجداد منهج خاطئ، قال تعالى يعاتب من استعمله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة: ١٧٠)

قال ديموقريطس: وما يمنعك أن تناظرني، وقد ذكرت لك أنني أجمع بين المنهجين.. ناظرني بالمنهج الذي تشاء منهما.

قال الباقلاني: أرى أن هذا لن يصل بنا إلى أي نتيجة.. لأنني إن أقنعتك بالأول عدلت إلى الثاني، ولا طاقة لأحد في الدنيا أن يغلبك في الثاني إلا إذا كانت له طاقة إحياء الموتى.. فيحيي لك هذا الديموقريطس الذي حجب عقلك عن رؤية الحق والإذعان له.

قال ديموقريطس: لا بأس.. سأضحى بآبائي.. وأكتفي في المناظرة معك بما يراه عقلي.. عقلي المحرر من كل سلطة.

قال الباقلاني: الآن يمكن أن نتحاور.. فاعرض علي ما تراه من آراء لأناقلك فيها واحداً واحداً.

قال ديموقريطس: آرائي لا يمكن أن تفهمها إلا وهي في سلة واحدة.. فذلك سأعرضها عليك جميعاً.. ثم ناقشني بعدها كما تشاء.. أم أنك تعترض على هذا أيضاً؟ قال الباقلاني: لا.. لك ذلك.. فلن أقطعك حتى تنتهي من جميع حديثك.

قال ديموقريطس: مذهبي الذي أراه والذي رآه قبلي جدي المبجل ديموقريطس وأستاذه (لوقيوس) وعنهما أخذ أخذ جميع أساتدتنا الماديين بعدهما، حتى فريق الماديين المعاصرين.. في تفسير الوجود هو أن الوجود واحد.. وأنه ينقسم إلى عدد غير متناهٍ من الوحدات غير المتجانسة وغير المدركة بالحس، والواحد منها هو الجوهر الفرد، أو الجزء

الذي لا يتجزأ.

وهذه الوحدات غير المتجانسة قديمة أزلية، نظراً إلى أن الوجود لا يمكن أن يخرج من العدم الكلي المحض، وهي دائمة أبدية، إذ لا ينتهي الوجود إلى العدم الكلي المحض (اللاوجود مطلقاً)

والنفس عند جدي مادية أيضاً، وهي مؤلفة من أدق الجواهر وأسرعها حركة.. وكلّ ظواهر الوجود الكوني تتحكم بوجودها آلية الحركة الذاتية للوحدات غير المتجانسة التي يتألف منها الوجود كله.

لقد مضى جدي ديموقريطس بالمذهب الذري إلى حده الأقصى، ووضعه في صيغته النهائية، فقال: (إن كلّ شيء امتداد وحركة فقط)

ولم يستثن في ذلك أي شيء.. لا النفس الإنسانية.. ولا الآلهة التي كان يعتقد بها أجدادنا اليونانيون.. فالآلهة مركبة من جواهر كالبشر، إلا أن تركيبهم أدق، فهم لذلك أحكم وأقدر، وأطول عمراً بكثير، ولكنهم لا يخلدون.

ابتسم الباقلاني، وقال: أنت عرضت علي ما يراه جدك وأساتذتك من أطروحات تفسر الوجود.. ولم تذكر لي دليلاً واحداً يدل عليها.

قال ديموقريطس: هي بمنطقيتها وبساطتها تفسر الوجود بما لا تحتاج معه إلى أي برهان.. فهي نفسها برهان على نفسها.

قال الباقلاني: فأذن لي أن أناقشك فيما ذكرته.. لأبين لك أنها مجرد هرطقات لا تستند إلى أي منطق، ولا إلى أي عقل.

لقد ذكرت لي أن جدك ذهب إلى أن العدم الكلي المحض لا يمكن أن يتحول إلى الوجود بنفسه، وأن ما هو أزلي لا بد أن يكون أبدياً.. وهذا حق لا يمكنني أن أجادل فيه..

لأنّ العدم الكلي المحض لا يمكن - عقلاً وبداهة - أن يتحوّل بنفسه إلى الوجود، فالعدم لا شيء، ويستحيل عقلاً أن يتحول اللا شيء إلى شيء.
وما هو أزلي - أي: واجب الوجود - لا يمكن أن تأتيه حالة يكون فيها ممكناً حتى يقبل فيها العدم.

انفردت أساريير ديموقريطس عن ابتسامة عريضة، فقال الباقلاني: لقد صدق جدك في هذا.. ولكنه لم يأت فيه بجديد، فكل العقول توقن بهذا..
قال ديموقريطس: ولكن جدي استنتج من هذا أزلية المادة.
ابتسم الباقلاني، وقال: ما ذكرته هو قانون.. وإثبات أزلية المادة يحتاج إلى أدلة خاصة تثبتها.. ولا توجد مثل هذه الأدلة.. فالمادة بطبيعتها المتغيرة والمتحوّلة القابلة للتحليل والتركيب، لا تصلح أن تكون أزلية، وما ليس أزلياً فهو حادث، وما هو حادث لا بدّ له من محدث.

قال ديموقريطس: فما أدلة الحدوث^(١)؟
ابتسم الباقلاني، وقال: كما اعتمدت على جدك في آرائه.. فأنا أيضاً كان لي جد..
وكان له نفس لقبي.. وقد ذكر مع جميع أساتذته أربعة دعاوى، لكل دعوى برهانها، وهي تشكل جميعاً البرهان الدال على حدوث الكون^(٢).

(١) ذكرنا هنا أدلة المتكلمين.. والعلماء المحدثون يستدلون على الحدوث بأن الكون لو كان قديماً لاستهلكته طاقته منذ زمن بعيد وتوقف كل نشاط في الوجود، وهذا ما يؤكده العلم التجريبي في (القانون الثاني للحرارة الديناميكية)، والذي ينص على أن الطاقة في الكون تقل تدريجياً بصورة مطردة.

(٢) هذا الدليل هو متمسك المتكلمين على إثبات حدوث العالم، وهو مذكور في أكثر كتب الكلام كالتمهيد للباقلاني، وأصول الدين لعبد القاهر البغدادي، وشرح المقاصد للفتازاني وشرح العضدية للجرجاني.. وقد عبر الباقلاني عنه باختصار في الإنصاف مستدلاً له بالنقل، فقال: (يجب أن يعلم: أن العالم محدث؛ وهو عبارة عن كل

قال ديموقريطس: فما الدعوى الأولى، وما برهانها؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن العالم مكون من أجسام وأعراض.. فالأجسام هي ما قامت بنفسها.. والأعراض ما قامت بغيرها وهي الأجسام ومثالها الحركة والسكون والافتراق والاجتماع.

ولا أظن أنك تجادلني في هذا.. فالإنسان -مثلا- يبدأ نطفة، ثم يتحول علقة، فمضغة، ثم يكتمل خلقه في رحم أمه، ثم يولد فيصير طفلاً، فشاباً، فكهلاً، فشيخاً، حتى يدركه الموت.. فكلها تغيرات مرتبطة بالزمن.. ويقاس على ذلك كل ما في الكون من جزئيات.. فكل ما في الكون متغير.

قال ديموقريطس: لا أجادلك في هذا.. فما الدعوى الثانية؟

قال الباقلاني: نحن ندعي أن الأعراض محدثة..

قال ديموقريطس: فما دليلك على ذلك؟

قال الباقلاني: الدليل على ذلك أنها تعدم.. والقديم لا يعدم..

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدمها؟

قال الباقلاني: الحس هو دليلي على ذلك.. فنحن نشاهد كل ما هو متحرك يعدم،

موجود سوى الله تعالى، والدليل على حدوثه: تغيره من حال إلى حال، ومن صفة إلى صفة، وما كان هذا سبيله ووصفه كان محدثاً، وقد بين نبينا ﷺ هذا بأحسن بيان يتضمن أن جميع الموجودات سوى الله محدثة مخلوقة، لما قالوا له: يا رسول الله: أخبرنا عن بدء هذا الأمر؟ فقال: نعم. كان الله تعالى ولم يكن شيء، ثم خلق الله الأشياء فأثبت أن كل موجود سواء محدث مخلوق. وكذلك الخليل عليه السلام، إنما استدل على حدوث الموجودات بتغيرها وانتقالها من حالة إلى حالة؛ لأنه لما رأى الكوكب قال: ﴿ هَذَا رَبِّي ﴾ (الأنعام: من الآية ٧٦)، إلى آخر الآيات، فعلم أن هذه لما تغيرت وانتقلت من حال إلى حال دلت على أنها محدثة مفطورة مخلوقة، وأن لها خالقاً، فقال عند ذلك وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض)

فيسكن، وهكذا في الباقي.

قال ديموقريطس: فما الدليل على عدم انعدام القديم؟

قال الباقلاني: الدليل على أن القديم لا ينعدم هو أن القديم إما أن يكون لذاته أو لغيره.. وليس من الجائز أن يكون القديم لغيره.. لأنه لو كان كذلك فمن حق هذا الغير الذي هو علته تقدم هذا القديم فيكون حادثا.

وليس من الجائز أن يكون قدمها لذاتها، فإذا كان كذلك فإن ذاتها باقية، فيستحيل عدمها لكنها عدمت، فيلزم أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما الدعوى الثالثة؟

قال الباقلاني: الدعوى الثالثة، هي أن الأجسام لم تخل من الأعراض المحدثه، ولم تتقدمها في الوجود.

والدليل على ذلك أنها لو خلت من الأعراض المحدثه أو تقدمتها في الوجود لجاز أن يكون الجسم لا متحركا ولا ساكنا.. وهذا لا يمكن فإنه إن كان غير متحرك فمعناه أن يكون ساكنا.. أما أن يكون الجسم ساكنا وغير ساكن في آن واحد فهذا مستحيل.

قال ديموقريطس: فما الدعوى الرابعة؟

قال الباقلاني: الدعوى الرابعة هي أن مالم يخل من الحوادث ولم يتقدمها في الوجود فهو حادث مثله.

والدليل على ذلك هو أن الحادث هو ما له أول، وكان معدوما قبلها، فلو كانت الأجسام قديمة، وهي غير منفكة عن الأعراض لكانت الأجسام موجودة قبل وجود الأعراض، وبالتالي انفكت عن وجود الأعراض، وهذا خلف فتعين أنها حادثة.

قال ديموقريطس: فما ترد على من من يجيز حوادث لا أول لها؟

قال الباقلاني: إن إثبات حوادث لا أول لها يلزم عنه ثلاثة محالات^(١)..

أما الأول، فإنه لو ثبت ذلك لكان قد انقضى ما لا نهاية له، ووقع الفراغ منه وانتهى، ولا فرق بين قولنا انقضى ولا بين قولنا انتهى، ولا بين قولنا تناهى، فيلزم أن يقال قد تناهى ما لا يتناهى، ومن المحال البين أن يتناهى ما لا يتناهى وأن ينتهي وينقضي ما لا يتناهى. وأما الثاني، فهو أن دورات الفلك إن لم تكن متناهية، فهي إما شفع وإما وتر، وإما لا شفع ولا وتر، وإما شفع ووتر معاً.. وهذه الأقسام الأربعة كلها محال؛ والمفضي إليها لا شك أنه محال..

إذ يستحيل عدد لا هو شفع ولا هو وتر، أو لا هو شفع ووتر.. فإن الشفع هو الذي ينقسم إلى متساويين كالعشرة مثلاً، والوتر هو أحد الذي لا ينقسم إلى متساويين كالسبعة، وكل عدد مركب من آحاد إما أن ينقسم بمتساويين، أو لا ينقسم بمتساويين، وأما أن يتصف بالانقسام وعدم الانقسام، أو ينفك عنهما جميعاً فهو محال.. وباطل أن يكون شفعاً لأن الشفع إنما لا يكون وترّاً لأنه يعوزه واحد، فإذا انضاف إليه واحد صار وترّاً فكيف أعوز الذي لا يتناهى واحد؟.. ومحال أن يكون وترّاً، لأن الوتر يصير شفعاً بواحد، فيبقى وترّاً لأنه يعوزه ذلك الواحد، فكيف أعوز الذي لا يتناهى واحد؟

وأما الثالث، فإنه لو ثبت ذلك للزم عليه أن يكون عدنان، كل واحد منهما لا يتناهى، ثم أن أحدهما أقل من الآخر، ومحال أن يكون ما لا يتناهى أقل مما لا يتناهى، لأن الأقل هو الذي يعوزه شيء لو أضيف إليه لصار متساوياً، وما لا يتناهى كيف يعوزه شيء؟ قال ديموقريطس: دعنا من هذا.. وأجبنى على ما ذكره جدي من أن هذا الوجود نشأ

(١) انظر: الاقتصاد في الاعتقاد للغزالي.

صدفة.

قال الباقلاني: سأجيبك بما ذكره أحفاد جدك ممن هم أوفر علما، وأقدر على البحث في هذا باعتبار تخصصهم فيه^(١).

انتفض ديموقريطس غاضبا، وقال: أحفاد جدي؟!.. من تقصد؟!.. لا.. يستحيل أن يقول أحفاد جدي هذا.. لقد قال (هكسلى) ضاربا المثل على إمكانية الصدفة: (لو جلست ستة قردة أمام آلات كاتبة، وظلت تضرب على حروفها لملايين السنين، فلا نستبعد أن نجد في بعض الأوراق الأخيرة التي كتبوها قصيدة من قصائد شكسبير! فكذلك كان الكون الموجود الآن نتيجة لعمليات عمياء، ظلت تدور في (المادة) لبلايين السنين)

قال الباقلاني: وما أدرى (هكسلى) بمثل هذا.. إن كلامه هذا يناقض ما أثبتته كل الرياضيين والعلماء الذين يحترمون أنفسهم وبحوثهم.

قال ديموقريطس: فأخبرني بما قالوا.

قال الباقلاني: لقد قال البروفيسور (ايدوين كونكلين): (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار صدفى يقع في مطبعة)

ويقول أحد العلماء الأمريكيين: (إن نظرية الصدفة ليست افتراضا وإنما هي نظرية رياضية عليا، وهى تطلق على الأمور التي لا تتوفر في بحثها معلومات قطعية، وهى تتضمن قوانين صارمة للتمييز بين الباطل والحق، وللتدقيق في إمكان وقوع حادث من نوع معين وللوصول إلى نتيجة هي معرفة مدى إمكان وقوع ذلك الحادث عن طريق الصدفة)

(١) استفدنا المعلومات الواردة هنا من كتاب (الإسلام يتحدى) لوحيدين الدين خان.

وقال أحد العلماء..

قال ديموقريطس: دعنا من آراء الرجال.. وأقنعني بالحقيقة التي تدل عليها العقول.

قال الباقلاني: صدقت.. فأراء الرجال لن تزيدنا إلى تيهها..

ولهذا سأحاول إقناعك بعدم إمكانية الصدفة علميا بتصوير ما تحتاجه الصدفة لتحقيق أي عمل.. لو تناولت عشرة دراهم، وكتبت عليها الأعداد من ١ إلى ١٠، ثم رميتها في جيبك وخلطتها جيدا، ثم حاولت أن تخرجها من الواحد إلى العاشر بالترتيب العددي، بحيث تلقى كل درهم في جيبك بعد تناوله مرة أخرى.. فإمكان أن نتناول الدرهم المكتوب عليه في المحاولة الأولى واحد على عشرة؛ وإمكان أن نتناول الدرهمين (٢،١) بالترتيب واحد في المائة وإمكان أن تخرج الدراهم (٤،٣،٢،١) بالترتيب هو واحد في العشرة آلاف.. حتى إن الإمكان في أن تنجح في تناول الدراهم ١ إلى ١٠ بالترتيب واحد في عشرة بلايين من المحاولات!!

لقد ضرب هذا المثل العالم الأمريكي الشهير (كريسى موريسن)، ثم استطرد قائلا: (إن الهدف من إثارة مسألة بسيطة كهذه، ليس إلا أن نوضح كيف تتعقد (الوقائع) بنسبة كبيرة جدا في مقابل (الصدفة)

قال ديموقريطس: فكيف تطبق هذا المثل على ما نحن فيه من محاولة تفسير وجود

الكون؟

قال الباقلاني: لو افترضنا أن المادة وجدت بنفسها في الكون.. وافترضنا أن تجمعها وتفاعلها كان من تلقاء نفسها - وليس هناك أي دليل على هذا - ففي هذه الحال أيضا لن نظفر بأي تفسير الكون، فإن (صدفة) أخرى تحول دون طريقنا.. فالرياضيات التي تعطينا نكتة (الصدفة) الثمينة هي نفسها التي تنفى أي إمكان رياضي في وجود الكون الحالي بفعل

قانون الصدفة.

لقد استطاع العلم الكشف عن عمر الكون وضخامة حجمه، والعمر والحجم اللذان كشف عنهما العلم الحديث غير كافيين في أي حال من الأحوال لتسويغ إيجاد هذا الكون عن قانون الصدفة الرياضي.

سأضرب لك مثلاً يقرب لك ذلك..

أنت تعلم أن الأجسام الحية تتركب من (خلايا حية) .. و(الخلية) - كما تعلم - مركب صغير جداً، ومعقد غاية التعقيد، وهي تدرس تحت علم خاص يسمى (علم الخلايا) ومن الأجزاء التي تحتوى عليها هذه الخلايا: البروتين وهو مركب كيميائي من خمسة عناصر هي الكربون والهيدروجين والتروجين والأوكسجين والكبريت.. ويشمل الجزيء البروتيني الواحد أربعين ألفاً من ذرات هذه العناصر.

وفي الكون أكثر من مائة عنصر كيميائي كلها منتشرة في أرجائه، فأية نسبة في تركيب هذه العناصر يمكن أن تكون في صالح قانون (الصدفة)؟

أيمكن أن تتركب خمسة عناصر من هذا العدد الكبير لإيجاد (الجزيء البروتيني) بصدفة واتفاق محض؟

إننا نستطيع أن نستخرج من قانون الصدفة الرياضي ذلك القدر الهائل من (المادة) الذي سنحتاجه لنحدث فيه الحركة اللازمة على الدوام؛ كما نستطيع أن نتصور شيئاً عن المدة السحيقة التي سوف تستغرقها هذه العملية.

لقد حاول رياضي سويسري شهير هو الأستاذ (تشارلز يوجين جواي) أن يستخرج هذه المدة عن طريق الرياضيات، فأنتهى في أبحاثه إلى أن (الإمكان المحض) في وقوع الحادث الاتفاقي الذي من شأنه أن يؤدي إلى خلق كون، إذا ما توفرت المادة هو واحد على

١٠/٦٠ (أي ١٠×١٠ مائة وستين مرة)، وبعبارة أخرى: نضيف مائة وستين صفرا إلى جانب عشرة.. وهو عدد هائل وصفه في اللغة.

إن إمكان حدوث الجزيء البروتيني عن (صدفة) يتطلب مادة يزيد مقدارها بليون مرة عن المادة الموجودة الآن في سائر الكون، حتى يمكن تحريكها وضخها، وأما المدة التي يمكن ظهور نتيجة ناجحة لهذه العملية فهي أكثر من ١٠/٢٤٣ سنة.

إن جزيء البروتين يتكون من (سلاسل) طويلة من الأحماض الأمينية، وأخطر ما في هذه العملية هو الطريقة التي تختلط بها هذه السلاسل بعضها مع بعض فإنها لو اجتمعت في صورة غير صحيحة سما قاتلا، بدل أن تصبح موجدة للحياة.

لقد توصل البروفيسور ج. ب. ليتز إلى أنه لا يمكن تجميع هذه السلاسل فيما يقرب من ١٠/٤٨ صورة وطريقة.. وهو يقول: إنه من المستحيل تماما أن تجتمع هذه السلاسل بمحض الصدفة في صورة مخصوصة من هذه الصور التي لا حصر لها، حتى يوجد الجزيء البروتيني الذي يحتوي أربعين ألفا من أجزاء العناصر الخمسة التي سبق ذكرها. ولا بد أن يكون واضحا أن القول بالإمكان في قانون الصدفة الرياضي لا يعنى أنه لا بد من وقوع الحادث الذي نتظره بعد تمام العمليات السابق ذكرها، في تلك المدة السحيقة؛ وإنما معناه أن حدوثه في تلك المدة محتمل لا بالضرورة، فمن الممكن على الجانب الآخر من المسألة ألا يحدث شيء ما بعد تسلسل العملية إلى الأبد.

وهذا الجزيء البروتيني ذو وجود (كيماوي) لا يتمتع بالحياة إلا عندما يصبح جزءا من الخلية، فهنا تبدأ الحياة، وهذا الواقع يطرح سؤالاً مهما علينا هو: من أين تأتي الحرارة عندما يندمج الجزيء بالخلية؟.. ولا جواب عن هذا السؤال في أي سفر من أسفار العلم. إن من الواضح الجلي أن التفسير الذي يزعمه هؤلاء المعارضون، متسترين وراء

قانون الصدفة الرياضي لا ينطبق على الخلية نفسها وإنما على جزء صغير منها هو الجزيء البروتيني وهو ذرة لا يمكن مشاهدتها بأقوى منظار بينما نعيش، وفي جسد كل فرد منا ما يربو على أكثر من مئات البلايين من هذه الخلايا.

لقد أعد العالم الفرنسي (الكونت دي نواي) بحثاً وافياً حول هذا الموضوع وخلاصة البحث: أن مقادير (الوقت، وكمية المادة، والفضاء اللانهائي) التي يتطلبها حدوث مثل هذا الإمكان هي أكثر بكثير من المادة والفضاء الموجودين الآن، وأكثر من الوقت الذي استغرقه نمو الحياة على ظهر الأرض، وهو يرى: أن حجم هذه المقادير الذي سنحتاج إليه في عمليتنا لا يمكن تخيله أو تخطيطه في حدود العقل الذي يتمتع به الإنسان المعاصر، فلاجل وقوع حادث - علي وجه الصدفة - من النوع الذي ندعيه، سوف نحتاج كوناً يسير الضوء في دائرته ٨٢ / ١٠ سنة ضوئية (أي: ٨٢ صفراً إلى جانب عشرة سنين ضوئية) وهذا الحجم أكبر بكثير جداً من حجم الضوء الموجود فعلاً في كوننا الحالي؛ فإن ضوء أبعد مجموعة للنجوم في الكون يصل إلينا في بضعة (ملايين) من السنين الضوئية فقط... وبناءاً على هذا، فإن فكرة أينشتاين عن اتساع هذا الكون لا تكفي أبداً لهذه العملية المفترضة. أما فيما يتعلق بهذه العملية المفترضة نفسها، فإننا سوف نحرك المادة المفترضة في الكون المفترض بسرعة خمسمائة (تريليون) حركة في الثانية الواحدة، لمدة ١٠ / ٢٤٣ بليون سنة (٢٤٣ صفراً أمام عشرة بلايين)، حتى يتسنى لنا حدوث إمكان في إيجاد جزيء بروتيني يمنح الحياة.

ويقول (دي نواي) في هذا الصدد: (لابد ألا ننسى أن الأرض لم توجد إلا منذ بليونين من السنين وأن الحياة - في أي صورة من الصور - لم توجد إلا قبل بليون سنة عندما بردت الأرض)

هذا وقد حاول العلماء معرفة عمر الكون نفسه، وما ذكروه لا يكفي على أي حال من الأحوال خلق إمكان، يوجد فيه الجزيء البروتيني، بناء على قانون الصدفة الرياضي.

وأما ما يتعلق بأرضنا التي ظهرت عليها الحياة، فقد عرفنا عمرها بصورة قاطعة، فهذه الأرض كما يعتقد العلماء جزء من الشمس انفصل عنها نتيجة لصدام عنيف وقع بين الشمس وسيار عملاق آخر، ومنذ ذلك الزمان أخذ هذا الجزء يدور في الفضاء، شعلة من نار رهيبة، ولم يكن من الممكن ظهور الحياة على ظهره حيثئذ لشدة الحرارة، وبعد مرور زمن طويل أخذت الأرض تبرد ثم تجمدت وتماسكت، حتى ظهر إمكان بدء الحياة على سطحها.

ونستطيع معرفة عمر الكون بشتى الطرق.. ومنها الطريقة التي توصلنا إليها بعد كشف (العناصر المشعة)، فإن الذرات الكهربائية تخرج من هذه العناصر بنسبة معلومة بصفة دائمة ؛ وهذا (التحلل) يقل الذرات الكهربائية في هذه العناصر، لتصبح تلقائيا عناصر غير مشعة عبر الزمان، واليورانيوم أحد هذه العناصر المشعة، وهو يتحول إلى معدن (الرصاص) بنسبة معينة نتيجة لتحلل الذرات الكهربائية، وهذه النسبة في الانتشار لا تتغير تحت أي ظروف من أدنى أو أقصى درجات الحرارة أو الضغط، ولهذا سنكون على صواب لو اعتبرنا أن سرعة تحول اليورانيوم إلى (الرصاص) محددة وثابتة لا تتغير.

إن قطع اليورانيوم توجد في كثير من الهضبات والجبال منذ أن تجمد في شكله الأخير، عند تجميد الأرض.. وإلى جانب هذا اليورانيوم نجد قطعاً من الرصاص، ولا نستطيع أن ندعى أن كل هذا الرصاص نتج عن تحلل اليورانيوم، والسبب في هذا أن الرصاص الذي يتكون من تحلل اليورانيوم يكون أقل وزناً من الرصاص العادي، وبناء على هذه القاعدة الثابتة يمكننا أن نجزم بما إذا كانت أية قطعة من الرصاص من اليورانيوم، أو

أنها قطعة رصاص عادى ونحن هنا نستطيع أن نحسب المدة التي استغرقتها عملية تحليل اليورانيوم بدقة، فهو يوجد في الجبل من أول يوم تجمد فيه ونستطيع بذلك معرفة مدة تجمد الجبل نفسه!

لقد أثبت التجارب أنه قد مر ألف وأربعمائة مليون سنة على تجمد تلك الجبال التي تعتبر - علميا - أقدم جبال الأرض، وقد يظن البعض منا أن عمر الأرض يزيد ضعفا أو ضعفين عن عمر هذه الجبال ولكن التجارب العلمية تنفي بشدة هذه الظنون الشاذة، ويذهب البروفيسور (سوليفان) إلى أن (المعدل المعقول) لعمر الأرض هو ألفا مليون سنة^(١).

انظر.. فبعدها تبين لنا أن المادة العادية غير ذات الروح تحتاج إلى بلايين البلايين من السنين، حتى يتسنى مجرد إمكان الحدوث لجزيء بروتيني فيها بالصدفة، فكيف - إذن - جاءت في هذه المدة القصيرة في شكل مليون من أنواع الحيوانات، وأكثر من ٢٠٠,٠٠٠ نوع من النبات؟ وكيف انتشرت هذه الكمية الهائلة على سطح الأرض في كل مكان؟ ثم كيف جاء من خلال هذه الأنواع الحيوانية ذلك المخلوق الأعلى الذي نسميه (الإنسان)؟ لقد قال عالم الأعضاء الأمريكي مارلين ب. كريدل ملخصا كل هذا: (إن الإمكان الرياضي في توفر العلل اللازمة للخلق - عن طريق الصدفة - في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من (لا شيء))

وقال الأستاذ (كريسى موريسن) - ردا على مقولة (هيكل): (إيتوني بالهواء وبالماء وبالأجزاء الكيماوية وبالوقت وسأخلق الإنسان) -: (إن هيكل يتجاهل في دعواه: الجينات

(١) المعلومات العلمية المحضة هنا - والتي استفدناها من كتاب (الإسلام يتحدى) - ربما تكون قد تغيرت بفعل التطور العلمي، ولكنها مع ذلك تبقى صالحة للاستدلال.

الوراثية ومسألة الحياة نفسها فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان، هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات)، أو حملة الاستعدادات الوراثية بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة.. ولكن إمكان الخلق في هذه المحولة بعد كل هذا لا يعدو واحدا على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها (صدفة)، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس): (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن الكون هو الإله.. وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله) ؛ ولكن إلها هذا سوف يكون عجيبا: إلها غيبيا وماديا في آن واحد!! إننى أفضل حاكمه ومديره ومدبره، بدلا من أن أبنى مثل هذه الخزعات)

ما إن قال البلاقلاني هذا حتى رأيت (ديموقريطس) قد تغير وجهه، ثم نظر إلى ساعته وقال: ائذنوا لي.. لدي موعد.. ولا أستطيع أن أبقى هنا أكثر من هذا.. ربما نلتقي مرة أخرى.

قال ذلك، ثم انصرف مسرعا وعلى وجهه ترسم ظلال أنوار لست أدري هل أنارت له، أم أنها وجدت من الشياطين من أطفأها.

المناظرة الثانية:

قال الجمع: حدثنا عن المناظرة الأولى.. فحدثنا عن المناظرة الثانية.
قال: في شارع من شوارع تلك المدينة العجيبة رأيت قوما من الناس يلتفون حول رجلين..

أما أحدهما فكان بادي الصلاح .. وكان الناس يطلقون عليه لقب (القاسم الرسي)^(١) وأما الثاني، فكان رجلا لا يختلف كثيرا في مظهره وطريقة تفكيره عن (ديموقريطس) .. وكان الناس يطلقون عليه لقب (أبيقور)^(٢) .. ولست أدري هل كان ذلك

(١) أشير به إلى (أبي محمد الرسي) وهو القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - وهو منسوب إلى ضيعة كانت له جهة المدينة يقال لها الرس، لم يسمح المنصور له بالإقامة فيها في كفاف من العيش، بل طلبه مع الطالبين ففر إلى السند، وأعقب من ولده ثمانية أنبهم الحسين بن القاسم وكان زاهداً ومن نسله أئمة صعدة، (وأئمة صعدة من اليمن كانوا زيدية)، وذكر ابن خلدون في التاريخ أنه توفي سنة ٢٤٥ هـ.

والمناظرة منقولة من كتابه (الدليل الكبير في الرد على الزنادقة والملحدین)، والكتاب من جزئين: جزء يذكر فيه المؤلف أدلة وجود الله وينقد أدلة المعارضين ثم يبين صحة الإسلام ويتكلم في بعض مسائل العقيدة، والجزء الثاني عبارة عن مناظرة دارت بينه وبين ملحد كان يدور في البلاد يثير الشبهات حتى تلقفه الرسي ودارت بينهما مناظرة. وقد جاء في مقدمة الكتاب: (هو كتاب رد فيه على رجل من أرباب النظر من الملحدة، وكان يغشى مجامع المسلمين ويورد عليهم الأسئلة الصعبة، في قدم العالم وغير ذلك، حتى وافاه المؤلف وأجابه على ما عنده من المشكلات فوضح له الحق وتاب إلى الله) ونحب أن ننبه هنا إلى أن ما نذكره من هذه المناظرة هو جزء بسيط فقط منها، وقد أضفنا إليه ما يقتضيه المقام من الأدلة العقلية التي ذكرها المتكلمون.

(٢) أشير به إلى أبيقور (٣٤٢ ق.م. - ٢٧٠ ق.م.)، وهو فيلسوف إغريقي كان لأفكاره حول اللذة، والحرية، والصدقة، تأثير كبير على العالم الروماني - اليوناني .. وكان يرى بأن هناك مصدرين يسببان القلق للعقل البشري هما الخوف من الآلهة، والخوف من الموت .. وقد اعتقد أن هذه المخاوف مبنية على معتقدات خاطئة، وأنه يمكن التغلب عليها، وأعلن أن الآلهة موجودة ولكنها يجب ألا تشكل مصدر خوف، لأنها توجد بعيداً عن البشر ولا تُعنى بأمورهم لأن هذا يتعارض مع سعادتها.

وذكر أبيقور أن الموت يجب ألا يُخشى، لأن الخير والشر يكمنان في الشعور، والموت بزعمه يُنهي الشعور، وإذا تحرر الشخص من هذه المخاوف، فيمكنه أن يعيش حياة سعيدة بالسعي لملاذات معتدلة وتجنب الألم، وإن أفضل طريقة للحصول على اللذة هي العيش بتعقل واعتدال وشجاعة وعدل وزرع بذور الصداقة.

هو لقبه الحقيقي أم أنه استعاره من أبيقور التاريخي.. ولكنه - مهما كان - يتبنى نفس الأفكار التي يتبناها أبيقور التاريخي^(١).

سأقص عليكم كيف بدأت المناظرة وإلى ما انتهت..

لقد كنت أسير في ذلك الشارع، فرأيت رجلاً يسرع إلى الرسي، ليخبره أن بعض الملحدين تسلل إلى (الله أباد)، وأنه أخذ ينشر الإلحاد بين العامة والدهماء.. وأنه كان إذا قابله العلماء والفقهاء أورد عليهم من المسائل ما يعجزهم. فأسرع القاسم، ومعه الرجل، وأسرعت خلفهما، ولم نسر إلا قليلاً حتى رأينا

وُلِدَ في جزيرة ساموس، وأدار مدرسة للفلسفة في أثينا منذ عام ٣٠٦ قبل الميلاد وحتى وفاته.. وكان كاتباً غزير الإنتاج، ترك ثلاث رسائل تلخص تعاليمه، ويمكن الوقوف على أفكاره وفلسفته في مصادر عديدة منها قصيدة طويلة للشاعر الروماني لوكريشيس عنوانها: في طبيعة الأشياء.. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

(١) أسس المذهب الأبيقوري ترجع إلى المذهب الذري الذي قال به (ديموقريطس) من قبل، لكن (أبيقور) أضاف فكرة الميل في التحرك الآلي في الذرات، ليحصل التصادم بينها، فتتكون الظواهر الكونية. وللأبيقوريين أقوال يهاجمون فيها الدين الوثني المعدد للآلهة، والذي كان منتشرًا بين اليونانيين وغيرهم، في تلك العصور.. فمن أقوال (لوكرتيوس) أحد الأبيقوريين: (إن الدين شرٌّ ما بعده شرٌّ، وإن الواجب على الإنسان ومهمة الفلسفة الأولى أن تتخلص نهائياً من كل دين، لأن الدين هو ينبوع كل شر) وربما لم يكن في عهدهم ذلك صورة صحيحة عن دين رباني صحيح، وإنما لديهم أديان وثنية خرافية، لذلك شجّبوا الدين الذي رأوا نماذجه في عصورهم.

ولذلك نجد في تعبيرات الأبيقوريين: إن الذي يؤمن بالدين الشعبي المألوف ومعتقداته يرتكب خطيئة دينية في الواقع، بينما الذي لا يؤمن بها هو الذي يسلك سبيل الصواب. وهجومهم على هذا النوع من الأديان لا شأن لنا به، وقد يكون لهم في ذلك عذر، لما عليه هذه الأديان من خرافات وأضاليل وأكاذيب.

ونشير هنا إلى أن هذه المناظرة التي ذكرناها ليست متوجهة للأبيقوريين على الخصوص.. لأن الرد عليهم ذكرناه في المناظرة السابقة.. وإنما ذكرناهم هنا ليتعرف القارئ على المواقف المختلفة من (الله)، فهذا من أغراض هذه الرسالة.

(أبيقور)، فقال له القاسم بعد أن هس له وبش، وعامله بما طلبه الإسلام من أهله من الأدب: بلغني أنك تعرضت لنا وسألت أهل نحلتنا عن مسائلك، تريد أن تصيد أغمارهم بحبائلك. قال أبيقور: أما إذ عبت أولئك وعيرتهم بالجهل، فإنى سائلك وممتحنك.. فإن أنت أجبته وإلا فأنت مثلهم.

قال القاسم: قل ما بدا لك، فسأحسن الاستماع، وعليك بالنصفة، وإياك والظلم ومكابرة العيان، ودفع الضرورات والمعقولات.. أجبك عنه، وبالله استعين وعليه أتوكل وهو حسبي وكفى ونعم الوكيل.

قال أبيقور: خبرني ما الدلالة على أن الله هو الصانع؟

قال القاسم: الدلالة على ذلك قوله في كتابه عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبُعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِّنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِّنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّنْ مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّبَيِّنٍ لَّكُمْ وَنُقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشَدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَن يُتَوَفَّىٰ وَمِنْكُمْ مَن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْدَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَىٰ الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (٧)﴾ (الحج)

ضحك أبيقور بصوت عال، وقال: أراك لا تعرف الدور.. ثم تجلس هذا المجلس. قال القاسم: فكيف تريد أن تبرهن لي على وجود إله من خلال ما تدعي أنها كلماته.. برهن لي أولاً على وجوده، ثم برهن لي على أنه متكلم، ثم برهن لي على أن ما قرأته هو كلماته.. ودون كل ذلك خرط القتاد.

قال القاسم: أنا لم أذكر تلك الآيات كبرهان إلا من خلال المعنى الذي تحمله.. فأنا

أعلم أن من لم يؤمن بوجود الله يستحيل أن يؤمن بكلام الله.

قال أبيقور: أنت تعلم أنني من نسل الفلاسفة.. والفلاسفة قد تواطأوا فيما بينهم على مصطلحات خاصة، وعلى أساليب منتظمة في البرهان.. فاركب مطيتها وخاطبني.. فلا يحسن أن تخاطب الأمراء بلغة السوق والدهماء.

قال القاسم: لك ذلك.. وسأذكر لك خمسة براهين على الشرط الذي ذكرت^(١).

قال أبيقور: لا بأس بهذا.. فاذا كر لي البرهان الأول.

قال الرسي: البرهان الأول هو برهان النظم والتدبير.. فالإنسان نراه بأحسن كيفية، والحيوان نراه بالمواهب الفطرية، والنباتات والأشجار والأزهار والأعشاب نراها ذات المناظر البهيّة والخصائص النفعيّة، وكذلك غيرها من الموجودات الأخرى التي لا تعدّ ولا تحصى فيما بين السماء إلى أطباق الثرى.

نرى أجزاءها وجزئياتها مخلوقة بأحسن نظم، وأتقن تدبير، وأحسن صنع، وأبدع تصوير.

ومن المعلوم بالبداية لكل كبير وصغير، ولكل ذي عقل وإحساس أن الإهمال لا يأتي بالصواب، والخطأ لا يأتي بدقيق الحساب، والاتفاق لا يأتي بهذا العجب العجيب.

فيحكم العقل بالصراحة، ويدعن الوجدان بالبداية أنّه لا بدّ لهذا التدبير من مدبّر، ولهذا التنظيم من منظم، ولهذا السير الحكيم من محكّم.

ويدرك جميع أولي الأبواب أنّه لا بدّ لهذا النظام الدقيق من خالق حكيم، ولا بدّ لهذا التدبير العميق من مدبّر عليم خلّقها وقدرها وأدام بقاءها، وأحسن خلقها وتدبيرها، وهو

(١) استفدنا المادة العلمية الواردة في هذه المناظرة من كتاب (العقائد الحقّة - دراسة علمية جامعة في أصول

الدين الاسلامي على ضوء الكتاب والسنة والعقل -) للسيد علي الحسيني الصدر.

الله تعالى شأنه وجلّت قدرته.

فوجود الخالق ممّا يدرك بالبداهة ويُحسّ بكلّ يقين.

قال أبيقور: فما البرهان الثاني؟

قال الرسي: البرهان الثاني هو برهان امتناع الصّدفّة.. فإنّا إذا لم نؤمن بوجود الخالق لهذا الكون العظيم بما فيه من الخليقة المنتظمة، فلا بدّ وأن نقول بأنّ الصّدفّة هي التي أوجدتها أو أنّ الطبيعة هي التي خلقتها..

بأن تكون هذه المجموعات الكبيرة الدقيقة الضخمة، في هذا العالم الكبير وجدت بنحو الصّدفّة وتحقّقت بنحو المصادفة.

قال أبيقور: فما المانع من هذا؟

قال الرسي: من الواضح أنّه لا يقبل حتّى عقل الصبيان أن تكون هذه المخلوقات اللامتناهية وُجِدَت بنفسها بالصدفة العمياء، أو بالطبيعة الصمّاء..

بل حتّى عقل المادّيين والطبيعيّين - كما تلاحظه في حياتهم - لا يقبل الصدفّة.. لذلك تراهم يبحثون عن سبب جريمة صغيرة وقعت في بلادهم، وفوجئوا بها في دولتهم، ويتفحّصون عن علّتها، ولا يقبلون الصدفة فيها.

وترى طبيهم الملحد - مثلاً - يصرف مدّة مديدة، وساعات عديدة من عمره في سبيل معرفة سبب وجود عُذّة صغيرة في جسم إنسان مريض تصدّى لمعالجته، ولا يقبل أن يؤمن بأنّها وجدت بنحو الصدفة والاتّفاق، أو أوجدتها طبيعة الآفاق..

فكيف بهذه البدائع العظيمة في هذا العالم العظيم، هل يمكن قبول أنّها وجدت بالاتّفاق والصدفة؟!؟

والصدفة إن أمكنتها خلق شيء فلا بدّ وأن تكون موجودة هي بنفسها.. فنسأل من هو

مُوجدِها؟ وإن لم تكن موجودة فيقال: إنَّ المعدوم لا يمكنه إيجاد شيء.. على أنَّ الصدفة العمياء شاردة غير منتظرة، لا تخضع لأي حساب وقانون، بل تخالف الحسابات العلمية، فكيف يمكنها أن توجد هذه الخلائق الكونية التي تُبهر العقول وتُدهش العقلاء؟ وكيف يمكنها أن توجد المادة الأولى لهذا العالم كما يزعمون حتّى يكون العالم مادياً؟

وكيف يمكنها أن توجد تكاملها وعلّية موجوداتها فيما بينها - كما يدّعون - حتّى يكون العالم صديقاً؟ والحال أنَّ الصدفة عمياء صمّاء، وليس لها حظٌّ من العطاء. ولنبرهن على هذا الأمر بدليل عقلي علمي وجداني، ونفرض أنَّ كتاباً صغيراً مرتّباً على مئة صفحة قد فُرقت أوراقه وخُلطت أعدداه، ثم أُعطيت بيد شخص أعمى حتّى يُرتّبها وينظّم صفحاتها بواسطة سحب تلك الأوراق مسلسلة إحداها بعد الأخرى.. ترى ما هي نسبة احتمال الموفّقة بأن يكون السحب الأوّل مصيباً للورق الأوّل؟

الجواب: ١٪.

ثمّ ما هي نسبة احتمال أن يكون السحب الثاني مصيباً أيضاً للورق الثاني؟

الجواب: ١٠٠٠٠١، وذلك بعملية $(100001 = 1001 \times 1001)$.

ثمّ ما هي نسبة أن يكون السحب الثالث أيضاً مصيباً للورق الثالث؟

الجواب: ١٠٠٠٠٠٠١، وذلك بعملية $(10000001 = 1001 \times 1001 \times 1001)$.

وهكذا.. وهلمّ جرّاً إلى موفّقة تنظيم إصابة السحب المئوي للورق المئة بنتيجة عدد تفوق المليارات ويستغرق حسابها الساعات.

هذه نسبة الصدفة في كتاب صغير فكيف بنسبة موفّقة الصدفة بالنسبة إلى هذا العالم الكبير؟

وهل يقبل العقل أو يصدّق الوجدان صدقيّة هذا النظام السماوي والأرضي المتسق بهذا التنسيق البهيج؟

وهل يمكن قبول كون أساس العالم ومادّته المتكاملة موجودة بالصدفة كما يدّعون؟
كلاً ثم ألف كلاً!!

والحساب المنطقي الواضح هو أنّه إذا لم تصدق الصدفة صدق ضده وهو الخلق والتقدير لأنهما ضدّان لا ثالث لهما، لا يجتمعان ولا يرتفعان.. ومن المسلّم أنّ كذب أحدهما يستلزم صدق الآخر، فعدم إمكان الصدفة يستلزم صدق التقدير. فتكون الخليفة موجودة بخلق وتقدير، وهو يدلّ على وجود المقدّر الخبير، وهو الله (جلّ جلاله)

قال أبيقور: فما البرهان الثالث؟

قال الرسي: البرهان الثالث هو برهان الاستقصاء.. فإنّ كلاً ممّا إذا راجع نفسه وتأمّل شخصه يشعر بوضوح، ويدرك بدهاءة أنّه لم يكن موجوداً أزليّاً بل كان وجوده مسبوقاً بالعدم، وقد وُجد في زمان خاصّ في عام معيّن وشهر معيّن ويوم معيّن. فلتساءل ونتفحص ونبحث هل أنا خلّقنا أنفسنا؟ وهل خلّقنا أحدٌ مثلنا من الممكنات كأبائنا أو أمّهاتنا؟ أو هل خلّقنا القادر الفاطر الواجب وهو الله (جلّ جلاله)؟

أمّا جواب الأوّل: فلا شكّ أنّنا لم نخلق أنفسنا حيث إنّنا لم نكن موجودين في الزمان المتقدّم علينا، فكيف أعطينا الوجود لأنفسنا، وفاقد الشيء لا يعطيه..

ولو تمكّنا من إعطاء الوجود لأنفسنا، لأبقينا لها الوجود ضدّ الموت، ولا شكّ في عدم قدرتنا على ذلك، بل عدم قدرة الأقوياء ممّا ومن كان قبلنا على ذلك.

وأمّا جواب الثاني: فلا شكّ أيضاً أنّ آبائنا لم يخلقونا، بدليل أنّهم لم يعرفوا أعضائنا

وأجزاءنا ومطويات أبداننا ومضممرات أجسامنا، فكيف بخلقة حقيقتنا، ومعلوم أن الخالق يلزم أن يعرف ما خلقه، والصانع يعرف ما صنعه.

مع أن آباءنا بأنفسهم يموتون ولا يمكنهم إعطاء أو إبقاء الوجود لأنفسهم فكيف يعطونه لأبنائهم؟

لا يبقى بعد التفحص والإستقصاء إلا الشق الثالث، وهو أن الله هو الذي خَلَقْنَا، وهو الذي خلق كل شيء، وهو القادر على كل شيء الوجود والإفناء، والموت والبقاء، وهو الخير بمخلوقه بكل محتواه، والعالم بأولاه وعُقباه.

وبهذا الإستقصاء التام تحكم الأفهام، بوجود الخالق العلام.

قال أبيقور: فما البرهان الرابع؟

قال الرسي: البرهان الرابع هو برهان الحركة.. فإننا نرى العالم الكبير بجميع ما فيه متحركاً، ويراها الجميع من الإلهيين والماديين في تغير، والكل يعرفه بحركة وعدم سكون، ومعلوم أن الحركة تحتاج إلى محرّك، وبديهي أن الأثر لا بد له من مؤثر، لأن الحركة قوة والقوة لا توجد بغير علة.

إذن فلا بد لهذه الحياة المتحركة في جميع نواحيها من أعلاها إلى أسفلها، بكواكبها وأراضيها وشمسها وقمرها، وأفلاكها ومجراتها.. لا بد لها ممن يحركها ويدبر حركتها، وحتى أجزاء العناصر الساذجة ثبت في علم الفيزياء أنها تدور وتتحرك حول مركزها بدوام. ومن المعلوم أن القوة والحركة لا توجد إلا بدافع ومحرّك، وهذا أمر بديهي يدركه كل ذي لب وشعور، ويعرف أنه لا بد لهذه الحركات العظيمة والتحوّلات الدائمة من محرّك حكيم قدير.

فمن ترى يمكن أن يكون مصدر هذه القوة وفاعل هذه الحركة؟

هل المخلوقات التي نراها يعرضها الضعف وتحتاج بنفسها إلى المساندة؟!؟

وهل يناسب أن يكون المحرّك غير الله القوي الخبير؟

ولقد سُئِلَتْ امرأة بدويّة كانت تغزل الصوف بمغزل صغير عن دليلها على وجود الله

تعالى، فأمسكت عن تحريك المغزل حتّى توقّف فقالت: دليلي هو هذا التوقف..

قالوا: وكيف ذلك؟

فأجابت: إذا كان مغزل صغير لا يتحرّك إلّا بوجود محرّك، فهل يمكن أن يتحرّك هذا

الفلك الدوّار الكبير بلا محرّك له؟

وقد جاءت الحكمة في هذا المجال: إنّ البعرة تدلّ على البعير، وأثر الأقدام يدلّ على

المسير، فهذه السماء ذات أبراج والأرض ذات حركة وارتجاج.. ألا تدلّان على وجود

الخبير البصير!؟

قال أبيقور: فما البرهان الخامس؟

قال الرسي: البرهان الخامس هو برهان القاهرة.. فإنّ الطبيعة تنمو عادةً نحو البقاء

لولا إرادة من يفرض عليها الفناء.

فالإنسان الذي يعيش، والأشجار التي تنمو، والأحجار التي هي مستقرّة في الأرض،

لا داعي إلى أن يعرض عليها الموت أو الزوال أو الإنهدام إلّا بعلّة فاعلة قاهرة.

فكما أنّ تبدّل اللاشيء إلى الشيء يحتاج إلى علّة، كذلك تبدّل الشيء إلى اللاشيء

لا يمكن إلّا بعلّة.

فإنّا نرى هذا العالم قد أحكمت جميع جوانبه بحيث ينبغي أن تسير سيراً دائماً بلا

زوال، لكن مع ذلك نراها في زوال دائم ونقص راغم، وزوالها دليل على وجود مزيل لها.

فترى من هو علّة الإماتة والزوال؟ ومن اللائق أن يكون هو القاهر في جميع الأحوال؟

هل الإنسان بنفسه - وهو الذي يرغب أن يعيش دائماً ولا يموت أبداً - علة لموت نفسه؟

أم هناك شيء من الممكنات - التي هي مقهورة زائلة بنفسها - تتمكن من القاهرة المطلقة؟

أم أن القاهر لجميع المخلوقات هو القادر على خلقها فيقدر على فنائها؟
أليس هذا دليلاً على أن هناك من يُميت ويقدر على الإماتة، كما هو قادر على الإحياء؟
فنفس الموت دال على وجود المميت، كما كان الإحياء دالاً على وجود المحيى.
فمن هذا الذي يميت غير الذي يحييه؟ ومن هو قادر على الإبقاء والإفناء؟ ليس هو إلا الله الذي بيده الموت والحياة.. والقادر على الإبقاء والإفناء، الخالق لجميع المخلوقات جلّ شأنه وعظمت قدرته.

ما إن انتهى الرسي من قوله هذا حتى طأطأ أبيقور رأسه، وقال: بورك فيك.. لقد أجبته ببراهينك هذه على كل شبهة، وفندت ما كان يعيش في رأسي من وساوس الشياطين، واسمح لي أن أصحبك لأتعرف على هذا الإله العظيم الذي كنت محجوباً عنه.
كبر جميع الحاضرين.. وكبرت معهم من غير شعور.. ثم سرت إلى شارع آخر..
لأسمع مناظرة أخرى.

المناظرة الثالثة:

قال الجمع: فحدثنا عنها.. حدثنا عن المناظرة الثالثة.
قال: في شارع من شوارع تلك المدينة رأيت قوماً من الناس يلتفون حول رجلين.. أما

الأول، فكان اسمه (الخوارزمي)^(١)..

وأما الثاني، فكان اسمه (توماس هوبز)^(٢)

قال هوبز، وهو ينظر للخوارزمي: نعم أنا مقتنع تماماً بكل ما ذكرت.. لكنني أسأل (من خلق الله؟.. وأين الله؟)

ابتسم الخوارزمي، وقال: أنت تتكلم عن الله، وكأنك تتكلم عن جسم مثلك.. أو كأنك تتكلم عن جهاز أو كائن أو جبل أو كوكب.. لو كنت تتكلم عن هؤلاء كان لك الحق في أن تسأل هذا السؤال.

إن هذا السؤال ينبع من افتراض عقلائي صحيح بالنسبة لبيئتنا المحيطة بنا، وهو أنه لا يمكن أن يوجد شيء نراه في محيطنا أو في هذه الدنيا بدون أن يكون له موجود أو صانع. ولكن السؤال نفسه ليس صحيحاً بالنسبة لله، لأنه ليس شيئاً من الأشياء، بل هو موجود الأشياء، ولا يمكنك استخدام مسطرة عقلك لقياس أو تخيل الوجود الإلهي، فهو لا يشبهك في شيء، ولا يشبه شيئاً رأيته، ولا يمكن لعقلك القاصر تصوره.

(١) أشير به إلى أبي جعفر محمد بن موسى الخوارزمي (٧٧٦ - ٨٤٧م)، رياضي فلكي مؤرخ من أهل خوارزم، عاصر الخليفة المأمون العباسي الذي أدرك فضله وأولاه رعاية عظيمة، وهو مؤسس علم الجبر وقد لُقّب بأبي الجبر.. وقد اخترناه هنا باعتباره من المتكلمين للدلالة على أن العقل الإسلامي لم يتأثر بالنظريات الإلحادية التي راجت بين النخبة المثقفة في الملل الأخرى.. وليبين أن نصرة الدين كانت من الكل علماء دين كانوا أم علماء دينا، إن صح هذا التفريق.

(٢) أشير به إلى (توماس هوبز) (١٥٨٨ - ١٦٧٩م)، وهو فيلسوف إنجليزي، وأشهر كتاب له بعنوان (لفياتان) أو (شكل المادة)، و(سلطة الكومنولث الكنسي والمدنية) (١٦٥١م)، تأثر هوبز بتطورين حدثا في زمانه، أولهما، النظام الجديد لعلم الطبيعة الذي كان جاليليو وآخرون يحاولون التوصل إليه. وقد استنتج من أفكارهم أن المادة وحدها هي الموجودة، وأن أي شيء يحدث يمكن التنبؤ به وفقاً لقوانين علمية دقيقة، واعتقد الكثيرون في زمانه أن نظرتهم أنكرت وجود الله، والروح الإنسانية الحرة الخالدة، ولكنه نفى ذلك.

جرب أن تدرس الرياضيات المتقدمة التي وضعها البشر لتعلم كم هي مدهشة تلك
 الإمكانات الموجودة في العقل البشري، ولتعلم أيضاً أن افتراضات هذا العقل تصل أحياناً
 إلى التناقض وإلى المستحيل واللا نهاية، وأن لهذا العقل حدوداً لا يمكنه تجاوزها.
 سأضرب لك مثلاً بتخصصي.. مثلاً بالرياضيات.. هناك شيء في الرياضيات اسمه
 العامل العقدي، وهو (جذر-١).. وهو شيء افتراضي مستحيل الحدوث منطقياً رياضياً
 حسب ما يقوله عقل البشر.

لأنك إذا قمت بعملية حسابية: $1 - 1 * 1 = 1$

ولكن هل يوجد شيء في واقع الدنيا اسمه جذر-١؟

قال هوبز: لا.. لا يمكن أن يكون مثل هذا الجذر.

قال الخوارزمي: ولكنه مع ذلك موجود.. فعلم التحريك وعلوم الفيزياء والهندسة
 تعتمد عليه، ولا يمكن لعلماء الصواريخ والمركبات وعلماء الفيزياء الذرية أن يحلوا كثيراً
 من معادلات التحريك بدون افتراض وجود هذا العامل، وافتراض أننا لا نفهم كيف هو لا
 يخرج عنه كونه موجوداً.

وكذلك الله.. فنحن نعلم أنه موجود، ونعلم بعض صفاته فقط عن طريق ما وصلنا
 من رسله وأنبياءه.. ولكننا لا نعلم أي شيء عنه عن طريق مسطرة وميزان العقل البشري
 والاكتشافات البشرية.. لا يمكننا ذلك أبداً.

تخيل لو أن الكمبيوتر الذي تعمل عليه أو أي جهاز صنعه الإنسان كان له عقل ليفكر
 ويقارن الإنسان مع ذاته..

ماذا سيقارن؟.. وكيف سيقارن؟

هل يمكنه أن يعلم عن الإنسان شيئاً غير المعلومات التي أدخلها إليه المبرمج؟

وإذا كانت له إرادة مستقلة كتلك التي لدى الإنسان، هل يمكنه إلا أن يتصور أنك مصنوع من معدن وبلاستيك وزجاج، وأن سعة ذاكرتك كذا وكذا؟
ربما تبدو هذه المقارنة سخيفة، ولكن هذا بالضبط ما تفعله أنت عندما تقول: (من خلق الله وأين الله؟)

قال هوبز: فلماذا لا نراه؟

ابتسم الخوارزمي، وقال: لسبب بسيط، وهو أنك لا تملك الأدوات المناسبة لذلك، سواء في جسمك وتكوينك، أو عقلك، أو ما يبتكره الإنسان من أدوات القياس الحديثة.
هل تريد أن ترى الله تعالى ببصرك القاصر المحدود الذي لا يستطيع أن يرى سوى جزء بسيط من مجال الموجات الكهربائية، وهي فقط ألوان الطيف المرئي من الضوء؟
أنت لا تستطيع رؤية الكثير الكثير من الأشعة الموجودة في هذه الدنيا فضلاً عن الأشعة الموجودة في الفضاء الخارجي، ولم يكتشف الإنسان وجود هذه المجالات الإشعاعية إلا في العصر الحديث، بأجهزة تطورت مع تقدمه العلمي، وصارت قادرة على القياس لكثير من هذه المجالات، وأثبتت محدودية قدرات جسم الإنسان.
بل إن كثيراً من الحشرات مثل النحل والفراشات تملك خاصية إبصار أفضل منك وأسرع بآلاف المرات، وتستطيع أن ترى الأشعة تحت الحمراء وفوق البنفسجية، وأن تحدد الزهور المفيدة المحتوية على الرحيق بناء على هذه القدرات، وهذا ما اكتشفته أجهزة الإنسان وأبحاثه الحديثة.

لقد اكتشفنا - من خلال ما أتاحه الله لنا من أجهزة - أن معلوماتنا السابقة وقدراتنا قليلة جداً بالمقارنة مع ما في هذا الكون من الموجودات حتى أن بعض البشر الأكثر علماً وذكاءً - وهو مكتشف النظرية النسبية (آينشتاين) - توصل بعقله وعلمه وفلسفته وتجاربه الفيزيائية

أنه لا يمكن أن يوجد شيء أو شعاع أو طاقة بمقدورها أن تتجاوز سرعة الضوء - وقد توصل إلى ذلك ليس فقط فيزيائياً وتجريبياً، بل رياضياً وعقلياً - بناء على أقصى ما يستطيع هذا العقل البشري المحدود تصوره - وقال: إن سرعة الضوء تساوي رقماً معيناً وهو حوالي ٣٠٠٠٠٠ كيلومتر في الثانية - وهذا يعني أن هناك حدوداً لما يستطيع الإنسان أن يتخيل أو يفترض ويقاس بأجهزته ومعداته.

سكت الخوارزمي قليلاً، ثم قال: لقد ذكر الله تعالى هذا الدليل بصيغة محكمة قوية مليئة بالمعاني.. لقد عبر عن ذلك بقوله: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ (الأنعام: ١٠٣)

انظروا دقة التعبير القرآني.. لقد وضحت العلوم الحديثة الآية أكثر مما وضحت العلوم القديمة.. فالأبصار تستطيع أن تجري خلف شيء معين وتلحقه وتدركه عن طريق ما يسمى المطابقة البصرية، وذلك إذا كان يقع ضمن المجال المرئي أو المجال الذي يمكن قياسه، وأما الله تعالى فلا يمكن للأبصار ولا حتى أحدث أجهزة القياس البشرية أن تدركه. وفي قوله: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ إشارة إلى أن ذلك من مقتضيات لطف الله بعباده، فلذلك لا يصدمهم بأكثر من حدود طاقاتهم البصرية والعقلية وقدرتها على الاحتمال أو الاستيعاب.

وهو أيضاً الخبير بهذه الطاقات وحدود قدرتها فهو الذي صممها وصنعها وركبها في مخلوقاته.

المناظرة الرابعة:

قال الجمع: حدثنا عن المناظرة الثالثة.. فحدثنا عن الرابعة.

قال: سرت إلى شارع آخر فوجدت شاباً وقوراً كان الجمع يطلق عليه اسم

(الغزالي)^(١).. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الذي سماه به أبوه^(٢)، أم أنه أطلق عليه ذلك لمشابهته أبي حامد الغزالي في استجرا الذين يحاورهم إلى الحق بأنواع الحجج والبراهين بهدوء واتزان وذكاء.

وأما الثاني، فكان شيخا يبدو عليه التأثير بقومنا، فهو يلبس لباسنا، ويرطن بعربية مختلطة بالعجمة.. وقد كان الناس يطلقون عليه اسم (مظهر)^(٣).. ولست أدري هل كان ذلك هو اسمه الحقيقي، أم أنه لقب كالألقاب التي تعود قومنا أن يتنازوا بها.. فإن كان لقبا، فقد صدق من لقبه به، فقد كان كل شيء فيه يدل على اهتمامه الشديد بمظهره، ومراعاته

(١) أشير به إلى شيخنا الجليل العلامة الشيخ (محمد الغزالي)، وهو: محمد الغزالي أحمد السقا (١٩١٧- ١٩٩٦م)، وهو أحد دعاة الفكر الإسلامي في العصر الحديث، عرف عنه تجديده في الفكر الإسلامي وكونه من المناهضين للتشدد والغلو في الدين.

وقد ذكر الشيخ محمد الغزالي هذا الحوار الذي اقتبسناه بتصريف هنا في كتابه قذائف الحق، قال في أوله: (دار بيني وبين أحد الملاحدة جدال طويل، ملكت فيه نفسي وأطلت صبري حتى ألقف آخر ما في جعبتي من إفك، وأدمغت بالحجة الساطعة ما يوردون من شبهات).. وقد ذكرنا هنا نص الحوار بأنواع التصرفات التي جرينا عليها في هذه السلسلة.

(٢) سمي الشيخ محمد الغزالي بهذا الاسم رغبة من والده بالتيمن بالإمام الغزالي، فقد رأى في منامه الشيخ الغزالي وأخبره أنه سوف ينبج ولدا، وأمره أن يسميه على اسمه الغزالي.

(٣) أشير به إلى (إسماعيل مظهر بن محمد بن عبدالمجيد) (١٣٠٨-١٣٨١ هـ) كان أحد دعاة الداروينية في العصر الحاضر، ومن دعاة الشعوية، أنشأ مجلة العصور في مصر وذلك في سنة ١٩٢٧ م، وجعل من مجلته باباً لطلعن في الدين، ونشر الشعوية، وفتح باب الردة والإلحاد، كان معظماً لليهود، وداعياً للسير على نهجهم وطريقتهم، وكان يسمي نفسه: صديق دارون، وألف في الانتصار لنظرية داروين مجموعة من المؤلفات، ثم اعتنق الفكر الشيوعي، وأنشأ حزباً أسماه حزب الفلاح، جعله منبراً لنشر الشيوعية والاشتراكية، ثم في آخر عمره أعرض عن كل ذلك، ورجع عن الكثير من آراءه، وألف كتاباً أسماه (الإسلام لا الشيوعية)، وقد اشرنا إلى تراجع في هذه المناظرة..

الشديدة له.

لن أطيل عليكم.. سأقص عليكم الحوار كما سمعته حرفاً حرفاً..
بدأ مظهر الحديث، فقال متوجهاً للغزالي: إذا كان الله قد خلق العالم فمن خلق الله؟
قال الغزالي: كأنك بهذا السؤال أو بهذا الاعتراض تؤكد أنه لا بد لكل شيء من خالق!!

قال مظهر: لا تلقى فى متاهات، أجب عن سؤالى.
قال الغزالي: لا لف ولا دوران، إنك ترى أن العالم ليس له خالق، أى أن وجوده من ذاته دون حاجة إلى موجد، فلماذا تقبل القول بأن هذا العالم موجود من ذاته أزلاً وتستغرب من أهل الدين أن يقولوا: إن الله الذى خلق العالم ليس لوجوده أول؟
إنها قضية واحدة، فلماذا تصدق نفسك حين تقررها وتكذب غيرك حين يقررها، وإذا كنت ترى أن إلهاً ليس له خالق خرافة، فعالم ليس له خالق خرافة كذلك، وفق المنطق الذى تسير عليه!!

قال مظهر: إننا نعيش فى هذا العالم ونحس بوجوده، فلا نستطيع أن ننكره!
قال الغزالي: ومن طالبك بإنكار وجود العالم؟ إننا عندما نركب عربة أو باخرة أو طائرة تنطلق بنا فى طريق رهيب، فتساؤلنا ليس فى وجود العربة، وإنما هو: هل تسير وحدها أم يسيرها قائد بصير!!

ومن ثم فإننى أعود إلى سؤالك الأول لأقول لك: إنه مردود عليك، فأنا وأنت معترفان بوجود قائم، لا مجال لإنكاره، تزعم أنه لا أول له بالنسبة إلى المادة، وأرى أنه لا أول لها بالنسبة إلى خالقها.

فإذا أردت أن تسخر من وجود لا أول له، فاسخر من نفسك قبل أن تسخر من

المتدينين..

قال مظهر: تعنى أن الافتراض العقلى واحد بالنسبة إلى الفريقين؟

قال الغزالي: إننى أسترسل معك لأكشف الفراغ والادعاء الذين يعتمد عليهما الإلحاد

وحسب، أما الافتراض العقلى فليس سواء بين المؤمنين والكافرين..

إننى - أنا وأنت - ننظر إلى قصر قائم، فأرى بعد نظرة خبيرة أن مهندساً أقامه، وترى

أنت أن خشبة وحديدة وحجرة وطلاء قد انتظمت فى مواضعها وتهيأت لساكنيها من تلقاء

أنفسها..

الفارق بين نظرتينا إلى الأمور أننى وجدت قمراً صناعياً يدور فى الفضاء، فقلت أنت:

(انطلق وحده دونما إشراف أو توجيه)، وقلت أنا: بل أطلقه عقل مشرف مدبر..

إن الافتراض العقلى ليس سواء، إنه بالنسبة إلى الحق الذى لا محيص عنه، وبالنسبة

إليك الباطل الذى لا شك فيه، وإن كل كفار عصرنا مهرة فى شتمة نحن المؤمنين ورمينا

بكل نقيصة فى الوقت الذى يصفون أنفسهم فيه بالذكاء والتقدم والعبقرية..

إننا نعيش فوق أرض مفروشة، وتحت سماء مبنية، ونملك عقلاً نستطيع به البحث

والحكم، وبهذا العقل ننظر ونستنتج ونناقش ونعتقد.

إننا نلاحظ إبداع الخالق فى الزروع والزهور والثمار، وكيف ينطلق الحمأ المسنون عن

ألوان زاهية أو شاحبة توزعت على أوراق وأكمام حافلة بالروح والريحان، ثم كيف يحصد

ذلك كله ليكون أكسية وأغذية للناس والحيوان، ثم كيف يعود الحطام والقمام مرة أخرى

زرعاً جديد الجمال والمذاق تهتز به الحقول والحدائق، من صنع ذلك كله؟

قال مظهر، وكأنه سكران يهذى: الأرض صنعت ذلك!!

قال الغزالي: الأرض أمرت السماء أن تهيمى، والشمس أن تشع، وورق الشجر أن

يخترن الكربون ويطرد الأوكسجين والحبوب أن تمتلئ بالدهن والسكر والعطر والنشا؟

قال مظهر: أقصد الطبيعة كلها فى الأرض والسماء!

قال الغزالي: إن طبق الأرز فى غذائك أو عشائك تعاونت الأرض والسماء وما بينهما

على صنع كل حبة فيه، فما دور كل عنصر فى هذا الخلق؟ ومن المسئول عن جعل التفاح

حلواً والفلفل حريفاً أهو تراب الأرض أم ماء السماء؟

قال مظهر: لا أعرف.. ولا قيمة لهذه المعرفة!!

قال الغزالي: ألا تعرف أن ذلك يحتاج إلى عقل مدبر ومشيتة تصنف؟ فأين ترى

العقل الذى أنشأ والإرادة التى نوعت فى أكوام السباخ أو فى حزم الأشعة؟

قال مظهر: إن العالم وجد وتطور على سنة النشوء والارتقاء، ولا نعرف الأصل ولا

التفاصيل!

قال الغزالي: أشرح لكم ما تقولون! تقولون: إنه كان فى قديم الزمان وسالف العصر

والأوان مجموعة من العناصر العمياء، تضطرب فى أجواز الفضاء، ثم مع طول المدة وكثرة

التلاقى سنحت فرصة فريدة لن تتكرر أبد الدهر، فنشأت الخلية الحية فى شكلها البدائى،

ثم شرعت تتكاثر وتنمو حتى بلغت ما نرى.. هذا هو الجهل الذى أسميتهوه علماء، ولم

تستحوا من مكابرة الدنيا به.

أعمال حسابية معقدة تقولون: إنها حلت تلقائياً، وكائنات دقيقة وجلييلة تزعمون أنها

ظفرت بالحياة فى فرصة سنحت ولن تعود.. وذلك كله فراراً من الإيمان بالله الكبير

المتعال.

قال مظهر، وهو ساخط: أفلو كان هناك إله كما تقول كانت الدنيا تحفل بهذه المآسى

والآلام، ونرى ثراء يمرح فيه الأغبياء وضيقاً يحتبس فيه الأذكياء، وأطفالاً يمرضون

ويموتون، ومشوهين يحيون منغصين..

قال الغزالي : لقد صدق فيكم ظنى، إن إلحادكم يرجع إلى مشكلات نفسية واجتماعية أكثر مما يعود إلى قضايا عقلية مهمة!

ويوجد منذ عهد بعيد من يؤمنون ويكفرون وفق ما يصيهم من عسر ويسر: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ ذَلِكَ هُوَ الْخُسْرَانُ الْمُبِينُ ﴾ (الحج: ١١)

قال مظهر: لسنا أنانيين كما تصف، نغضب لأنفسنا أو نرضى لأنفسنا، إننا نستعرض أحوال البشر كافة ثم نصدر حكماً الذى ترفضه..

قال الغزالي : أفتكم أنكم لا تعرفون طبيعة هذه الحياة الدنيا ووظيفة البشر فيها، إنها معبر مؤقت إلى مستقر دائم، ولكى يجوز الإنسان هذا المعبر إلى إحدى خاتمته لا بد أن يتلى بما يصقل معدنه ويهذب طباعه، وهذا الابتلاء فنون شتى، وعندما ينجح المؤمنون فى التغلب على العقبات التى ملأت طريقهم وتبقى صلتهم بالله واضحة مهما ترادفت البأساء والضراء فإنهم يعودون إلى الله بعد تلك الرحلة الشاقة ليقول لهم: ﴿يَا عِبَادِ لَا خَوْفٌ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ وَلَا أَنْتُمْ تَحْزَنُونَ ﴾ (الزخرف: ٦٨)

قال مظهر: وما ضرورة هذا الابتلاء؟

قال الغزالي : إن المرء يسهر الليالى فى تحصيل العلم، ويتصبب جبينه عرقاً ليحصل على الراحة، وما يسند منصب كبير إلا لمن تمرس بالتجارب وتعرض للمتاعب، فإن كان ذلك هو القانون السائد فى الحياة القصيرة التى نحيها على ظهر الأرض فأى غرابة أن يكون ذلك هو الجهاد الصحيح للخلود المرتقب؟

قال مظهر - مستهزئاً -: أهذه فلسفتكم فى تسويق المآسى التى تخالط حياة الخلق

وتصبير الجماهير عليها؟

قال الغزالي: سأعلمك - بتفصيل أوضح - حقيقة ما تشكو من شرور، إن هذه الآلام قسمان: قسم من قدر الله في هذه الدنيا، لا تقوم الحياة إلا به، ولا تنضج رسالة الإنسان إلا في حره.

وهذا التفسير لطبيعة الحياة العامة ينضم إليه أن الله جل شأنه يختبر كل امرئ بما يناسب جبلته، ويوائم نفسه وبيئته، وما أبعد الفروق بين إنسان وإنسان، وقد يصرخ إنسان بما لا يكثرث به آخر ولله في خلقه شؤون، والمهم أن أحداث الحياة الخاصة والعامة محكومة بإطار شامل من العدالة الإلهية التي لا ريب فيها.

تلك هي النظرة الصحيحة إلى المتاعب غير الإرادية التي يتعرض لها الخلق. أما القسم الثاني من الشرور التي تشكو منها يا صاحبي فمحوره خطؤك أنت وأشباهك من المنحرفين.

قال مظهر مستكراً: أنا وأشباهي لا علاقة لنا بما يسود العالم من فوضى؟ فكيف تتهمنا؟

قال الغزالي: بل أنتم مسئولون، فإن الله وضع للعالم نظاماً جيداً يكفل له سعادته، ويجعل قويه عوناً لضعيفه وغنيه براً بفقيره، وحذر من اتباع الأهواء واقتراف المظالم واعتداء الحدود.

ووعده على ذلك خير الدنيا والآخرة: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثِيَ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (النحل: ٩٧)
فإذا جاء الناس فقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وتعاونوا على العدوان بدل أن يتعاونوا على التقوى فكيف يشكون ربهم إذا حصدوا المر من آثامهم؟

إن أغلب ما أهدق بالعالم من شرور يرجع إلى شروده عن الصراط المستقيم، وفي هذا يقول الله جل شأنه: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى: ٣٠)

قال مظهر: ماذا تعنى؟

قال الغزالي: أعنى أن شرائع الله كافية لإراحة الجماهير، ولكنكم بدل أن تلوموا من عطلها تجرأتم على الله واتهمتم دينه وفعله!

ومن خسة بعض الناس أن يلعن السماء إذا فسدت الأرض، وبدلاً من أن يقوم بواجبه فى تغيير الفوضى وإقامة الحق يثرثر بكلام طويل عن الدين ورب الدين...!!

إنكم معشر الماديين مرضى تحتاج ضمائركم وأفكاركم إلى علاج بعد علاج.. قال الغزالي ذلك، ثم انصرف والغضب باد على وجهه، وقد افترق الجمع بانصرافه.. وقد تعجبت إذ رأيت دموعاً كثيرة بدأت تتجمع في عين (مظهر).. وقد استوحيت من خلال تجربتي أن كثيراً من أشعة النور قد تسربت إليه من خلال حديث الغزالي معه^(١).

المناظرة الخامسة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الخامسة.

قال: فى شارع من شوارع تلك المدينة وجدت شيخاً صاحب لحية بيضاء، لكنه خضبها بما زاده وقارا.. كان الناس يطلقون عليه لقب (الزندانى).. وكان يحاور بهدوء رجلاً من بلادنا كان اسمه (البروفسور روبرت)، وقد كان على حسب ما يبدو صاحب

(١) ذكرنا أن إسماعيل مظهر قد تراجع عن الكثير من آرائه.. ونحب أن ننبه هنا من جديد إلى أن الحوار الذي ذكره الغزالي كان مع ملحد لم يسمه.

منصب علمي مرموق^(١).

سألني على مسامعكم بعض ما سمعت من حديث..

قال الزنداني: هل لديك استعداد يا بروفيسور لأن تتحاور حول الإيمان بالله.

قال روبرت: نعم

قال الزنداني: هل كنت قبل مائة سنة موجوداً؟

قال روبرت: لا.

فقال الزنداني: وهذه النباتات بأغصانها وجذورها وأزهارها هل كانت موجودة قبل

آلاف أو مئات السنين؟

قال روبرت: لا.

قال الزنداني: وكذلك الحيوانات، ما كانت موجودة منذ الأزل.

قال روبرت: أجل.

قال الزنداني: إن علم الحفريات في الأرض قد أثبت أنه قد مرت فترة زمنية على

الأرض لم يكن فيها نباتات ولا حيوانات بل ولا جبال ولا وديان ولا تربه ولا أنهار ولا

بحار.

قال روبرت: نعم.

قال الزنداني: بل قد مر وقت لم يكن للكوكب الأرضي وجود، بل كان جزءاً من مادة

السماء، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا

وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

(١) كان البروفيسور (روبرت) مدير لمعهد للأرصاد تشترك فيه سبع وخمسون جامعة أمريكية.. وقد جرى هذا

النقاش - على حسب ما يذكر الزنداني - عقب المؤتمر الدولي للإعجاز العلمي في إسلام آباد.

لاحظت وجه روبرت يتغير عندما قرأ الزندانى الآية.. فقال الزندانى: إن الشمس والقمر ونجوم السماء لم يكن لها وجود، وكانت دخاناً كما يقرر ذلك علماء الفلك اليوم، وكما يقرره القرآن من قبل في قوله تعالى ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ (فصلت: ١١).

قال روبرت: ما ذكرته الآية من وجود أصل دخانى للكون صحيح.

قال الزندانى: كما يقرر علماء الكون اليوم أن مادة الكون الدخانية (السديم) لم تكن موجودة، ووجدت بالانفجار العظيم، وكان الكون قبل ذلك عدماً.

قال روبرت: ما تقوله صحيح.

قال الزندانى: إذن لا بد من وجود الخالق سبحانه الذى أوجد هذه المخلوقات من عدم، وعدد الأدلة على وجود الله الخالق كعدد هذه المخلوقات التى وجدت من العدم.

قال روبرت: نعم، لا بد لهذا الكون من خالق.

قال الزندانى: فمن هو؟

قال روبرت: الطبيعة!

قال الزندانى: عندي قاعدة أخرى ستبين لنا من الخالق، وستعرفنا بصفاته.

قال روبرت: وما هي؟

قال الزندانى: أنظر إلى هذا المصباح (وكان في ذلك الشارع مصباح كهربائى (نيون)

).

قال روبرت: ماذا أنظر؟

قال الزندانى: هل الذى صنع هذا المصباح لديه زجاج؟

قال روبرت: نعم، وإلا فمن أين جاء هذا الزجاج؟

قال الزندانى: وهذا الصانع لديه قدرة على تشكيل الزجاج فى شكل أسطوانى منتظم.
قال روبرت: أجل.

قال الزندانى: وصانع المصباح لديه معدن (الألمنيوم الذى فى طرفى المصباح).
قال روبرت: نعم.

قال الزندانى: وهو قادر على تشكيل الألمنيوم فى شكل غطاء.
قال روبرت: نعم.

قال الزندانى: ألا ترى إلى الإحكام بين فتحة الاسطوانة الزجاجية والغطاء المعدنى،
ألا يدل ذلك الإحكام على أن الصانع حكيم؟
قال روبرت: بلى.

قال الزندانى: وهذا المصباح يضىء بمرور التيار الكهربائى بين قطبيه ألا يدل ذلك على
أن صانعه عالم بهذه الخاصية؟

قال روبرت: يمكنك أن تعرف ذلك بالضغط على زر المصباح الكهربائى فتحاً
وإغلاقاً.

قال الزندانى: إذن تشهد الآن بأن صانع هذا المصباح يتصف بما يلى: لديه زجاج..
قادر على تشكيل الزجاج فى شكل أسطوانى.. لديه إحكام، لأنه أحكم فتحة الغطاء
المعدنى على فتحة الاسطوانة الزجاجية.. لديه علم بالكهرباء وخاصيتها عند مرورها فى
المصباح.

قال روبرت: نعم.

قال الزندانى: أتشهد بذلك؟

قال روبرت: أشهد.

قال الزندانى: كيف تشهد بصفات صانع لم تراه؟!

أشار روبرت إلى المصباح، وقال: هذا صنعه أمامي يدلني على ذلك.

قال الزندانى: إذن، المصباح أو المصنوع هو كالمراة يدل على بعض صفات الذي صنعه، فلا يكون شئ في المصباح أو المصنوع إلا وعند الصانع صنعة أو قدرة أو جد بها ذلك الشئ الذي نراه.

قال روبرت: أجل.

قال الزندانى: هذه القاعدة الثانية، ففي المخلوقات آثار تدل على بعض صفات خالقها سبحانه، وكما عرفت بعض صفات صانع المصباح من التفكير في المصباح، فسوف تعرف بعض صفات الخالق جل وعلا بالتفكر في مخلوقاته.

قال روبرت: كيف؟

قال الزندانى: فلننظر في خلقك أنت، ولتفكر فيك بدلاً من المصباح، وعندئذ ستعرف بعض صفات خالقك.

فقال روبرت: كيف؟

قال الزندانى: هل درجة حرارة جسم الإنسان ثابتة أم متغيرة بحسب الطقس الخارجي؟

قال روبرت: بل ثابتة عند ٣٧ درجة مئوية.

قال الزندانى: إن في الجسم عوامل مثل: إفراز العرق، تقوم بتخفيض درجة حرارة الجسم إلى ٣٧ درجة عندما ترتفع درجة حرارة الجو التي قد تصل إلى أكثر من خمسين درجة، وفي الجسم أيضاً عوامل أخرى، كإحراق الطعام في الجسم، تعمل على رفع درجة حرارة الجسم إلى ٣٧ درجة عند انخفاض درجة حرارة الجو في الشتاء والتي قد تصل إلى

درجاتٍ تحت الصفر.. فهل الذي أقام هذا الميزان المحكم الدائم في عمله في سائر أجسام البشر التي خلقت وسوف تخلق بحيث تبقى درجة الحرارة ثابتة عند ٣٧ لا تزيد ولا تنقص رغم تقلبات درجات الحرارة في الجو المحيط بنا، هل هو حكيم أم لا؟
أحسن روبرت أنه إن سلم باتصاف الخالق بصفة الحكمة فستسقط الطبيعة التي لا حكمة لها، فلذلك قال: لا ليس بحكيم!

قال الزنداني: لقد أعد لك الجهاز الذي يضبط درجة الحرارة في الجسم وأنت جنين في بطن أمك، في رحمٍ مكيفة عند درجة سبعة وثلاثين في وقت لم تكن بحاجة إليه وأنت جنين في بطن أمك، وإنما تحتاج إليه بعد خروجك إلى هذه الأرض التي تتغير فيها درجات الحرارة فتكون عندئذ في أمس الحاجة إلى هذا الجهاز المنظم للحرارة والمثبت لها عند درجة ٣٧ وهي الدرجة المناسبة لكيمياء الحياة في جسم الإنسان. ألا ترى أن من زدك في بطن أمك بما ستحتاج إليه بعد خروجك عليم بالبيئة التي ستخرج إليها وما يلزم لها من تكوينات في خلقك؟!

أحسن روبرت أنه إن سلم بأن الخالق يتصف بالعلم فستسقط الطبيعة التي لا علم لها ولا حكمة فعاد مرة ثانية إلى الإنكار والجحود. فقال روبرت: لا، ليس بعليم.

قال الزنداني: سأضرب لك مثلاً آخر.. هل ينمو جسمك باتزان أم بغير اتزان؟
قال روبرت: بل باتزان.. فلو كان بغير اتزان لرأيت عيناً أكبر من عين، ويداً أكبر من يد، ورجلاً أكبر من رجل.

قال الزنداني: الذي وضع الميزان في كل خلية في جسمك حكيم أم ليس بحكيم؟
قال روبرت: ليس بحكيم.

قال ذلك فراراً مرة أخرى من أن يعترف بالحكمة، فيُلزم بالاعتراف بالخالق، فقال

الزنداني: يا بروفيسور! رأيت ميزان الحركة في جسمك الذي يعمل على تثبيت الجسم وموازنته بحيث لو انزلت إلى الجهة اليسرى يعيدك فوراً إلى الجهة اليمنى بعمل تلقائي محكم، وهكذا لو انزلت إلى أي جهة أخرى فيعيدك إلى الجهة المقابلة لها، هل الذي خلق لك جهاز التوازن في الحركة وأنت جنين في بطن أمك وجعله يعمل بسرعة البرق حكيم أم ليس بحكيم؟

قال روبرت: ليس بحكيم!

قال الزنداني: سبحان الله!! ألا ترى أنك تكابر بكلامك هذا..

قال روبرت: لا.. لا أكابر.. أنا أقول لك ما أعتقد.

عدد له الزنداني له بعد هذا بعض الموازين المبنوثة في الكون مثل ثبات نسبة الأكسجين في الهواء، وتوازن سير القمر مع الأرض بحيث يسرع عند الاقتراب منها، ويبطئ عند الابتعاد عنها، والتوازن بين سرعة سير النجوم والكواكب والجاذبية بينها وبين غيرها من النجوم والكواكب، ثم قال له: ألا يدل ذلك كله أنه من صنع الحكيم؟ فقال روبرت: لا.

سكت الزنداني قليلاً، ثم قال: يا بروفيسور.. سأقص عليك شيئاً رأيته بعيني امتلأت منه دهشة.. أرجو أن تفسره لي^(١).

قال روبرت: لا بأس.. سأفسره لك في حدود تخصصي.

قال الزنداني: لقد رأيت مرة زلزالاً أصاب بلدنا.. وقد رأيت ظاهرة عجيبة مصاحبة للزلزال.. لقد رأيت قضيباً معدنياً يطير في السماء، ثم يسقط على مسمار فيخرقه في

(١) هذا من التصرف في النص.

منتصفه، فيتزن القضيب، ثم رأيت مادة من اللحم تطير، فتقع على أحد طرفي القضيب، ثم رأيت طبقاً معدنيا يطير فيقع على اللحم، ويشكل كفة ميزان، وبنفس الطريقة تكونت الكفة الثانية، وهكذا وجد لدينا ميزان!

تغيرت ملامح وجه روبرت، ثم قال: ما هذا؟ زلزال يصنع ميزاناً؟
قال الزندانى: انتظر، هناك أعجب من هذا.. إنه يعمل بشكل آلي بحيث لو وضعت وزناً محدداً في كفة، فإنه يقوم بوضع نفس الوزن في الكفة الثانية، وإذا أنقصتها قام هو فأنقص ما يقابلها من الكفة الأخرى؛ لأنه لا يرضى إلا أن يكون متزاناً!
أخذ روبرت ينظر باستغراب ودهشة إلى الزندانى، وكأنه يتهمة بالجنون، فقال الزندانى متهمكماً: يا برفسور جاء صدفة! ويعمل بالصدفة!

هنا فطن روبرت، فاتفجر ضاحكاً، فقال له الزندانى: أنت لم تقبل لي ميزاناً واحداً بالصدفة.. فكيف تزعم أن موازين السماوات والأرض كلها قد خلقت صدفة!
لم يجد روبرت ما يقول.. لكنى رأيت بصيصاً من النور قد بدأ يتسرب إليه لينسخ ظلمات الإلحاد التي كان غارقاً فيها.

المناظرة السادسة:

قال الجمع: حدثنا عن المناظرة الخامسة.. فحدثنا عن السادسة.
قال: في شارع من شوارع تلك المدينة، رأيت الناس يلتفون حول رجلين..
أما أحدهما، فكان الناس يطلقون عليه لقب (وحيد الدين خان)^(١)، وتبدو عليه

^(١) أشير به إلى (وحيد الدين خان)، وهو مفكر مسلم هندي معاصر يجمع بين الفكر الإسلامى، والفكر العلمى الفلسفى.. وبذلك المقومات استطاع أن يناظر الملحدين واللادينيين بحججه الدامغة في العديد من كتبه، وتتميز مؤلفاته أنها تجمع بين البساطة والعمق، ولذلك فهي تناسب مختلف أنواع القراء، من مؤلفاته المترجمة إلى العربية (

سمات الهنود التي تجمع بين البساطة والجمال.

وأما الثاني، فرجل إنجليزي يقال له (برتراند رسل)^(١).. وهو رجل قد بلته الأيام، وحتت ظهره السنون، ولكنها مع ذلك لم تمنعه من القدوم لتلك البلاد للبحث عن الله، والمناظرة في ذلك، والتواضع أمام من يناظره.

بدأ خان الحديث، فقال متوجها لراسل: وأخيرا التقينا يا راسل.. لطالما اشتقت إلى لقائك بعد أن قرأت كتبك، وعرفت نوع توجهك الفكري.

قال راسل: وما قرأت منها؟

قال خان: كلها تقريبا..

قال راسل: فأنت تعرفني الآن جيدا؟

قال خان: ربما أعرفك.. ولكن مع ذلك ليس الخبر كالعيان.

قال راسل: لقد سئلت ذات يوم: هل يحيا الإنسان بعد الموت؟.. فهل تدري بما أجبت؟

قال خان: أجل.. لقد نفيت حياة الإنسان بعد الموت.. واستدللت لنفيك بقولك:

الإسلام يتحدى)، وهو أشهرها، وقد استفدنا منه في هذا المحل، و(الدين في مواجهة العلم)، و(حكمة الدين)، و(تجديد علوم الدين)، و(المسلمون بين الماضي والحاضر والمستقبل)، و(خواطر وعبر)

(١) نشير به إلى برتراند راسل (١٨٧٢ - ١٩٧٠)، وهو فيلسوف ورياضي وكاتب إنجليزي، وقد كان من أشهر الفلاسفة الذين عرفهم الفكر الفلسفي أثناء الفترة الممتدة ما بين الحربين العالميتين الأولى والثانية.. وقد ظل صاحب الخطوة الأولى لدى الذين يطلقون على أنفسهم تقدميين من المثقفين المعاصرين الملاحدة في أوروبا وغيرهم.. وهو ذو تطرف سياسي، ومتطرف جداً في إلحاده، وقد بسط أفكاره السياسية والإلحادية المتطرفة في كتابات أدبية مؤثرة.. أثرت كتاباته السهلة على العامة، وأثرت كتاباته العميقة على الفكر الأوروبي المعاصر كله.

ونحن ننبه هنا إلى أننا لا نقصد هنا الرد على كل ما يرتبط بأفكار راسل، وإنما نقصد فقط التنبيه إليه.. ورد ما يرتبط بموضوعنا هذا من أفكاره.

(عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم، وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فالاعتقاد السائد بأننا نحيا بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكز أو أساسٍ علمي، ولا أظن أنه يتسنى لمثل هذا الاعتقاد أن ينشأ وأن ينتشر لولا الصدى الانفعالي الذي يحدثه فينا الخوف من الموت. لا شك أن الاعتقاد بأننا سنلقى في العالم الآخر أولئك الذين نكن لهم الحب، يعطينا أكبر العزاء عند موتهم، ولكني لا أجد أي مبرر لافتراض أن الكون يهتم بآمالنا ورغباتنا، فليس لنا أي حق في أن نطلب من الكون تكييف نفسه وفقاً لعواطفه وآمالنا، ولا أحسب أن من الصواب والحكمة أن نعتنق آراء لا تستند إلى أدلة بينة وعلمية)^(١)

قال راسل: فما موقعي من الدين؟

قال خان: لقد عبرت عنه بقولك: (إن الدين لا يقوم إلا على عوامل الترهيب والتلويح بالعقاب، وبالتالي فإن الدين يشكل ضرباً من ضروب الشر التي تملأ هذا العالم.. وهذا هو السبب في أننا نجد أن أولئك الذين لم يبلغوا بعد درجة كافية من النضج الأخلاقي والعقلي هم وحدهم الذين ما زالوا يتمسكون بالمعايير الدينية التي تناهض بطبيعتها جميع المعايير الإنسانية الخيرة التي يجب أن تسود عالمنا الحديث)

قال راسل: فما موقعي من الأخلاق؟

قال خان: أنت ترى أن للإنسان إرادة حرة تدفعه إلى أن يقيم لنفسه في الحياة مثلاً عالياً، يطمح بها إلى تحقيق حياة خيرة، تسير على هدى المعرفة والمحبة الإنسانية، ومن شأن حرية الاختيار هذه أن تغني الإنسان عن البحث عن نظريات أخلاقية لا طائل وراءها.

(١) سنرد على هذا القول وما يشبهه في رواية (أسرار الحياة) من هذه السلسلة.

وذكرت أنه لا جدوى للنظريات الأخلاقية التجريدية لضرورات الحياة العملية، وبرهنت على ذلك بالأم التي تواجه مرض طفلها الصغير، وقلت في ذلك: إن تلك الأم لا تحتاج في سعيها وراء شفاء طفلها إلى مشرعين أخلاقيين، وإنما تحتاج إلى طبيب ماهر قادر على وصف العلاج المناسب.

قال راسل: لقد كتبت قصة أدبية ذكرت فيها أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى دوراناً ذاتياً، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة، بطريق المصادفة، وأن اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون، يعود به كل شيء إلى سديم، كما كان أولاً.. أتعرف هذه القصة؟

قال خان: أجل..

قال راسل: أتدري ما الذي أقصده منها؟

قال خان: أنت تريد أن تبين من خلالها نشوء الكون وتطوره.. ونشوء الحياة وتطورها.. وأصل الإنسان ونشأته وتطوره.. ونشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها.. وأخيراً أنت تشدد على أن النهاية الحتمية لجميع الأشياء، وأنها الفناء والعدم، ولا أمل لكائن بعدها بشيء.. فالحياة من السديم، وإلى السديم تعود.

قال راسل: أراك ملماً بأفكاري.. ولكني كما تعلم كنت متقلبا كل حين.. فهل تعلم النهايات الفكرية التي جئت إليك بها لعلك تستطيع أن تقنعني بما يجعلني أعدل عنها؟

قال خان: أجل.. وإلا لما قبلت أن أناقشك وأناظرك، فلا يمكن لمناظر أن يجهل من يناظره.

قال راسل: فأخبرني عنها^(١).

قال خان: من ذلك أنك ذكرت أنك بعد أن درست الفيزياء، وعلم الحياة، وعلم النفس، والمنطق الرياضي، انتهيت إلى أن (مذهب الشك في الوجود مستحيل نفسياً)، ومع ذلك فإن الإنسان عاجز عن أن يحيط إلا بأقل قدر من المعرفة.

وتقول بالنسبة إلى الفلسفة: (تدعي الفلسفة منذ القدم ادعاءات كبيرة، ولكن حصيلتها أقل بكثير بالنسبة إلى العلوم الأخرى)

وتقول عن تصورنا العلمي للكون أنه (لا تدعمه حواسنا التجريبية، بل هو عالم مستنبط كلياً)

وبلغ بك الأمر في هذا إلى أن قلت: (إن أفكار الناس لا توجد إلا في مخيلاتهم فحسب)، أي: إن التجربة لا تستطيع أن تثبت مطابقة هذه الأفكار للواقع.

وانتهيت إلى أن التجربة قد أعطيت لها الأهمية الكبرى، ولذلك يجب أن تخضع (التجريبية) باعتبارها فلسفةً لتحديات مهمة.. وقد ذكرت سريان هذا حتى على النظريات والقوانين العلمية.

وقلت..

قاطع راسل، وقال: أحسب أنك تعرف كل ما قلت، بل تحفظه عن ظهر قلب.. فهل تعرف ما قيل في؟

قال: من أحسن ما قيل فيك ما قاله البروفسور (ألان وود)، فقد قال: (إن برتراند رسل فيلسوف بدون فلسفة)

^(١) ذكر وحيد الدين خان، أنه قرأ كل أعمال (برتراند رسل) واستطاع بعد قراءتها أن يلتقط من أقواله ما يكشف عن النهايات الفكرية التي انتهى إليها.. وما نذكره هنا هو هذه الأقوال التي جمعها وحيد الدين خان.

قال راسل: دعنا منه، فقد أعماه الحسد أن يرى محاسني.. دعنا منه.. وهيا لما اجتمعنا من أجله.. لقد سمعت مني ما قلت.. فبم ترد علي؟

قال خان: سأبدأ بموقفك من الطبيعة.. أو ركونك إلى الطبيعة.. فأنت ترى - انطلاقاً من معارفك في البيولوجيا - أن الحوادث تحدث طبقاً (لقانون الطبيعة).. ولهذا لا حاجة لأن نفترض لهذه الحوادث إلهاً مجهولاً.

قال راسل: صحيح أنا أقول هذا.. ولست وحدي في ذلك.. فكل الفلاسفة الماديين يرددون هذا.

قال خان: لقد قال بعضهم يعبر عن علاقة الطبيعة بالكون: (إن الطبيعة حقيقة (من حقائق الكون) وليست تفسيراً (له).. وصدق في ذلك.. فما كشف عنه العلم من الكون هو الهيكل الظاهر منه فقط.. وكل مضمون العلم حوله هو إجابة عن السؤال: (ما هذا؟).. ولكن الدين هو الذي بين لنا الأسباب والدوافع الحقيقية التي تدور (وراء الكون)، وهو يجيب عن السؤال المهم: (ولكن لماذا؟)

ولتفهم هذا سأستعير لك مثلاً بسيطاً مقرباً.. ألا ترى الكتكوت يعيش أيامه الأولى داخل قشرة البيضة القوية ويخرج منها بعدما تنكسر وكأنه مضغعة لحوم، كان الإنسان القديم يؤمن بأن الله أخرجه.. ولكننا اليوم بالمنظار نعلم أنه في اليوم الحادي والعشرين يظهر قرن صغير على منقار الكتكوت يستعمله في تكسير البيضة لينطلق خارجاً منها، ثم يزول هذا القرن بعد بضعة أيام من خروجه من البيضة.

ابتهج راسل، وقال: ها هو العلم يقضي على التفسير الخرافي الذي جاء به الدين.. فالقرن هو الذي أخرج الكتكوت، لا الإله.

ابتسم خان، وقال: إن التأمل فيما كشفه العلم - بعيداً عن الغرور والكبرياء والزهو - لا

يدلنا إلا على حلقات جديدة للحادث، ولا يفسر الحادث..

قال راسل: كيف ذلك؟

قال خان: إن العلم لم يكتشف بعد السبب الحقيقي.. لقد غير صيغة السؤال فقط..

فبدل أن يكون السؤال عن تكسر البيضة أصبح عن (القرن)؟

إن السبب الحقيقي سوف يتجلى لأعيننا حين نبحث عن العلة التي جاءت بهذا القرن، العلة التي كانت على معرفة كاملة بأن الكتكوت سوف يحتاج إلى هذا القرن ليخرج من البيضة، فنحن لا نستطيع أن نعتبر الوضع الأخير (وهو مشاهدتنا بالمنظار) إلا أنه (مشاهدة للواقع على نطاق أوسع) ولكنه ليس تفسيراً له.

لقد ضرب البروفيسور (سيسيل بايس هامان) وهو أستاذ أمريكي في البيولوجيا، مثالا قريبا من هذا، فقال: (كانت العملية المدهشة في صيرورة الغذاء جزءا من البدن تنسب من قبل إلى الإله، فأصبحت اليوم بالمشاهدة الجديدة تفاعلا كيمياويا.. ولكن هل أبطل هذا وجود الإله؟.. فما القوة التي أخضعت العناصر الكيماوية لتصبح تفاعلا مفيدا؟.. إن الغذاء بعد دخوله في الجسم الإنساني يمر بمراحل كثيرة خلال نظام ذاتي، ومن المستحيل أن يتحقق وجود هذا النظام المدهش باتفاق محض، فقد صار حتما علينا بعد هذه المشاهدات أن نؤمن بأن الله يعمل بقوانينه العظمى التي خلق بها الحياة!)

وعلى هذا المنوال نقول بأن الإنسان كان في القديم يعرف أن السماء تمطر، لكننا اليوم نعرف كل شيء عن عملية تبخر الماء في البحر، حتى نزول قطرات الماء على الأرض وكل هذه المشاهدات صور للوقائع، وليست في ذاتها تفسيراً لها.

فالعلم لا يكشف لنا كيف صارت هذه الوقائع قوانين؟ وكيف قامت بين الأرض والسماء على هذه الصورة المفيدة المدهشة، حتى أن العلماء يستنبطون منها قوانين علمية؟

والحقيقة أن ادعاء الإنسان بعد كشفه لنظام الطبيعة أنه قد كشف تفسير الكون ليس سوى خدعة لنفسه، فإنه قد وضع بهذا الادعاء حلقة من وسط السلسلة مكان الحلقة الأخيرة.

لقد قال العالم الأمريكي سيسيل في هذا: (إن الطبيعة لا تفسر شيئاً (من الكون) وإنما هي نفسها بحاجة إلى تفسير)

سأوضح لك هذا بمثال بسيط..

لو أنك سألت طبيباً: ما السبب وراء احمرار الدم؟.. لأجاب: لأن في الدم خلايا حمراء، حجم كل خلية منها جزء من البوصة.. فتقول له: حسناً.. ولكن لماذا تكون هذه الخلايا حمراء؟.. فيجيبك: في هذه الخلايا مادة تسمى (الهيموجلوبين)، وهى مادة تحدث لها الحمرة حين تختلط بالأكسجين فى القلب.. فتقول له: هذا جميل.. ولكن من أين تأتى هذه الخلايا التي تحمل الهيموجلوبين؟.. فيجيبك: إنها تصنع في كبدك.. فتقول له: عجيب! ولكن كيف ترتبط هذه الأشياء الكثيرة من الدم والخلايا والكبد وغيرها بعضها ببعض ارتباطاً كلياً، وتسير نحو أداء واجبها المطلوب بهذه الدقة الفائقة؟.. فيجيبك: هذا ما نسميه بـ (قانون الطبيعة).. فتقول له: ولكن ما المراد بـ (قانون الطبيعة) هذا، يا سيدي الطبيب؟.. فيجيبك: المراد بهذا القانون هو الحركات الداخلية للقوى الطبيعية والكيمائية.. فتقول له: ولكن لماذا تهدف هذه القوى دائماً إلى نتيجة معلومة؟ وكيف تنظم نشاطها حتى تطير الطيور في الهواء، ويعيش السمك في الماء، ويوجد إنسان في الدنيا بجميع ما لديه من الإمكانيات والكفاءات العجيبة المثيرة؟.. فيجيبك: لا تسألني عن هذا، فإن علمي لا يتكلم إلا عن: (ما يحدث)، وليس له أن يجيب: (لماذا يحدث؟)

من هذه الأسئلة يتضح لك مدى صلاحية العلم الحديث لشرح العلل والأسباب وراء هذا الكون.. ولا شك أنه قد أبان لنا عن كثير من الأشياء التي لم نكن على معرفة بها، ولكن

الدين جواب لسؤال آخر لا يتعلق بهذه الكشف الحديثة العلمية، فلو أن هذه الكشف زادت مليون ضعف عنها اليوم فسوف تبقى الإنسانية بحاجة إلى الدين، إن جميع هذه الكشف (حلقات ثمينة من السلسلة)، ولكن ما يحل محل الدين لابد أن يشرح الكون شرحا كلياً وكاملاً، فما الكون على حاله هذه إلا كمثال ماكينه تدور تحت غطاءها لا نعلم عنها إلا أنها (تدور)، ولكننا لو فتحنا غطاءها فسوف نشاهد كيف ترتبط هذه الماكينة بدوائر وتروس كثيرة يدور بعضها بعضاً، ونشاهد حركاتها كلها.. هل معنى هذا أننا قد علمنا خالق هذه الماكينة بمجرد مشاهدتنا لما يدور داخلها؟ هل يفهم منطقياً أن مشاهدتنا هذه أثبتت أن الماكينة جاءت من تلقاء ذاتها، وتقوم بدورها ذاتياً؟ لو لم يكن هذا الاستدلال منطقياً فكيف إذن نثبت بعد مشاهدة بعض عمليات الكون أنه جاء تلقائياً ويتحرك ذاتياً؟

لقد استغل البروفيسور هريز هذا الاستدلال حين نقد فكرة داروين عن النشوء والارتقاء فقال: (إن الاستدلال بقانون الانتخاب الطبيعي يفسر عملية (بقاء الأصلح)، ولكنه لا يستطيع أن يفسر حدوث هذا الأصلح)

قال راسل: دعنا من هذا، وأجبنى على ما يقوله علم النفس الحديث المؤيد بالكثير من الوسائل العلمية.. لقد أعطى هذا العلم العظيم تفسيره للدين والإله.. فذكر أن الإله والآخرة ليسا سوى قياس للشخصية الإنسانية وأمانيتها على مستوى الكون.. ما تقول في هذا؟

ابتسم خان، وقال: سأجيبك عن هذا بصروف من الإجابات..

وأبدأ أولها بالتسليم الجدلي لك.. فأعتبر أن ما تقوله صحيحاً.. ولكنني أضم إلى ذلك دعوى أخرى، وهي أن الشخصية الإنسانية وأمانيتها ليست محصورة في الإنسان فقط.. بل هي موجودة أيضاً على مستوى الكون.. ولا يهمني ما عسى أن يطل ادعائي هذا من منطق المعارضين.. لأنه ليس لديهم - بالنسبة للإنسان في هذا - أي دليل.

نحن نعرف أن المادة (الجنين) التي لا تشاهد إلا بالمنظار تنبئ في ذاتها عن إنسان طوله ٧٢ بوصة، وأن (الذرة) التي لا تقبل المشاهدة تحتوى نظاما رياضيا كونيا يدور عليه النظام الشمسي، فلا عجب إذن أن يكون النظام الذي نشاهده على مستوى الإنسان في الجنين، وعلى مستوى النظام الشمسي في الذرة موجودا أيضا.. بل موجود بصورة أكمل.. على مستوى الكون.. فضمير الإنسان وفطرته ينشدان عالما متطورا كاملا، فلو كان هذا الأمل صدى لعالم حقيقي، فلست أرى في ذلك أي ضرب من ضروب الاستحالة. هذا أولا..

ثانيا.. أنا لا أكذب ما يورده علماء النفس وغيرهم من أن الذهن الإنساني يحتفظ بأفكار قد تظهر فيما بعد في صورة غير عادية.. ولكن سوف يكون قياسا مع الفارق أن نعتمد على هذه الفكرة كي نبطل الدين.. لأن ذلك قياس في غير محله، وهو - بذلك - يعتبر استدلالا غير عادي من واقع عادي..

وذلك يشبه من يشاهد رجلا يصنع صنما، فيصيح: هذا الذي قام بعملية خلق الإنسان. ثالثا.. أرأيت لو أن رجلا كان يسير في شارع، ثم أخذ يهذي بكلام غريب نتيجة لأفكار مخترنه في ذهنه.. فجاء فيلسوف مثل حضر تكم، وراح يستغل هذا الحادث في البحث في كلام الأنبياء، وهو الكلام الذي يكشف سر هذا الكون..

ألا ترى أن هذا النوع من الاستدلال غير علمي وغير منطقي.. بل إنه يدل على أن صاحبه يفتقر الى القيم حتى يستطيع التفرقة بين كلام رجل الشارع وكلام الأنبياء، فلا يدعى أن هذا الهذيان هو المسئول عما جاء به الدين؟

ثم تخيل معي لو أن رهطا من سكان بعض الكواكب هبط الأرض، وهم يسمعون، ولكنهم لا يقدرون على الكلام.. ولتتصور أنهم ذهبوا يبحثون عن الأسباب التي تجعل

الإنسان يتكلم.. وبينما هم في طريقهم إلى هذا البحث هبت الرياح واحتك غصنان أحدهما مع الآخر، فتج صوت، وتكررت العملية غير مرة حتى توقفت الرياح، وإذا بهم يعلن كبيرهم: لقد عرفنا سر كلام الإنسان، وهو أن فمه يحتوى على فكين من الأسنان، فإذا احتك الفك الأعلى بالأسفل صوت.

لا شك أن هذا الكلام صحيح.. ولكن واقع الكلام الإنساني أعظم من أن يفسر بمثل هذا.. فلماذا لا يصح تفسير أسرار النبوة بكلام غريب كهذين رجل الشارع، في حال الجنون أو الهستيريا.

رابعاً.. لا شك أن اللا شعور - من الوجهة العلمية - ليس سوى مخزن للمعلومات والمشاهدات التي شاهدها الإنسان في حياته ولو مرة، ومن المستحيل أن يختزن اللا شعور حقائق لم يعلمها من قبل..

ولكن الذي يثير الدهشة أن الدين الذي جاء على لسان الأنبياء يشتمل على حقائق أبدية لم تخطر على بال أحد من الناس في أي زمان، فلو كان اللا شعور هو مخزن هذه المعلومات، فمن أين يأتي بها هؤلاء الذين يتكلمون عن أشياء لا طريق لهم إلى العلم بها؟ إن الدين الذي جاء به الأنبياء يتصل من ناحية أو أخرى بجميع العلوم المعاصرة^(١) من الطبيعة، والفلك، وعلم الحياة، وعلم الإنسان، وعلم النفس والتاريخ والحضارة والسياسة والاجتماع وغيرها من العلوم..

وكل حديث في التاريخ الإنساني مصدره (الشعور)، فضلاً عن اللا شعور، لا يخلو من الأغلاط والأكاذيب والأدلة الباطلة.

(١) لا ينطبق هذا انطباقاً صحيحاً شاملاً إلا على الإسلام ومصادره المقدسة، وقد برهننا على هذا بتفصيل في رواية (معجزات علمية) من هذه السلسلة.

أما الكلام النبوي فإنه بريء ولا شك من كل هذه العيوب رغم اتصاله بجميع العلوم.. فقد مرت قرون إثر قرون أبطل فيها الآخرون ما ادعاه الأولون، وما زال صدق كلام النبوة باقيا على الزمان، ولم يستطع أحد أن يدل على باطل جاء به، وكل من حاول ذلك أخفق. خامسا.. لقد رأيت من خلال اطلاعي على مؤلفاتك ومؤلفات إخوانك من الذين يستدلون بالتاريخ أو الاجتماع أنكم لا تدرسون الدين من وجه صحيح.. ولهذا يبدو في نظركم شيئا غريبا.. أنتم تتناولون الدين على أنه (مشكلة موضوعية)، فلهذا تجمعون في سلة واحدة كل ما أطلق عليه اسم (الدين) من رطب ويابس، في أي مرحلة من التاريخ، ثم تتأملون في ضوء هذا المحصول حقيقة الدين.

إن هذا موقف ينحرف بكم عن الصواب من أولى مراحل، ولهذا يبدو لكم الدين - جراء هذا الموقف الفاسد- عملا اجتماعيا، لا كشفا لحقيقة.. ومن المعلوم أن لكل ما يكشف عن حقيقة من الحقائق مثلا أعلى، ولا بد عند البحث عن هذه الحقائق أن ندرس مظاهرها وتاريخها في ضوء مثله الأعلى.. أما الأمور التي تأتي بها أعمال اجتماعية فليس لها مثل أعلى.. وبقاؤها رهن بحاجة المجتمع إليها.

ومنهج البحث عن الدين يختلف عن هذا كل الاختلاف.. فليس من الصحيح البحث عن حقائقه، كما يبحث المؤرخون عن تطورات فنون العمارة والنسيج والحياكة والسيارات، لأن الدين علم على حقيقة يقبلها المجتمع أو يرفضها، أو يقبلها في شكل ناقص.. ويبقى الدين في جميع هذه الأحوال حقيقة واحدة في ذاتها، وإنما يختلف في أشكاله المقبولة، ولهذا لا يمكن أن نفهم حقائق (الدين) بمجرد فهرسة مماثلة لجميع الأشكال الموجودة في المجتمعات باسم الدين.

قال راسل: أراك انتقدت منهج بحثنا عن الإله.. فما المنهج الذي تراه سليما للبحث

عنه؟

قال خان: هذا أهم سؤال طرحته.. وينبغي لأي باحث أن يطرحه.. فقضية العصر الحاضر وكل العصور ضد الدين هي قضية طريقة الاستدلال.

لقد كان الناس في القديم يصنعون السفن الشراعية من الخشب اعتقاداً منهم أن الماء لا يحمل إلا ما يكون أخف منه وزناً، وحين قال بعضهم: إن السفن الحديدية سوف تطفو على سطح الماء كالتي من الخشب، أنكر الناس عليه مقالاته واتخذوه هزواً، وجاء نحاس فألقى بنعل من حديد في دلو مملوء بالماء ليشهد الناس على أن هذه القطعة الحديدية - بدل أن تطفو على سطح الماء - استقرت في القاع، وكان هذا العمل تجربة، ولكننا جميعاً نعتقد اليوم أنها كانت تجربة باطلة، فلو كان النحاس قد ألقى بطبق من حديد لشاهد بعينه صدق ما قيل من طفو السفن الحديدية.

وفي بداية القرن العشرين كنا كذلك نملك تلسكوبا ضعيفا، فلما شاهدنا السماء بهذا النظار وجدنا أجراما كثيرة كالنور، فاستنبطنا أنها سحب من البخار والغاز تمر بمرحلة قبل أن تصير نجوماً، ولكننا حين تمكنا من صناعة منظار قوى وشاهدنا هذه الأجرام مرة ثانية علمنا أن هذه الأجرام الكثيرة المضيئة هي مجموعة من نجوم كثيرة شوهدت كالسحب نتيجة البعد الهائل بينها وبين الأرض.

وهكذا نجد أن التجربة والمشاهدة ليستا وسيلتي العلم القطعيتين، وأن العلم لا ينحصر في الأمور التي شوهدت بالتجربة المباشرة.

لقد اخترعنا الكثير من الآلات والوسائل الحديثة للملاحظة الواسعة، ولكن الأشياء التي نلاحظها بهذه الوسائل كثيراً ما تكون أموراً سطحية وغير مهمة نسبياً، أما النظريات التي يتوصل إليها بناء على هذه المشاهدات فهي أمور لا سبيل إلى ملاحظتها.

والعلم الحديث لا يدعى ولا يستطيع أن يدعى أن الحقيقة محصورة فيما علمناه من التجربة المباشرة، فالحقيقة أن (الماء سائل). ونستطيع مشاهدة هذه الحقيقة بأعيننا المجردة، ولكن الواقع أن كل (جزيء) من الماء يشتمل على ذرتين من الهيدروجين وذرة من الأكسجين، وليس من الممكن أن نلاحظ هذه الحقيقة العلمية، ولو أننا بأقوى ميكروسكوب في العالم، غير أنها ثبتت لدى العلماء لإيمانهم بالاستدلال المنطقي.

يقول في ذلك البروفيسور ا.ى. ماندير: (إن الحقائق التي نتعرفها مباشرة تسمى (الحقائق المحسوسة)، بيد أن الحقائق التي توصلنا إلى معرفتها لا تنحصر في (الحقائق المحسوسة)؛ فهناك حقائق أخرى كثيرة لم نتعرف عليها مباشرة، ولكننا عثرنا عليها على كل حال، ووسيلتنا في هذه السبيل هي الاستنباط، فهذا النوع من الحقائق هو ما نسميه (بالحقائق المستنبطة)، والأهم هنا أن نفهم أنه لا فرق بين الحقيقتين، وإنما الفرق هو في التسمية، من حيث تعرفنا على الأولى مباشرة وعلى الثانية بالواسطة، والحقيقة دائما هي الحقيقة سواء عرفناها بالملاحظة أو بالاستنباط)

ويضيف ماندير قائلا: (إن حقائق الكون لا تدرك الحواس منها غير القليل، فكيف يمكن أن نعرف شيئا عن الكثير الآخر؟.. هناك وسيلة، وهى الاستنباط أو التعليل، وكلاهما طريق فكري، نبتدئ به بوساطة حقائق معلومة حتى ننتهي بنظرية: أن الشيء الفلاني يوجد هنا ولم نشاهده مطلقا)

قاطعها راسل، وقال: كيف يكون هذا الرجل بروفيسورا وهو يقول هذا؟.. كيف يصح الاستنباط المنطقي لأشياء لم نشاهدها قط؟.. وكيف يمكن أن نسمى هذا الاستنباط بناء على طلب العقل (حقيقة علمية)؟

ابتسم خان، وقال: لقد أجاب ماندير عن تساؤلك هذا.. فقال: (إن المنهج التعليلي

صحيح، لأن (الكون) نفسه عقلي.. فالكون كله مرتبط ببعضه بالآخر؛ حقائقه المتطابقة، ونظامه عجيب، ولهذا فإن أية دراسة للكون لا تسفر عن ترابط حقائقه وتوازنها هي دراسة باطلة)

ويقول: (إن الوقائع المحسوسة هي أجزاء من حقائق الكون، غير أن هذه الحقائق التي ندركها بالحواس قد تكون جزئية، وغير مرتبطة بالأخرى، فلو طالعناها فذة مجردة عن أخواتها فقدت معناها مطلقا، فأما إذا درسناها في ضوء الحقائق الكثيرة مما علمناه مباشرة أو بلا مباشرة فإننا سندرك حقيقتها)

ثم يأتي بمثال يفسر ذلك، فيقول: (إننا نرى أن الطير عندما يموت يقع على الأرض، ونعرف أن رفع الحجر على الظهر أصعب ويتطلب جهدا، ونلاحظ أن القمر يدور في الفلك، ونعلم أن الصعود في الجبل أشق من النزول منه.. ونلاحظ حقائق كثيرة كل يوم لا علاقة لإحداها بالأخرى ظاهرا، ثم نتعرف على حقيقة استنباطية هي (قانون الجاذبية)، وهنا ترتبط جميع هذه الحقائق، فنعرف - للمرة الأولى - أنها كلها مرتبطة إحداها بالأخرى ارتباطا كاملا داخل النظام.. وكذلك الحال لو طالعنا الوقائع المحسوسة مجردة، فلن نجد بينها أي ترتيب، فهي متفرقة وغير مترابطة ولكن حين نربط الوقائع المحسوسة بالحقائق الاستنباطية فستخرج صورة منظمة للحقائق)

إن قانون (الجاذبية) لا يمكن ملاحظته قطعا، وكل ما شاهده العلماء لا يمثل في ذاته قانون الجاذبية، وإنما هي أشياء أخرى، اضطروا لأجلها - منطقيا - أن يؤمنوا بوجود هذا القانون.

واليوم يلقي هذا القانون قبولا علميا عظيما، وهو الذي كشف عنه نيوتن لأول مرة، ولكن ما حقيقة هذا القانون من الناحية التجريبية؟

لقد تحدث نيوتن في خطاب أرسله إلى (بنتلي)، فقال: (إنه لأمر غير مفهوم أن نجد مادة لا حياة فيها ولا إحساس وهي تؤثر على مادة أخرى مع أنه لا توجد أية علاقة بينهما) فـنظرية معقدة غير مفهومة ولا طريق إلى مشاهدتها، تعتبر اليوم بلا جدال حقيقة علمية.. لماذا؟

لأنها تفسر بعض ملاحظتنا فليس بلازم إذن أن تكون الحقيقة هي ما علمناه مباشرة بالتجربة، ومن ثم نمضي إلى القول بأن العقيدة الغيبية التي تربط بعض ما نلاحظه، وتفسر لنا مضمونه العام تعتبر حقيقة علمية من نفس الدرجة.

قال ذلك، ثم التفت إلى راسل، وقال: كما رفض العلماء نظرية الضوء التي قدمها نيوتن لأنها لم تنجح في تفسير مظاهر حديثة للضوء؛ فإننا نرفض أفكار الفلاسفة الملحدون لأنها فشلت في تفسير مظاهر الطبيعة.

لم يجد راسل إلا أن ينصرف.. ولم يجد الجمع الملتف بهما إلا أن انضموا إلى وحيد الدين خان يسألونه.. وقد كان من شقائي أن تركت الجمع، ورحت أسرع إلى (برتراند رسل) أسأله عما لا يسمن من جوع، ولا يروي من ظمأ.. ولعلي لو اجتمعت معه في ذلك الحين كما اجتمع أولئك الجمع لكفينا ما نبحت عنه، فقد كان للرجل من العلم والمنطق ما يجعلك مستيقنا من أنه يطل من النافذة التي لا ترى منها إلا الحقائق.

المناظرة السابعة:

قال الجمع: حدثنا عن المناظرة السادسة، فحدثنا عن السابعة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت رجلين يلتف حولهما جمع كبير^(١)..
أما أحدهما، فرجل تشع من عينيه أنوار الحكمة، وعلى سمته يبدو الوقار، كان الجمع يطلق عليه اسم (البوطي)^(٢).. وقد أخبرني بعضهم أنه رجل جاء من سورية، وقد قدم أبوه - الذي يسمى ملا رمضان - قبلها من جزيرة بوطان في تركيا إلى دمشق واستقر فيها..
ولذلك صار يطلق عليه هذا الاسم.

وأما الثاني، فرجل عريض المنكبين، واسع الجبهة، كثيف الشعر، داكن إلى حد الزرقة.. كان يبدو حيويًا نشيطًا لا يهدأ له بال.. وكان الناس يطلقون عليه لقب (ماركس)^(٣).. ولست أدري علاقته بماركس منظر الشيوعية.. ولكن الذي أدريه هو أنه لا يختلف عن ماركس المعروف في أي شيء.. لا في صورته.. ولا في فكره.
سأقص عليكم بعض ما سمعت من حديث:

قال ماركس بعنف لمحدثه البوطي: كم من مرة طلبت منك أن لا تذكر لي هيغل^(٤)..

(١) حاولنا في هذه المناظرة أن نلخص - باختصار - ما تنص عليه أخطر نظرية إلحادية، وهي (المادية الجدلية)، أما تفاصيل الردود عليها، فهي موجودة في أثناء هذه الرسالة، باعتبار أن هذه النظرية في جوهرها ليست سوى مزيج من نظريات مختلفة.

(٢) أشير به إلى أستاذنا الكبير العلامة (محمد سعيد رمضان البوطي)، وهو من علماء الكلام المعاصرين الكبار.. وهو ضالع في العقائد والفلسفات المادية وخاصة في نقد المادية الجدلية.

(٣) أشير به إلى كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣ م)، وهو فيلسوف ألماني واجتماعي وثوري محترف، كان المؤسس الرئيسي لحركتين جماهيريتين قويتين هما: الاشتراكية الديمقراطية، والشيوعية الثورية.. والوصف الذي ذكرناه له في الرواية هو وصف أحد أصدقائه له.

(٤) هو جورج ويلهلم فريدريك هيغل فيلسوف ألماني.. يعتبر أهم مؤسسي حركة الفلسفة المثالية الألمانية في أوائل القرن التاسع عشر الميلادي.. من أهم مميزات هيغل ميله الحاد إلى التناقض والتعقيد، وقد انعكس تناقضه على

ماركس سمى هو صاحب هذا الفكر.. لا هيغل..

قال البوطي بهدوء: لا بأس.. أنا لم أذكر هيغل إلا لأني رأيتك تنهج نفس نهجه.

قال ماركس: بل هناك فرق كبير بيننا.. إن الفرق بيني وبينه كالفرق بينك وبينى..

قال البوطي: ولكنك تعتمد نفس الجدل الذي يعتمد عليه.

قال ماركس: لكن جدله مثالي.. وجدلي مادي.. واقعي.. ولا يمكن أن يجتمع هذان

في محل واحد.

قال البوطي: لا بأس.. سأدع لك الفرصة لأن تحدثني عن مذهبك.. ولتتناقش فيه بعد

ذلك.

قال ماركس: لا بأس.. فلسفتي.. أو بالأحرى فلسفة سمي العظيم كارل ماركس..

تتلخص في (المادية الجدلية).. تلك المادية التي تلخص حقائق الوجود في قانون (لا إله

والكون مادة).. وقانون (وحدة العالم تنحصر في ماديته).. وقانون (المادة سابقة في

الوجود على الفكر).. وقانون (لم يكن هناك وقت لم تكن المادة موجودة فيه، وليس هناك

وقت لا تكون المادة موجودة فيه).. وقانون (الإنسان نتاج المادة).. وقانون (الفكر نتاج

الدماغ والدماغ مادة).. وغيرها من القوانين التي تفسر الوجود والحياة والإنسان.

بالإضافة إلى (المادة الجدلية).. ففلسفتي تنص على قوانين (المادية التاريخية)..

وعلى قوانين (المذهب الاقتصادي الشيوعي مع الأوضاع السياسية والاجتماعية

المصاحبة له)

لكنني لن أحدثك الآن إلا عن مذهبي الذي فسرت به الوجود.. كل الوجود..

المعجبين به والناقدين له، فهو موجود في الماركسية، وذا بصمة واضحة في الاجتهادات البروتستانتية.. وهو شاهد

لدى الوجوديين، ومرجع للبراغماتيين.. وسنرى بعض ما يرتبط بفلسفته والتي اعتمد عليها ماركس في هذا المطلب.

وإن شئت الصراحة.. فسمي ماركس اعتمد في نظريته العظيمة على ثلاثة أركان كبرى تقوم عليها الفلسفة الغربية المتحضرة..

أما أولها.. وهو الفكر الذي يفسر الوجود بالمادة البحتة.. فلنا فيه أساتذة كثر.. ابتدأوا منذ بدأت هذه الحضارة.. لكن أشهرهم اثنان (أوجست كونت)، و(فرباخ)^(١).. وقد قامت فلسفتهم على سيادة الطبيعة، بل عبادتها.. فالطبيعة هي التي تنقش الحقيقة في ذهن الإنسان.. وهي التي توحى بها وترسم معالمها.. هي التي تكون عقل الإنسان.. والإنسان – لهذا – لا يملئ عليه من ذاته الخاصة.. إذ ما يأتي من (ما وراء الطبيعة) خداع للحقيقة، وليس حقيقة.. ومثله ما يتصوره العقل من نفسه هو ليس إلا وهما وتخيلا للحقيقة، وليس حقيقة أيضا.

وبناء على هذه النظرة يكون الدين الذي يعبر عما بعد الطبيعة مجرد خدعة. وأما الركن الثاني، وهو الجدلية فقد كان من أساتذة سمي فيها (فيشته) و(هيجل).. وقد كان الأصل في هذا النوع من التفكير الجدلي الديالكتيكي هو البحث عن تصور فلسفي يسمح بوجود المتناقضات في الكون والحياة ويفسرها.

ذلك أن المنطق اليوناني القديم، وهو المنطق الصوري كان ينفي وجود التناقض في الكون والحياة، ويقيم تفكيره على أساس أن الشيء ونقيضه لا يمكن أن يجتمعا، فوجود أي شيء هو ذاته نفى قاطع لوجود نقيضه.

ولكن الفكر الأوروبي منذ عصر النهضة كانت له التفاتات مختلفة عنه في مجالات

(١) سبق أن أشرنا إلى مضمون هذه الفلسفة.. ونحب أن ننبه - هنا، بناء على ما ذكر الباحثون - أن الاتجاه المادي قديم في الحياة الأوروبية، فهو يتجلى في بعض اتجاهات الفلسفة الإغريقية القديمة، واتجاهات الحياة الرومانية قبل المسيحية..

متعددة.. حتى إذا كان النصف الثاني من القرن الثامن عشر الميلادي عصر سيادة العقل.. أو عصر التنوير .. قام فلاسفة يشيرون إلى وجود التناقض فى الكون والحياة ويحاولون تفسيره، من أبرزهم (فيشته) و(هيجل) أما فيشته، فقد استخدم مبدأ النقيض كى يدعم سيادة العقل كمصدر للمعرفة مقابل الدين والطبيعة..

وأما هيجل فاستخدم مبدأ النقيض لتأكيد قيمة العقل من جهة، ثم لدعم فكرة الألوهية من جديد، وتأكيد الوحي كمصدر أخير للمعرفة، فهو يعتبر الخالق عقلا. لقد تصور هيجل - الذي أردت نسبة فلسفتي إليه - أن هناك فكرة مطلقة.. أطلق عليها اسم (العقل المطلق) - وهي ما تسمونه (الله) - انبثقت عنه الطبيعة، وهي تغايره تماما، لأنها مقيدة ومتفرقة وهي عنده العقل المقيد.. ثم انتقلت الفكرة من الطبيعة أو العقل المقيد إلى جامع يلتقى فيه الشئ ونقيضه، وهو العقل المجرد الذى هو نهاية الطبيعة المحدودة وغايتها.

وهذا العقل المجرد يتمثل فى القانون والأخلاق، وفى الفن والدين والدولة والجماعة والفلسفة.. فالعقل المجرد الذى يتحقق فى أى وحدة من هذه القيم العاملة المذكورة جامع للمقابلين: جامع للفكرة فى العقل المطلق وهو الله، ولل فكرة فى العقل المقيد وهو الطبيعة.. ذلك أنه ليس له إطلاق العقل المطلق، ولا تحديد عقل الطبيعة، بل فيه إطلاق بالنسبة إلى الطبيعة وتقيد بالنسبة للعقل المطلق، ولذا يعتبر جامع الدعوى ومقابل الدعوى.

هذا هو الركن الثاني، وأما الركن الثالث.. فهو العظيم دارون صاحب نظرية التطور.. لقد جاء دارون يؤله الطبيعة، ويقول عنها: إنها تخلق كل شئ، ولا حد لقدرتها على

الخلق.. وجاء ليؤكد أن الإنسان هو نهاية سلسلة التطور الحيوانية.. وأن التطور ذاته – الذى أنشأ الحياة المادية الميتة أول مرة، ثم تدرج بها من الكائن الوحيد الخلية إلى الإنسان – هو نتيجة أسباب مادية بحتة، وأنه يتم مستقلاً عن إرادة الكائن الحى، وبصورة حتمية لا يملك الكائن الحى الخروج عليها ولا معارضتها ولا الوقوف فى طريقها.

هذه هي الأركان الثلاثة التي تم بامتزاجها جميعاً فكر العظيم سميى ماركس..
ابتسم البوطي، وقال: فما الجديد الذى أتى به ماركس ما دمت قد ذكرت أنه اعتمد على كل هؤلاء؟

قال ماركس: أتى بالجديد الذى يأتي به الطباخ الماهر حين يمزج بين الخضر والتوابل وغيرها ليكون منها طبخة تسترق البطون.

ليس ذلك فقط.. بل أضاف إليها أشياء كثيرة جعلت من فلسفته عملاً متميزاً قل نظيره في جميع الفكر البشري.

لقد أنشأ ماركس فلسفة مترابطة متكاملة تشمل كل القضايا المحيطة بالإنسان.. وتشملها جملة وتفصيلاً على نحو غير مسبوق فى الفكر الغربى..

قال البوطي: فحدثنا عن هذه الفلسفة المتميزة.. واقتصر منها على الجانب المرتبطة بتفسير الوجود.

قال ماركس: لقد ذكرت لك أن ماركس فسر الوجود بالمادية الجدلية.. وهي الفكرة التي تعزل ما تسمونه (الله) عزلاً تاماً عن تفسير الوجود.. فالمادة هي الشئ الوحيد الأصيل فى هذا الكون، وكل ما فى الكون ومن فيه منبثق منها ومحكوم بقوانينها، ولا وجود له خارج نطاقها.

كما تقوم على أساس وجود التناقض فى طبيعة المادة، ومن ثم فى كل ما ينبثق عنها

من مخلوقات ومن كيانات بما فى ذلك الكيان الإنسانى، فهو كيان مَادى من جهة، ومحكوم بصراع المتناقضات من جهة أخرى، وتلك هى حقيقة كل أفكاره ومشاعره، وكل نظمه ومؤسساته، وكل قيمة ومبادئه، وكل حركته خلال التاريخ.

لقد ذكرت لك أننا أخذنا من هيكل جدليته.. ولكننا مع ذلك نخالفه مخالفة أساسية، فهيجل اعتبر الفكرة هى الأصل، وهى سابقة فى وجودها على المادة ومسيطرة عليها، بينما نحن نقول: إن المادة هى الأصل، وهى سابقة على الفكرة ومسيطرة عليها..

ولهذا سميت جدلية هيكل (الجدلية المثالية)، بينما سميت جدليتنا (الجدلية المادية) أو (المادية الجدلية)، أو (المادية الديالكتيكية)

أما (الله)، فهو عندنا لا يعدو أن يكون خرافة ابتداعها خيال الإنسان.. لأن الحقيقة الوحيدة هى المادة، والوحدة التى تجمع الكون هى ماديته.

قال ذلك، ثم التفت إلى البوطي، وقال: هذه هي فلسفتي العظيمة.. فهل ترضى بأن تكون حواريا لماركس، رفيقالي في التبشير بها.

ابتسم البوطي، وقال: اصبر عليك لأعرض عليك ما انتابني من الشبهات أثناء عرضك لفلسفتكم العظيمة، فإن أجبتني عنها، فسأسير معك إلى أي حزب شيوعي لأنضم إلى رفاقك فيه.

قال ماركس: تفضل.. يستحيل أن توجد شبهة لا يوجد لها جواب.. ما دام الديالكتيك موجودا، فلكل سؤال جواب.

قال البوطي: أولا.. اسمح لي أن أبين لك أن الدوافع التي دفعت إلى مثل هذه الفكرة دوافع غير معقولة ولا موضوعية.

ذلك أنها انطلقت من واقع منحرف للدين.. وهي بالتالي كانت نوعا من الهروب

الكنيسة وإله الكنيسة ..

وإلا فإن الطبيعة والمادة لا يمكنها أن تفسر الوجود بتلك الصورة التي فسرت بها..
ذلك أن أي ذهن سيتساءل لا محالة: ما الطبيعة على وجه التحديد؟ .. وأين تكمن قدرتها
على الخلق؟ .. وفي أى مكان منها؟

أم أنه ليس لهذه القدرة مكان ولا حيز؟ .. فإذا لم تكن محسوسة، ولم يكن يحدها
المكان ولا الحيز، وكانت (غيبا) لا تدركه الأبصار، إنما تدرك آثاره فقط ومظاهره، فما
الذى يررر فى منطق العقل أن نعدل عن الاسم الحقيقى، اسم (الله)، ونلجأ إلى هذه
المسميات؟

وإن كان (الله) فى هذا المنطق لا حقيقة له، فما الذى يررر - فى منطق العقل أو فى
منطق العلم - أن يقول قائل: إنه ليس حقيقة حين يكون اسمه (الله)، ثم يكون هو ذاته
حقيقة حين يكون اسمه (الطبيعة)؟

إن كان سبب هذا التحريف هو الخوف من الكنيسة وطغيانها، أو هو البغض لها
والحقدها عليها.. فليكن ذلك..

وفي هذه الحالة، فلنهجركم الكنيسة، ونفر منها إلى الله الحق، وهو إله لا كنيسة له فى
الحقيقة، ولا رجال دين.

ثم ما المادة الأزلية الأبدية الخالقة، وما قصتها؟

وكيف ناقشنا مناقشة علمية؟

ألا تعلم - حضرة الرفيق - أن القول بأن (المادة لا تفنى ولا تستحدث) لم يعد صحيحا
من الوجهة العلمية، وهو القول الذى تصيده أساتذتك تصديا فى نهاية القرن الماضى ليينوا
عليه تفسيراً علمياً للكون والحياة والإنسان، ولقضية الألوهية؟

ألا تعلم - حضرة الرفيق - أن طلاب الجامعات يدرسون هذه الأيام أن الكون المادى حدث ذات يوم، ولم يكن موجودا من قبل، وأن عمر هذا الكون المادى يكاد يحدد الآن تحديدا علميا دقيقا على ضوء المعلومات التى ترسلها الأقمار الصناعية التى تدور حول الشمس وغيرها من الأفلاك.

ألا تعلم - حضرة الرفيق - أن ماركس وإنجلز ولينين وغيرهم من أساتذتك العظام لم يكونوا مطالبين بثقافة علمية أكبر من ثقافة عصرهم الذى وجدوا فيه، ولكنهم - مع ذلك - مسئولون ولا شك مسئولية كاملة عن دعواهم بأن المادة هى التى تخلق، وأن من بين خلقها الإنسان؟

ما الدليل العلمى على هذه الفرية؟

متى شوهدت المادة وهى تخلق؟ وكيف تخلق؟!

بعد هذه التساؤلات المنطقية، والتى أرجو أن تكشف لي غموضها.. فسأناقشك فيما ذكره أساتذتك العظام من مبادئ الطبيعة وقوانينها^(١).

أما ما ذكره من أن الطبيعة كل واحد متماسك ترتبط فيه الأشياء والحوادث فيما بينها ارتباطاً تاماً، فذلك صحيح.. وهو - عند المؤمنين - ظاهرة تدل على أن الخالق البارئ المصور واحد مهيم على كونه.. وهو يدبره كله بنظام واحد مترابط الأسباب متشابه العناصر.

أما ما ذكره من أن الطبيعة (أي الموجود المادى الذى هو كل الوجود) سرمدية أزلية أبدية لا بداية لها ولا نهاية، فهو ادعاء منقوض ببراهين العقل ودلائل العلم، التى تثبت

(١) هذه المناقشات ملخصة بتصريف واختصار من كتاب (كواشف زيوف) لحبنكة.. وقد اقتصرنا منها على الجانب المتعلق بالمادية الجدلية، دون سائر المبادئ الشيوعية المرتبطة بالتاريخ والاقتصاد لعدم تناسبها مع الموضوع.

حدوث الكون، وتثبت مصيره إلى الفناء.. وما عليك إلا أن تسير في هذه البلدة قليلا لترى من العلماء من يبين لك - حسا - أن المادة ليست أزلية كما تزعمون^(١).

أما ما ذكروه من أن الطبيعة ليست ساكنة، بل هي ملازمة للحركة، وهي في تطور وتغير دائمين.. فهو مبدأ لا حرج فيه.. بل إنه من مقررات المؤمنين بالله، سواءً أكانوا أتباع دين رباني صحيح أو فلاسفة مثاليين.. وهو من الأدلة التي هدتهم إلى حدوث الكون، وحاجته إلى محدث خالق باري مصور، إذ يقولون: العالم متغير، وكل متغير حادث، فالعالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، فالعالم لا بد له من محدث^(٢).

أما ما ذكروه من أن الوعي لمادة عالية التنظيم وهي الدماغ، وأن الحياة وظيفة من وظائف المادة متى وصل تركيبها إلى وضع خاص، فهو مخالف لما كشفته العلوم الكثيرة.. فأخر ما توصلت إليه العلوم الإنسانية، والتي أنفقت في سبيلها ألوف الملايين، وعشرات السنين، قد انتهت إلى قرار علمي جازم هو أنه لا تتولد الحياة إلا من الحياة، وأن وسائل العلوم الإنسانية لا تملك تحويل المادة التي لا حياة فيها، إلى أدنى وأبسط خلية حية^(٣).

(١) ذكرنا الأدلة العلمية الكثيرة على ذلك في هذا الفصل.

(٢) ذكرنا هذه النوع من الاستدلال في المناظرة الأولى.

(٣) هذا من الحقائق العلمية التي لم تزدها الأيام إلا تأكيدا، وقد تواترت شهادات العلماء على ذلك، يقول (رسل تشارلز إرنست) أستاذ الأحياء والنبات بجامعة فرنكفورت بألمانيا: (لقد وضعت نظريات عديدة لكى تفسر نشأة الحياة من عالم الجومات، فذهب بعض الباحثين إلى أن الحياة قد نشأت من البروتوجين، أو من الفيروس أو تجمع بعض الجزئيات البروتينية الكبيرة وقد يخيل إلى بعض الناس أن هذه النظريات قد سدت الفجوى التى تفصل بين عالم الأحياء وعالم الجومات.. ولكن الواقع الذى ينغى أن نسلم به هو أن جميع الجهود الذى بذلت للحصول على المادة الحية من غير الحبة قد باءت بفشل وخذلان ذريعين. ومع ذلك فإن من ينكر وجود الله لا يستطيع أن يقيم الدليل المباشر للعالم المتطلع، على أن مجرد تجمع الذرات والجزئيات من طريق المصادفة، يمكن أن يؤدي إلى ظهور الحياة وصيانتها وتوجيهها بالصورة التى شاهدناها فى الخلايا الحية. وللشخص مطلق الحرية فى أن يقبل هذا التفسير لنشأة

وبما أن الوعي مرتبط بالحياة فهو مظهر من مظاهرها وصفة من صفاتها، فلا سبيل للمادة الميتة أن يكون الوعي أحد وظائفها، مهما كانت عالية التنظيم^(١).
على أن مبدأهم هذا هو في الأساس ادعاء غير مقترن بأي دليل عقلي أو علمي، وهو من لوازم مبدئهم الأول الباطل الذين يرون فيه أن المادة هي أساس الوجود وجوهره.
أما ما ذكروه من أن كل الأشياء وحوادثها تحوي تناقضات داخلية، مجتمعة متزامنة في وحدة، يعبرون عنها بوحدة الأضداد أو وحدة المتناقضات. وهي تتصارع فيما بينها وفق نظام (جدلية هيجل) فيدفع بها الصراع إلى التطور الصاعد لأنه السبيل الوحيد لحل التناقض أو التضاد القائم بينها.. فهي قضية تحوي مغالطات كثيرة.
منها أن النقيضين كالوجود والعدم، وكإيجاب الشيء وسلبه، لا يجتمعان في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما مستحيل عقلاً.. ولا يرتفعان معاً من شيء واحد في وقت

الحياة، فهذا شأنه وحده! ولكنه إذ يفعل ذلك، فإنما يسلم بأمر أشد إعجازاً أو صعوبة على العقل من الاعتقاد بوجود الله، الذي خلق الأشياء ودبرها)

ويضيف: (إنني أعتقد أن كل خلية من الخلايا الحية قد بلغت من التعقد درجة يصعب علينا فهمها، وأن ملايين الملايين من الخلايا الحية الموجودة على سطح الأرض تشهد بقدرته شهادة تقوم على الفكر والمنطق. ولذلك فإنني أؤمن بوجود الله إيماناً راسخاً (من مقال (الخلايا الحية تؤدي رسالتها) من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)، ص ٧٧)

ويقول إيرفينج وليام (دكتوراه من جامعة أيووا وإخصائي وراثية النباتات، وأستاذ العلوم الطبيعية بجامعة ميتشجان):
(إن العلوم لا تستطيع أن تفسر لنا كيف نشأت تلك الدقائق الصغيرة المتناهية في صغرها، والتي لا يحصيها عد، وهي التي تتكون منها جميع المواد. كما لا تستطيع العلوم أن تفسر لنا - بالاعتماد على فكرة المصادفة وحدها - كيف تتجمع هذه الدقائق الصغيرة لكي تكون الحياة) (الله يتجلى في عصر العلم، ص ٥٢)

^(١) الوعي المراد هنا هو الوعي الكامل.. أما أصل الوعي فقد ذكرنا في مناسبات كثيرة أنه لا تخلو منه ذرة من ذرات الكون.. انظر رسالة (أكون الله) من (رسائل السلام)

واحد، وارتفاعهما معاً مستحيل عقلاً.. فلا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد موجوداً ومعدوماً معاً، ولا موجباً وسالباً معاً من الجهة التي يكون فيها موجباً.. ولا يكون الشيء الواحد في الوقت الواحد غير موجود وغير معدوم معاً، أو غير موجب وغير سالب معاً. ومنها أن الضدين كالأبيض والأسود، وكالواجب والحرام، وكالجبر على الهداية والجبر على الضلال، لا يجتمعان معاً في شيء واحد ووقت واحد، واجتماعهما معاً مستحيل عقلاً. فلا يكون الشيء الواحد بالذات أبيض وأسود معاً من الجهة نفسها في وقت واحد، ولا يكون حكم العمل الواحد واجباً وحراماً معاً في وقت واحد لشخص واحد من جهة واحدة، ولا يكون المخلوق الواحد مجبوراً على الهداية ومجبوراً على الضلالة معاً، في وقت واحد، ومن جهة واحدة.

لكن الضدين - خلافاً للمتناقضين - قد يرتفعان معاً في وقت واحد، فيكون الجسم لا أبيض ولا أسود معاً في وقت واحد، إذ قد يكون أحمر أو أصفر أو غير ذلك من ألوان.. لكن المادية الجدلية نسفت هذا الأصل العقلي المنطقي نفساً كلياً، فأقامت الوجود كله على فكرة اجتماع الأضداد أو المتناقضات واتحادها.

وفي ادعاء اتحاد الأضداد والمتناقضات استهانة بالغة بالعقل البشري، وإقامة مذهب كامل على أمر باطل واضح البطلان.. فاللحظة التي يكون فيها الشيء متحركاً، لا يمكن أن يكون فيها ساكناً، واللحظة التي يكون فيها ساكناً لا يمكن أن يكون فيها متحركاً.. لكن الشيء الواحد قد تتداول عليه الحركة والسكون بلحظات متتابعات مهما صغرت ودقت هذه اللحظات، وقد ينخدع بذلك بعض أهل الفلسفة، فيظن أن السكون كامن في الحركة، فيعتبر ذلك من اجتماع النقيضين، وليس الأمر كذلك.

وقد يمثل مدعو اجتماع الضدين أو النقيضين بتماس السالب والموجب في الكهرباء،

الذي ينجم عنه الظواهر الضوئية والحركية.. لكن التمثيل بهذا تمثيل باطل، فالسالب والموجب في الكهرباء ليسا ضدّين ولا نقيضين منطقيين.

إن السالب المنطقي للكهرباء هو لا كهرباء، ويصدق ذلك بأي شيء غير كهرباء في الوجود، فالخشب والحجر والتراب والثلج والملح والحلاوة والملاسة والخشونة وغير ذلك كلها ليست بكهرباء.

أما السلك السالب في الكهرباء، فليس هو السالب المنطقي للكهرباء، إنما هو مشتمل على قوة أخرى منافرة للقوة الكهربائية.

فالموجب والسالب في الكهرباء قوتان متنافرتان متقابلتان، إذا تماسا تفاعلا، فأنتجا بحسب قوانين إنتاجهما ظواهر ضوئية أو حركية، كالذكر والأنثى، وما ينتج عنهما. إن القوى المتنافرة والمتآلفة والمتفاوتة كلها إذا تلاقّت أو تماسّت أو اجتمعت كانت ذات آثارٍ ما، وآثارها تخضع لقوانين خاصة بكل منها.

أما ما ذكره من أن حركة التطور هي تغير ينتقل من تغيرات كمية تراكم، إلى تغيرات كيفية، بشكل سريع ومفاجئ وارتقائي من حالة أدنى إلى حالة أعلى وبشكل ذاتي.. فإن هذا المبدأ لا يمكن أن يعتبر قانوناً عاماً ينطبق على كل حركة تطور في الطبيعة، فالعلوم المادية الإنسانية لا تقر به، وهو إن صدق ببعض الأمثلة، فإنه لا يصدق بالآلاف الأمثلة الأخرى.

إن التراكم في الكم لا يقتضي دائماً تطوراً في الكيف، ما لم يكن نظام ذلك الشيء يقتضي ذلك.. فالملاحظة تثبت أن لكل حالة تطور في الكون شروطاً معينة في أنظمتها وسننّه الثابتة، فمتى استوفيت هذه الشروط تحقق التطور.

فبيضمة الدجاجة الملقحة إذا وجدت ضمن حرارة ذات مقدار معين، ورطوبة ذات مقدار معين، بدأ جنينها يتكون تدريجياً حتى يتكامل داخل القشرة، وفي نهاية ثلاثة أسابيع

يكون قد تكامل، وبدأ ينقر القشرة من الداخل حتى يكسرها، وعندئذ يخرج من غلافه إلى الهواء، لبدأ رحلة حياته على الأرض.

لقد حصل التطور، ولكن على خلاف ما ادعاه أساتذتك المدعين، فلا تراكم الحرارة هو الذي أحدث ظاهرة التغير، ولا تراكم الرطوبة، بل ثبات درجة الحرارة، وثبات درجة الرطوبة، قد ساعدا على تكون جنين البيضة تكوناً تدريجياً، ضمن الوقت المخصص في نظام الكون لتكامل تكوينه.

ولو أن الحرارة تراكمت أكثر من المقدار المحدد في نظام التكوين لسقلت البيضة، ولهلكت نواة جنينها، ولو زاد هذا التراكم لاحترقت البيضة.

فنظام الكون هو نظام تحديد مقادير لكل شيء، ضمن خطط ثابتة، وليست تغيراته ثمرة تراكمات.. هذه هي الحقيقة التي تدل عليها الملاحظات والتجارب العلمية، وهي التي أعلنها قول الله عز وجل: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ (الرعد: من الآية ٨)

إن هذا المثال وحده كافٍ لنقض فكرة التراكم التي تعتبرونها قانوناً شاملاً لكل تطور في الوجود.. وهو كافٍ لنقض فكرة التطور السريع المفاجئ، إذ الأمور تتطور في الغالب تطوراً تدريجياً..

بالإضافة إلى هذا، فإن الكائنات الحية تبدأ حركة بنائها منذ لحظة التقاء خلية لقاح الذكر بخلية بيضة الأنثى، ثم يسير بناء الكائن في نمو متدرج، حتى إذا استوفى الشروط اللازمة لظهور الحياة دبّت الحياة فيه.. ثم يسير ضمن نظام نمو متدرج، حتى إذا استكمل نموه الجنيني، تمخضت عنه أمه فولدته.. ثم يسير في نمو تدريجي حتى يبلغ، ويتدرج في النماء حتى يكون شاباً فكهلاً.. ثم يعود إلى طور الانحدار، فيصير شيخاً، فهرماً، ثم يقضي أجله المقدر له، فيموت، فيتفسخ جسمه، ويعود تراباً كما بدأ من التراب.

وقد يموت في أي مرحلة من المراحل السابقة، فينحدر ويعود إلى مثل مرحلة البدء، دون أن يمر في المراحل المعتادة للأحياء.

وتخضع كل المراحل لنظام المقادير المحددة في كل شيء، في العناصر، وفي الصفات، وفي الزمان، وفي درجة الحرارة، وفي سائر ما يلزم لتكوين الحي، وإعداده لأداء وظائفه.

ولهذا، فإن فكرة التراكم المقررة عندكم فكرة منقوضة، ذلك لأن الأحياء تخضع لنظام المقادير المحددة سواء في جواهرها وأعراضها، ولا تخضع لفكرة التراكم الكمي.. ومثلها فكرة التطور السريع المفاجئ، ذلك أن الأحياء تسير وفق نظام البناء المتدرج، لا وفق التطور السريع المفاجئ.

وفكرة الارتقاء المقررة عندكم على أنها قانون شامل عام، فكرة لا تصلح لأن تكون مبدأً عاماً، فعمومها منقوض، وذلك لأن تطور الأحياء ليس حركة ارتقائية دائماً، بل قد تكون حركة إلى الأدنى أو إلى المساوي.. فالتعميم المدعى في المبدأ تعميم باطل.

ما وصل البوطي من حديثه إلى هذا الموضوع حتى رأيت وجه ماركس قد تغير تغيراً شديداً، ثم راح يسير مطأطأ الرأس.. لا أدري لم، ولا أدري أين.

المناظرة الثامنة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة الثامنة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت جماهير من الناس تلتف حول رجلين: أما أحدهما، فكان اسمه (عبد الرحمن حبنكة)^(١). وأما الثاني، فكان الناس يطلقون عليه

^(١) أشير به إلى عالم الشام الكبير الشيخ عبد الرحمن حسن حبنكة، وقد استفدنا هذه المناظرة الافتراضية من كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)

لقب (العظم)^(١).. ولست أدري سر هذا اللقب العجيب.

كان أول ما بدأ به العظم حديثه أن قال - كما قال الكثير ممن سبقه -: لن أناظرك حتى تخبرني - أولاً - عمن خلق الله؟

قال العظم: لقد حدثنا الرسول ﷺ عن هذه الوسوسة الشيطانية، فقال: (يأتي الشيطان أحدكم فيقول من خلق كذا؟ من خلق كذا؟ حتى يقول من خلق ربك؟ فإذا بلغه فليستعذ بالله وليسته)^(٢).. وفي حديث آخر قال ﷺ: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمنت بالله ورسله)^(٣)

(١) أشير به إلى صادق جلال العظم، وهو أحد أساطين الفكر الشيوعي المادي، وملحد من كبار الملاحدة، ممن أخذ يجاهر بالإلحاد، ويدعو إليه، قضى عمره في السخرية من المسلمين ومن دينهم، وكفر بكل شيء إلا المادة. وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم) (ص ١٢-١٣) - والذي استفدنا منه هذه المناظرة الافتراضية - بأن العظم ألف كتابه السابق (خدمة للماركسية والداروينية والفرويدية، وسائر النظريات، بل الفرضيات اليهودية الإلحادية، وهو في كل ذلك يتستر بعبارات التقدم العلمي والصناعي والمناهج العلمية الحديثة، ولا يقدم من البرينات إلا قوله مثلاً: إن العلم يرفض هذا، أو لا يُسلم بهذا، أو يثبت هذا، دون أن يطرح مناقشات علمية نقدية تتحرى الحقيقة).

وقد قام بالرد على العظم كثير من العلماء والكتاب؛ من أبرزهم: الشيخ عبد الرحمن الميداني في كتابه (صراع مع الملاحدة حتى العظم)، وهو الذي استفدنا منه هنا في هذا المحل، واقتصرنا على ما يرتبط بالإيمان بالله.

الشيخ محمد حسن آل ياسين في كتابه (هوامش على كتاب نقد الفكر الديني)
الأستاذ جابر حمزة فراج في كتابه (الرد اليقيني على كتاب نقد الفكر الديني)
الأستاذ محمد عزت نصر الله في كتابه (تهافت الفكر الاشتراكي)
الأستاذ محمد عزة دروزة في كتابه (القرآن والملحدون)
الدكتور عبد اللطيف الفرفور في كتابه (تهافت الفكر الجدلي)

(٢) رواه البخاري ومسلم.

(٣) رواه البخاري ومسلم.

ضحك العظم بهستيرية، ثم قال: ما بالك يا رجل تحدثني عن نبيك.. لو كنت أؤمن به ما جلست معك هذا المجلس.. أنا أريد أن تخاطبني بالعقل.. فأنا لا أؤمن إلا بالعقل.. أنا في حياتي لا أؤمن إلا بشيئين: أولهما العقل.. وثانيهما الدينونة بالاحترام والتقدير لإبليس المظلوم^(١).

اسمع منهجي في التفكير.. اسمع المنهج العلمي الحقيقي.. اسمع ما قلته في بعض كتيبي منطلقاً من هذا التساؤل لأصل إلى أن الإيمان بالله لا يعدو أن يكون خرافة كسائر الخرافات التي امتلأت بها العقول المتخلفة.

فتح كتاباً كان يحمله، وراح يقرأ بصوت جهوري ممتلئ غرورا.. (حتى لو سلمنا كلياً بالنظرة العلمية للأشياء ستبقى أمامنا مشكلة المصدر الأول لهذا الكون. لنفترض مع (رسل) أن الكون بدأ بسديم، ولكن العلم لا يقول لنا: من أين جاء هذا السديم، إنه لا يبين لنا من أين جاءت هذه المادة الأولى التي تطور منها كل شيء؟ فلا بد للعلم إذن من أن يتصل بالدين في نهاية المطاف.. ولكن طرح السؤال بهذه الصورة يبين لنا مدى تحكم تربيتنا الدينية وتراثنا الغيبي في كل تكفيرنا.. لنفترض أننا سلمنا بأن الله هو مصدر وجود

(١) رغم إلحاد العظم وعدم إيمانه بالله.. ولا بجميع عوالم الغيب إلا أنه عقد فصلاً في كتابه (نقد الفكر الديني) يدافع فيه عن (إبليس) سماه (مأساة إبليس) (ص ٥٥ وما بعدها) ردد فيه شبهات إبليس التي نقلتها بعض الكتب السابقة في اعتراضه على القدر؛ ككتاب (الملل والنحل) للشهرستاني (٧-١٠)

ثم ختم كلامه بقوله عن إبليس (ص ٨٥): (يجب أن نرد له اعتباره بصفته ملاكاً يقوم بخدمة ربه بكل تفان وإخلاص، ويجب أن تكف عن كيل السباب والشتم له، وأن نعفو عنه ونطلب له الصفح ونوصي الناس به خيراً) وقد ذكر سبب بحثه في هذا مع عدم إيمانه به، بقوله في (ص ٥٧): (يدور (بحثي) في إطار معين لا يجوز الابتعاد عنه على الإطلاق؛ ألا وهو إطار التفكير الميثولوجي الديني الناتج عن خيال الإنسان الأسطوري وملكاته الخرافية) فهو يريد دراسة شخصية إبليس (باعتبارها شخصية ميثولوجية أبدعتها ملكة الإنسان الخرافية، وطورها وضخمها خياله الخصب)

المادة الأولى، هل يحل ذلك المشكلة؟ هل يجيب هذا الافتراض على سؤالنا عن مصدر السديم الأول؟ والجواب هو طبعاً بالنفي.. أنت تسأل عن علة وجود السديم الأول وتجيب بأنها الله، وأنا أسألك بدوري وما علة وجود الله؟ وستجيبني بأن الله غير معلول الوجود، وهنا أجيئك: ولماذا لا نفترض أن المادة الأولى غير معلولة الوجود، وبذلك يُحسم النقاش دون اللجوء إلى عالم الغيبيات، وإلى كائنات روحية بحثة لا دليل لنا على وجودها، علماً بأن ميل الفلاسفة القدماء بما فيهم المسلمين كان دائماً نحو هذا الرأي إذ قالوا بقدم العالم، ولكنهم اضطروا للمداورة والمداراة بسبب التعصب الديني ضد هذه النظرة الفلسفية للموضوع^(١)، في الواقع علينا أن نعترف بكل تواضع بجهلنا حول كل ما يتعلق بمشكلة المصدر الأول للكون^(٢)

ابتسم حبنكة، وقال: هل انتهيت؟

قال العظم: ألا يكفي هذا الكلام العلمي لأن يجعل هذا المجلس ينفض؟.. لقد أتيت بفصل الخطاب.. ولا يمكن لأحد في الدنيا أن يعقب على حرف واحد مما ذكرت.

قال حبنكة: اسمح لي أن أعقب على ما ذكرت.. فقد اتفقنا جميعاً، ومعنا هذا الجمع على أن لا نعظم إلا الحقيقة.. الحقيقة وحدها، بغض النظر عن يمثلها، هل أنا أم أنت؟

طأطأ العظم رأسه، فقال حبنكة: سأبدأ حديثي معك عن تساؤلك عن علة وجود المصدر الأول للأشياء، وزعمك أن إحالة المؤمنين ذلك على الله تعالى يساوي نظرياً وقوف الملحدين عن السديم، الذي اعتبروه المادة الأولى لهذا الكون.. فكلا الفريقين

(١) لا شك أن هذا من المفتريات، فأكثر فلاسفة الإسلام كانوا من الملتزمين بالإسلام، بل حاولوا نصرته بما أتج

لهم من أدوات لم تتح لغيرهم.

(٢) نقد الفكر الديني: ص ٢٨.

عندك متساويان مع فارق مهم، وهو أن الملحد اعترف بهذا قبل المؤمن بخطوة واحدة..
فهل هذا ما تقصده؟

قال العظم: أجل.. أم أنك تحتقر ما ذكرت؟

قال حبنكة: لا.. أنا لا أحتقر ما ذكرت.. ولكنني أقرره لأناقشه عن بينة.

قال العظم: إن كان لديك قدرة على نقض ذلك الكلام، فهلم به.

قال حبنكة: اسمح لي أن أذكر لك بأن ما ذكرته ليس سوى مغالطة من المغالطات
الفكرية.. وهي مغالطة قائمة على التسوية بين أمرين متباينين تبايناً كلياً، ولا يصح التسوية
بينهما في الحكم.

غضب العظم، وقال: لا ينبغي لك أن تقول هذا.. إن ما تقوله خطير..

قاطعه حبنكة بهدوء، وقال: اصبر علي كما صبرت عليك.. فلا يمكن أن ننفلأ أثناء

حوارنا.

هدأ العظم، فقال حبنكة: إن الترجمة الصحيحة لكلامك هي (ما دام الوجود الأزلي

غير معلول الوجود، فلم لا يكون الوجود الحادث غير معلول الوجود أيضاً؟)

وكل ذي فكر صحيح سليم من الخلل يعلم علم اليقين أنه لا يصح أن يُقاس الحادث

على القديم الأزلي الذي لا أول له، فلا يصح أن يشتركا بناء على ذلك في حكم واحد..

وعلى هذه الطريقة من القياس الفاسد من أساسه صيغت تلك المغالطة الجدلية..

نعم.. أتم تتفنون في ستر عورة هذه المغالطة، وذلك بعبارات التقدم العلمي،

والمناهج العلمية، والتقدم الصناعي، والمناهج العقلية في تقصي المعرفة، والاتجاهات

الثورية في المجتمع والاقتصاد.. وتخلطون هذه العبارات خلطاً.. وتحشرونها في كل

مكان ومع كل مناقشة، تمويهاً وتضليلاً، وكأن التقدم العلمي والصناعي للإلحاد وحده،

وليس للإيمان، مع أن الدنيا جميعها وما فيها من ماديّات قد كانت وما زالت ولن تزال حتى تقوم الساعة للمؤمنين والكافرين وغيرهم على السواء، ضمن سنن الله الثابتة التي لا تتغير، وهي مجال مفتوح لكل الناس، إذ يمتحن الله بها إرادتهم وسلوكهم في الحياة، ليلوهم أيهم أحسن عملاً.

قال العظم: دعنا من كل هذه الخطابات، وأنبئي: لِمَ لا تكون المادة الأولى لهذا الكون (كالسديم مثلاً) قديمة أزلية غير حادثة، تنطلق منها التحولات، ثم ترجع إليها التحولات؟ قال حبنكة: إن الجواب على هذا يؤخذ من الكون نفسه، وما فيه من صفات وخصائص، فالكون يحمل دائماً وباستمرار صفات حدوثه، تشهد بهذه الحقيقة النظرات العقلية المستندة إلى المشاهدات الحسية.. وتشهد بها البحوث العلمية المختلفة في كل مجالات المعرفة.. حتى القوانين العلمية التي توصّل إليها العلماء الماديون تشهد بهذا.

وإذا ثبت أن هذا الكون حادث له بداية وله نهاية كان لا بد له من علة تسبب له هذا الحدوث، لاستحالة تحول العدم نفسه إلى وجود، أما ما لا يحمل في ذاته صفات تدل على حدوثه فوجوده هو الأصل، ولذلك فهو لا يحتاج أصلاً إلى موجد يوجده.. وكل تساؤل عن سبب وجوده تساؤل باطل منطقياً، لأنه أزلي واجب الوجود، وليس حادثاً حتى يُسأل عن سبب وجوده.

ولو كانت صفات الكون تقتضي أزليته لقلنا فيه كذلك، لكن صفات الكون المشاهدة والمدروسة تثبت حدوثه.

وهنا تكمن المغالطة التي تستند إليها، إذ أنك تريد أن تجعل الكون أزلياً، مع أن البراهين تثبت أنه حادث، وذلك لتخلص من الضرورة العقلية التي تلزم بالإيمان بوجود خالق لهذا الكون الحادث، لأن الحدوث من العدم المطلق دون سبب موجود سابق عليه

مستحيل عقلاً.

قال العظم: من السهل علي أن أدعي بأن هذا الكون أزلي.. وبذلك تنتهي المشكلة.
قال حبنكة: إن هذه الدعوى باطلة بكل الاعتبارات.. سواء كان منها العقلية الفلسفية القديمة، أو القوانين العلمية الحديثة:

فالأدلة العقلية الفلسفية تثبت لنا حدوث العالم من ظاهرة التغير الملازمة لكل شيء فيه، وذلك لأن التغير نوع من الحدوث للصورة والهيئة والصفات.. وهذا الحدوث لا بد له من علة.. وتسلسلاً مع العلل للمتغيرات الأولى، سنصل حتماً إلى نقطة بدء نقرر فيها أن هذا الكون له بداية، في صفاته وأعراضه، وفي ذاته ومادته الأولى.. وحينما نصل إلى هذه الحقيقة لا بد أن نقرر أن خالقاً أزلياً لا يمكن أن يتصف بصفات تقتضي حدوثه، وهذا الخالق هو الذي خلق هذا الكون وأمدّه بالصفات التي هو عليها.

قال العظم: أنا لا أسلم لهذا النوع من الأدلة.. فهي تفتقر إلى العلمية.

قال حبنكة: لقد اكتشف العلم الحديث القانون الثاني للحرارة الديناميكية، وهو القانون الذي يسمونه (قانون الطاقة المتاحة) أو يسمونه (ضابط التغير)

وهذا القانون يثبت أنه لا يمكن أن يكون وجود الكون أزلياً، إذ هو يفيد تناقص عمل الكون يوماً بعد يوم، ولا بد من وقت تتساوى فيه حرارة جميع الموجودات، وحينئذ لا تبقى أي طاقة مفيدة للحياة والعمل، وتنتهي العمليات الكيميائية والطبيعية، وبذلك تنتهي الحياة. لقد ذكر هذا التحقيق العلمي عالم أمريكي في علم الحيوان، هو (إدوارد لوثر كيسل) ثم قال: (وهكذا أثبتت البحوث العلمية دون قصد أن لهذا الكون بداية، فأثبتت تلقائياً وجود الإله، لأن كل شيء ذي بداية لا يمكن أن يتبدى بذاته، ولا بد أن يحتاج إلى المحرك الأولى الخالق الإله)

وذكره (السير جيمس) حين قال في كلام له: (تؤمن العلوم الحديثة بأن (عملية تغير الحرارة) سوف تستمر حتى تنتهي طاقتها كلية، ولم تصل هذه العملية حتى الآن إلى آخر درجاتها، لأنه لو حدث شيء مثل هذا لما كنا الآن موجودين على ظهر الأرض حتى نفكر فيها، إن هذه العملية تتقدم بسرعة مع الزمن، ومن ثم لا بد لها من بداية، ولا بد أنه قد حدثت عملية في الكون يمكن أن نسميها (خلقاً في وقت ما) حيث لا يمكن أن يكون هذا الكون أزلياً)

وبذلك، فإن حدوث هذا الكون أمر معترف به عند العلماء الماديين..

بالإضافة إلى هذا، فإن الادعاء بأن المؤمن بالله لا يدري علة وجود الله مغالطة أخرى في الحقيقة.. ذلك أن من أصله الوجود، ووجوده أزلي، فإنه لا يحتاج إلى علة لوجوده.. إذ السؤال عن هذه العلة أمر مخالف للمنطق السليم، أو عبث من العبث، أو مغالطة قائمة على الإيهام بأنه حادث غير أزلي.

ولهذا نرى الملحدين يسارعون إلى عوام المسلمين يقولون لهم: أستم تقولون: إن كل موجود لا بد له من موجود، وإن هذا الكون موجود فلا بد له من موجود، وذلك هو الله تعالى؟

فيقول له العامي الذي لا يعرف أصول المغالطات: بلى..

عندئذ يستدرجه الملحّد فيقول له: الله موجود، وهو على حسب الدليل لا بد له من موجود، فيجد العامي نفسه قد انقطع إذ لم يستطع جواباً.

لكن الخبير لا يقبل أصلاً صيغة الدليل على هذا الوجه القائم على المغالطة، ذلك لأن المقدمة (كل موجود لا بد له من موجود) مقدمة كاذبة غير صحيحة، فالخبير لا يسلم بها لفسادها، وإنما يقول بدلها: (كل موجود حادث لم يكن ثم كان لا بد له من محدث)، ثم

يقول: (وهذا الكون موجود حادث لم يكن، ثم كان بشهادة العقل وبشهادة البحوث العلمية)، عندئذٍ تتحصل النتيجة على الوجه التالي: (إذن فلا بد لهذا الكون من محدث)، وهذا المحدث للكون لا بد أن يكون موجوداً أزلياً غير حادث، ولا بد أن يكون منزهاً عن كل الصفات التي يلزم منها حدوثه، حتى لا يحتاج إلى مورد يوجده، بمقتضى الدليل الذي أثبتنا فيه وجود الله.

فمغالطة الملحد في المقدمة التي أوهم بها قائمة على التعميم، إذ وضع (كل موجود) بدل (كل موجود حادث)، ومعلوم أن عبارة (موجود) تشمل الموجود الأزلي والموجود الحادث.

وهكذا تجري مغالطات الملحدين، ليتصيدوا بها الجهلة والغافلين بغية استدراجهم وإحراجهم، ونقلهم من مرحلة الإيمان إلى مرحلة التشكك.

فالمؤمن إذن يعلم أن الخالق موجود أزلي ليس له من الصفات ما يلزم منها حدوثه، ووجوده هو الأصل، فلا يسأل عن علة وجوده عند العقلاء أصلاً، والسؤال عن علة وجوده أمر مخالف للحقيقة العلمية المنطقية التي انتهينا إليها.

وكما لا يسأل عما أصله العدم: ما هي علة عدمه؟ لأن مثل هذا السؤال لا يرد إلا على افتراض أن أصله الوجود، وهذا يناقش أن أصله العدم، كذلك ما أصله الوجود لا يسأل عن علة وجوده ولا يبحث عنها، لأن أي سؤال أو بحث عنها لا يكون إلا على افتراض أن أصله العدم، وبهذه العلة تحول من العدم إلى الوجود، لكن هذا الافتراض مرفوض ابتداءً، باعتبار أن أصله الوجود.

وبهذا يتضح لنا تماماً أنه لا يسأل ولا يبحث عن علة وجود ما الأصل فيه الوجود. وبهذا أيضاً تسقط المغالطة التي طرحها الملحد في مناقشته، ويظهر فساد تسويته بين

الكون الحادث وبين الخالق الأزلي.. وحينما نطالبه بعلة وجود الحادث وهو الكون، فليس من حقه المنطقي أن يطالبنا بعلة وجود الله الأزلي.

وليس من حق الملحد أن ينكر الوجود الأزلي كله ما دام الواقع يكذبه، والبراهين العلمية تهزأ به، لأنه لو لم يكن في الوجود موجود أزلي لاستحال أن يوجد شيء في هذا الكون، لأن الافتراض على هذا يقوم على أساس العدم المطلق.. والعدم المطلق يستحيل أن يتحول بنفسه إلى وجود.

ولهذا، فإن هذا الكون الذي نحن جزء منه موجود حادث ذو بداية، وكل ذي بداية لا بد له من علة كانت السبب في وجوده، وإيجاده قد كان عملية من عمليات الخلق، وعملية الخلق إنما تتم بخلق قادر، وهذا الخالق القادر لا بد أن يكون أزلياً، ولا بد أن يكون متحلياً بالكمال المطلق.. هذه هي عقيدة المؤمنين بالله.

قال العظم: لا شك أنك لم تقرأ ما ذكرته في كتابي.. وبالضبط في صفحة (٢٥) منه حين قلت: (ولنلمس طبيعة هذا الفارق بين النظرة الدينية القديمة وبين النظرة العلمية التي حلت محلها، سنوجه انتباهنا إلى مثال محدد يبين بجلاء كيف يقودنا البحث العلمي إلى قناعات وتعليقات تتنافى مع المعتقدات والتعليقات الدينية السائدة، مما يضطرنا إلى الاختيار بينهما اختياراً حاسماً ونهائياً)

اسمع جيداً هذا المثال الذي ذكرته.. إنه فصل الخطاب في المسألة.. لقد قلت في كتابي: (لا شك أن القارئ يعرف التعليل الإسلامي التقليدي لطبيعة الكون ونشأته ومصيره.. وهو أن الله خلق هذا الكون في فترة معينة من الزمن، بقوله: كن فكان، ولا شك أنه يذكر حادثة طرد آدم وحواء من الجنة، تلك الحادثة التي بدأ بها تاريخ الإنسان على هذا الأرض، ومن صلب المعتقدات الدينية أن الله يرعى مخلوقاته بعنايته وهو يسمع صلواتنا

وأحياناً يستجيب لدعائنا، ويتدخل من وقت لآخر في نظام الطبيعة فتكون المعجزات، أما الطبيعة فقد حافظت على سماتها الأساسية منذ أن خلقها الله، أي أنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها.. أما النظرة العلمية حول الموضوع ذاته فلا تعترف بالخلق من لا شيء، ولا تقر بأن الطبيعة كانت منذ البداية كما هي عليه الآن)

ابتسم حبنكة، وقال: إن هذا الكلام الذي أوردته في كتابك العظيم كذب على الدين، ومغالطة في الحقيقة، وتمويهات بذكر بعض أمور هي من الدين، أوردتها لتغشي بها على نظر القارئ، فلا يبصر مواطن الافتراءات، ومزالق المغالطات.

لقد أدخلت فكرة لا يعترف بها الدين أصلاً، ضمن عرضك لطائفة من المفاهيم والعقائد الدينية الصحيحة، لتضلل القارئ بالإيهام الذي اصطنعه له، ولتجعله يعتقد أن هذه الفكرة الدخيلة هي فعلاً من المفاهيم الدينية، ما دامت قد وردت ضمن مجموعة مفاهيم صحيحة يعرفها هو عن الدين.

لقد زعمت أن الإسلام يرى أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله، أي: أنها تحتوي الآن على نفس الأجرام السماوية وأنواع الحيوانات والنباتات التي كانت موجودة فيها منذ اليوم الأول لخلقها.. مع أن هذا افتراء صريح على الدين، تكذبه بالنصوص القرآنية، ولست أدري من أين جئت بهذه المفاهيم فألصقتها بالدين؟

لما تحدث القرآن عن فئة الحيوانات التي خلقها الله لركوب الإنسان، وليتخذها زينة له، ألحقها بقوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: من الآية ٨) بصيغة الفعل المضارع التي تدل على الحال والاستقبال، للدلالة على أن عمليات التجديد في الخلق الرباني للأشياء مستمرة غير منقطعة، قال الله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ

تَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣) خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ (٤) وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ (٥) وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٦﴾ (النحل)

أليس في هذا إعلاناً صريحاً مخالفاً لما زعمت من أن الدين يقرر أن الطبيعة قد حافظت على سماتها منذ أن خلقها الله.

وبالنسبة إلى الأجرام السماوية لا نجد في النصوص الإسلامية ما يدل على هذا الذي افتريته، بل في النصوص ما يدل على خلاف ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ (الذريات: ٤٧).. فكلمة (موسعون) في الآية تشير إلى أعمال التوسعة المتجددة في السماء، وذلك لأن هذه الكلمة من صيغ اسم الفاعل، وصيغة اسم الفاعل بقوة المضارع من جهة الدلالة، هي للتعبير عن الحال أولاً ثم عن الاستقبال.

قال العظم: دعنا من هذا.. وأخبرني ألم تسمع بنظرية (لافوازيه)^(١) التي تقول: لا يخلق شيء من العدم المطلق، ولا يعدم شيء، وإنما هي تحولات من مادة لطاقة، أو من طاقة لمادة، أو من مادة لمادة؟

ابتسم حبنكة، وقال: أنت لم تفهم (لافوازيه).. إن نظريته لا تتحدث عن الكون جميعاً.. إنها تتحدث عن مجال معين ذي أبعاد.. وليس في استطاعتها أن تتحدث عن كل الوجود في كل أبعاده من الأزل إلى الأبد.. فهذا أمر لا تستطيع تقريره أية نظرية استقرائية مهما بلغ شأنها، إلا أن يكون كلامها رجباً بالغيب، وتكهناً لا سند له، وطرحاً تخيلياً

(١) هو أنطوان لوران لافوازيه (١٧٤٣ - ١٧٩٤م) كيميائي فرنسي، وهو مؤسس الكيمياء الحديثة. قام بقياس أوزان المواد التي تدخل في التفاعلات الكيميائية.

محضاً.

إن لنظرية (لافوازيه) ثلاثة أبعاد هي: البعد الزمني، والبعد المكاني، والبعد الإدراكي. التفت حبكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في كل الأزمان، بما فيها الأزمان السحيقة في القدم، وعرفوا منها أنه لم يخلق في الأزمان القديمة جداً شيء من العدم؟

سكت العظم، فقال حبكة: إنهم لم يفعلوا ذلك لأنه لا يتسنى لهم بحال من الأحوال، وهم أبناء النهضة العلمية الحديثة، على أن الأدلة العلمية التي سبق بيانها قد أثبتت أن لهذا الكون بداية، وهذا يعني أنه لم يكن ثم كان، فهو إذن مخلوق من العدم، بقدرة خالق موجود أزلي.

فهذه النظرية لا تتحدث عن الانطلاقة الأولى للكون، لأن أيّاً من الأجهزة العلمية لا تستطيع أن تسترجع الأزمان السحيقة وترصد الكون فيها، وكذلك لا تستطيع النظرات التحليلية الاستنتاجية أن تحكم على ماضي الكون وانطلاقته الأولى، بالقياس على واقعه النظامي الذي نشاهده في الحاضر، لاحتمال الاختلاف البين بين نقطة البدء وبين ما يأتي بعدها من حالات نظامية مستمرة.

فنظرية (لافوازيه) لا تتناول بحال من الأحوال الزمن الأول لبداية الكون، ومجالها يأتي في الأزمان التي يترجح فيها قيام النظام الكوني الذي درسته هذه النظرية، وبهذا يتبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان الماضي غير صحيح.

التفت حبكة إلى العظم، وقال: أجبني: هل رصد واضعو هذه النظرية العلمية ومقرروها أجزاء الكون في مستقبل ما يأتي من الأزمان، وثبت لهم من رصدهم أنه لا يمكن أن يخلق شيء من العدم، ولا يمكن أن يعدم شيء موجود؟

سكت العظم، فقال حبنكة: لا.. لا يمكن.. كيف يتسنى لهم رصد المستقبل وهم لا يملكون استقدامه؟

إن جل ما يملكونه قياس المستقبل على الحاضر والماضي، بشرط استمرار نظام الكون القائم، ولا يستطيعون أن يحكموا على الكون بأنه لا يمكن أن يتغير نظامه الكلي، فتأتيه حالة من الحالات يمسي فيها عدماً، أو تنعدم بعض أجزاء منه، أو تضاف إليه أجزاء لم تكن هيئتها ولا مادتها فيه، فهذا حكم لا سبيل إليه، إنه حكم مجهول، والحكم على المجهول باطل.

فنظرية (لا فوازيه) تنطبق على هذا الكون بشرط استمرار نظامه القائم، وهي لا تحكم على المستقبل حكماً قاطعاً باستحالة تغير هذا النظام، ولكن ما دام هذا النظام الكوني قائماً، فإن ضابطه أن جميع ما يجري من مدركات فيه إنما هو من قبيل التحولات، وبهذا يتبين لنا أن التعميم الزمني فيها الشامل لكل أزمان المستقبل غير صحيح.

هذا ما يتعلق بتحديد البعد الزمني للنظرية، أما تحديد البعد المكاني لها فنقول فيه: هل رصد واضعو هذه النظرية ومقرروها هذا الكون في كل أبعاده المكانية؟.. ألا يحتمل وجود مكان سحيق فيه لم يرصدوه ولم يعرفوا ما فيه؟.. أفيحكمون عليه إذن حكماً غيائياً قياساً على ما رصدوه منه في الأمكنة التي استطاعت أن تبلغ إلى مداها أجهزة تهم وملاحظاتهم؟ إن هذا الحكم الغيائي مع جهالة الخصائص والصفات حكم باطل، وهذا طبعاً لا يعني ضرورة مخالفة الغائب للحاضر، ولكن لا يعني أيضاً لزوم موافقته.

فلا بد إذن من تحديد مكان النظرية بالأبعاد المكانية التي كانت مجال الملاحظة والقياس والأجهزة، مع التجاوز بصحة قياس ما شابهها عليها، مما لم يخضع للملاحظة المباشرة.

أما تحديد البعد الإدراكي للنظرية فيتلخص بأن النظرية قد اعتمدت على ملاحظة عالم الشهادة من الكون المنظور المدرك، أما عالم الغيب الذي لا تصل إليه الإدراكات الإنسانية المباشرة أو عن طريق الأجهزة، فهو عالم خارج بطبيعته عن مجال النظرية، لذلك فإنها لا تستطيع أن تحكم عليه، لأن حكمهما عليه هو من قبيل الحكم على الغائب المجهول في ذاته وفي صفاته.

جُلُّ ما تستطيعه النظريات في هذا المجال هي أن تعلق أحكامها تعليقاً كلياً، أو تصدر أحكاماً مشروطة احتمالية غير جازمة، وهذا ما تقتضيه الدراسة العلمية المنطقية الحيادية، وتوجيه الأمانة الفكرية في البحث الجاد عن المعرفة والحقيقة.

وهكذا ظهر لنا أن نظرية (لافوازيه) لم تتناول من الكون إلا مقطعاً محدود الأبعاد الثلاثة: البعد الزمني، والبعد المكاني، والبعد الإدراكي، وهذا المقطع هو مجال ملاحظتها.

يضاف إلى كل ذلك أن وجود الحياة في المادة لم يقترن بأي دليل تجريبي يثبت تحول المادة غير الحية إلى مادة حية، عن طريق التولد الذاتي، رغم كل التجارب العلمية التي قامت في عالم البحث العلمي حتى الآن.

لذلك نلاحظ أن الآراء العلمية في هذا المجال ترجع إلى أصول ثلاثة كبرى:

أما أولها، فهو ما قرره (أغاسيز) في كتابه (تصنيف العضويات) سنة (١٨٥٨م) إذ قرر أن كل نوع من الأنواع خلق بفعل خاص من أفعال القوة الخالقة، و(باستور) مكتشف جراثيم الأمراض على هذا الرأي، والقائلون بهذا الرأي قد استقر مذهبهم على (أن كل حي لا بد أن يتولد من حي مثله)

أما الثاني، فهو ما ذهب إليه (هيرمان أبير هارد ريكتر).. إذ رأى أن الفراغ الذي نراه

مملوءاً بجراثيم الصورة الحية، كالجواهر الفردة التي تتكون منها المادة الصماء، كلاهما في تجدد مستمر، ولا يتطرق لهما العدم، وبنى قاعدته في أصل الحياة على (أن كل حي أبدي، ولا يتولد إلا من خلية)، وهذا الرأي يتضمن أن تطورات المادة من المادة، وتطورات الحياة من الحياة.

أما الثالث، فهو ما ذهب إليه الماديون من أن الحياة نشأت من المادة بالتولد الذاتي، وليس لهذا الرأي أي شاهد تجريبي، أو مستند عقلي، وقال بهذا الرأي الدكتور (باستيان) في إنكلترا، والأستاذ (هيكِل) في ألمانيا^(١).

قال العظم: دعنا من هذا.. وأجبنني ألا ترى أن ما جاء في النصوص الدينية من استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها بالنسبة إلى الأحداث والتغيرات التي توجد داخل مجال النظرية المذكورة، مناقضاً أو معارضاً لمضمون هذه النظرية؟

قال حبنكة: إن هذا يستدعي الرجوع إلى استعمال كلمة (الخلق) ومشتقاتها في اللغة العربية وفي نصوص الشريعة الإسلامية.. وقد رجعت إلى هذه النصوص، فوجدت أن هذه المادة اللغوية لا تعني دائماً الإيجاد من العدم المطلق، بل كثيراً ما تستعمل مرادفاً منها التحويل في الصفات والعناصر التركيبية من حال إلى حال، ومن وضع إلى وضع، ومن هيئة إلى هيئة، ومن خصائص إلى خصائص، دون زيادة شيء على المادة الأولى من العدم المطلق، وفي حدود هذا الاستعمال نجد قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ

(١) نقله حبنكة عن (إسماعيل مظهر) في مقدمته لكتاب (أصل الأنواع)، تأليف (تشارلز داروين)

الْخَالِقِينَ (١٤) ﴿المؤمنون﴾

ففي كل ما ذكر من صور الخلق نشاهد عمليات التحويل من وضع إلى وضع، ومن حال إلى حال، ومن صورة إلى صورة، ومن خصائص إلى خصائص، وقد أطلق على هذه التحويلات أنها خلق، باعتبار أن القدرة الربانية هي المتصرف في كل هذه التحويلات.

وجاء في القرآن إطلاق الخلق على تغيير هيئة الطين وجعله على صورة طير، نظراً إلى أن الخلق لا يستدعي دائماً أن يكون إيجاداً من العدم، وذلك في قول الله لعيسى عليه السلام: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ (المائدة: ١١٠)

وبما أن كل التغيرات الكونية إنما تجري بإرادة الله وقدرته، فهي ظواهر لأعمال الخلق التي يقوم بها الله تعالى.

فعلى التسليم الكامل بنظرية (لافوازيه) ضمن حدودها، لا نجد تعارضاً بينها وبين المفاهيم الدينية التي دلت عليها النصوص الصحيحة الصريحة.

ابتسم، وقال: أنا أعلم أن مثل هذه الحقائق لا تسر الملحدين، لأنهم حريصون جداً على أن يظفروا بتناقض ما بين العلم والدين، حتى يتخذوا ذلك ذريعة لنقض الدين من أساسه.. ولن يظفروا مهما أجهدوا نفوسهم، لأن القرآن حق لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من عزيز حميد، عليم بكل شيء، لا يعزب عن علمه مثقال ذرة من السماوات ولا في الأرض، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر.

قال العظم: دعنا من هذا.. وأجبنني.. ألم تتساءل يوماً عن السر الذي جعل جميع العلماء المحترمين علماء ماديين ملحدين.. بل لا يصير العالم عالماً حتى يصير ملحداً.. خذ مثلاً على ذلك بالفيلسوف الأمريكي (وليم جيمس) الذي كتب كتابه العظيم، والذي

عنوانه بـ (إرادة الاعتقاد)؟

إن هذا الرجل العظيم يرى أن البيانات العلمية والأدلة العقلية غير كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، لذلك يحق للإنسان أن يتخذ موقفاً من هذه المعضلة يتناسب مع عواطفه ومشاعره.

واسمع بعد هذا إلى هذه المعزوفة العظيمة التي لحنها الفيلسوف الأديب (برتراند رسل) تحت عنوان: (عبادة الإنسان الحر).. لقد صور فيها تفسيرات الملحنين لنشأة الكون وتطوره، ونشأة الحياة وتطورها، وأصل الإنسان ونشأته وتطوره، ونشوء الديانات والعبادات والطقوس وتطورها، وأنكر فيها الآخرة وما فيها.. فالكون بدأ من السديم، وهو إلى السديم يعود.

واسمع مع هؤلاء إلى تلك المعزوفات الجميلة التي لحنها (ماركس) و(فرويد) و(داروين).. وغيرهم من العباقرة.

ابتسم جنبك، وقال: أنت تتهجم على المدافعين عن الدين بأنهم يقدمون أقوالاً تقريرية غير مقترنة بأدلة.. ولكنك في الرد عليهم تفزع إلى قصة أدبية كتبها (برتراند رسل).. وكأنها السند الأمثل للتحقيق العلمي في قصة الخليفة.

هل تصبح تلك القطعة الأدبية هي التحقيق العلمي العظيم لقصة الوجود كله، التي بدأت بالسديم وستنتهي إلى السديم، وفق النظرات التي يرجحها أصحابها دون مستندات علمية صحيحة، ودون براهين معتبر وفق المنهج العلمي السليم؟

أتى لواضعي هذه النظرية أن يشهدوا بداية الكون؟ وكيف يتسنى لهم مشاهدة نهايته؟ إن راسل صور في قصته أن السديم الحار دار عبثاً في الفضاء عصوراً لا تعد ولا تحصى، ثم نشأت عن هذا الدوران هذه الكائنات المنظمة البديعة بطريق المصادفة، وأن

اصطداماً كبيراً سيحدث في هذا الكون يعود به كل شيء إلى سديم كما كان أولاً.
أذكر أنك علقت على هذه القصة الخيالية بقولك: (هذا المقطع الذي كتبه (رسل)
يلخص لنا بكل بساطة النظرة العلمية الطبيعية للقضايا التالية: نشوء الكون وتطوره، نشوء
الحياة وتطورها، أصل الإنسان ونشأته وتطوره، نشوء الديانات والعبادات والطقوس
وتطورها، وأخيراً يشدد على أن النهاية الحتمية لجميع الأشياء هي الفناء والعدم، ولا أمل
لكائن بعدها بشيء، إنه من السديم وإلى السديم يعود)

وهكذا وبكل بساطة تعتبر هذه الأمور حقائق مقررّة مسلماً بها علمياً، دون أن تقترن
بأي إثبات لها، أهذا هو مستوى الأمانة الفكرية عندك؟ أهذا هو المنهج العلمي السليم؟
ما أبعد المناهج العلمية عن القصص التقريرية، التي تنسجها أخيلة الكتاب والأدباء
والشعراء، أو أخيلة واضعي النظريات لأغراض معينة.

في موضع آخر من كتابك العظيم استشهدت بإعجاب برسل قائلاً: (وفي مناسبة
أخرى عندما سئل (رسل): هل يحيا الإنسان بعد الموت؟ أجاب بالنفي، وشرح جوابه
بقوله: عندما ننظر إلى هذا السؤال من زاوية العلم وليس من خلال ضباب العاطفة نجد أنه
من الصعب اكتشاف المبرر العقلي لاستمرار الحياة بعد الموت، فلا اعتقاد السائد بأننا نحيا
بعد الموت يبدو لي بدون أي مرتكز أو أساس علمي)

أهكذا ترفض الحقيقة التي جاء بيانها بالأخبار الصادقة عن الله، بمجرد الاستبعاد؟
حينما يسمع المؤمن بالإسلام جواب هذا الفيلسوف الإنكليزي عن الحياة بعد
الموت، لا بد أن تسترجع ذاكرته الجواب الجاهلي الذي كان يجيب به كفار العرب
البدائيون، إذ قالوا كما حدثنا القرآن عنهم: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا وَعِظَامًا إِنَّنَا لَمَبْعُوثُونَ﴾
(المؤمنون: من الآية ٨٢)، وقال حاكيا عنهم: ﴿إِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا ذَلِكَ رَجْعٌ بَعِيدٌ﴾ (ق: ٣)

إن هذا المنطق يدلنا بوضوح على أن الإنكار هو الذي لا يركز على أساس علمي، إنما يعتمد على مجرد التقرير للنفي، أو استبعاد فكرة البعث بإطلاق عبارات التعجب.

على أن الإيمان بالحياة بعد الموت للحساب والجزاء لا بد أن يعتمد على أساس الإيمان بالله، فإثارة هذه العقيدة دون أساس الإيمان بالله هي من قبيل الاشتغال بالفروع قبل الاتفاق على الأصول، وهذا لا يؤدي إلى نتيجة صحيحة، فإذا تم التسليم بعقيدة الإيمان بالخالق جلّ وعلا جاء من بعدها عرض أدلة البعث.

التفت إلى العظم، وقال: أما بخصوص انتقائيتك في اختيار العلماء والفلاسفة.. فأنا أستطيع أن أذكر لك الآن الكثير منهم.. وكلهم كان مؤمناً عارفاً بربه خاشعاً له.. كما أخبرنا ربنا، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر: من الآية ٢٨)

لقد قال البروفيسور (إيدوين كونكلين): (إن القول بأن الحياة وجدت نتيجة (حادث اتفاقي) شبيه في مغزاه بأن نتوقع إعداد معجم ضخم نتيجة انفجار يقع في مطبعة على سبيل المصادفة)، أي لا يمكن للمصادفة أن توجد هذا الكون ذا النظام المتقن الرائع، إذن فلا بد له من خالق خلقه وأتقنه.

وقال عالم الطبيعة الأمريكي (جورج إيرل ديفيس): (لو كان يمكن للكون أن يخلق نفسه فإن معنى ذلك أنه يتمتع بأوصاف الخالق، وفي هذه الحال سنضطر أن نؤمن بأن الكون هو الإله، وهكذا ننتهي إلى التسليم بوجود (الإله)، ولكن إلهاً هذا سوف يكون عجباً، إلهاً غيبياً ومادياً في آن واحد! إنني أفضل أن أؤمن بذلك الإله الذي خلق العالم المادي، وهو ليس بجزء من هذا الكون، بل هو حاكمه ومديره ومدبره، بدلاً من أن تبنى مثل هذه الخزعات)

انظر كيف أن هذا العالم الأمريكي من علماء الطبيعة يرى أن نظرات الملحدين هي

من قبيل الخزعبلات، أو الخرافات التي ليس لها سند علمي ولا سند عقلي، وهذا هو شأن كل عالم منصف محايد.

واسمع إلى رد (كريسي موريسن) الذي كان رئيس أكاديمية العلوم الأمريكية بنيويورك على الملحد (هيكل) إذ قال هذا الملحد متبجحاً: (إيتوني بالهواء وبالماء، وبالأجزاء الكيماوية، وبالوقت، وسأخلق الإنسان).. لقد قال له: (إن هيكل يتجاهل في دعواه الجينات الوراثية، ومسألة الحياة نفسها، فإن أول شيء سيحتاج إليه عند خلق الإنسان هو الذرات التي لا سبيل إلى مشاهدتها، ثم سيخلق (الجينات) أو حملة الاستعدادات الوراثية، بعد ترتيب هذه الذرات، حتى يعطيها ثوب الحياة، ولكن إمكان الخلق في هذه المحاولة بعد كل هذا لا يعدو واحداً على عدة بلايين، ولو افترضنا أن (هيكل) نجح في محاولته فإنه لن يسميها مصادفة، بل سوف يقررها ويعدها نتيجة لعبقريته)

وهكذا أظهر هذا العالم سخافة أقوال (هيكل) عن طريق الاستدلال العلمي.

فالاستناد إلى فرضية المصادفة في تعليل وجود الكائنات المتقنة المنظمة لون من التخريف الفكري، القائم على إرادة التضليل فحسب، وليس مذهباً فكرياً تحيط به شبهات تزينه في عقول القائلين به، وهذا ما تدل عليه الشهادات العلمية المنصفة المحايدة.

واسمع إلى عالم الأعضاء الأمريكي (مارلين ب. كريدنر)، لقد قال: (إن الإمكان الرياضي في توافر العلل اللازمة للخلق عن طريق المصادفة في نسبها الصحيحة هو ما يقرب من لا شيء)، أي: إن احتمال المصادفة احتمال مرفوض رياضياً في تعليل عمليات الخلق المتقن المنظم.

وجاء في كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ثلاثون مقالاً لثلاثين من كبار العلماء الأمريكيين، في الاختصاصات العلمية المختلفة من علوم الكون السائدة في هذا العصر

الحديث، وقد أثبت هؤلاء العلماء في مقالاتهم هذه وجود الله جلَّ وعلا، عن طريق ما وَعَوَهُ من الأدلة الكثيرة المنبثة في مجالات اختصاصاتهم العلمية.

وفي هذا الكتاب يطلع القارئ على نوع من الأدلة العلمية، التي تفرض سلطانها على العلماء الماديين، من خلال ملاحظاتهم وتجاربهم واختباراتهم العلمية، فتجعلهم يؤمنون بالله، ويجد فيه أيضاً الرد الكافي على مروجي الإلحاد، الذين يزعمون أن العلوم تبعد عن الإيمان بالله، وأن جميع أو معظم العلماء الكونيين ملحدون.

عم صمت قليل المجلس قطعه حبنكة قائلاً، وهو ينظر إلى العظم: ولهذا، فإن ما ذكرته في الصفحة (٢٨) من كتابك العظيم - من قولك: (إن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية عن ذكر الله) - ادعاء باطل لا أساس له من الصحة مطلقاً.

ومع ذلك، فلنفترض جدلاً أن العلماء الماديين جميعهم أنكروا وجود الله.. فهل ترى ذلك كافياً في إنكار حقيقة وجود الله؟

هل ينتظر من العلوم المادية المتقدمة وأجهزتها المتطور أن ترينا الله تعالى رؤية حسية؟

إن أقصى ما تفعله هذه الأجهزة أن ترينا آيات الله في الكون.. أما ذات الله تعالى، فلن تستطيع أن ترينا إياها.. لقد ذكر الله تعالى ذلك، فقال: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ (٥٣) أَلَا إِنَّهُمْ فِي مِرْيَةٍ مِّنْ لِّقَاءِ رَبِّهِمْ أَلَا إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُّحِيطٌ (٥٤)﴾ (فصلت)

لا نقول هذا فقط.. بل نحن نتحدى العلوم المادية المتقدمة، وأجهزتها المتطورة، أن ترينا كثيراً من الطاقات الكونية التي غدت حقائق علمية ثابتة لدى العلماء الماديين عن طريق

الاستنتاج من ظواهرها وآثارها، وهذه الحقائق التي أثبتوها ليست إلا تفسيرات نظرية للظواهر.

بالإضافة إلى هذا، فإن شهادات العلماء الماديين المؤمنين الذين نشأوا في عصر النهضة العلمية المادية الحديثة تقدم للمتشككين أدلة كافية على أن العلوم المادية ليست علوماً ملحدة في حقيقتها، لكن الإلحاد ملصق بها بطريقة صناعية مقصودة موجهة، من قبل فئات خاصة لها في نشر الإلحاد مصالح سياسية واقتصادية ضد خير البشرية وسعادتها.

ومن هذه الأقوال يتبين لنا بوضوح أنه لا يوجد تناقض ولا تعارض مطلقاً في نظر جمهور العلماء الماديين بين الدين والعلم حول الأساس الأول من أسس العقيدة الدينية، وهي عقيدة الإيمان بالله تعالى، وبهذا تنهار المستندات الإلحادية التي تزعم وجود هذا التناقض بالنسبة إلى هذه النقطة بالذات، باعتبارها مجال بحثنا الآن، وباعتبارها أعظم نقطة في الأيديولوجية الإلحادية، والتي يحاول الملحدون جهدهم أن يوجدوا لها المبررات النظرية، أو المبررات العملية، فلا يجدون إلا افتراء الأكاذيب، وصناعة المغالطات، والاحتواء المزور بالتقدم العملي والصناعي، وسرقة أسلحة العلم التي لا تملك في الحقيقة الدفاع عن الإلحاد، وإنما هي في الأصل أسلحة لقضية الإيمان، يحسن استعمالها العالمون بها، وتكون عند الجاهلين بها أسلحة معطلة، ويسرقها الملحدون فيحملونها أمام الجاهلين، فيتخيل الجاهلون بها أنها فعلاً أسلحة للملحدين، وهي تدعم قضية الإلحاد، مع أن الحقيقة بخلاف ذلك، إنها أسلحة للمؤمنين العالمين بها، الذين يحسنون استعمالها. لو كانت النظرة العلمية الحديثة تناقض أو تعارض النظرة الغائية للكون، لما وجدنا هذا الجمهور الكبير من علماء النهضة العلمية الحديثة مؤمنين بالله، وبتفسيرات النظرة الغائية للكون، وبالمفاهيم الأخلاقية الدينية..

لقد كان (أندرو كونواي إيفي) من هؤلاء.. لقد كان من علماء الطبيعة الكبار.. وكان ذا شهرة عالمية من سنة (١٩٢٥م) إلى سنة (١٩٤٦م).. ولكن ذلك لم يمنعه من أن يقول -في مقال له تحت عنوان: (وجود الله حقيقة مطلقة)-: (ويظهر أن الملحدين أو المنكرين بما لديهم من شك لديهم بقعة عمياء، أو بقعة مخدرة داخل عقولهم، تمنعهم من تصور أن كل هذه العوالم، سواء ما كان ميتاً أو حياً، تصير لا معنى لها بدون الاعتقاد بوجود الله) ثم استشهد لذلك بتصريح لأينشتاين قال فيه: (إن الشخص الذي يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيساً فحسب، ولكنه غير مؤهل للحياة) انظروا.. أليس هذا التفكير الذي يعلن عنه هذا العالم ومن قبله (أينشتاين) تفكيراً قائماً على النظرة الغائية للكون، وعلى اعتبار القيم الأخلاقية؟

إن هذه النظرة الموافقة للنظرة الإسلامية لم تكن عند أصحابها مناقضة للأسس العلمية الحديثة، ولا للنظرة العلمية كما تبلورت مع تطور العلم الحديث وتقدمه.. قاطعه العظم، وقال: ولكن هذه النظرة مناقضة لنظريات دُرْكهائم، وفرويد وماركس.. ومناقضة للداروينية.

قال حبنكة: لو كان لدي الوقت الكافي لبينت لك هنا بالدليل القاطع أن هؤلاء ليسوا سوى أجراء لمخططات ليس لها من هدف سوى هدم الأسس الدينية، لا على أساس قناعات علمية صحيحة.

لقد أصبح مخططهم مكشوفاً للعالم.. بل كتب في كشف مكايدهم محققون من العلماء المتبعين.

ومع ذلك.. وبغض النظر عن مدى صدق هذا.. فلنقارن بين السمو الذي تحمله نظريات من ذكرت، وبين السمو الذي تحمله النظرية الإسلامية، ومن يوافقها من علماء

الطبيعة المؤمنين.

راح العظم يقرأ من كتابه بصوت جهوري هذا النص: (جلي أن هذه النظرة الإسلامية للكون هي نظرة غائية، تعتمد في تفسيرها لطبيعة الكون على العلل الغائية، والأهداف السامية، وعلى مفاهيم أخلاقية مثل (الحق والعدل)

هل تنسجم هذه النظرة الغائية إلى الكون والحياة مع النظرة العلمية التي تسود العالم المعاصر وثقافته؟ لو رجعنا إلى التفسيرات العلمية للكون من (نيوتن) إلى (أينشتاين) هل نجد في صلبها مقولات مثل (الأهداف السامية) أو (الحق والعدل) أو (الروح والجمال والخالق)؟.. هل نجد لهذه المفاهيم الأخلاقية الدينية أي ذكر في النظرية النسبية، أو في ميكانيكا الكموم مثلاً؟ سؤال جدير بالتمحيص والإيضاح والمناقشة على أقل تعديل)

قرأ ذلك، ثم التفت لحبنة، وقال: ما تقول في هذا النص؟
ابتسم حبنة، وقال: أعلى هذا المستوى الفكري تعرض قضية الإلحاد، وتناقش قضية الإيمان بالله؟!؟

أهكذا يجازف بالمنطق والفلسفة ليصنع حجة مكشوفة بهذا الشكل؟
فما صلة النظرية النسبية وميكانيكا الكموم بالحديث الصريح عن الله تعالى، أو التعرض إلى المفاهيم الأخلاقية، حتى يعتبر عدم ذكر اسم الله والمفاهيم الأخلاقية فيها دليلاً على نفي وجود الله، أو على إلغاء المفاهيم الأخلاقية؟!؟

إن مثل هؤلاء الذين يרטون بمثل هذا كمثل وارث كنز عظيم، ولكنه قد نشأ وهو يجهل أين خبأ له مورثه كنزه، وأقبل خبراء البحث عن الكنوز ينقبون ويبحثون، وتسلسل من وراء هؤلاء الخبراء لصوص، تظاهروا بأنهم باحثون خبراء، ولكنهم وقفوا يرددون ما يردد عليه الباحثون الحقيقيون، ليسرقوه كله أو ما يستطيعون سرقة منه، وكان مورث الكنز قد

كتب اسمه ورسم صورته على أحد وجهي مصكوكاته الذهبية علامة على أنها له، وقد خبأها لوارثه، أما الخبراء المنقبون الأمناء: فإنهم لما ظفروا بما وجوده من الكنز، أعلنوا ما شهدوا من كتابة ورسوم على مصكوكاته، وثبتوا استحقاق الوارث لها، وأخذوا أجرهم على أعمالهم. وآخرون لم تكن لديهم الأمانة الكافية أو كانوا جاهلين بقراءة المكتوبات الأثرية أخذوا ما عثروا عليه، وانتفعوا بالكنز، ولم يعلنوا ما شهدوا من كتابة ورسوم على مصكوكاته، ولم يهتموا بأن يعترفوا باستحقاق الوارث لها.. وجاء من وراء الفريقين فئة اللصوص، فسطوا على بعض ما استخرجه الخبراء من الكنز، وطمسوا الوجه المكتوب، وأقبلوا يفاخرون بأن الكنز كله هو ملكهم، وهو ميراثهم، والدليل على ذلك أن بعض قطع مصكوكاته الذهبية في أيديهم، قد عثروا عليها وفيها كتابة تشهد لهم بأن مورثهم قد خبأها لهم.

وحينما يُقال لهم: أرونا هذه الكتابة التي تشهد لكم يقولون: فلان قال هذا، وفلان قال هذا، وفلان قال هذا، وكل هؤلاء الذين ذكروهم هم من فئة اللصوص أنفسهم، أو من غيرهم ولكن يكذبون عليهم، ويظنون حريصين على أن يبقى الوجه الثاني للمصكوكات الذهبية مطموساً، حتى لا تنكشف لعبتهم القائمة على اللصوصية والتزوير.

أخذ العظم يقرأ من كتابه هذه العبارات: (عندما نقول مع (نيتشه): إن الله قد مات، أو هو في طريقه إلى الموت، فنحن لا نقصد أن العقائد الدينية قد تلاشت من ضمير الشعوب، وإنما تعني أن النظرة العلمية التي وصل إليها الإنسان عن طبيعة الكون والمجتمع والإنسان خالية من ذكر الله تماماً كما قال (لابلاس))

التفت إلى حبنكة، وقال: وما تقول في هذا الكلام؟

ابتسم حبنكة، وقال: لست أدري لم تحشر اسم العالم (لابلاس) في هذا المحل.. لقد

شرح (لابلاس) دليل الحركة الكونية، وأبان قوة هذا الدليل في جسم الشبهات التي يثيرها الجاحدون فقال: (أما القدرة الفاطرة التي عينت جسامة الأجرام الموجودة في المجموعة الشمسية وكثافتها، وثبتت أقطار مداراتها، ونظمت حركاتها بقوانين بسيطة، ولكنها حكيمة، وعينت مدة دوران السيارات حول الشمس والتوابع حول السيارات بأدق حساب، بحيث إن النظام المستمر إلى ما شاء الله لا يعروه خلل.. هذا النظام المستند إلى حساب يقصر عقل البشر عن إدراكه، والذي يضمن استمرار واستقرار المجموعة إزاء ما لا يعد ولا يحصى من المخاطر المحتملة، لا يمكن أن يحمل على المصادفة إلا باحتمال واحد من أربعة تريوليونات، وما أدراك ما أربعة تريوليونات؟ إنه عدد من كلمتين، ولكن لا يمكن أن يحصيه المحصى إلا إذا لبث خمسين ألف عام يعد الأرقام ليلاً ونهاراً، على أن يعد في كل دقيقة (١٥٠) عدداً)

انظر هذا الكلام المضمخ بعطر الإيمان.. لم لم تسمع إليه؟

قال العظم: لقد سمعت إلى قوله الآخر: (إن العالم العظيم الذي سيتمكن من معرفة انتشار الذرات في السحب السديمية الأولية سيكون باستطاعته أن يتنبأ بكل مستقبل الكون وأحداثه)

قال حبنكة: ولكن قوله هذا لا يعني إنكاره للخالق، وإنما يدل على شعوره بأن الكون سائر وفق نظام مرسوم خاضع لسلاسل سببية متتابعة، يمكن التنبؤ باللاحق منها لدى معرفة السابق.

قال العظم: وما تقول في قوله لنا بليون: (الله فرضية لا حاجة لي بها في نظامي) ^(١)
قال حبنكة: فلنفرض أنه قال هذا وذاك.. فلم تنتقي هذا دون ذاك.. ألا يمكن أن يقول
أحد من الناس قولاً ثم يتراجع عليه بعد ذلك؟
ثم ما قيمة (لابلاس).. مهما كان محترماً.. أمام القضية الكبرى التي نتحدث عنها؟
لم يجد العظم إلا أن فتح كتابه، وقال: فما تقول في ردي على الفيلسوف الأمريكي
(وليم جيمس)؟

قال حبنكة: ماذا قال (وليم جيمس) أولاً؟
قال العظم: لقد كتب كتاباً يغلب فيه العاطفة على العقل.. سماه (إرادة الاعتقاد).. وقد
تعرض في بحثه هذا إلى حق الإنسان المفكر بالاعتقاد بوجود الله، ولو لم تكن البينات
العلمية والأدلة العقلية كافية بحد ذاتها للبرهان على وجود الله أو عدم وجوده، نظراً إلى أن
عواطف الإنسان ومشاعره ترجح جانب الإثبات، كما أن الإنسان يجد نفسه بين موقفين:
إما أن ينكر الله ويجحد، ثم يكون الواقع بخلاف ذلك.. وفي هذه الحالة، فإنه يعرض
نفسه لخسائر كبرى.

وإما أن يؤمن به، ثم يكون الواقع بخلاف ذلك.. وفي هذه الحالة، فإنه لا يخسر شيئاً.
واستنتج من ذلك أن موقف الإيمان على هذا موقف لا خسارة فيه مطلقاً، مع وجود
احتمال اغتنام أرباح كثيرة منه بخلاف موقف الإلحاد الذي لا ربح فيه مطلقاً، مع وجود
احتمال تكبد خسائر كبرى.

^(١) ذكرنا هذا القول في المبحث السابق، والذي نقلناه من كتاب (العلم في منظوره الجديد).. ولكن حبنكة يشكك
في مدى صدقه.. قال بعد عرضه له: (لست أدري مبلغه من الصحة أمام قوله الذي قرأناه مما كتب بنفسه، وبكل أسف
لم نجد لدى الناقد أثراً للأمانة الفكرية التي يتظاهر بالغيرة عليها)

وبمقارنة هذين الموقفين رجح موقف الإيمان على موقف الإلحاد قطعاً.. وبذلك غلب جيمس العاطفة على العقل.

لقد قلت رداً عليه في الصفحتين (٧٦) و(٧٧): (في الواقع أن (جيمس) يسيء فهم المشكلة: فالمسألة لا تتعلق بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيتها من اعتقادي بالله، وبالخسارة المماثلة التي قد أنكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً.. المشكلة أصلاً لا تمت بصلة إلى حساب الأرباح والخسائر، ولا علاقة لها بعقلية الرهان والمجازفة.. المشكلة بكل بساطة هي: هل القضية (الله موجود) قضية صادقة أم كاذبة، أم أن صدقها جائز جواز كذبها، وليس لدينا أدلة أو بينات ترجح أيّاً من هذين الاحتمالين على الآخر؟ يجب أن ينسجم موقفنا الشخصي من قضية وجود الله انسجاماً تاماً مع جوابنا على هذا السؤال، لا مع حساب الخسائر والأرباح)

ابتسم حبنكة، وقال: ما ذكره جيمس ليس دليلاً^(١).. فلا ينبغي للدليل إلا أن يعتمد على العقل المجرد.. بالإضافة إلى أنه لا يعتبر الإيمان إلا من العقل الجازم الموقن لا من العقل التاجر المجرب.

ولكن مع ذلك، فإن هذا مما اعتاد العلماء في المناظرات طرحه.. وهم يطرحونه، لا باعتباره دليلاً.. وإنما باعتباره مؤثراً في الملحد حتى يعيد نظره ويدققه.. فالمسألة ليست مسألة نظرية مجردة.. إنها مسألة يرتبط بها مصير الإنسان جميعاً.

لقد اعتاد المناظرون الدالون على الله أن يذكروا ما ذكره جيمس عند آخر مرحلة من

(١) نحب أن نبه هنا إلى الخطورة التي تحملها هذه الفكرة التي عرضها وليم جيمس، والتي صار البعض يتشبث بها للإيمان بأي شيء، بحجة أن الإرادة تغلب العقل.. وهو لذلك لا يبحث عن الدين الصحيح الذي ينبغي أن يسلم زمامه له.

مراحل النقاش الذي يرفض فيه الملحد أدلة الإيمان الكثيرة، ويعلن تشككه بها.. أو يطرحونه في أول مرحلة من مراحل النقاش، لتوجيه النفس إلى منطقة الإيمان منذ الانطلاقة الفكرية الأولى، ثم تطرح من بعده الأدلة والبيانات الأخرى، فهو إما دافع إلى النقلة الأولى التي تتجاوز منطقة الشك المطلق، وإما ممسك بالنفس في منطقة الإيمان قبل أن تنزلق إلى منطقة الشك المطلق.

لقد علمنا القرآن هذا.. فقد ذكر أن مؤمن آل فرعون، قال لقومه الذين هموا بقتل موسى عليه السلام: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ مِنْ رَبِّكُمْ وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَابٌ﴾ (غافر: من الآية ٢٨)

فهذا الرجل المؤمن من آل فرعون عرض عليهم - أولاً - دليل البيّنات التي جاء بها موسى، ثم تنازل معهم إلى مستوى آخر لا يستطيعون أن يرفضوه إذا هم رفضوا البيّنات، فقال لهم: ﴿وَإِنْ يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ﴾، أي: إنكم لا تخسرون شيئاً إذا تركتم موسى وشأنه فيما لو كان كاذباً، بخلاف ما لو كان صادقاً فإنكم تخسرون كثيراً بتكذيبه ومقاومة دعوته: ﴿وَإِنْ يَكُ صَادِقًا يُصِيبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ﴾، أي: فيما لو كان صادقاً.

والمنطق الحق يرجح الأخذ باحتمال صدقه على احتمال كذبه، لأن الأخذ باحتمال الصدق يدفع عنكم احتمالات الخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تخسروا شيئاً، أما الأخذ باحتمال الكذب فإنه قد يعرضكم للخطر دون أن تجنبوا شيئاً من الربح.. وهذا منطق عقلي يصح الاستناد إليه والاعتماد عليه، في كل الأمور التي يجد الإنسان نفسه فيها بين موقفين متكافئين نظرياً، إلا أن الأخذ بأحدهما فيه السلامة بصفة قطعية مع احتمال الربح، أما الآخر ففيه احتمال عدم السلامة

مع الخسارة، وهذا هو أضعف الأدلة المرجحة.

قال العظم ساخرًا: أهان العقل عندكم لهذه الدرجة.. حتى صارت العاطفة تغلبه؟
ابتسم حبنكة، وقال: لقد ذكرني موقفك هذا بقصة طالب غبي يحفظ بعض المسائل
النحوية والصرفية واللغوية، سأله الممتحن أول ما سأله ما اسمك؟ فقال له: الاسم على
أقسام: منه علم، والعلم مرتجل ومنقول، وهو علم شخصي وعلم جنسي، ومنه معارف
أخرى غير علم، ومنه نكرة، والنكرة قد تكون اسم جنس، وقد تكون اسم جنس جمعي،
وفي باب النداء قد تكون النكرة نكرة مقصودة، وقد تكون نكرة غير مقصودة، ومعاجم اللغة
قد جمعت المفردات اللغوية وبينت معانيها، سواء ما كان منها اسماً أو فعلاً، وفيها مئات
الألوف من الكلمات.. وهكذا سار على هذا المنوال في السرد الغبي.

وهكذا أنت، فقد ظننت نفسك في مثل صحراء واسعة تبحث فيها عن دينار،
واحتمالات الخطأ فيها لا نهاية لها، ونسيت أنك في موضوع يتردد بين احتمالين فقط، لا
ثالث منهما، أحد هذين الاحتمالين هو أن الله موجود وحق، والاحتمال الثاني هو
الاحتمال المناقض له، ولا شيء وراء هذين الاحتمالين، فالقضية كمن جاءنا فقال: في
وسطي حزام ناسف، وهنا لا بد أن نكون أمام خيارين لا ثالث لهما، إما أن نرجح احتمال
الصدق فنأخذ حذرنا، وإما أن نرجح الاحتمال الآخر فنورط أنفسنا في احتمال الخطر.
وهكذا، فإن (جيمس) رجح احتمال الإيمان على نقيضه فقط، وليس على احتمالات
لا حصر لها.

ثم كيف لا تتعلق المشكلة بالفائدة الدنيوية أو الأزلية التي قد أجنيتها من اعتقادي بالله،
وبالخسارة المماثلة التي قد أتكبدها من عدم اعتقادي به إذا كان موجوداً؟
إنها مشكلة وجودي وحياتي وسعادتي ومستقبلي، أفلا أبحث عنها؟

أفلا أضعها في الحساب؟

أفأعرض وجودي كله وسعادتي كلها للخطر، دون أن يكون لي في الموقف الذي
أأخذ أي ربح، أو أية فائدة؟

هل أتعامل مع أرقام في مسألة رياضية لا علاقة لي بها؟

إنها قضية حياة، قضية سعادة، وقضية مصير، واللعب فيها لعب بالنار.

رأيت العظم بعد أن سمع هذا تغير وجهه، ثم قال بصوت فيه بعض رعدة: أستاذ..
ربما نلتقي مرة أخرى لنكمل مناقشتنا.

سقط الكتاب من يده، وهو يسير، فأخذه بعض الناس، وأعطاه له.. فنظر إليه، وقال:
خذه.. لدي نسخ أخرى منه.

المناظرة التاسعة:

قال الجمع: فحدثنا عن المناظرة التاسعة.

قال: في شارع من شوارع تلك المدينة وجدت رجلين يلتف حولهما جمع كبير^(١)..
أما أحدهما، فكان شيخا يبدو على ملامحه الصلاح.. وكان الناس يطلقون عليه
(الراوندي)^(٢) وقد عرفت أن سببه هو كونه من بلاد يقال لها راوند.

وأما الثاني، فشاب تبدو عليه بعض خفة العقل.. ممزوجة بغرور كثير زاد فيه اطلاعه
الواسع وعلمه الكثير.. فهو كما يقال (علم بلا عقل)..^(٣) وكان يطلق عليه (ابن

(١) ننبه إلى أن المناظرة ليست حقيقية كما هو ظاهر.

(٢) أشير به إلى الإمام المتكلم ظهير الدين، محمد بن الإمام قطب الدين سعيد بن هبة الله، الراوندي، من أعلام
الشيعة في القرن السابع الهجري، وهو صاحب كتاب (عجالة المعرفة في أصول الدين)

الرواندي)^(١).. وقد عرفت أن كلا الرجلين من بلد واحد.. لكنهما مع ذلك مختلفان اختلافا شديدا يستحيل معه أي اجتماع.

بدأ ابن الرواندي الحديث متوجها به للراوندي قائلا: إلى الآن لا أسمع إلا جعجة.. لم أر طحينا بعد.. أنت تعلم أنني جائع.. والجائع لا تشبعه الجعجة.

قال الراوندي: إنك لم تمنح لي الفرصة الكافية لتسلسل بك في الدلالة على وجود الله.. إني كلما حدثتك حديثا انتقلت بي إلى غيره.. ولا يمكن أن تفهم بهذا شيئا.

قال ابن الرواندي: ها قد صمت.. فتكلم.. ولا تتكلم إلا بالطحين.. فإني لا أحب الجعجة.

قال الراوندي: سأعود.. وأبدأ من الأول.. وسأفترض معك بأن وجود الله مجرد دعوى تبحث عن أدلة علمية عقلية تدل عليها.

أولا أنت تعلم أن هذا من النوع من الدعاوى لا يتعلق من العلم بجانبه الذي يخضع للتجربة والملاحظة.. ولذلك فإن الدليل الذي يمكن أن نستعين به لإثبات هذا هو البراهين العقلية.

إن هناك بديهيات اتفقت العقول على قبولها والتسليم لها.. وهي التي يعتمد عليها

(١) أشير به إلى (ابن الرواندي)، وهو أبو الحسن أحمد بن يحيى بن إسحاق الراوندي، نسبة إلى قرية راوند الواقعة بين أصفهان وكاشان في فارس، ولد عام ٢١٠ هـ، وتوفي في الأربعين من عمره مخلّفاً وراءه أكثر من مئة كتاب طافحة بالافتراءات التي تُبينُ خروجه عن الإسلام، وقد كان يهودياً، ثم دخل الإسلام وتَنَقَّلَ بينَ عدَّةِ مذاهبٍ حتى ماتَ كافراً ملحداً.

سرد ابنُ الجوزي سيرته في عدَّةِ صفحات؛ وقال الذهبيُّ في ختام ترجمته: (لَعَنَ اللَّهُ الذِّكَاءَ بلا إيمانٍ ورضيَ عن البلادَةِ معَ التقوى)؛ ونُقِلَ عن أبي عليٍّ الجبائيِّ المعتزليِّ قوله: (قرأتُ كتابَ هذا الملحدِ الجاهلِ السفِيهِ ابنِ الرواندي فلم أجِدْ فيه إلَّا السُّفَّةَ، والكذبَ، والافتراءَ)

الدليل الذي سأورده لك.. وهي أربعة:

أما أولها، فهو (بطلان الرجحان دون مرجح)..

قاطع ابن الراوندي، وقال: الرجحان دون مرجح؟!.. ما هذا؟!.. أنت تريد أن تتحدث عن الله، أم تريد أن تتحدث عن الموازين.. أو الأرجوحات.. ما هذا يا رجل.. ما هذه الجعجعة.. أريد الطحين.. لقد أنهكني الجوع.

تنفس الراوندي الصعداء، وقال: ما عساي أن أقول لك.. لقد عدت إلى طبيعتك.. ألم نتفق على أن تترك لي فرصة الكلام؟

قال ابن الراوندي: لا بأس.. لا بأس.. لكن وضح لي ما الذي تريده من الرجحان دون مرجح.

قال الراوندي: المراد منه بديهية من بديهيات العقول، وهي أنه يستحيل أن يكون الشيء جاريا على نسق معين، ثم يتغير عن نسقه، ويتحول عنه بدون وجود أي مغير أو محول إطلاقا.. إن هذا من الأمور الواضحة البطلان، وجميع العقلاء يعلمون أن الأصل بقاء ما كان على ما كان عليه، ولا بد - لتحويله عن حاله السابقة - من محول ومؤثر يفرض عليه هذا الوضع الجديد، وينسخ حاله القديمة.

قال ابن الراوندي: أسلم لك بهذا.. ولكن كيف تستدل به على ما نحن فيه؟

قال الراوندي: بالتأمل في الأشياء تجد أنها جميعا لا تخلو من ثلاثة أوصاف: الوجوب والاستحالة، والإمكان^(١).

(١) الواجب: هو ما لا يتصور العقل نفيه، أي ما لا يمكن للعقل أن ينفك عن إثباته.. والاستحالة ضد الوجوب فهي عدم قبول الثبوت في العقل، فالمستحيل ما لا يتصور العقل ثبوته، أي أن العقل لا ينفك عن نفيه وسلبه والحكم بعدمه كلما عرض مفهومه على العقل.. أما الجواز أو الإمكان العقلي فهو تمام القسمة العقلية بين الوجوب

فما اتصف بالوجوب استحال في العقل عدمه.. وما اتصف بالاستحالة استحال في العقل وجوده.. وما اتصف بالإمكان أجاز العقل وجوده وعدمه..

قال ابن الراوندي: سلمت لك بكل هذا.. فكيف تستدل به على ما نحن فيه؟
قال الراوندي: بالتأمل في هذا الكون الذي نراه نرى أنه في جملته من نوع الممكن..
أي أن العقل يجزم بأنه لا يترتب أي محال على فرض انعدامه.. ويرى أنه من الممكن أن توجد أسباب تعدمه من أصله دون أن يستلزم ذلك محال لا يقبله العقل.
وهذا يعني أنه لا بد لهذا الكون الذي كان في أصله قابلاً لكل من الوجود والعدم بحد سواء من قوة خارجية عنه مؤثرة فيه خصصته لجانب الوجود..

قال ابن الراوندي: يمكن أن أتفق معك إلى هنا.. فما هذه القوة؟
قال الراوندي: هذه القوة هي قوة الله.
قال ابن الراوندي: لا.. لا أتفق معك على هذا..
قال الراوندي: لم.. أو ما القوة التي تراها بديلة عن الله؟
قال ابن الراوندي: ما دام الأمر يحتاج إلى الله.. فأنا لا أحتاج إلى هذا.. أنا أفرض فرضاً آخر لا نحتاج فيه إلى أي قوة خارجية.
قال الراوندي: فما هو هذا الفرض الذي يغني الكون عن خالقه؟
قال ابن الراوندي: أنا أفرض أن الكون وجد بذاته دون أي قوة مؤثرة خارجية.

والاستحالة، فهو قبول الثبوت والانتفاء في العقل؛ فالجائز العقلي هو ما يتصور العقل ثبوته ونفيه، أي أنه عند عرضه على العقل فإن العقل ينفك عن إثباته كما ينفك عن نفيه.
ودليل الحصر أن المعلوم إما أن لا ينفك العقل عن إثباته وهو الواجب، أو ينفك عن إثباته كما ينفك عن نفيه وهو الجائز، أو لا ينفك عن نفيه وهو الممتنع لذاته، ولا ثالث بين الإثبات والنفي.. فثبت بذلك انحصار الأحكام المذكورة في الثلاثة.

قال الراوندي: فما دليلك على هذا؟

قال ابن الراوندي: لا أحتاج إلى أي دليل.. بل أنت الذي تحتاج إلى أن تنفي صحة هذا الفرض.

قال الراوندي: لا بأس.. إن هذا الفرض الذي فرضته سيلزم عنه القول برجحان الشيء بدون مرجح له، وهو باطل كما علمت، فبطلت الفرضية التي استلزمها أيضا.

لقد قال الفارابي الذي أراك تقدره وتحترمه يقرر هذا: (إن الموجودات على ضربين: أحدهما ممكن الوجود، والثاني واجب الوجود.. وممكن الوجود إذا فرض غير موجود لم يلزم عنه محال، وليس بغني بوجوده عن علته وإذا وجد صار واجب الوجود لغيره لا بذاته.. أما واجب الوجود فمتى فرض غير موجود لزم عنه محال، ولا علة لوجوده ولا يجوز كون وجوده بغيره، والأشياء الممكنة لا يجوز أن تمر بلا نهاية في كونها علة ومعلولة.. ولا يجوز كونها على سبيل الدور، بل لا بد من انتهائها إلى شيء واجب هو الموجود الأول الذي هو السبب الأول لوجود الأشياء وهو الله تعالى)

و على تعبير ديكارت القريب التناول: (إنني موجود فمن أوجدني ومن خلقتني؟.. إنني لم أخلق نفسي.. فلا بد لي من خالق.. وهذا الخالق لا بد أن يكون واجب الوجود وهو الله باري كل شيء)

و على تعبير باسكال: (إنه كان يمكن أن لا أكون لو كانت أمي قد ماتت قبل أن أولد حيا، فلست إذا كائنا واجب الوجود.. فلا بد من كائن واجب الوجود يعتمد عليه وجودي وهو الله)

وقد عبر القرآن الكريم على ذلك بأوجز عبارة، فقال: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمْ الْخَالِقُونَ﴾ (الطور: ٣٥)

قال ابن الراوندي: فلنفرض أن العالم قديم في وجوده.. أي لا أول له، ولا سبق للعدم عليه.

قال الراوندي: كيف ذلك؟

قال ابن الراوندي: عن طريق التوالد الذاتي.. فكل سبب طبيعي له سبب طبيعي إلى ما لا نهاية.

قال الراوندي: إن هذا النوع من التوالد تنفيه الحقيقة الفطرية الثانية.. وهي (بطلان التسلسل)

قال ابن الراوندي: بطلان التسلسل؟!.. ما بطلان التسلسل؟

قال الراوندي: هو افتراض أن المخلوقات كلها متوالدة عن بعضها إلى ما لا نهاية، بحيث يكون كل واحد منها معلولا لما قبله، وعلة لما بعده.. دون أن تنبع هذه السلسلة أخيرا من علة واجبة الوجود هي التي تضيفي التأثير المتوالد على سائر تلك الحلقات.

إذ أن سلسلة المخلوقات الممكنة مهما طالت وطالت فإن استمرار طولها لا يخرجها على كل حال عن كونها ممكنة، والممكنات لا بد لرجحان أحد طرفي الإمكان فيها من مرجح.. ولنعبر أن التسلسل حلقات.. فحلقات السلسلة كلها لا تأثير ذاتي في واحدة منها مهما طال الزمن.. إذا فلكي نصدق أنها موجودة لا بد أن ننتظر ظهور المؤثر الخارجي الذي أمد السلسلة بالحياة، فراحت بدورها تنتقل من حلقة إلى حلقة، وإلا كان لا بد من الجزم بأحد أمرين: إما أن كل هذه السلسلة مفقودة إذ لم يثبت وجود ذلك الذي قذف فيها الحياة.. وإما أنها موجودة، ولكنها تنبع أخيرا من ذات واجبة الوجود تؤثر فيها، ولا تتأثر بشيء.

أما الأمر الأول، فظاهر البطلان، لأن الحس والمشاهدة يكذبانه.. وأما الثاني، وهو يثقن أن لا بد له من مصدر ذاتي وهبه الحياة والقدرة على الحركة والتطور والتوالد، فيبطل

بذلك التسلسل المذكور.

وكما تعلم، فالعالم مركب بمجموعه وأجزائه.. وكل مركب حادث بداهة.. والعالم بما فيه متغير تغيرا مستمرا من صورة إلى صورة.. وكل متغير من صورة إلى صورة لا يمكن أن تكون له صورة أصلية أزلية قديمه، لأنها لو كانت كذلك لم يجز أن يطرأ عليها التغير.

والقول بتسلسل الصور إلى غير نهاية غير صحيح.. لأن التسلسل مستحيل عقلا.. فلا بد أن نقف عند حد، ونقول: إن هذا المتغير لم تكن له في أول أمره صورة.. وإذا لم تكن له صورته لا يكون له وجود، لأن الصورة تشمل الشكل والحجم والوزن واللون والطعم والرائحة، ومتى فقد الشيء هذه الصور كلها فقد وجوده.. فالعالم نتيجة لهذا حادث.. والعقل بقوة قانون العلية البديهي يحكم بداهة بأن كل حادث لا بد له من سبب يحدثه، وهذا السبب المحدث لا يجوز أن يكون حادثا، لأنه يفترض إلى سبب محدث له.. ولا يجوز القول بتسلسل الأسباب إلى غير نهاية، لأن التسلسل ممتنع عقلا.. فلا بد أن يكون المحدث الصانع للعالم قديما، وهو الله تعالى الذي خلق العالم وأحدثه بعد العدم المطلق. قال ابن الراوندي: أنا لا أستطيع أن أضع في خيالي ما تذكره من أحداث.. فمن الصعب علي الخيال أن يتصور النهاية.. واللانهاية..

ابتسم الراوندي، وقال: أنا أخاطب عقلك لا خيالك.. فالله يمكن أن نتعقله، ولكننا مهما أوتينا من سعة الخيال، فلا يمكن أن نتخيله..

إن ما ذكرته لك بديهيات عقلية يأخذ بعضها برقاب بعض، ولكن هذه البديهيات يزاحمها في الذهن عند آخر مراحل التفكير ارتباك وكلال عند تصور النهاية التي ليس وراءها أي شيء، واللانهاية التي لا تقف عند حد، والأزلية التي ليس لها بداية، والزمن الذي ليس قبله زمن، والمكان الذي ليس وراءه أي شيء.. والعدم المطلق.

ولكن إذا علمنا أن العالم الواقع المشاهد هو من قسم الممكن، لأننا نستطيع تصور عدم وجوده، وبما أنه ليس هو الذي أوجد نفسه، فلا بد إذا من علة كافية لوقوعه ووجوده.. وقبل أن تحدثه العلة الكافية لم يكن موجودا، فلا بد إذا من تصور العدم سابقا لحدوث العالم.. فهل تصور إيجاد بعد العدم يوجب تناقضا عقليا؟

كلا.. بل إن التناقض العقلي إنما يكون إذا تصورنا عدم سبق العدم لوجود العالم. نعم يعجز الخيال البشري عن تصور ذلك.. ولكن ما قيمة هذا العجز أمام البرهان القاطع؟

ألا تؤمن بالحقائق الرياضية، وتجد اليقين في نتائجها الصحيحة؟
ألست تعرف كثيرا من الحقائق الرياضية التي تستند إلى أوليات بديهية عقلية تكون في أول الأمر خافية عليك ولا تظهر لك إلا بالتأمل والاستنتاج والبرهنة.
إن عقولنا في مجال الأعداد الكبيرة تكل عن تصور حقائق واضحة لا تحتاج إلا للتأمل قليل وحساب بسيط من نوع الجمع، ويكون كلالها غريبا جدا حتى تمارى في النتيجة ولو أخبرها بها أصدق الناس وأعلمهم.
سأضرب لك مثالا على ذلك.. أنا أعلم حبك لأحجية الورقة المقطعة.. ولذلك سأستثمر هذا المثل لأفنعك بهذا.

لو أعطيت ورقة رقيقة بالغة الرقة سمكها جزء من مائة جزء من الميليمتر، وطلب منك أن تقطعها نصفين، ثم تقطع النصفين ثانية ليصبحا أربعة، ثم تقطع الأربعة لتصبح ثمانية، وهكذا إلى أن تكرر القطع والتضعيف (ثمان وأربعين) مرة، ثم سئلت: قبل أن تبدأ بالقطع وقبل أن تحسب.. كم تتوقع أن تصبح سماكة هذه الأوراق الرقيقة بعد قطعها (ثمان وأربعين) مرة؟

قال ابن الراوندي: أنا أعلم جواب هذه الأحجية.. إذا كررت القطع إلى المرة الـ(ثمان وأربعين)، ثم جعلت الأوراق المقطعة ركاما مرصوفا صاعدا في السماء، فإنه يلمس أو يكاد يلمس القمر الذي يبعد عن الأرض (٣٨٤) ألف كيلومتر.

قال الراوندي: إن العقل هو الذي استنتج هذا.. ولكن اذهب إلى أي عامي وأخبره بهذا، فإنه سيمتلىء منك ضحكا وسخرية.

قال ابن الراوندي: لقد حصل ذلك لي مرة.

قال الراوندي: ولهذا.. فإن فرض التسلسل منقوض بالحس والمشاهدة.. ذلك أننا جميعا نعلم أن هناك مخلوقات نوعية انقرضت وانتهت، فلو صح بأن الموجودات تتسلسل إلى ما نهاية بأن يكون كل حلقة فيها معلولا بما قبلها وعلة لما بعدها.. فلماذا انقرضت هذه الموجودات؟.. إذ كيف تنقرض وهي علة لما بعدها؟.. وهذا إخلال بنظام التسلسل المزعوم.

قال ابن الراوندي: فأنا أرجع إلى أن العالم حادث.. وله علة أثرت في إيجاده.. ولكن هذه العلة لا تتمثل في أكثر من التفاعل الذاتي المتدرج، كتفاعل العناصر الأولية للحياة كالكربون والهيدروجين والأوكسجين التي تلاقت ونتاج عنها مركبات عضوية لا حصر لها؟

قال الراوندي: إن هذا يستلزم القول بالدور.. وهو من البديهييات التي تنكرها العقول..

قال ابن الراوندي: الدور؟!.. ما الدور؟!

قال الراوندي: الدور هو أن يتوقف الشيء في وجوده المطلق أو تكييف معين له على شيء آخر إلا أن هذا الشيء متوقف في ذلك الوجود أو التكييف، وفي نفس الوقت على ذلك الشيء الأول.

مثال ذلك ما لو قلنا: إن وجود البيض متوقف على وجود الدجاج، ثم نقول: إن الدجاج وجد قبل البيض، وفرضنا أن لا وسيلة إلى وجود هذا ولا ذاك إلا عن هذا الطريق، فإن من البديهي أن كلا الأمرين يظلان معدومين حتى يأتي مؤثر خارجي يفك هذا الطوق.

قال ابن الراوندي: عرفت إلى الآن ثلاث حقائق بديهية.. فما الرابعة.. أم أنك نسيته؟

قال الراوندي: لا.. كيف أنساها.. وهي في عقلي وعقلك وعقول كل الناس..

قال ابن الراوندي: من حقك أن تفرض وجودها في عقلك.. ولكن ليس من حقك أن تفرض وجودها في عقلي.. عقلي هو بيتي ولا يعرف ما في البيت إلا أهله.

قال الراوندي: من السهل علي أن أدرك وجود هذه الحقيقة فيه؟

قال ابن الراوندي: هل تريد أن تشرح عقلي لترى ما فيه؟

قال الراوندي: سأتحرى كما يتحرى القضاة.. وسأدرك من خلال التحري أن عقلك لا يخلو من هذه البديهية.

قال ابن الراوندي: أنا مستعد لسماعك حضرة القاضي.. فاسأل كما تشاء.

قال الراوندي: نفرض أنك نظرت إلى وعاء أمامك، فوجدت فيه قطعا من الآلات المختلفة الدقيقة، ولما تأملتها جيدا اكتشفت أن لكل واحدة منها مكانا تركيبيا دقيقا من الأخرى، فأخذت تجمع هذه الأجزاء.. وعندما فرغت من وضع آخر آلة منها في موضعها فوجئت بصوت دقيق رتيب ينبعث في حركة مطردة من داخل تلك الآلات، وتأملت فإذا هي ساعة زمنية.. ما لذي تدركه عقب هذا كله؟

قال ابن الراوندي: لا شك أنني كسائر الناس أدرك دون ريب أن لكل آلة من تلك الآلات الدقيقة غاية جزئية معينه قد هيئت لتحقيقها، وأن لمجموعها غاية نوعية واحدة هي ضبط الزمن.

قال ابن الراوندي: فأبشر إذن.. فإن عقلك لا يزال سليماً.. إنه يحوي هذه البديهة التي يسميها أصحابك من الفلاسفة قانون العلية (العلة الغائية).. ويسميها أصحابنا من علماء الكلام (دليل الحكمة والتناسق).. فظهور العلة الغائية دليل قطعي على وجود مدبر صممه على هذا النحو إذ لا تملك الأجهزة الجامدة أن تفكر لتسير وحدها نحو غايات معينة.

قال ابن الراوندي: فكيف تستدل بهذا القانون على وجود الله؟

قال الراوندي: لقد عبر عن هذا الدليل أعرابي كان لا يزال يحتفظ بفطرته حين قال جواباً لمن سألته عن دليله على الله: (البعرة تدل على البعير، وأثر السير يدل على المسير، فسماء ذات أبراج، وأرض ذات فجاج، وبحار ذات أمواج، ألا يدل ذلك كله على الله اللطيف الخبير)

وعبر عنه أفلاطون بقوله: (إن العالم آية في الجمال والنظام، ولا يمكن أبداً أن يكون هذا نتيجة علل اتفاقيه، بل هو صنع عاقل كامل توخى الخير ورتب كل شيء عن قصد وحكمة)

وعبر عنه (اناكساغورس) الذي جاء بعد (ديموقريطس) فقال: (من المستحيل على قوة عمياء أن تبدع هذا الجمال وهذا النظام الذين يتجليان في هذا العالم، لأن القوة العمياء لا تنتج إلا الفوضى، فالذي يحرك المادة هو عقل رشيد بصير حكيم)

المناظرة العاشرة:

بعد أن مللت من التجول في الشوارع يمت صوب معهد من معاهد العلوم.. وهناك رأيت رجلاً اجتمع عليه نفر كثير.. منهم بعض الملحدين الذين كنت رأيته في الشوارع السابقة التي تجولت فيها.. ومنهم من كان مثله من المؤمنين الذين تلوح أنوار الإيمان على وجوههم..

قال له أحدهم: عجباً لك .. أبعد لقائك الصادق^(١) تغيرت كل هذا التغير؟

قال: أجل .. فلم يكن الصادق بشراً عادياً .. وإن كان في الدنيا روحاني يتجسد إذا شاء ظاهراً، ويتروح إذا شاء باطناً، فهو هذا .. لقد جلست إليه، فلما لم يبق عنده أحد غيري، ابتدأني فقال: إن يكن الأمر على ما يقول هؤلاء، وهو على ما يقولون فقد سلموا وعطبتهم، وإن يكن الأمر كما تقولون وليس هو كما تقولون، فقد استويتهم وهم.

فقلت: يرحمك الله، وأي شيء نقول، وأي شيء يقولون؟ ما قولي وقولهم إلا واحد. فقال: وكيف يكون قولك وقولهم واحد، وهم يقولون إن لهم معاداً وثواباً وعقاباً، ويدينون بأن للسماء إلهاً وإنها عمران، وأنتم تزعمون أن السماء خراب ليس فيها أحد.

فاغتممتها منه، فقلت له: ما منعه إن كان الأمر كما يقولون أن يظهر لخلقه يدعوهم إلى عبادته حتى لا يختلف فيه اثنان. ولم يحتجب عنهم، ويرسل إليهم الرسل، ولو باشرهم بنفسه كان أقرب إلى الإيمان به؟

فقال: ويلك كيف احتجب عنك من أراك قدرته في نفسك، نشوءك بعد أن لم تكن، وكبرك بعد صغرك، وقوتك بعد ضعفك، وضعفك بعد قوتك، وسقمك بعد صحتك، وصحتك بعد سقمك، ورضاك بعد غضبك، وغضبك بعد رضاك، وحزنك بعد فرحك، وفرحك بعد بغضك، وبغضك بعد حبك، وعزmk بعد إنابتك، ورغبتك بعد رهبتك، ورهبتك بعد رغبتك، ورجاؤك بعد يأسك، ويأسك بعد رجاءك، وخاطرك لما لم يكن في وهمك وغروب ما أنت معتقده عن ذهنك.

وما زال يعد عليّ قدرته التي هي فيّ التي لا أدفعها، حتى ظننت أنه سيظهر فيما بيني

(١) أشير في هذه المناظرة إلى مناظرة للإمام جعفر الصادق وهو من أئمة أهل البيت عليهم السلام مع بعض الملحدين.

وبينه.

وبينما نحن كذلك إذ دخل عليه بعض أصحابنا من الملاحدة، فقال: أليس تزعم أن

الله تعالى خالق كل شيء؟

فقال الصادق: بلى.

فقال الملحد: أنا أخلق.

فقال له الصادق: كيف تخلق؟

فقال الملحد: أحدث في الموضوع، ثم ألث عنه، فيصير دواب، فكنت أنا الذي

خلقتها.

فقال الصادق: أليس خالق الشيء يعرف كم خلقه؟

قال: بلى.

قال: أفتعرف الذكر من الأنثى وتعرف عمرها؟ فسكت الملحد.

ثم إنه عاد في اليوم الثاني إلى الصادق فجلس، فسأله الصادق: أمصنوع أنت أم غير

مصنوع؟

فقال له الملحد: أنا غير مصنوع.

فقال له الصادق (عليه السلام): فصف لي لو كنت مصنوعاً كيف كنت تكون؟

فبقي الملحد ملياً لا يحير جواباً وولع بخشبة كانت بين يديه وهو يقول: طويل

عريض، عميق قصير، متحرك ساكن، كل ذلك من صفة خلقه.

فقال له الصادق فإن كنت لم تعلم صفة الصنعة من غيرها، فاجعل نفسك مصنوعاً لما

تجد في نفسك مما يحدث من هذه الأمور.

فقال له الملحد: سألتني عن مسألة لم يسألني أحد عنها قبلك، ولا يسألني أحد بعدك

عن مثلها.

فقال له الصادق: هبك علمت أنك لم تسأل في ما مضى، فما علمك أنك لم تسأل في ما بعد؟ على أنك نقضت قولك، لأنك تزعم أن الأشياء من الأول سواء، فكيف قدمت وأخرت؟

ثم قال: أنزידك وضوحاً؟ أرايت لو كان معك كيس فيه جواهر، فقال لك قائل: هل في الكيس دينار؟ فنفيت كون الدينار في الكيس، فقال لك قائل: صف لي الدينار، وكنت غير عالم بصفته، هل لك أن تنفي كون الدينار في الكيس وأنت لا تعلم؟ قال: لا.

فقال الصادق: فالعالم أكبر وأطول وأعرض من الكيس، فلعل في العالم صنعة من حيث لا تعلم، صفة الصنعة من غير الصنعة. فانقطع الملحد.. ثم إنه عاد في اليوم الثالث فقال: أقلب السؤال. فقال الصادق: سل عما شئت.

فقال: ما الدليل على حدوث الأجسام؟ فقال الصادق: أني ما وجدت صغيراً ولا كبيراً إلا وإذا ضم إليه مثله صار أكبر، وفي ذلك زوال وانتقال عن الحالة الأولى، ولو كان قديماً ما زال ولا حال، لأن الذي يزول ويحول يجوز أن يوجد ويبطل، فيكون بوجوده بعد عدمه دخول في الحدث، وفي كونه في الأولى دخوله في العدم، ولن تجتمع صفة الأزل والعدم في شيء واحد.

فقال الملحد: هبك علمت بجري الحالين والزمانين على ما ذكرت، واستدللت على حدوثها، فلو بقيت الأشياء على صغرها، من أين لك أن تستدل على حدوثها؟ فقال الصادق: إنما نتكلم على هذا العالم الموضوع، فلو رفعناه ووضعنا عالم آخر،

كان لا شيء أدل على الحدث من رفعنا إياه ووضعنا غيره، ولكن أجبت من حيث قدرت إنك تلزمنا وتقول: إن الأشياء لو دامت على صغرها لكان في الوهم لأنه متى ما ضم شيء منه إلى مثله كان أكبر، وفي جواز التغيير عليه خروج من القدم، كما بان في تغيير دخوله في الحدث أن ليس وراءه.

التفت إلينا صاحبنا (آثر شوبنهاور)، وقال: هذا حديثي مع العلم والعقل ودالتهما على الله.. لقد عشت في رحابهما أياما جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فانشغلت بها عن التعرف على ربي أو البحث عنه أو السير إليه.. وقد نسيت لذلك تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..

نعم صار (الله) عندي حقيقة من الحقائق، ولكنها حقيقة أقرب إلى الباطل منها إلى الحق..

نعم كنت أقول بوجود الله، ولكني لا أشعر بأن شيئا تغير بذلك.. لقد كان وجود الله في نفسي - بسبب غفلي - أقرب إلى العدم منه إلى الوجود..
ولولا أن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام الجميلة التي نعمت فيها بتلك المعاني لكنت الآن في عداد الغافلين.

ثانيا - الواحد

في اليوم التالي.. وبعد أن من الله علينا بفضله وكرمه، فاستمعنا إلى البراهين الكثيرة الدالة على وجود الله تعالى، قام رجل منا، وقال: نعم.. لقد أثبت لنا صاحبنا (آرثر) بما لا يدع مجالا للشك بأن رب هذا الكون موجود.. ونحن لا نشك في ذلك، ولا ننازعه فيه.. ولكن ما أدرانا أن يكون إلها واحدا أو آلهة متعددة.. إن الأديان تختلف في ذلك اختلافا بينا.. فبينما تجنح المسيحية للتثليث نرى الإسلام يدعو إلى الإله الواحد.. الإله الواحد بكل معاني الوحدة.. فأيهما نصدق، وبأيهما نهتدي؟

قال آخر: صدقت.. وقد سمعت من احتجاجات الناس في بدء حياتي على هذه المعاني ما لم يستطع عقلي فهمه، فانصرفت عن البحث عن الله انصرافا تاما.. فهذه الحقيقة الغيبية التي تنازعت فيها الأديان يستحيل على العقول أن تثبتها.

قال آخر: صدقتما.. لا يمكن أن نعرف هذه الحقيقة إلا إذا تكلم معنا إله هذا الكون أو آلهته.

بقي نفر ممن معنا يردد مثل هذا الكلام إلى أن قاطعهم أحدنا بقوله: اسكتوا.. اسكتوا جميعا.. لقد تذكرت في هذه اللحظات جانبا مهما من حياتي كنت قد انصرفت عنه انصرافا كليا إلى أن عاد هذه اللحظة حيا ممتلئا حياة.

استبشرنا جميعا بقوله هذا، واقتربنا منه، ورحنا نقول بلسان واحد: هلم.. حدثنا.. فما أشوقنا إلى التعرف على الحقيقة.. فلن ينجيننا من هذه المهامه إلا الحقيقة.

اعتدل صاحبنا في جلسته، ثم قال: أعرفكم بنفسي أولاً.. أنا (آريوس) ^(١).. هكذا سماني أبي.. ولست أدري لم اختار أن يسميني به مع كونه كان كاثوليكيًا متعصبًا.. في نفس الوقت الذي كان فيه آريوس رجلاً من كبار الموحدين، وداعية من دعاة التوحيد.. لقد كان لهذا الاسم بركات كثيرة علي.. فبسببه اهتمت إلى التوحيد.. وعرفت أن الله خالق هذا الكون يستحيل أن يكون إلا واحداً.. واحداً من كل الوجوه.. وقد دعاني إلى هذا اليقين في وحدانية الله أمران.. أما أولهما فصدرت فيه من العقل المجرد المستند للحس.. وأما الثاني، فاستندت فيه للكتاب المقدس.. وتاريخ الكتاب المقدس.. ولكليهما لدي حكاية.

^(١) أشير به إلى (آريوس) (٢٥٦ - ٣٣٦م)، وهو قس إغريقي من سكان الإسكندرية، بمصر، أنشأ في حوالي عام ٣١٨م مذهباً لاهوتياً نصرانياً يعرف بالآريوسية، أكد فيه أن المسيح مخلوق وليس إلهاً.. وكان يؤمن بالوحدانية ويقر بنبوة المسيح ﷺ لا بالوهيته.

وفي حوالي عام ٣١٨م، استنكر الإسكندر، مطران الإسكندرية تعاليم آريوس، الذي استمر في القول بتعاليمه وجذب الكثير من الأتباع، فطرده وأتباعه من الإسكندرية، فذهب إلى فلسطين وسوريا، وتبعه أساقفة كثيرون منهم أسقف قيصرية وأساقفة بيروت وصور واللاذقية وغيرها.. ولما خشي قسطنطين استفحال أمره بعد الانتشار السريع لآرائه، دعا المجمع المسكوني للانعقاد، فانعقد في نيقية عام ٣٢٥م، وحكم بالأقانيم الثلاثة، وشجب أقوال آريوس، وأمر بحرق كتاباته وتحريم اقتنائها، وحكم عليه بالهرطقة. (انظر: الموسوعة العربية العالمية)

١ - العقل

قال أحدنا: فحدثنا عن الحكاية الأولى.. والتي عرف عقلك فيها استحالة أن يكون إله هذا الكون متعددًا.

قال آريوس: لا أذكر المكان الذي التقيت فيه ذلك المبلغ الذي أقنعني بهذا بالضبط.. ولا الزمان.. فقد انشغلت بحديثه عن كل شيء..

لست أعرف شيئًا من المكان والزمان، ولكن اسمه لا يزال يرن على خاطري كل حين، فيملؤني بمشاعر غريبة.. لا أستطيع مهما حاولت أن أصورها.

لقد اجتمع فيه ما كان متناقضًا بالنسبة إلي.. لقد اجتمع فيه الإيمان والعقل.. وكلاهما جبل من الجبل قلما يجتمعان لدى أحد من الناس.

كان شابًا عليه سيما الإيمان.. وكان اسمه - كما علمت بعد لقائي به - (فخر الدين)^(١).. وكان يقال له (الرازي) نسبة للبلاد التي ولد فيها.

وكان أول ما بادرني به قوله: أنت هو القس آريوس داعية التوحيد؟

قلت: إن كنت تريد بآريوس ذلك الهرطقي.. فلا يشرفني أن أنتسب إليه.

قال: لم؟

قلت: لأن جميع رجال الكنيسة يخالفونه.

^(١) أشير به إلى أحد أكبر المتكلمين في الإسلام فخر الدين الرازي، (٥٤٤ - ٦٠٦ هـ، ١١٥٠ - ١٢١٠ م)، وهو أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين. ولد في الري بطبرستان، أخذ العلم عن كبار علماء عصره، ومنهم والده، حتى برع في علوم شتى واشتهر، فتوافد عليه الطلاب من كل مكان. كان الرازي عالمًا في التفسير وعلم الكلام والفلك والفلسفة وعلم الأصول وفي غيرها.. ترك مؤلفات كثيرة تدل على غزارة علمه وسعة اطلاعه أبرزها تفسيره الكبير المعروف بمفاتيح الغيب.. ولا يخفى سر اختيارنا له في هذا المقام.

قال: وعقلك؟.. هل يخالفه؟.. إن لعقلك دوراً مهماً قد لا يحتاج معه إلى موافقة الموافقين أو مخالفة المخالفين.

قلت: وما لعقلي، وهذه الأمور؟.. إن الله هو الذي يصف نفسه، لأنه هو الله، ولو أنا حاولنا بعقولنا أن نصف الله، لكننا الذين نحدد لله كيف يكون، ويكون العقل بالتالي هو صانع الإله..

قال: ألا ترى من العجب ألا تعرف العقول باريها الذي برأها؟
قلت: ولكن العقول تختلف في هذا.. وما في عقلي يختلف عما في عقلك.
قال: العقول تختلف عندما تلجأ إلى الخديعة.. ولكنها لو بحثت عن الحقيقة بصدق..
فإنها لن تختلف أبداً فيها.

قلت: فكيف نثق في أحكام العقل إذن ما دام يخاتل ويخادع؟
قال: إذا حررناه من الخدع^(١).
قلت: فكيف نحرره؟

قال: إذا تجردنا من الأهواء، فلم نمل على عقولنا كيف تفكر، ولا فيما تفكر.
قلت: أترى لو أن البشر كلهم فعلوا ذلك يصلون إلى الحقائق؟
قال: نعم.. يصلون إليها من أقرب الطرق.
قلت: فكيف يتفقون على الوصول إليها مع كونهم مختلفي الطباع والأجناس والألوان؟

قال: أتراهم يختلفون في تذوقهم للطعوم، أو تحسسهم للأشياء، أو رؤيتهم للألوان.

(١) انظر في هذا رواية (سلام للعالمين) من هذه السلسلة، فصل (العقل).

قلت: لا.. ولكن تلك محسوسات.. وهذه معقولات.

قال: أتراهم يختلفون في البراهين الرياضية.. أم يتفقون عليها؟

قلت: بل يتفقون.. فالرياضيات واحدة.. ونتائجها واحدة.

قال: فتعاملوا مع حقائق الوجود بالمنطق الرياضي.

قلت: المنطق الرياضي مرتبط بالأرقام.. ونحن في عالم أكبر من أن تحصره الأرقام.

قال: هناك قوانين كثيرة في الكون تشبه في دقتها دقة الأرقام فاعتمدوا عليها.

قلت: أيمن أن نصل بها إلى الحقائق؟

قال: يمكن أن تصلوا بها إلى أبواب الحقائق.. وتدقوا بها هذه الأبواب.

قلت: وما بعد الأبواب؟

قال: لما بعد الأبواب عقوله الخاصة.. فلا تطلبوا ما بعد الأبواب قبل أن تصلوا إلى

الأبواب.

قلت: ما دمت قد ذكرت هذا.. فهلم حدثني عن حكم العقل في الخلاف الذي حصل

بين آريوس وبين رجال الكنيسة.

قال: أول ما يدلك على وحدانية الله^(١) هو نظرك إلى هذا الكون نظرة العالم العاقل

الخير.. فهذا الكون يشهد بكل ذرة من ذراته.. وبكل حرف من حروفه على أن الله واحد..

واحد من كل الوجوه.

يَا عَجَبًا كَيْفَ يُعْصَى أَمْ كَيْفَ يَجْحَدُهُ

الإله الجاحد؟!

(١) استفدنا بعض المعلومات الواردة هنا من كتاب (الله جل جلاله) لسعيد حوى، ومن الكتب العلمية التي سبق

ذكرها.

ولله في كل تحريكه وتسكينه أبداً شاهداً
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد

قلت: أنا مثلك أرى الكون.. وغيرنا كثير يراه.. ولكننا لا نستنتج ما تستنتج.
قال: لا بأس.. سأذكر لك عشرة براهين تجعلك ترى من الكون مرآة مجلوة لا تدل
إلا على الواحد الأحد.

التكامل:

قلت: فهات أولها؟

قال: التكامل.

قلت: ما التكامل؟ وما الذي يدل عليه؟

قال: لاشك أنك تعلم أن هذا الهواء الذي نستنشق مركب من عدة عناصر.. منها
جزءان هامين: جزء صالح لتنفس الإنسان هو (الأوكسجين) وجزء ضار به هو (الكربون)..
ومن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الوجود أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات،
وهو نافع له.

ففي الوقت الذي يكون الإنسان فيه يستنشق الأوكسجين ويطرد الكربون، يكون
النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الأوكسجين.

وتتم عملية إيجاد التوازن بين الصادر والوارد من غاز الكربون في البحر، فإنه يمتص
كل زيادة موجودة في الجو إذا بلغت هذه الزيادة فوق الحد المناسب.

فانظر إلى الرابطة التعاونية التكاملية بين الإنسان والنبات والبحر في شيء هو أهم
عناصر الحياة، وهو التنفس.

هذا مثال واحد عن التكامل في الكون..

وإن شئت مثالا آخر.. فانظر إلى الطعام الذي تأكله.. إنه يتركب - كما تعلم - من عدة عناصر نباتية أو حيوانية، تنقسم إلى مواد زلالية ونشوية ودهنية وغيرها.

ثم انظر إلى الريق حيث تراه يهضم بعض المواد النشوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، ليذهب ما بقي من طعام إلى المعدة حيث يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المفرزة من الكبد تهضم الدهون وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك، فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط العجيب بين عناصر الجسم البشري وعناصر النبات والحيوان، والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

هذا مثال ثان.. وإن شئت مثالا ثالثا فانظر إلى الأزهار التي تزين الحقول.. إنك ترى لها أوراقا جميلة جذابة ملونة بألوان مبهجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك أجابوك بأن هذا إغواء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار، لتسقط على الزهرة، حتى إذا وقفت على عيدانها علق حبوب اللقاح بأرجلها، وانتقلت بذلك من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح.. فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان؛ حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

إن هذا التكامل تجده في كل شيء بين الليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والأعضاء المذكرة والأعضاء المؤنثة، والإنسان والحيوان والنبات.
إن في هذا الكون جميعا وحدة مظهرها تكامل أجزائه.. وهي تدل على أن لها خالقا..
وأنه واحد..

قلت: فهمت ما ذكرت.. فهو من المعلوم من العلم بالضرور والبدهة.. ولكني لم أفهم سر الاستدلال بهذا؟

قال: إن التعدد مدعاة الفساد والخلاف.. ولهذا فلو استقل أحد المتعديين بالتصرف تعطلت صفات الآخرين ولو اشتركوا تعطلت بعض صفات كل منهم، وتعطلت صفات الألوهية يتنافى مع جلالها وعظمتها، فلا بد أن يكون الإله واحدا لا رب غيره.

لقد ذكر القرآن الكريم كتاب المسلمين المقدس هذا الدليل.. فقال: ﴿قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَامٌ عَلَى عِبَادِهِ الَّذِينَ اصْطَفَىٰ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا يُشْرِكُونَ (٥٩) أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ (٦٠) أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ (٦١) أَمَّنْ يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَاءَ الْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ (٦٢) أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ (٦٣) أَمَّنْ يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَمَنْ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ ۗ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ هُمْ قَوْمٌ يَعِدِلُونَ (٦٤)﴾ (النمل) .. وغيرها من الآيات الكثيرة.

التناسق:

قلت: عرفت الأول.. فحدثني عن الثاني.

قال: لقد ذكره ربي، فقال: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِنْ فُطُورٍ (٣) ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنْقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ (٤)﴾ (الملك)

وقد ذكره العلم فأخبر أن من مظاهره أن الإلكترون يدور على عكس عقارب الساعة، والأرض تدور على عكس عقارب الساعة، والشمس تدور على عكس عقارب الساعة، والكواكب السيارة تدور على عكس عقارب الساعة، والقمر وكل الأقمار تدور على عكس عقارب الساعة، والنجوم كلها تدور على عكس عقارب الساعة، ومجرتنا التي تضم بين أجزائها مجموعتنا الشمسية تدور على عكس عقارب الساعة.

وأخبر أن الإلكترون يدور على مدار بيضوي إهليجي، والأرض تدور حول الشمس على مدار بيضاوي إهليجي، وكذلك الزهرة ونبتون والمشتري والكواكب السيارة. وأخبر أن محور الأرض مائل. ومحور القمر مائل ومحور المريخ مائل، ومحور الشمس مائل..

وأخبر أن النسبة بين النواة والإلكتروناتها كالنسبة بين الشمس وكواكبها السيارة. وأخبر أن ذرات الوجود كلها تقوم على الزوجية كهرباء سالبة وكهرباء موجبة فإذا ارتقينا إلى النبات وجدنا عنصر الزوجية، وإلى الحيوان كذلك وإلى الإنسان كذلك.. وحتى في الأحياء المختنة توجد أعضاء ذكرية وأخرى أنثوية.. لقد ذكر القرآن ذلك، فقال تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٣٦) (يس)

وأخبر أن في الأرض نفس العناصر التي تؤلف الشمس ونفس العناصر التي تؤلف كل الكواكب.

وأخبر أن الكون بكل عناصره مؤلف من بروتونات وإلكترونات كعناصر أساسية هناك نيوترونات كشحنات كهربائية معتدلة تكون في نواة معظم العناصر.

وأخبر أن المادة كلها من نور إذ أن عناصر المادة كلها تؤول إلى ذرات وكهارب وأن

هذه الذرات والكهارب تنشق فتؤول إلى شعاع.
وأخبر أن أجنة الحيوان والإنسان في الشهور الأولى من الحمل متشابهة تشابها تاما،
فإذا بهذا التشابه يخرج منه ذلك الخلق المختلف.
وأخبر أن في هذا الكون قوة ومنايع قدرة وتحكمه قوانين.. وكلها تصيح بأدق معاني
التناسق والوحدة بين القوى والقوانين:

فمن منابع القوة والقدرة في هذا الكون: الضوء والحرارة والأشعة السينية والأشعة
اللاسلكية والأشعة البنفسجية وتحت الحمراء.. وهذه القوى كلها ترجع إلى شيء واحد
هو تلك القوة الكهربائية المغناطيسية، ولها جميعا سرعة واحدة، وإنما اختلافها اختلاف
موجة.

ومن قوانين هذا الكون قانون الجاذبية الذي يحكم الوجود كله من أصغر ذراته إلى
أكبر أجرامه، والذي نصه: (كل شيء له كتلة يجذب كل شيء آخر له كتلة، وقوة التجاذب
التي بينهما تزداد ازديادا طرديا بزيادة أي الكتلتين، فالقوة تتناسب تناسبا عكسيا مع مربع
البعد بينهما).. وقد عرفنا من هذا أن هناك قوتين أو نوعين من القوى؛ القوة المغناطيسية
الكهربائية وقوى الجاذبية.. وكلها ترجع إلى أصل واحد.. يقول أينشتاين: (إن روح العالم
النظري لا تحتل أن يكون في الوجود شكلان لقوى لا يلتقيان شكل للجاذبية القياسية،
وشكل للمغناطيسية الكهربائية) سكت قليلا، ثم قال: سأقص عليك قصتين تدلانك على
مدى التناسق الموجود في الكون لترى من خلالهما الوحدة الكونية.. ولتستدل بها على
وحدة المكون.

قلت: فحدثني عن الأولى.

قال: أنت تعلم أن لاختلاف العناصر الأصلية في هذا الكون، أثر عند اختلاف عدد

إلكتروناتها وبروتوناتها، والوزن الذري أثر من آثار هذا العدد، وخواص كل عنصر أثر من آثار هذا العدد.

وقد استطاع العالم الروسي مندليف أن يصنف العناصر بحسب وزنها الذري، ووضع لها جدولا على هذا الأساس، وكان ترتيب العناصر متدرجا صاعدا، ولكنه فوجئ بفراغ لم يجد ما يملؤه به.

إذ أنه وجد أن درجات السلم الدوري للعناصر تطرد بتتابع لا فراغ فيه، إلا في ثلاثة عناصر، فإما أن يكون هذا القانون الدوري غير مطرد وغير صحيح، وإما أن يكون صحيحا ومطردا، فلا بد حيثئذ من وجود هذه العناصر المفقودة، في نفس تلك الدرجات الفارغة. وبما أن مندليف كان واثقا من صحة قانونه الدوري، فإنه أخذ يؤكد أن هذه العناصر الثلاثة المفقودة لا بد من وجودها على الأرض، بل إنه استطاع على أساس وزنها الذري الذي يأتي في الدرجات الفارغة أن يحدد كل الخواص الكيميائية التي لها كأنه يراها. وقد كتب الله لمندليف أن لا يأتي أجله قبل تأكده من صحة نظريته العلمية.. فقد اكتشف العلماء العناصر المفقودة بكل خصائصها كما حددها مندليف.

قلت: سمعت الأولى.. فحدثني عن الثانية.

قال: لاشك أنك تعلم أن أقرب الكواكب إلى الشمس هو عطارد، وهو يبعد عنها بـ ٣٦ مليون ميل.. ثم الزهرة ومتوسط بعدها ٦٧ مليونا.. ثم الأرض ٩٣ مليونا.. ثم المريخ ١٤٢.. ثم المشتري ٤٨٤ مليونا.. ثم زحل ٨٨٧ مليونا.. ثم أورانوس ١٧٨٢ مليونا.. ثم نبتون ٢٧٩٢ مليونا من الأميال.

القصة لا ترتبط بهذه الأعداد، وإنما ترتبط بالنسبة بينها..

إن أبعاد هذه السيارات عن الشمس جارية على نسب مقدرة ومطرودة تسير وفق ٩

منازل: أولها الصفر، ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد ٣، ثم تتدرج متضاعفة هكذا ٢-٦-١٢-٢٤-٤٨-٩٦-١٩٢-٣٨٤ فإذا أضيف إلى كل واحد منها العدد ٤ ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل، ظهر مقدار بعد السيارة التي في منزلة العدد عن الشمس؛ أي أنه بإضافة ٤ إلى كل منزلة تصبح المنازل التسع هكذا: ٤-٧-١٠-١٦-٢٨-٥٢-١٠٠-١٩٦-٣٨٨ فإذا أخذنا أعداد المنازل هذه، وضربنا كل عدد منه بتسعة ملايين، يظهر لنا بعد السيارة التي هي في منزلة ذلك البعد عن الشمس؛ فعطارد مثلاً يبلغ متوسط بعده عن الشمس ٣٦ مليون ميل، وبما أن منزلته في البعد هي الأولى فيكون رقمه ٤، فإذا ضربنا 4×9 يكون حاصل الضرب ٣٦ مليون ميل، وهكذا تسير النسبة في بعد كل سيار عن الشمس مع فروق مختلفة قليلة.

ولكن العلماء وجدوا أن منزلة العدد (٢٨) ليس فيها كوكب، بل تأتي بعد العدد ١٦ الذي صاحبه المريخ، العدد ٥٢ الذي صاحبه المشتري، وقد تساءل العلماء عن السر في هذا الفراغ.. فإذا أن تكون النسبة التي اكتشفوها غير مطردة، وإما أن يكون هناك كوكب غير منظور في مرتبة العدد ٢٨ على بعد ٢٥٢ مليون ميل عن الشمس، أي بين المريخ والمشتري.

وأخيراً وجدوا هذا الشيء الذي لا بد من وجوده، ولكنهم لم يجدوه كوكبا كبيرا؛ بل وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور الذي بين المريخ والمشتري، أي في نفس المنزلة التي حسبوها من قبل فارغة، فكأنه كوكب تحطم.

التفت إلي، وقال: إن هاتين قصتين متشابهتين في قضيتين مختلفتين، كل واحدة منها تتمم الأخرى لتكملا عندك الشعور بأن يدا واحدة قد خلقت قوانين هذا الوجود وعناصر وجزئياته ووكلياته.

التمانع:

قلت: عرفت الثاني.. فحدثني عن الثالث^(١).

قال: لقد ذكره ربي، فقال: ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ (٢٢) ﴿(الأنبياء)

قلت: فكيف تقرر هذا البرهان؟

قال: القول المفضي إلى المحال لا بد أن يكون محالاً.. وهكذا، فإن القول بوجود إلهين يفضي إلى المحال.. فوجب أن يكون القول بوجود إلهين محالاً.

قلت: فكيف زعمت بأن القول بوجود إلهين يفضي إلى محال؟

قال: لأننا لو فرضنا وجود إلهين فلا بد أن يكون كل واحد منهما قادراً على كل المقدورات، ولو كان كذلك لكان كل واحد منهما قادراً على تحريك شيء ما وتسكينه.. فلو فرضنا أن أحدهما أراد تحريكه والآخر تسكينه:

فإما أن يقع المرادان، وهو محال لاستحالة الجمع بين الضدين.

وإما أن لا يقع واحد منهما، وهو محال، لأن المانع من وجود مراد كل واحد منهما مراد الآخر، فلا يمتنع مراد هذا إلا عند وجود مراد ذلك، وبالعكس.. فلو امتنعا معاً لوجدوا معاً، وذلك محال.

قلت: فلنفرض أنه يقع مراد أحدهما دون الثاني؟

قال: ذلك محال أيضاً لوجهين: أولهما أنه لو كان كل واحد منهما قادراً على ما لا نهاية له امتنع كون أحدهما أقدر من الآخر، بل لا بد وأن يستويا في القدرة.. وإذا استويا في القدرة

(١) انظر في تقرير هذا البرهان التفسير الكبير للفخر الرازي.

استحال أن يصير مراد أحدهما أولى بالوقوع من مراد الثاني، وإلا لزم ترجيح الممكن من غير مرجح.

أما الثاني، فإنه إذا وقع مراد أحدهما دون الآخر، فالذي وقع مراده يكون قادراً، والذي لم يقع مراده يكون عاجزاً، والعجز نقص، وهو على الله محال.

قلت: تقريرك هذا يصح في حال القول باختلافهما في الإرادة.. وذلك ليس لازماً.. قال: حتى لو فرضنا ذلك.. فإننا نعتبره من نوع الممكن.. فإذا كان الفساد مبنياً على الاختلاف في الإرادة، وهذا الاختلاف ممكن.. والمبني على الممكن ممكن.. فكان الفساد ممكناً.

قلت: فكيف جزم قرآنكم إذن بوقوع الفساد؟

قال: لو فرضنا إلهين لكان كل واحد منهما قادراً على جميع المقدورات، فيفضي إلى وقوع مقدور من قادرين مستقلين من وجه واحد، وهو محال..

قلت: وما في ذلك؟

قال: لأن استناد الفعل إلى الفاعل لإمكانه، فإذا كان كل واحد منهما مستقلاً بالإيجاد، فالفعل لكونه مع هذا يكون واجب الوقوع، فيستحيل إسناده إلى هذا لكونه حاصلاً منهما جميعاً، فيلزم استغناؤه عنهما معاً واحتياجه إليهما معاً وذلك محال.

وإن شئت تقريراً آخر لهذا أقول: إن خلقة العالم التي تحققت على طبق النظام الأتم لو كان المؤثر فيها إرادة أحدهما استلزم عجز الآخر، ولو كان إرادتهما معا استلزم عجز كليهما.

فإن علم كل واحد منهما بالنظام الأتم للعالم اقتضى إرادته لإيجاده، فكانت إرادتهما متمانعتين، فإن كل واحد منهما علة تامة لإيجاده، ويستحيل استناد المعلول إلى علتين

تامتين.

فتكون العلة التامة هي مجموع إرادتهما، دون إرادة كل واحد منهما، وعجز كل منهما أن يكون علة تامة له.

وإن كانت إرادة أحدهما قاهرة على إرادة الآخر ثبت عجز أحدهما، وهو ينافي وجوب الوجود، وبذلك تبطل خلقه عالم لا محالة.

الوحدة:

قلت: عرفت الثالث.. فحدثني عن الرابع.

قال: لقد ذكره ربي، فقال: ﴿ مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ﴾ (٩١) (المؤمنون) ففي قوله تعالى: ﴿.. إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.. ﴾ (٩١) (المؤمنون) حجة على نفي التعدد ببيان محذوره، إذ لا يتصور تعدد الآلهة إلا بينونتها بوجه من الوجود، بحيث لا تتحد في معنى ألوهيتها وربوبيتها.

ومعنى ربوبية الإله في شطر من الكون ونوع من أنواعه تفويض التدبير فيه إليه بحيث يستقل في أمره من غير أن يحتاج فيه إلى شيء غير نفسه حتى إلى من فوض إليه الأمر.. ومن البين أيضا أن المتباينين لا يترشح منهما إلا أمران متباينان.

ولازم ذلك أن يستقل كل من الآلهة بما يرجع إليه من نوع التدبير.. وتنقطع رابطة الاتحاد والاتصال بين أنواع التدابير الجارية في العالم.. كالنظام الجاري في العالم الإنساني عن الانظمة الجارية في أنواع الحيوان والنبات والبر والبحر والسهل والجبل والأرض والسماء وغيرها.. وكل منها عن كل منها.. وفيه فساد السماوات والأرض وما فيهن.. ووحدة النظام الكوني والثام أجزائه واتصال التدبير الجاري فيه يكذبه.

وهذا هو المراد بقوله: ﴿.. إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ.. (٩١)﴾ (المؤمنون) أي انفصل بعض الآلهة عن البعض الآخر بما يترشح منه من التدبير.

وفي قوله: ﴿.. وَلَعَلَّا بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ.. (٩١)﴾ (المؤمنون) محذور آخر لازم لتعدد الآلهة، تتألف منه حجة أخرى على النفي.. وهي أن التدابير الجارية في الكون مختلفة.. منها التدابير العرضية، كالتدبيرين الجارين في البر والبحر، والتدبيرين الجارين في الماء والنار.. ومنها: التدابير الطولية، التي تنقسم إلى تدبير عام كلي حاكم، وتدبير خاص جزئي محكوم، كتدبير العالم الأرضي وتدبير النبات الذي فيه، وكتدبير العالم السماوي وتدبير كوكب من الكواكب التي في السماء، وكتدبير العالم المادي برمته وتدبير نوع من الأنواع المادية.

فبعض التدبير - وهو التدبير العام الكلي - يعلو بعضا، أي أنه بحيث لو انقطع عنه ما دونه بطل ما دونه، لتقومه بما فوقه، كما أنه لو لم يكن هناك عالم أرضي، أو التدبير الذي يجري فيه بالعموم لم يكن عالم إنساني ولا التدبير الذي يجري فيه بالخصوص.

ولازم ذلك أن يكون الإله الذي يرجع إليه نوع عال من التدبير، عاليا بالنسبة إلى الإله الذي فوض إليه من التدبير ما هو دونه وأخص منه وأخص، واستعلاء الإله على الإله محال. لقد عبر الإمام جعفر الصادق عن هذا البرهان، فقال: (فلما رأينا الخلق منتظما والفلك جاريا والليل والنهار والشمس والقمر دل صحة التدبير واتتلاف الأمر على أن المدبر واحد)

وعبر عنه صدر المتألهين، فقال: (إن كونها (أي الموجودات) مرتبطة منتظمة في رباط واحد، مؤلفة اثتلافا طبيعيا يدل على أن مبدعها ومدبرها وممسك رباطها عن أن ينقسم واحد حقيقي، يقيمها بقوته التي تمسك السماوات والأرض أن تزولا، ولو كان

فيهما صانعان لتمييز صنع كل واحد منهما عن صنع غيره، فكان ينقطع الارتباط، فيختل النظام، كما في قوله تعالى: ﴿... إِذَا لَذَهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ (٩١)﴾ (المؤمنون)^(١)

إلى أن قال: (كون جبلة العالم مع تفنن حركاتها وتخالف أشكالها وتغير آثارها مؤسسة على الائتلاف الطبيعي والرصف الحكمي دالة بوحدتها الطبيعية الاجتماعية على الوحدة الحقة الحقيقية)

فسبحان من جعل الموجودات العالمية على كثرتها متشاكلة من وجه ومتميزة من وجه متفرقة من وجه.. لتكون دالة على صنع قادر حكيم ومدبر عليم. وقد عبرت الطبيعة عن هذا خير تعبير: فإننا نرى جميع موجودات العالم مرتبطة بقوانين حاکمة على جميعها:

فحركة الأجرام السماوية التي تسير في مدارات معينة، وفواصل منظمة، بحيث لا تصطدم الواحدة بالأخرى، تدل على وحدة النظام في العالم. وهكذا نرى الجمادات والنباتات والحيوانات والإنسان، بعضها بالنسبة إلى البعض الآخر كالمعدات^(٢).. فالحيوان يأكل النبات، والإنسان يأكل الجماد، ويتغذى على النباتات والحيوانات لتصبح جزءا منه.. ويموت الإنسان والحيوان ويصبحا ترابا.. وينمو النبات من التراب.. فكل منها يتحول الى الآخر بشروط خاصة.. وهذا يدل على أن خالق الجميع واحد متى ما أراد يحوله إلى الآخر.

(١) المبدأ والمعاد، ص ٤٥.

(٢) معد الشيء: الذي يكون مقدمة لوجود الآخر.

وهكذا نرى الموازنة الموجودة بين الحيوانات والنباتات في صرف الأوكسجين والكربون، فإن التركيب الأساسي لوجود جميع النباتات حاصل من الماء والكربون، وتطرح الحيوانات الكربون في الهواء، وتجذب الأوكسجين، فتحصل الموازنة بين صرف الكربون والأوكسجين..

والأمثلة على ذلك لا تكاد تحصى.

الهداية:

قلت: عرفت الرابع.. فحدثني عن الخامس.

قال: لقد ذكره ربي، فقال: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ (آل عمران)

قلت: فكيف تقرر هذا الدليل؟

قال: إن واجب الوجود - سبحانه وتعالى - هو منبع كل فيض، فكما يفيض منه الفيض التكويني يفيض منه الفيض التشريعي.. وذلك لسوق العباد الى الكمال وهدايتهم الى معرفة ما يؤدي إلى رضا.

وبما أن جميع الأنبياء قد أخبروا بوحدانية الله سبحانه وتعالى، وقد بعثوا بالرسالة من قبل الواحد الأحد، وقد أيدهم بشواهد الصدق، وقرنهم بالمعجزات، وشهدوا جميعا بوحدانيته، فلو كان هناك إله آخر لبعث من ناحيته أنبياء ورسلا أخبروا عنه، وأدوا رسالته إلى الناس.. فانتفاء نبي يخبر عنه، واتفاق جميع الأنبياء على وحدانية الله تعالى يدل على أنه ليس معه إله آخر، وأنه الإله الواحد الأحد الذي لا شريك له في ألوهيته.

لقد ذكر الإمام علي بن أبي طالب في وصيته لابنه الحسن هذا البرهان، فقال: (واعلم، يا بني، أنه لو كان لربك شريك لأتتك رسله، ولرأيت آثار ملكه وسلطانه، ولعرفت أفعاله

وصفاته، ولكنه إله واحد، كما وصف نفسه، لا يضاده في ملكه أحد، ولا يزول أبدا، ولم يزل، أول قبل الأشياء بلا أولية، وآخر بعد الأشياء بلا نهاية، عظم عن أن تثبت ربوبيته بإحاطة قلب أو بصر^(١)

وقال المجلسي في تقرير هذا البرهان: (إن هذا برهان قاطع على وحدانيته تعالى.. فإن واجب الوجود يجب أن يكون قادرا وفاضلا على الإطلاق.. فإن كان الله قد أرسل أربعة وعشرين ومائة ألف نبي لهداية الناس إلى معرفته ودعوتهم إلى عبادته، لبعث الإله الآخر على فرض وجوده نبيا لا محالة لإرشاد الناس إلى معرفته ودعوتهم إلى عبادته، وإلا لكان غير قادر أو غير حكيم، وكان جاهلا أو بخيلا، وواجب الوجود يجب أن يكون منزها من هذه الصفات المستلزمة للنقص، المستلزم للإمكان)

الحقيقة:

قلت: عرفت الخامس.. فحدثني عن السادس.

قال: هو برهان الحقيقة..

قلت: فوضحه لي..

قال: إن صدق إطلاق (واجب الوجود) على شيء لا يتصور إلا على وجهين..

أما أولهما، فأن تكون حقيقته هي أنه واجب الوجود.

وأما الثاني، فأن يكون من قبيل صدق المفهوم على فرد كان حقيقته غير ذلك، كصدق

الضارب والأبيض على فرد الإنسان.. وقد يخلو منها.

وفي هذه الحالة، فإن صدق إطلاق (واجب الوجود) من قبيل العرض لا من قبيل

(١) انظر: نهج البلاغة: كتاب ٣٠ ص ٩٨٠.

الحقيقة.. وهذا يؤدي إلا أن يفتر عروضة عليه إلى علة هي واجب الوجود بحقيقته وذاته دونه.

ولو فرض اثنان، كل واحد منهما واجب بحقيقته وذاته، لكان ما به التميز والتعدد غير واجب الوجود بحقيقته، فإن المفروض أن حقيقة واجب الوجود مشترك بينهما، فما به التميز والتعدد ممكن الوجود بحسب ذاته، فيكون خارجا عن ذات واجب الوجود، فثبت أن التعدد منشؤه إمكان الوجود.. ولا سبيل للتعدد إلى واجب الوجود.

التعين:

قلت: عرفت السادس.. فحدثني عن السابع.

قال: لقد ذكره الشيخ الرئيس في (الإشارات) و(الشفاء)

فقال في (الإشارات): (واجب الوجود المتعين إن كان تعينه ذلك لأنه واجب الوجود

فلا واجب وجود غيره، وإن لم يكن تعينه لذلك، بل لأمر آخر، فهو معلول)

وقال في (الشفاء) في شرح هذا البرهان: (مثلا لو كان الشيء الواجب الوجود هو هذا

الإنسان، فلا يخلو إما أن يكون هو هذا الإنسان، للإنسانية ولأنه إنسان، أو لا يكون.

فإن كان لأنه إنسان هو هذا، فالإنسانية تقتضي أن يكون هو هذا فقط.

وإن وجدت لغيره فما اقتضت الإنسانية أن يكون هو هذا، بل إنما صار هذا لأمر غير

الإنسانية.

فكذلك الحال في حقيقته واجب الوجود، فإنها إن كانت لأجل نفسها هي هذا المعين

لاستحال أن تكون تلك الحقيقة لغيره، فيكون تلك الحقيقة ليست إلا هذا.

وإن كان تحقق هذا المعنى فهذا المعين لا عن ذاته، بل عن غيره، وإنما هو هو لأنه هذا

المعين، فيكون وجوده الخاص له مستفادا عن غيره فلا يكون واجب الوجود، وهذا خلف.

قلت: هلا وضحت لي هذا البرهان.

قال: لو فرض كون واجب الوجود اثنين: أحدهما غير الآخر في الخارج كان لكل واحد منهما عينية غير عينية الآخر.

فإما أن تكون عينيته وكونه هذا الواجب دون الآخر بمقتضى كونه واجب الوجود، فيكون وجوب الوجود مقتضيا لكون واجب الوجود هو هذا الواجب دون الآخر، فيستحيل وجود واجب الوجود غيره، لكونه مستلزما للتناقض.

وأما أن تكون عينيته وكونه هذا الواجب دون غيره ليس بمقتضى وجوب وجوده، تكون عينيته معلولة للغير، فلا يكون واجب الوجود، فيستلزم التناقض أيضا.

التركيب:

قلت: عرفت السابع.. فحدثني عن الثامن.

قال: لقد ذكره الحكيم السبزواري في (المنظومة)، فقال:

تركب أيضا عراه إن يعد
مما به امتياز وما به اتحد.
وتقريره: أنه لو كان واجب الوجود متعددًا للزم أن يكون مركبًا.. وهو باطل، لمنافاة التركيب مع الوجوب.

وبيان الملازمة أن اختلاف ذاك الواجب على فرض التعدد عن ذاك إما بالاختلاف النوعي بأن يكون كل واحد نوعًا مغايرًا مع نوع الآخر، وإما بالاختلاف الشخصي.

فعلى الأول: يلزم أن يكون كل واحد منهما مركبًا من الجنس والفصل.

وعلى الثاني: يلزم أن يكون كل منهما مركبًا مما يكون به مشتركًا مع الآخر في تمام الذات، ومن عارض شخصي يمتاز به عن الآخر.

وعلى التقديرين: يلزم تركيب الواجب إما في أصل حقيقته - كما في الأول - أو في

تشخصه، كما في الأخير.

قلت: هلا وضحت لي هذا بطريقة أخرى.

قال: لا بأس.. اسمع جيدا.. إذا كان واجب الوجود متعددًا لزم تركيب كل منهما، أو خروجه عن كونه واجبا، لأنه مع فرض التعدد لو كان واجبان مثلا واشتركا في وجوب الوجود لاحتاج كل منهما إلى ما به يمتاز عن الآخر، لكي تتم الاثنينية، وحينئذ لا يخلو: إما تكون ذات كل منهما متميزة عن الآخر بتمام الذات، ويكون الاشتراك في وجوب الوجود الذي يصدق عليهما صدقا عرضيا.

أو يكون امتيازهما بأمر خارج عن الذات، ويكون وجوب الوجود ذاتيا لهما، بمعنى كونه تمام ذاتهما.

أو يكون وجوب الوجود جزءا من ذاتهما، ولا محالة يكون لكل منهما جزء آخر قضاء لحكم الجزئية.

والكل محال:

أما الأول: فللزوم كون كل منهما في مرتبة ذاتهما غير واجب، فيكون كل منهما ممكن الوجود ومعرضا للوجوب.

وأما الثاني: فللزوم تركيب كل منهما في كونه فردا من واجب الوجود، واحتياج كل واحد في تفرده إلى العوارض المشخصة.

وأما الثالث: فلصيرورة كل منهما مركبا من الجنس والفصل، وهذا ظاهر.

الفرجة:

قلت: عرفت الثامن.. فحدثني عن التاسع.

قال: لقد ذكره الإمام الصادق، فقال في حوارهِ مع المَلحد: (يلزمك إن ادعيت اثنين

فرجة ما بينهما حتى يكونا اثنين فصارت الفرجة ثالثا بينهما قديما معهما فيلزمك ثلاثة.. فان ادعيت ثلاثة لزمك ما قلت في الاثنين حتى تكون بينهم فرجة فيكونوا خمسة.. ثم يتناهى في العدد الى ما لا نهاية له في الكثرة)
قلت: فما تقرير هذا البرهان؟

قال: لو فرض اثنان كل منهما واجب الوجود، لم يكن الوجوب خارجا عن حقيقة كل منهما، فلا بد من الامتياز بشي وجودي في كل منهما أو في أحدهما ولم يكن في الآخر.
ثم إن ما به امتيازه أيضا واجب الوجود لا محالة، فيشترك مع الاثنين في وجوب الوجود، فلا بد من امتياز عنهما من أمر آخر يمتاز به عنهما، فهو أيضا واجب الوجود، فيشترك مع الثلاثة في وجوب الوجود، فلا بد أيضا من أمر آخر يمتاز به عن الثلاثة، فهو أيضا واجب الوجود لا محالة، فيشترك مع الأربعة في وجوب الوجود، ولا بد في امتيازه عن الأربعة من أمر خامس، وهكذا إلى ما لا نهاية.

قلت: الامتياز بين الشيئين قد يكون بتمام الذات، والاشتراك بأمر عام ذهني خارج عنهما لازم لهما.

قال: هذه شبهة مشهورة عجز الناس عن حلها، لكن من عرف حقيقة وجوب الوجود علم أن الذي به تصوير الأشياء والماهيات ذوات حقيقة هو أولى وأحق بأن يكون ذا حقيقة، بل هو نفس الحقيقة، وهي المتحققة بذاتها المتحقق بها سائر الأشياء من ذوات الماهيات.
فلو فرض إلهان لم يكن وجوب الوجود خارجا عن حقيقة كل منهما، فلا بد حينئذ من الامتياز بشيء وجودي خارج عن حقيقة كل منهما، إذ ليس انضمام ما فرض هاهنا مميزا، حاله كحال انضمام فصل بجنس، والجنس ماهية كلية مبهمة تتحصل بالفصل، فيكون انضمام الفصل إليه انضمام أمر محصل إلى أمر مبهم ليصيرا معا موجودا واحدا،

وإما هاهنا فانضمام المميز إلى حقيقة واجب الوجود انضمام محصل موجود إلى محصل موجود آخر، ولهذا يلزم أن يكون المفروض اثنين ثلاثة، والمفروض ثلاثة خمسة، وهكذا إلى لا نهاية..

الكلية:

قلت: عرفت التاسع.. فحدثني عن العاشر.

قال: لقد ذكره صاحب كليات رسائل النور.. بديع الزمان النورسي.. فقال: (إن عوالم الكائنات المختلفة وأنواعها المتنوعة وعناصرها المتباينة قد اندمجت اندماجاً كلياً وتداخل بعضها مع البعض الآخر، بحيث:

أن من لم يكن مالكا لجميع الكون لا يمكنه أن يتصرف بنوع منه أو عنصر فيه تصرفاً حقيقياً، لأن تجلي نور التوحيد لاسم الله (الفرد) قد أضاع أرجاء الكون كله، فضم أجزاءها كافة في وحدة متحدة، وجعل كل جزء منه يعلن تلك الوحدةانية.

مثلاً: كما أن كون الشمس مصباحاً واحداً لهذه الكائنات يشير إلى أن الكائنات بأجمعها ملكٌ لواحد، فإن كون الهواء هواءً واحداً يسعى لخدمة الأحياء كلها.. وكون النار ناراً واحدة توقد بها الحاجات كلها.. وكون السحاب واحداً يسقي الأرض.. وكون الأمطار واحدة تأتي لإغاثة الأحياء كافة.. وانتشار أغلب الأحياء من نباتات وحيوانات انتشاراً طليقاً في أرجاء الأرض كافة مع وحدة نوعيتها، ووحدة مسكنها.. كل ذلك إشارات قاطعة وشهادات صادقة أن: تلك الموجودات ومساكنها ومواضعها إنما هي ملكٌ لمالك واحدٍ أحد..

ففي ضوء هذا وقياساً عليه نرى: أن تداخل الأنواع المختلفة للكائنات واندماجها الشديد ببعضها قد جعل مجموعها بمثابة (كل) واحد لا يقبل التجزئة قطعاً من حيث

الإيجاد.. فالذي لا يستطيع أن يُنفذ حكمه على جميع الكون لا يمكنه - من حيث الخلق والربوبية - أن يُخضع لربوبيته أي شيء فيه، حتى لو كان ذلك الشيء ذرة أو أصغر منها.

٢ - الدين

بعد أن حدثنا آريوس حديثه الأول، طلبنا منه أن يحدثنا حديثه الثاني، فقال: لم يطل الزمن بيني وبين الاجتماع بذلك الرجل المسلم الذي لم أتشرف بالجلوس إليه طويلا حتى جاءني أمر من الحبر الأعظم بأن أذهب إلى كنيسة من كنائسنا الكبرى في غانا، حيث وردنا خبر بأن القسيس الأكبر الذي كان معتمدا لدينا فيها، قد تحول إلى الإسلام، وأنه لم يكتف بذلك، بل راح يبشر بصفات الإله الذي يؤمن به في الكنيسة التي تمرد عليها. وقد وردتنا الأخبار بأن كثيرا من رعيتنا هناك اتبعوه، وراحوا مثله يبشرون بالإله الواحد، بدل إلها ذي الأقانيم الثلاث.

هرعت لأمر الحبر الأعظم، وفي روعي أشواق لست أدري سببها.. ولكنني مع ذلك كنت تام الثقة في ديني وفي معتقداتي، فمع كونها لم تكن ترضي المنهج العقلي الذي أتبناه إلا أنني كونت موقنا، أو تشكلت لدي قناعة عقلية كبرى من أن مثل هذه القضايا لا تعرف بالعقل المجرد.. فلذلك كنت تام الثقة في أن معتقدات المسلمين لن ترضي عقلي الذي يريد أن يعرف الحقيقة المجردة.

وصلت إلى غانا.. فانتقلت بسرعة إلى كنيستها.. لقد كان الأمر خطيرا، فلذلك ما إن وصلت حتى أرسلت في طلب هذا القسيس الذي ارتد عن دينه.

دخلت مكتبا مخصصا لمثل هذه الجلسات، وطلبت من الجميع تركي لوحدي مع هذا القسيس.. لست أدري لم أصررت على هذا الطلب؟

لقد كنت مشتاقا لسماعه.. ومشتاقا أكثر لأن تكون لي الجرأة التي يملكها.. فلذلك أغلقت الأبواب وتوثقت منها بعد دخوله لتكون لي فرصة طويلة في الحوار معه من غير رقابة ولا شغب.

عندما رأيته أدهشني منظره.. لقد كان يرتدي ثيابا رثة، وكانت حالته مؤثرة جدا.. حاولت التلطف معه، فقلت: ما بك يا يوحنا..

وقد كان هذا الاسم هو الاسم الذي أحبه ورضي به، وطلب أن نلقبه به منذ اعتنق النصرانية قبل عشرات السنوات.

قال: أنت كما تراني بفضل الله وحمده.

كان صوته عذبا تنبعث منه روائح الإيمان والعزة.. لقد ذكرني بالسحرة الذين لم تشغلهم عزة فرعون عن عزة الله.

قلت: ولكنني أرى حالتك مزرية.. أين النعيم الذي كنت ترفل فيه؟

قال: لقد بعته لله.. وبعث كل ما أعطيتموني لله.. لقد جردني من آواني من كل ما أعطاني، وظن أنني بذلك سوف أترك ما اقتنعت به من ديني.. وهذا لن يكون، فالدين أعظم من أن يباع بمتاع رخيص من الدنيا.

لقد كان تحت يدي - حضرة الحبر - أربع سيارات مخصصة لخدمتي، وكان لدي قصر كبير لم أكن أحلم بمثله يوم أخذتموني فقيرا معدما، ولقنتموني دين المسيح مع قطع الخبز التي كنتم تطعمونها لي.

قلت: ولكن كيف تتنكر للأيدي التي مدت لك؟

قال: أنا لا أتذكر لهذه الأيدي.. ولكن من الخطأ أن نكره الناس على الدخول للدين بالخبز.. أستم ترمون محمدا ﷺ بأنه نشر الإسلام بالسيف؟.. فلا تنشروا المسيحية بالخبز.. اعطوا الخبز للجائع.. أما الدين فاتركوه وما يمليه عليه عقله وقلبه وروحه.

قلت: لا بأس.. لن نتحدث عن هذا الآن.. سمعت أنك تبشر بالإله الواحد.. وتخبر أنه الإله الذي جاء المسيح وجميع الأنبياء بالدعوة إليه.

قال: نعم.. وقد كان محمد ﷺ هو المصحح لكل تلك الأوهام التي لحقت بالمسيح،
وأساءت إلى الله.

قلت: فأنت تتصور أن كتبنا تحوي صفات الإله الذي جاء به محمد.. لا الأقانيم التي
نؤمن بها.

قال: أجل.. وأستطيع أن أبين لك ذلك إن كنت صادقا.. وأنا واثق تماما من أنك إذا
عرفت الحقيقة سوف تسلم لي.

قلت: وإذا عرفت الحقيقة أنت.

قال: لا مناص لي من التسليم إليك.. فالحق أحق أن يتبع.

جلست مجلس التلميذ بين يديه.. ولكنني مع ذلك لم أتخل عن عنفوان السلطة التي
كنت أملكها أو كان يملكها منصبي.. فلذلك جلست أنصت إلى حديثه، ولا أقاطعه.. لقد
كنت أتمتع بحديثه، ولو أنني لم أملك الجرأة لأن أظهر له تلك المتعة.. لقد كنت أبدو قاسيا
أمامه، ولكن قلبي كان يود لو يحتضنه ليمتنص بعض رحيق الأشعة المحمدية التي امتصها
قلبه.

قال: ألستم تلخصون أصول العقيدة في المسيح في الأمانة الكبيرة؟

قلت: أجل.

قال: ألا تقولون فيها: (نؤمن بالله الواحد الأب ضابط الكل مالك كل شيء مانع ما يرى
وما لا يرى، وبالرب الواحد يسوع ابن الله الواحد بكر الخلائق كلها الذي ولد من أبيه قبل
العوالم كلها، وليس بمصنوع إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذي بيده أتقنت وصار
إنسانا وحبل به وولد من مريم البتول وصلب أيام (بيلاطس الملك) ودفن وقام في اليوم
الثالث كما هو مكتوب وصعد إلى السماء وجلس عن يمين أبيه مستعد للمجيء تارة أخرى

للقضاء بين الأحياء والأموات. ونؤمن بروح القدس المحيي المنبثق من أبيه الذي بموقع الأب والابن يسجد له ويمجد الناطق بالأنبياء وبكنيسة واحدة مقدسة رسولية وبمعبودية واحدة لمغفرة الخطايا وتترجى قيامة الموتى والحياة والدهر العتيد آمين)

قلت: بلى.. نحن نردد هذا الكلام.. وهو يحوي خلاصة معتصرة لعقيدتنا.

قال: من أين أتيتم بهذا الكلام؟

قلت: من كتبنا المقدسة.

قال: لا.. لقد قرر هذه العقيدة ٣١٨ أسقفا اجتمعوا بمدينة يذقية في عهد قسطنطين عام ٣٢٥م وفي عام ٣٨١م زادوا فيها مايلى: (والأب والابن وروح القدس هي ثلاثة أقانيم، وثلاثة وجوه، وثلاثة خواص، توحيد في تثليث في توحيد كيان واحد بثلاثة أقانيم، إله واحد جوهر واحد طبيعة واحدة)

قلت: هذا صحيح.. ولكن هذه المجامع.. وهذا العدد الكبير من الأساقفة لم يقولوا هذا الكلام من فراغ.. لقد وجدوا نصوصا كثيرة في الكتاب المقدس تؤيدهم^(١).

قال: أنت تعلم أن هذه العقيدة لم تلق القبول المطلق من جميع المسيحيين.. إن هناك الآلاف.. بل عشرات الآلاف من الذين يقرؤون الكتاب المقدس، ويفهمونه، ويؤمنون به، ومع ذلك لا يثقون في هذا الإيمان الذي تتبنونه وتبشرون به.

لقد اعترف جُلُّ المؤرخين المسيحيين، أن الاعتقاد بالهية المسيح لم يصبح عقيدة مستقرة وسائدة بين المسيحيين إلا بعد انقضاء عهد الحواريين وعهد التلاميذ الأوائل للمسيح، أي بعد انقضاء قرن على الأقل على رحيل المسيح.

(١) استفدنا الكثير المعلومات المرتبطة بهذا الباب من كتاب (القول الصحيح فيما نسب لعيسى المسيح) من تأليف: مشعل بن عبد الله القاضي، ترجمة: وائل البني.. وغيره من المراجع.

أما قبل ذلك.. أي في القرن الأول لبعثة المسيح، فقد كانت مذاهب الناس في المسيح لا تزال متشعبة:

فغالبية اليهود المعاصرين له أبغضوه وأنكروا رسالته من الأساس واعتبروه ساحرا ودجالا، وصرفوا جهودهم لمحاربة أتباعه والقضاء على دعوته، والإسلام أنكر على هؤلاء، والمسلمون ينكرون عليهم، ويغيرون للمسيح الذي لم يتركوا وسيلة إلا آذوه بها. ومقابل ذلك آمن به عدد من اليهود ممن تجرد لله، فأوا فيه المسيح المبشر به في الكتب المقدسة السابقة، وقد أشار القرآن الكريم إلى هؤلاء الذين وقفوا في وجه أولئك، فقال: ﴿ فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ (آل عمران: ٥٢)، وقال: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا أَنْصَارَ اللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّينَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ فَأَمَّتْ طَائِفَةٌ مِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَكَفَرَتْ طَائِفَةٌ فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَى عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ ﴾ (الصف: ١٤)

وهؤلاء الحواريون الصادقون لم يصلنا من كتبهم إلا القليل.. ومع ذلك، فما وصلنا يدل على أنهم كانوا يرون في المسيح نبيا بشرا، ورجلا أيده الله بالمعجزات الباهرات ليرد الناس إلى صراط الله الذي ضلوا عنه، وليعلن بشارة الله تعالى بالرحمة والغفران والرضوان للمؤمنين التائبين..

وبين هؤلاء وأولئك ظهرت فئة من المغالين، كانوا أخطر على المسيح ودين المسيح والأشعة التي أنارت بالمسيح من اليهود أنفسهم.. فهؤلاء لم ينسجوا له تاجا من الشوك، بل نسجوا له تاجا من الألوهية، وقد أنكر القرآن الكريم على هؤلاء إنكارا شديدا منزها الله تعالى عن الأفكار التي كانوا يحملونها، قال تعالى: ﴿ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنْتَ

قُلْتُ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّي إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٦﴾ (المائدة: ١١٦ - ١١٧)

قلت: ولكن إجماع المسيحيين استقر على هذه العقيدة التي يؤمنون بها.. أستم
تعتبرون الإجماع من مصادر الشريعة المعتمدة؟
قال: الإجماع الذي لا يناقض النصوص.. لا الإجماع الذي يخالفها، بل يحاربها.. ثم
من قال لك بأن المسيحيين اجتمعوا في يوم من الأيام.

إن التاريخ والوثائق المعتمدة تثبت أنه لا تزال توجد في كل عصر من عصور تاريخ
المسيحية أعداد غير قليلة من علماء النصارى وعامتهم ممن أنكر تأليه المسيح ورفض
عقيدة التجسد والتثليث مؤكدا تفرد الله وحده بالألوهية والربوبية والأزلية، وأن المسيح
مهما علا شأنه يبقى حادثا مخلوقا.

وهؤلاء ليسوا أفرادا محدودين، بل قد حظي أولئك الأساقفة والبطارقة الموحدون
بآلاف، بل عشرات آلاف الأتباع والمقلدين، ولو أذنت لي لذكرتك بالكثير ممن تعرفهم
أنت، وثلة ممن معك^(١).. ولكن الكثير من المسيحيين يجهلونهم، لأنكم تمارسون من

(١) انظر: (عيسى يبشر بالإسلام) للبروفيسور الهندي الدكتور محمد عطاء الرحيم، والذي ترجمه إلى العربية
الدكتور فهمي الشما، فقد ذكر فيه مؤلفه الفرق النصرانية الموحدة القديمة، وتحدث في فصل كامل عن أعلام
الموحدين في النصرانية، استوعب فيها أسماءهم وتراجهم وكتاباتهم ودلائلهم على التوحيد وأحوالهم وما لاقوه من
اضطهاد ومحاربة في سبيل عقيدتهم.

أساليب التعظيم ما تغطون به التاريخ والجغرافية وكل ما لا تريدون ظهوره.

ألم تظهر عدة فرق في القرون المسيحية الثلاثة الأولى كانت تنكر التثليث والتجسد وتأليه المسيح.. أليس من هذه الفرق فرقة الأيونيين، وفرقة الكاريتشانيين، وفرقة الباسيليديين وفرقة الكاربوقراطيين، وفرقة الهيبسيستاريين، وفرقة الغنوصيين؟

قلت: هذه فرق هرطقة.. وهي محرومة من بركات الكنيسة مطرودة من طريق الرب.

قال: أنتم الذين حرمتموها.. أنتم الذين تجلسون على عرش المحكمة الإلهية لتدينوا من تشاءون إدانته، وتقربوا من تشاءون تقريبه.

أنتم الذين أدنتم بولس الشمشاطي، الذي كان بطريركا في أنطاكية، وواقعه على مذهبه التوحيدي الخالص الكثيرون ممن عرفوا بالفرقة البوليقيانية.

وأنتم الذين أدنتم آريوس أسقف كنيسة بوكاليس في الإسكندرية (٢٥٠ - ٣٣٦ م)، والذي صار له ألوف الأتباع ممن عرفوا بالآريوسيين.. وقد بقي مذهبهم التوحيدي حيا لفترات زمنية طويلة.. بل صار آريوس علما للتوحيد، حتى أن كل من جاء بعده إلى يومنا هذا ممن ينكر التثليث وإلهية المسيح، تصمونهم أنتم رجال الكنيسة الرسميون بأنه آريوسي.

وأنتم الذين أدنتم يوزيوس النيقوميدي أسقف بيروت، الذي نقل لنيقوميديا عاصمة الإمبراطورية الشرقية، وكان من أتباع لوسيان الأنطاكي وقد كان من أصدقاء آريوس.

قلت: أنت تتحدث عن تواريخ بائدة لا ندري صحة ما نقل منها، فكيف تريد أن تخرق بها الإجماع المسيحي؟

قلت: لقد ذكرت لك أنه لم يخل يوم من أيام المسيحية من الموحدين..

ألا تعرف الطبيب الأسباني ميخائيل سيرفيتوس (١١٥١ - ١٥٥٣) الذي تأثر بحركة الإصلاح البروتستانتية، ولم يكتف بذلك، بل خطا في الإصلاح خطوات جذرية وجريئة،

فأعلن بطلان عقيدة التثليث ورفض ألوهية المسيح، بل كان يسمى الثالث بـ (الوحش الشيطاني ذي الرؤوس الثلاثة).. ولم يكتف بذلك، بل قام بحركة نشطة في الدعوة إلى التوحيد الخالص.

أما أنتم فقد اهتمتموه كعادتكم بالهرطقة، بل واعتقلتموه، ثم أعدتموه حرقاً.. لكنكم لم تستطيعوا إعدام أفكاره وكتابات التي انتشرت في وسط وشرق أوروبا، وصار لها عشرات الألوف من الأتباع والمؤيدين.

ألا تعرف القسيس الروماني فرانسيس ديفيد (١٥١٠ - ١٥٧٩) الذي صار أسقفا كاثوليكيا، ثم اعتنق البروتستانتية، ثم وصل في النهاية للتوحيد الخالص، فأبطل التثليث، ونفى ألوهية المسيح.. وقد كان لأفكاره تأثيرها الاجتماعي، فتأسست على أساسها فرقة من الموحدين في بولونيا والمجر (هنغاريا) وأثرت أفكاره حتى في ملك هنغاريا الذي أصدر بيانا أمر فيه بإعطاء الموحدين حرية العقيدة؟

ألا تعرف اللاهوتي الإيطالي فاوستو باولو سوزيني (١٥٣٩ - ١٦٠٤) الذي اشتهر باسم سوسيانوس.. لقد نشر كتابا إصلاحيا ينقد عقائد الكنيسة الأساسية من تثليث وتجسد وكفارة وغيرها، ثم توصل للتوحيد الخالص، وأخذ يؤكده عليه في كتاباته ورسائله؟ ولم يبق الأمر محصورا في شخصه وكتابات، بل إن تعاليمه انتشرت في كل مكان، وعرف مذهبه اللاهوتي باسم (السوسيانية).. أما أنتم فتسمون أتباعه (الآريانيين الجدد)، أي أتباع مذهب آريوس القديم، وكأنكم بذلك تحيون مذهب آريوس من حيث لا تشعرون.

أما موقفكم منه، فأنت تعرفه، لقد عرضتم أتباع السوسيانية لاضطهاد وحشي منظم منذ عام ١٦٣٨، بل أحرقتهم الكثير منهم أحياء.. أو على الأقل حرمتهم حقوقهم المدنية،

وحرقت كتبهم.

سكت قليلا، ثم قال: ألا تعرف القسيس البريطاني ثيوفيلوس ليندسي (١٧٢٣ - ١٨٠٨) الذي كان منظم أول جماعة مصليين موحدة في إنجلترا، وكان يؤكد أنه ليست الكنائس فقط مكان عبادة الله، بل للإنسان أن يختار أي مكان لأداء الأدعية والصلوات لله وحده فقط؟

ألا تعرف القسيس والعالم البريطاني جوزيف بريستلي (١٧٣٣-١٨٠٤) الذي أثار كتابه (تاريخ ما لحق بالنصرانية من تحريفات) نائرة أتباع كنيستكم الرسمية، فأمرتم بإحراقه فيما بعد؟

هذا غيظ من فيض من الرجال والجماعات التي خرقت ما تزعمه من إجماع مسيحي.. أم أن كل هؤلاء لا محل لهم عندكم؟ صمت لأترك له فرصة أخرى للحديث.. فقد كانت أحاديث المرتدين التي ينفر منها من أعرفهم من رجال الدين المسيحي تملؤني بقوة عجيبة.

واصل الرجل حديثه قائلا: ارجع إلى دوائر المعارف البريطانية والأمريكية الشهيرة حول المسيح وتاريخ تطور العقيدة النصرانية والأنجيل، وستجد أن الغالبية العظمى من هؤلاء المفكرين والكتّاب العصريين لا ترتاب في كون غالب العقائد المعقّدة للكنيسة النصرانية، لا سيما التثليث والتجسد والكفارة والأقانيم.. ما هي إلا تعبيرات فلسفية بعيدة عن رسالة المسيح التي لم تكن إلا رسالة توحيدية أخلاقية بسيطة.

ولم يبق إلا القليل جدا من المفكرين ودكاترة اللاهوت وأساتذة علم الأديان الغربيين ممن لا يزال يرى أن عقائد الكنيسة الرسمية تمثل بالضبط نفس تعاليم المسيح وتعكس حقيقة رسالته.

وليس الأمر قاصرا على هؤلاء الباحثين.. بل إن هناك فرقاً نصرانية جديدة انشقت عن الكنيسة، خاصة في الولايات المتحدة الأمريكية، وهي تتفق على إنكار إلهية المسيح وإنكار التثليث ورفض فكرة: الله - الإنسان، وتنتظر لبنوة المسيح لله على معنى مجازي لا حرفي، ولا أظنك تجهلها.. ولا أظنك تجهل ما تمارسون ضدها من حروب..

وأنا مع أيّ أختلف كثيراً مع هذه الفرق إلا أنني أفند بها الإجماع الذي تزعمه..
إن لهؤلاء - حضرة الحبر - من العقل ما لكم، ولهم من الكتب المقدسة نفس ما تؤمنون به.. فكيف لم يفهموا منها ما فهمتموه من العقائد؟

قلت: وهل تظن أن كل أولئك الفحول من رجال الدين الذين اجتمعوا في نيقية أقل عقلاً من هؤلاء؟

قال: أنا لا أتهمهم في عقولهم.. بل لولا عقولهم ما استطاعوا أن يحوروا المسيحية إلى السبيل الذي أرادوه.

سأنقل لك هنا بعض ما نقله سعيد بن البطريق، وهو يتحدث عما حدث في المجمع الثالث حيث اجتمع الوزراء والقواد إلى الملك وقالوا: إن ما قاله الناس قد فسد، وغلب عليهم (آريوس) و(اقدانيس) فكتب الملك إلى جميع الاساقفة والبطارقة، فاجتمعوا في القسطنطينية، فوجدوا كتبهم تنص على أن الروح القدس مخلوق، وليس بإله، فقال بطريق الاسكندرية: ليس روح القدس عندنا غير روح الله، وليس روح الله غير حياته، فإذا قلنا إن روح الله مخلوقة، فقد قلنا إن حياته مخلوقة، وإذا قلنا حياته مخلوقة، فقد جعلناه غير حي وذلك كفر.

واستحسن الجميع هذا الرأي مع هزالته وبساطته وراحوا يلعنون آريوس ومن قال بقولته هذه، وأثبتوا أن: (روح القدس إله حق من إله حق ثلاثة أقانيم بثلاثة خواص)

لست أدري كيف خطر على بالي نصوص من القرآن الكريم تتحدث عن روح القدس ونسبته لله، فقلت: ولكن القرآن كتاب المسلمين المقدس الذي تؤمن به ينسب الروح إلى الله؟

قال: أجل.. لقد قال تعالى: ﴿فَاتَّخَذَتْ مِنْ دُونِهِمْ حِجَابًا فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا﴾ (مريم: ١٧)، وقال: ﴿وَمَرْيَمُ ابْنَتْ عِمْرَانَ الَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا ذِكْرٌ وَإِسْمٌ عَظِيمٌ﴾ (التحریم: ١٢)

وقال يبين العقيدة الحقّة في المسيح، وينقد العقائد المنحرفة: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَا تَقُولُوا ثَلَاثَةٌ انْتَهُوا خَيْرًا لَكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهُ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَنْ يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَى بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ (النساء: ١٧١)

وبمثل ذلك ورد قوله ﷺ: (من شهد أن لا إله الا الله وأن محمدا رسول الله، وأن عيسى عبد الله ورسوله وابن امته وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه، وأن الجنة حق والنار حق، وأن البعث حق أدخله الله الجنة على ما كان من عمل من أي أبواب الجنة الثمانية شاء)^(١)

قلت: فقد نسب المسيح إلى كلمة الله وروحه.. ونحن لا نقول إلا هذا.
قال: لا.. أنتم لا تقولون هذا.. أنت تقولون بالوهمية المسيح أو كونه أحد أقانيم الألوهية.. أما هذه النصوص فتضيف كلمة روح القدس، وروح منه إلى الله ليس لاتحادها

(١) رواه البخاري ومسلم.

به، وانما نسبة تشریف.. فهي إضافة تشریف، وليست إضافة تبعيض، ألم تقرأ قوله تعالى: ﴿وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةٌ فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أََرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمْسُوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذْكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (الأعراف: ٧٣)، وقوله: ﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ (الشمس: ١٣)

أم أنك ترى أن هذه الناقة أقنوم جديد يمكن إضافته إلى أقانيم الألوهية؟

قلت: لا بأس.. لن أجادلك في هذا.. ولا يعنيني ما يقول كتابكم.. عد بنا إلى ما كنا فيه.. لقد ذكرت لي أن أولئك الذين اجتمعوا في المجمع ليقرروا العقيدة التي نؤمن بها كانوا مخطئين.. فمن أين استنبطوا تلك العقيدة إذن، ومن أين افترضوا إن لم يكونوا قد فهموها من الكتب المقدسة التي ورثوها؟

قال: لقد مكثت أدرس سر هذا فترة طويلة بموضوعة وحياد، وقد كانت هذه الدراسة سر اهتدائي للإسلام، أو سر معرفتي لحقيقة المسيحية التي لا تختلف عن الإسلام.. أو سر معرفتي للتشويه الذي تعرضت له المسيحية.

قلت: فإلام اهتديت؟

قال: إلى أربعة أمور.. ما أصابت دينا من الأديان إلا وحادث به عن سواء السبيل.

قلت: فما هي؟

قال: أولها انحراف أهل الدين عن السنن التي جاءهم بها أنبيأؤهم إلى بدع محدثات نقلوها من الأمم المختلفة، أو تسربت إليهم من الأمم المختلفة، أو أرادوا بها أن يرضوا أهل الملل المختلفة.

قلت: والثاني؟

قال: تحريف الأتباع لأديانهم إرضاء لأهوائهم.

قلت: والثالث؟

قال: تسلط الحكام وتدخلهم في الدين.

قلت: والرابع؟

قال: اتباع الأتباع للمتشابهات، وهجرهم للمحكمات، فنسخوا المحكم بالمتشابه، وعطلوا المحكم واتبعوا المتشابه.

قلت: فحدثني عما عرفته من انطباق هذه الأربعة على ما ندين به من دين.. ولنبدأ بأولها.

قال: أولها هو اتباع سنن المنحرفين من أهل الديانات المختلفة تأثراً بهم.. لقد أشار القرآن الكريم إلى هذا المعنى، فقال: ﴿وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَى قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَى أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾ (لأعراف: ١٣٨)

قلت: لا يعني ما يقول قرآن المسلمين.. بل تعيني الحقيقة الموضوعية المجردة.

قال: القرآن يذكر سنن الحقائق.. ولا يمكن أن تفهم الحقائق إلا في ظلال سننها.

قلت: حدثني عما فعل قومي مما ذكرته من اتباع الأديان الأخرى؟

قال: لقد بلغ من تأثر المسيحية بالديانات الأخرى في عقيدة التثليث أن تاريخ ولادة المسيح عُمر مراراً إلى إن استقر يوم ٢٥ ديسمبر، وهو اليوم الذي كان المصريون يحتفلون فيه بمولد مخلصهم (حورس)، وهو نفس اليوم الذي كان الفرس يحتفلون فيه بميلاد (مترا)، كما كان هذا اليوم أحد الأعياد الدينية المماثلة في الدولة الرومانية وتخالف الكنيسة الشرقية الكنيسة الغربية في ذلك فتجعل يوم ميلاد المسيح اليوم السابع من يناير. وقد كان المصريون يعتقدون أن (حوريس) ولد من الإله الأعظم (أوزوريس)

والعذراء (ايزس)، كما أن الرومان كانوا يعتقدون أن الإله (جوبيتر) أنجب (بريسوس) من العذراء (داناي) وأنجب (ديونيسيس) من العذراء (سيميل) وأنجب (هرقل) من العذراء (ألكمين).. أما في الهند فقد ولد كيرشنا في كهف بينما كانت أمه العذراء وخطيبها هاريين من غضب الملك.

بالإضافة إلى هذا، فإن تأليه بعض المخلوقات من البشر وغيرهم قديم جداً.. ولا يزال يوجد بين البدائيين من عبدوا قوى الطبيعة ومنهم من عبد الشمس والقمر والكواكب الأخرى، وتاريخ الأديان غاص بهذا المظاهر:

ألم تسمع بالطوطم والتابو وعبادة الأجداد والأشجار وأثار الموتى؟
ألم تسمع بالآلهة اليونانيين الذين كانوا يختصمون، ويحقد بعضهم على بعض ويدبرون المكائد، وتشيع بينهم الأحقاد، ولم يكن لهم حظ من الألوهية إلا أنهم لا يموتون.
ألم تسمع بأسطورة إيزيس وأوزوريس وحوريس التي ولدت في مصر، وقد كانت معروفة ومشهورة.. ولعلها كانت بداية التثليث؟

ألم تسمع بتلك الأساطير التي كانت تجعل الناس يعتقدون أن دماء الآلهة سرت في شرايين الملوك فراحوا يؤلهونهم ويعبدوهم، وكان الملوك حريصين على نشر مثل هذه العقائد فهي السند الكبير لاستبدادهم؟

ألم تسمع بروميولس وريميوس، اللذين وجدا في الصحراء، وحتت عليهما ذئبة فأرضعتهما، ومات ثانيهما وبقي روميولس، فلما نما وترعرع أسس مدينة روما، ومنه جاء ملوكها - كما يعتقدون - وقد أضفى ذلك عليها طابع القداسة، فهي مدينة مقدسة، وملوكها من سلالة الآلهة.. وقد ظل الناس يعبدون الملوك الرومانيين، فلما ظهرت المسيحية حاربوها حرصاً على مجدهم حتى كان عصر الأمبراطور البيزنطي قسطنطين الذي وجد

أن تيار المسيحية أصبح عنيفا وأقوى من أن يحارب، فاعلن المسيحية ديناً رسمياً لدولته، ولم يكن كثير من الناس مستعدين لقبولها، فأجبرهم عليها بالتعذيب والقتل، وأريقت دماء كثيرة في سبيل ذلك مما ولد النفاق الذي يحرف الأديان.

قلت: سمعت بكل هذا.. ولكن كيف تقارن تلك الديانات الوثنية بالمسيحية.. أترى المسيحية امتداداً للوثنية؟

قال: لا.. حاشا لله.. وقد كان قرآننا وديننا أكثر احتراماً لكم.. بل إنه اعتبر إلهكم هو إلهنا، فقال تعالى: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ (العنكبوت: ٤٦)

وهو لا يدعوكم إلا للتخلص من الشرك الذي دنستم به قداسة الإله، قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُولُوا اشْهَدُوا بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ (آل عمران: ٦٤)

ولكنني مع ذلك لا أنفي ولا أستطيع أن أنفي تأثركم بتلك الوثنيات، وسأبرهن لك ذلك بما شئت من البراهين.

أصخت بسمعي لأسمع ما يقول.. فقد كان لحديثه من العذوبة والقوة ما يأسر السامعين.

قال: سأقول لك شيئاً لعلك تخالفني فيه.. لكن الأدلة كلها تقف معي..

أنت تعرف مدرسة الإسكندرية، وتعرف أنها المدرسة التي اضطلعت بدرس الفلسفة اليونانية ونشرها.. لقد ازدهر فيها الفكر اليوناني مدة طويلة، فلما ظهرت المسيحية وجدت في هذه المدرسة تراثاً وثنياً لم تستطع أن تتخلص منه، بل سيطر هو على المسيحية.

صحت فيه: ما الذي تقوله؟

قال: اصبر علي.. أرى أنك تريد أن تعرف السبب الذي جعلني أومن بالآله الواحد بدل الأقانيم الثلاث.. فاصبر علي..

هدأت، فواصل حديثه، قائلاً: لقد حارب أباطرة الرومان عبادة إيزيس وشق عليهم إيمانها حتى إننا نجد أحد عشر امبراطورا يقيمون على حربها، ومع ذلك لم تمت، وإنما ظهرت في صورة أخرى واسم آخر.. لقد ظهرت في عبادة ديمتر يونانية ورومانية، وامتزجت بعبادة (مثرا) وأخذوا لها صورة الأم الحانية، فرسموها تحتضن وليدها في مظهر ينم عن الحنان والبر من الأم والبراءة والطهارة من الطفل.. وهذه الصورة بكل ما فيها هي الصورة التي ترسمونها للسيدة مريم العذراء وهي تحمل طفلها المسيح.

بدا على وجهي بعض السكون الذي نشره حديثه في نفسي، فشجعه ذلك، فراح يقول: لقد كان الناس - كما يذكر كارليل في كتاب (الأبطال وعبادة الأبطال) - يعظمون البطل، ويعظمون أمه وأباه، فجاءت عقيدة التثليث بهذا، وظل الناس يخلعون على الأبطال صفات الآلهة، إعجابا بهم وتعظيما لهم، ولهذا نهى القرآن الكريم عن الغلو في المسيح، لأن الغلو فيه هو سر تأليهه، فقال تعالى: ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلَا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء: من الآية ١٧١)

ولهذا أخبر القرآن الكريم أن جميع الرسل ركزوا على صفة البشرية فيهم، قال تعالى: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِنْ نَحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَمَا كَانَ لَنَا أَنْ نَأْتِيَكُمْ بِسُلْطَانٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ (ابراهيم: ١١)

وقال معلما محمدا ﷺ ماذا يقول لقومه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ

إِلَهُ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ ﴿ (فصلت: ٦)

ولهذا كان ﷺ ينهى أن يسلك معه ما سلك مع المسيح ﷺ من الغلو المؤدي إلى التآليه، فقال: (لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، فانما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله) (١)

وقد كان ﷺ يتشرف بتلقيه بعبد الله.. وقد ذكر له القرآن الكريم هذا اللقب في أشرف المواضع، قال تعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَى عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجًا ﴾ (الكهف: ١)، وقال: ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ (الفرقان: ١)

كان يقرأ هذه الآيات بصوته الجميل، فأجد لها من العذوبة ما لا أستطيع وصفه. قلت: أترى أن عبادة إيزيس هي التي انتقلت إلينا، أو هي التي تحولت إليها المسيحية؟ قال: أنا لا أقول ذلك.. ولكني أقول: إن المسيحية بمعتقداتها الشركية هذه لا تختلف عن تلك العبادة.. بل لا تختلف عن عبادات أخرى قد تكون أثرت فيها.. أو هي على الأقل تدل على نزعة بشرية معينة لعبادة البشر والأبطال من البشر. قلت: لا بأس.. دعنا من هذا.. فليس لدي الوقت لأجادلك فيه.. وحدثني عن السبب الثاني.

قال: السبب الثاني هو تحريف الأتباع.. لقد درست المسيحية دراسة متأنية، فوجدتها قد عزلت كتابها المقدس، واتبعت بدعا كثيرة لا علاقة لها بالكتاب المقدس. قلت: كيف تقول هذا.. والكتاب المقدس هو الكتاب الذي نأوي إليه، ونستنبط منه،

(١) رواه البخاري.

ولا نصلي إلا بتريله والتبتل به.

قال: ليس الشأن في ذلك إنما الشأن في الاتباع لا الابتداع.

قلت: وهل وقعت البدعة في ديننا؟.. لعلك تقصد الهرطقات التي ظهرت؟

قال: لا.. لقد نسخ دينكم نسخا كلياً بالبدع.. أخبرني: أليست المسيحية هي دين

المسيح؟

قلت: بلى.. وليس في ذلك شك.

قال: ما دامت المسيحية دين المسيح.. فما بال بولس؟.. ولم يأخذ النصيب الأوفر

فيها؟

كان هذا السؤال صدمة كبيرة لي.. ولم يكن لي مناص من الاحتياال للإجابة عنه،

فقلت: كلاهما واحد.. المسيح شمس، وبولس شعاع من أشعتها، ولا بد لمن أراد أن يستنير

بالشمس من التعرض لأشعتها.

قال: فإذا تناقضت الأشعة مع الشمس.

قلت: يستحيل ذلك.

قال: فقد حصل هذا بين المسيح وبولس.

قلت: أنت لم تفهم.. التناقض قد ينتج بسبب سوء الفهم.. فمع ما لبولس من الأهمية

في تقرير عقائدنا وشرائعنا إلا أنه لم يدع شيئا لنفسه، بل كان أعظم المضحين لأجل

المسيحية، وقد كان لتضحيته وجهوده تأثيرهما الكبير في نشر المسيحية.. فلو لا بولس

لماتت المسيحية في مهدها.

ولهذا أجمعت جميع طوائف النصارى المنتشرة في جميع أنحاء العالم على أنه واحد

من أهم الإنجيليين على الإطلاق.. لقد سافر إلى أماكن عدة يبشر بالنصرانية وينشرها بين

غير اليهود حتى عرف بين اللاهوتيين باسم: (رسول الأمم)^(١)

قال: أصحاب الدين الحق يحرسون على صفاء الدين أكثر من حرصهم على انتشاره.. ولكن حرصكم أو حرص بولس على نشر المسيحية، ولو بالتضحية بمبادئها جعل المسيحية ديناً مختلفاً.

قلت: لكن كلام بولس الموثق في رسائله لا يخرج عن كلام المسيح.

قال: ولم لا تقول بأنه الذي وجه الكتاب المقدس ليتفق مع آرائه؟

قلت: كيف تقول هذا.. هذا يحتاج إلى أدلة.

قال: أنت تعلم أنه من بين السبعة وعشرين سفراً من كتاب العهد الجديد لبولس منها أربعة عشر، وفيها فقط تجد العديد من العقائد النصرانية.

ألا تعلم أن دائرة المعارف الفرنسية تنسب إليه كلا من إنجيلي مرقس ولوقا وسفر أعمال الرسل؟

ألا تعلم أن الكثير من المفكرين يجعلونه مؤسس المسيحية وواضع عقائدها؟.. لقد كانت رسائله أول ما خُط من سطور العهد الجديد، ولهذا جاء متناسقاً إلى حد كبير مع رسائل بولس لا سيما إنجيل يوحنا.

ألا تعلم أن الكنيسة رفضت كل الرسائل التي تتعارض مع مسيحية بولس التي طغت على ما نادى بها المسيح وتلاميذه من بعده؟

إن الأثر الذي تركه بولس في النصرانية عميق جداً.. وهذا ما دعا الكاتب الأمريكي مايكل هارت أن يجعل بولس أحد أهم رجال التاريخ أثراً، وذلك في كتابه المعروف

(١) الأمم : مصطلح عرف به في الكتاب المقدس غير اليهود.

(المائة: تقويم لأعظم الناس أثرا في التاريخ)

وقد خلت قائمة مايكل هارت من تلاميذ المسيح الذين غلبتهم دعوة بولس مؤسس النصرانية الحقيقي، فلم يعد لهم تأثير على المسيحيين مثله.

قلت: أنا لا يعني كل ما يقول هؤلاء.. بل تعيني الكتب والأسفار.. فهي الموضوع الذي يمكن أن نحقق فيه.. أما آراء الناس.. فلا يمكن الاعتماد عليها وحدها.
قال: لا بأس.. ألا ترى فرقا بين الأناجيل التي تؤرخ للمسيح، وبين الرسائل التي خلفها بولس؟

قلت: في أي شيء ترى أنت هذا الفرق؟

قال: لا أراه وحدي.. بل يراه كل قارئ للعهد الجديد.. إن المسيح من خلال الأناجيل يركز على المبادئ الأخلاقية للمسيحية، وعلى النظرة الروحية لها، وعلى ما يتعلق بالسلوك الإنساني، وهو نفس ما لخصه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَا حِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ وَجِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا أَمْرًا﴾ (آل عمران: ٥٠)، وقوله: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ﴾ (المائدة: ٤٦)

قلت: وبولس.. بماذا جاء؟

قال: جاء بدين يختلف تماما عن الدين الذي جاء به المسيح.. سواء في العقيدة أو الشريعة.

لقد انقلب بولس انقلابا كلياً على المسيح، ولم يترك للمسيح إلا تلك الهالة من الخرافات التي نسجها حوله.

قلت: لا ينبغي الحديث عن القديسين بهذا الأسلوب.. وقد أتحت لك فرص الحوار لنبحث عن الحقيقة.. أو لنبحث عن الشبه التي جعلتك ترتد عن المسيحية.. ولا آذن لك في المساس بالقديسين.

قال: لا بأس.. وأنا لا أريد أن أمسه بسوء.. ولكن لا ينبغي لمن يريد أن يبحث عن حقيقة المسيحية أن يغفل عن بولس.. فهو ركن من أركان التشويه الذي غير المسيحية تماما.

تصور لو أن بولس لم يظهر في المسيحية كيف كانت تكون؟
سكت، فقال: إن أردت الحقيقة، فالله أعظم من أن ننحجب عنه بأي شخص من الناس قديسا كان أو منحرفا.. ألا ترون المسلمين كيف يدعونكم بصدق وإخلاص لدراسة نبيهم، ويضعون بين أيديكم كل الوثائق لتعرفوا الحقيقة.
هزني حديثه، فقلت: ونحن أيضا لم نمنع أحدا من دراسة كل قديسينا، بل من دراسة المسيح.. وها هي كتبنا تنتشر بكل اللغات.

قال: فاعزل تلك القداسة التي تحجب عقلك عن الحقيقة، وتعال ندرس بولس دراسة متأنية.. فمن عرف أسرار بولس عرف أسرار المسيحية، ومن عرف أسرار المسيحية عرف أسرار الإسلام.. فلم أر في المسيحية من يقف بينها وبين الإسلام كما يقف بولس.
قلت: لا بأس.. فلنحقق تحقيقا بوليسيا مع بولس.

قال: ما دمت قد قلت هذا، فستحدث عن بولس.. فقد درسته دراسة متأنية، وهو ظاهرة توجد في كل الأديان.. وهي السبب الأكبر في تحريفها.. وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الظاهرة في قصة السامري الذي ادعى أنه قبض من أثر الرسول ما لم يقبض غيره، واسمح لي أن أقرأ لك من كتابنا ما يؤكد لك أن بولس ليس إلا سامري المسيحية.

ثم انطلق يرتل من غير أن ينتظر إذنا مني.. وقد صادف ذلك هوى في نفسي، فتركته على سجيته.

قال: لقد قال تعالى يحكي قصة السامري، ومحاولته تحريف دين الإسلام الذي جاء به موسى: ﴿وَمَا أَعْجَلَكَ عَنْ قَوْمِكَ يَا مُوسَى﴾ (٨٣) قَالَ هُمْ أُولَاءِ عَلَى أَثَرِي وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى (٨٤) قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلَكِنَا وَلَكِنَّا حُمَلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خَوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَى فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَى (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَبْنَؤُمْ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَآئِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَى إِلْهِكَ الَّذِي ظَلَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلُّ شَيْءٍ عِلْمًا (٩٨) ﴿طه﴾

ثم قال: لو أنك استبدلت اسم السامري باسم بولس، فستجد المعنى يكاد يكون صحيحا.

قلت: ولكن بولس لم يدعنا إلى عبادة العجل.

قال: هو دعاكم إلى عبادة الخروف.. أستم تكونون عن المسيح بالخروف^(١)؟.. أستم

تذكرونه في صلواتكم أنه خروف وحمل وشاة؟

سكت، فقال: ألم يعتبر السامري موسى ناسيا قد نسي أن يعرفهم بربهم، فجاء هو

ليفعل ذلك؟

ثم أجاب نفسه: نعم.. الآية صريحة في ذلك.. وهو ما فعله بولس عندما اخترع لكم

عبادة المسيح.

ثم سأل: ألم يدع بولس أنه رأى ما لم تروا؟

لم أدر كيف نطقت مع أي كنت أوثر الصمت، فقلت: بلى.. لقد رأى المسيح بعد

رفعه بسنوات، فبينما هو ذاهب إلى دمشق في مهمة لرؤساء الكهنة تجلى له المسيح دون

القافلة التي كان يسير معها، وفي ذلك التجلي منحه منصب الرسالة.. وكان مما قاله له:

(ولكن قم وقف على رجلك لأني لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادما وشاهدا بما رأيت وبما

سأظهر لك به منقذا إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا الآن أرسلك إليهم لفتح عيونهم

كي يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي غفران

الخطايا ونصيبا مع المقدسين) (أعمال ٢٦/١٦-١٨)

قال: هو نفس ما قال السامري، لقد قال: ﴿بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ

أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلْتُ لِي نَفْسِي﴾ (طه: ٩٦)

^(١) يرد في الكتاب المقدس التعبير عن المسيح بأنه خروف ومن أمثلة ذلك رؤيا يوحنا اللاهوتي - والذي شكل

مع بولس ثنائي التحريف في المسيحية - فهي مليئة بذلك منها على سبيل المثال الإصحاح ٥ عدد ٦، ١٧ عدد ١٤، ٥

عدد ١٣، ٢١ عدد ٢٢، ٧ عدد ٩، ١٩ عدد ٧.

ثم سأل: ألم ينسخ بولس الشريعة التي لم يعجزو المسيح على نسخها؟
سكت، فقال: بلى.. فعل ذلك.. وهو نفس ما فعله السامري.
ولكن اليهود الذين عبدوا العجل من الله عليهم إذ عاد موسى سريعا لينقذهم..
ولكنكم لا زلتم في انتظار المسيح الذي يخلصكم من السامري..
قد قال أصحاب موسى الذين عبدوا العجل: ﴿قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّى يَرْجِعَ
إِلَيْنَا مُوسَى﴾ (طه: ٩١).. وهو نفس ما تقولون.. فكم من الأجيال ستبقى على الضلالة
حتى ينزل المسيح.
كسرت حجاب الصمت، فقلت: دعنا من مقارناتك.. نريد أن نعرف شخصية بولس
من خلال الكتاب المقدس لا من خلال كتاب محمد.. فلو كنت أو من به ما جلست معك
هذا المجلس.
قال: لا بأس.. أجبني هل كان بولس من الحواريين الإثني عشر؟
قلت: لا.. لم يكن بولس من صحابة المسيح.
قال: لم يكن من صحابة المسيح.. ولم يكن شاهداً على أحداث بعثته، ولكنه مع ذلك
تمكن بمفرده من تأسيس المسيحية، بل إن المسيحية اليوم تنسب إليه، فيقال: مسيحية
بولس.
قلت: لا يهم كل ذلك، فالفضل للصدق لا للسبق.
قال: لا بأس سنعود للكتاب المقدس لنعرف منه مدى صدق بولس.
هزني كلامه.. فبولس يعطي صورة سيئة عن نفسه في الكتاب المقدس، ومع ذلك
تمنيت أن أسمع منه هو ما لم أطق أن أصرح به أنا.
قال: أنت تعرف جيداً ماضي بولس... لقد كان أول ذكر لبولس في علاقته بالمسيحية،

هو شهوده محاكمة وقتل إستفانوس أحد تلاميذ المسيح، وكان ذلك حوالي عام ٣٧ م، وبولس يذكر أنه كان راضياً عن قتله، كما جاء في سفر الأعمال: (وأخرجوه خارج المدينة ورجموه. والشهود خلعوا ثيابهم عند رجلي شاب يقال له شاول. فكانوا يرمون استفانوس وهو يدعو ويقول: (أيها الرب يسوع اقبل روحي). ثم جثا على ركبتيه وصرخ بصوت عظيم: (يا رب لا تقم لهم هذه الخطية. وإذ قال هذا رقد. وكان شاول راضياً بقتله) (اعمال ٧/٥٨-٨/١)

ثم ظل يهوديا معاديا للمسيحية، بل كان يشارك في تعذيب المسيحيين الأوائل؛ كما جاء في سفر الأعمال عن اضطهاد بولس للكنيسة: (وأما شاول فكان يسطو على الكنيسة وهو يدخل البيوت ويجر رجالا ونساء ويسلمهم إلى السجن) (أعمال: ٨/٣) قلت: لا حرج في هذا.. فيمكن للشخص أن يتحول من أعدى الأعداء إلى أصدق الأصدقاء.

قال: أنا لا أحجر عليه هذا.. ولكنني أتعجب كما يتعجب الكل من تحول هذا العدو اللدود للمسيح فجأة.. لا إلى نصير للمسيح.. بل إلى رسول.. بل إلى منظر للمسيحية. إن سفر الأعمال يذكر هذا التحول المفاجئ لبولس، وانقلابه دون مقدمات تقدمت هذا الانتقال ولا تمهيدات مهدت له.

قلت: لا.. بل كانت هناك مقدمات..

قال: لا بأس.. فلنقبل كل هذا.. ولنعتبره صادقا في دعواه.. ولكن كيف يصبح هذا في لحظة واحدة هو منظر المسيحية الأول.. ويصبح كلامه بعد ذلك كلاما ملهما معصوما ينسخ كلام المسيح نفسه.

قلت: لا مانع من ذلك.. ففضل الله إذا تجلى لشيء حوله من حال إلى حال..

قال: هكذا أنتم معشر المسيحيين.. لا هم لكم إلا الغلو.. غلوتم في المسيح، فحولتموه إليها.. وغلوتم في بولس - الذي هو في أحسن الأحوال تائب تاب الله عليه - فلم تجعلوه وليا، بل جعلتموه رسولا ملهما.

أخبرني.. أكل رسائله وحي يوحى، وإلهام مقدس؟
لم أملك إلا أن أجيب بالإيجاب، مع أنني أعلم أن فيها لغوا كثيرا لا علاقة له بالكتاب المقدس.

قال: ألم تقرأ ما قال في رسالته الثانية إلي صديقه تيموثاوس (٤: ٩).. فقد قال له: (بادر أن تأتي إلي سريعا، لأن ديماس، إذ أحب الحياة الحاضرة، تركني وذهب إلى مدينة تسالونيكي. أما كريسيكس، فقد ذهب إلى مقاطعة غلاطية، وتيطس إلى دلماطية ولم يبق معي إلا لوقا وحده خذ مرقس وأحضره معك، فهو ينفعني في الخدمة. أما تيخيكس، فقد أرسلته إلى مدينة أفسس. وعندما تجيء، أحضر معك ردائي الذي تركته عند كاربس في ترواس، وكذلك كتبي، وبخاصة الرقوق المخطوطة)؟

إن هذا الكلام مجرد رسالة شخصية تتعلق بطلب بولس من صديقه الحضور سريعا، وتعلق برداءه الشخصي.. أي عاقل يعتبر هذا الكلام وحيًا من رب العالمين؟!

سكت، فقال: ألم تقرأ رسالته لصديقه تيطس (تي ٣: ١٢) حينما قال له: (حالما أرسل إليك أرتماس أو تيخيكس، اجتهد أن تأتي إلي مدينة نيكوبوليس، لأنني قررت أن أشتي هناك)

هل يمكن أن يصبح قرار بولس أن يشتي في المكان الفلاني وحي من عند رب العالمين؟!

سكت، فقال: ألم تقرأ ما ورد في رسالته الثانية إلى صديقه تيموثاوس (٤: ١٩)، فقد

جاء فيها : (سلم على برسكا وأكيلا، وعائلة أونيسيفورس. أراستس مازال في مدينة كورنثوس. أما تروفيموس، فقد تركته في ميليتس مريضاً. اجتهد أن تجيء إلي قبل حلول الشتاء. يسلم عليك إيوبولس، وبوديس، ولينوس، وكلوديا، والإخوة جميعاً) فهل أصبح سلام الشخص على شخص وإخباره أن فلانا مريضاً وفلانا بقي في المكان الفلاني وحيّاً من الله جل في علاه؟

سكت، فقال: إن هذه النصوص وغيرها تؤكد أن رسائل بولس ليست وحيّاً من الله، إنما هي رسائل متبادلة أدخلت في الكتاب المقدس لتصير وحيّاً قلت: إن المفسرين من القديسين يفهمون من هذه الرسائل رموزاً لست تفهمها أنت ولا أنا.. إنها رموز مقدسة.

قال: فما فائدة الكتاب المقدس إذن إذا صار رموزاً لا يفهمها كل من له طاقة الفهم؟ ومع ذلك.. لا بأس.. وقد تمنيت أن تكون رسائل بولس كلها من هذا النوع.. لأنها لن تضر أحداً.. بل قد تدلنا على نوع الحياة الاجتماعية التي كان يحياها بولس، ويحياها أتباع المسيح.. ولكن الخطر فيما بث فيها من عقائد وسلوك.

قلت: وهل عقائد بولس تختلف عن عقائد المسيح؟

قال: لا شك أن مبادئ اللاهوت تستمد من بولس، لقد قال بعضهم في هذا: (المسيح لم يبشر بشيء من هذا الذي قاله بولس الذي يعتبر المسؤول الأول عن تأليه المسيح) قلت: إن نصوص الكتاب المقدس تمتلئ بما يدل على تأليه المسيح.. ولذلك لا حاجة لبولس ليبين لنا هذا.

قال: لا بأس.. ربما يكون ذلك صحيحاً.. لكن أجبني: ما موقف المسيح حسب

الكتاب الأنجيل من الناموس^(١)؟

قلت: لقد ورد في إنجيل متى: (لا تظنوا أنني جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمل. فإني الحق أقول لكم: إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل) (متى ٥ / ١٧-١٨)
قال: أليس هذا النص صريحا في أن المسيح لا ينقض الأحكام الواردة في التوراة، ولا نبوءة من سبقوه من الأنبياء.

قلت: بلى.. هو صريح في ذلك.

قال: ولكن بولس يخالف المسيح في هذا.. ألم تقرأ قوله - وهو يلقي اللائمة على الناموس - : (فماذا نقول؟ هل الناموس خطية؟ حاشا! بل لم أعرف الخطية إلا بالناموس، فإني لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس (لا تشته) ولكن الخطية وهي متخذة فرصة بالوصية أنشأت في كل شهوة، لأن بدون الناموس الخطية ميتة. أما أنا فكنت بدون الناموس عائشا قبلا. ولكن لما جاءت الوصية عاشت الخطية فمت أنا) (رومية ٧ / ٧-٩)، فهل خلق الله تعالى جسده بلا شهوة، ثم عرفها عندما قرأ في الناموس؟

سكت، فقال: ألم تقرأ قوله وهو يبين سر عدم اهتمامه بالناموس: (لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة، لأنه مكتوب (ملعون كل من لا يثبت في جميع ما هو مكتوب في كتاب الناموس ليعمل به) ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر، لأن (البار بالإيمان يحيا). ولكن الناموس ليس من الإيمان، بل (الإنسان الذي يفعلها سيحيا بها) (غلاطية ٣ / ١٠-١٢)

(١) كلمة أرامية تعني الشريعة.

ألهذه الدرجة صار الإيمان بالكتاب ومباشرة الأعمال الصالحة في عرف بولس لعنة؟
سكت، فقال: ليس هذا فقط.. كل هذا مجرد تمهيد لنقض الناموس الذي لم يتجرأ
المسيح على نقضه.

لقد مهد بولس بكل ذلك لقضية كان يرمي إليها.. كان يرمي أن يوصل مستمعيه إلى
أن كل ما يفعلونه خطيئة ولعنة وحرام، ولن يتبرروا به، بل لن تكون لهم حياة كريمة على
الإطلاق إلا بالإيمان المجرد عن الناموس، واسمع إليه، وهو يقول: (إذ نعلم أن الإنسان
لا يتبرر بأعمال الناموس، بل بإيمان يسوع المسيح، آمنا نحن أيضا بيسوع المسيح، لتبرر
بإيمان يسوع لا بأعمال الناموس. لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما) (غلاطية ٢/١٦)
ولم تكن هذه مجرد دعوة، بل إنه شن حملة في بداية دعوته على الختان باعتباره من
الناموس، واسمع إليه، وهو يقول لأهل روما: (فإن الختان ينفع إن عملت بالناموس. ولكن
إن كنت متعديا الناموس فقد صار ختانك غرلة! إذا إن كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس
أفما تحسب غرلته ختانا؟ وتكون الغرلة التي من الطبيعة وهي تكمل الناموس تدينك أنت
الذي في الكتاب والختان تتعدى الناموس؟ لأن اليهودي في الظاهر ليس هو يهوديا ولا
الختان الذي في الظاهر في اللحم ختانا بل اليهودي في الخفاء هو اليهودي وختان القلب
بالروح لا بالكتاب هو الختان الذي مدحه ليس من الناس بل من الله) (رومية ٢/٢٥-٢٩)
أترى أن هذه التفرقة بين الغرلة والختان وردت بالتوراة أو الأناجيل الأربعة؟
قلت: لقد كان بولس يريد بهذا استمالة الرومان الغلف الذين لا يريدون الدخول في
الديانة خوفا من الختان.

قال: وهنا مبدأ التحريف.. لقد وجدت أن سر التحريف الذي وقع في المسيحية كما
وقع في غيرها هو محاولة استمالة المخالفين.. فالأمر عند بولس بدأ بالختان ونقض

الناموس لكنه انتهى إلى نقض الإيمان نفسه، وتحريف الإيمان نفسه.

بل إن بولس يصرح بهذا.. إنه يصرح بأنه كان يقصد استمالة أهل الأديان المختلفة، ولو بالتخلي عما يتطلبه دينه.. اسمع إليه، وهو يقول: (فإني إذ كنت حرا من الجميع استعبدت نفسي للجميع لأربح الأكثرين. فصرت لليهود كيهودي لأربح اليهود وللذين تحت الناموس كأني تحت الناموس لأربح الذين تحت الناموس وللذين بلا ناموس كأني بلا ناموس - مع أنني لست بلا ناموس لله بل تحت ناموس للمسيح - لأربح الذين بلا ناموس. صرت للضعفاء كضعيف لأربح الضعفاء. صرت لكل كل شيء لأخلص على كل حال قوما. وهذا أنا أفعله لأجل الإنجيل لأكون شريكا فيه) (كورنثوس ٩/١٩-٢٣) بل هو يقول: (فليكن. أنا لم أثقل عليكم. لكن إذ كنت محتالا أخذتكم بمكر) (كورنثوس ١٢/١٦)، فها هو يجيز لنفسه الكذب والإحتيال لكي يأخذ الناس في دعوته. قلت: أنت لا تعرف سر هذا.. فالناموس عندنا نوعان: ناموس الفرائض: وهو الخاص بعلاقة الإنسان مع الله، وتنظمها حسب معتقداتنا: الذبائح الخمسة وهي ذبيحة المحرقة (لاويين ١)، وذبيحة الخطيئة (لاويين ٤)، وذبيحة الإثم (لاويين ٥)، وذبيحة السلام (لاويين ٣)، وتقدمة الدقيق (لاويين ٢)

والناموس الثاني: ناموس الأخلاق: وهو الذي ينظم العلاقة بين الإنسان وأخيه الإنسان، وتنظمها الوصايا العشرة (خروج ٢٠)، وما تبعها من وصايا أخلاقية تتعلق بعلاقة الإنسان بأخيه (لاويين).

وقد قلنا بإبطال ناموس الفرائض لأن المسيح قدم نفسه ذبيحة عن البشر أجمعين، فلا يقدم بعده ذبيحة، في حين لم يبطل النوع الثاني من الناموس.

قال: ولكن المسيح صرح أنه لم يأت لنقض حرف واحد من الناموس.

قلت: ألم تقرأ ما ورد في الإصحاح الثاني عشر من إنجيل متى: (في ذلك الوقت ذهب يسوع في السبت بين الزروع فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا له: (هوذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله في السبت!) فقال لهم: (أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذي لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط؟ أو ما قرأتم في التوراة أن الكهنة في السبت في الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء؟ أقول لكم: إن ههنا أعظم من الهيكل! فلو علمتم ما هو: إني أريد رحمة لا ذبيحة لما حكمتكم على الأبرياء! فإن ابن الإنسان هو رب السبت أيضا)(متى ١٢/١-٨)؟

قال: لا يفهم من هذا النص أن المسيح نقض الناموس.. بل إن المسيح رأى اليهود قد بالغوا في تنفيذ الوصايا دون أن يلتزموا بروح النص، بحيث أنهم لا يأكلون إذا جاعوا يوم السبت.. أو إذا سقطت من أحد اليهود بهيمة في ترعة يوم السبت لا ينقذها.. أو زلت قدم الدابة وانكسرت في يوم السبت لا يداويها.. وهذا كله دون مراعاة باقي الفرائض والوصايا.. وهذا ما أراده بقوله: (إني أريد رحمة لا ذبيحة) ولا يفهم منها أنه ينقض ناموس الفرائض.

سكت، لعلمي بصدقه فيما قال، فعقب يقول: أتدري أثر هذه البدعة في أتباع المسيحية بمختلف فرقهم؟

سكت فواصل يقول: لقد قال مارتن لوتر: (إن الإنجيل لا يطلب منا الأعمال لأجل تبريرنا، بل بعكس ذلك، إنه يرفض أعمالنا.. إنه لكي تظهر فينا قوة التبرير يلزم أن تعظم آثامنا جدا، وأن تكثر عددها)

ويقول في شرحه ليوحنا (١٦/٣): (أما أنا فأقول لكم إذا كان الطريق المؤدي إلى

السماء ضيقا وجب على من رام الدخول فيه أن يكون نحىلا رقيقا.. فإذا ما سرت فيه حاملا أعدالا مملوءة أعمالا صالحة، فدونك أن تلقى عنها قبل دخولك فيه، وإلا لا تمتنع عليك الدخول بالباب الضيق.. إن الذين نراهم حاملين الأعمال الصالحة هم أشبه بالسلاحف، فإنهم أجانب عن الكتاب المقدس. وأصحاب القديس يعقوب الرسول، فمثل هؤلاء لا يدخلون أبدا)

ويرد عندما سئل عن حقيقة الإيمان فيقول: (إن السيد المسيح كي يعتق الإنسان من حفظ الشريعة الإلهية قد تممها هو بنفسه باسمه، ولا يبقى على الإنسان بعد ذلك إلا أن يتخذ لنفسه، وينسب إلى ذاته تتميم هذه الشريعة بواسطة الإيمان، ونتيجة هذا التعليم هو أن لا لزوم لحفظ الشريعة، ولا للأعمال الصالحة)^(١)

ليس هذا فقط.. بل أصبح هم القديسين والمبشرين الدعوة إلى الخطيئة والتحلل من الدين:

يقول ميلا نكتون في كتابه (الأماكن اللاهوتية): (إن كنت سارقا أو زانيا أو فاسقا لا تهتم بذلك، عليك فقط أن لا تنسى أن الله هو شيخ كثير الطيبة، وأنه قد سبق وغفر لك خطاياك قبل أن تخطئ بزمن مديد)

ويقول القس ليب ميخائيل: (الأعمال الصالحة حينما تؤدي بقصد الخلاص من عقاب الخطيئة تعتبر إهانة كبرى لذات الله، إذ أنها دليل على اعتقاد من يقوم بها، بأن في قدرته إزالة الإساءة التي أحدثتها الخطيئة في قلب الله عن طريق عمل الصالحات.. وكأن

^(١) هل افتدانا المسيح على الصليب ؟ - منقذ محمود السقار، ص ١٢٥.

قلب الله لا يتحرك بالحنان إلا بأعمال الإنسان، وياله من فكر شرير ومهين^(١)

قلت: لا بأس.. فلنعتبر الأمر كما ذكرت.. فما السبب الثالث؟

قال: السبب الثالث هو تسلط الحكام من الملوك والأباطرة.. ألا تعلم أن الملوك والحكام لا يدخلون شيئاً إلا أفسدوه، كما قال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (النمل: ٣٤)

قلت: وما علاقة الدين بالملوك.. لقد كان المسيح منزها عن التقرب للملوك.

قال: كان المسيح منزها.. ولكن الرجال الذين وكل إليهم حفظ صفاء المسيحية راحوا يعبثون بها إرضاء لأهواء الحكام.

قلت: هذا الكلام خطير يحتاج إلى إثبات.

قال: اصبر علي.. وسأذكر لك القصة من أولها كما أثبتتها المؤرخون.. بل كما تثبتونها أنتم أنفسكم.

أولاً.. أنت تعلم أن عقيدة الثالوث لم تدخل إلى المسيحية إلا في القرن الرابع الميلادي، حيث تشكلت هذه النظرية بواسطة (أثاناسيوس) وهو راهب مصري من الإسكندرية.

وقد تمت الموافقة عليها في المجامع المسكونية الأولى والثاني، وتشهد دائرة المعارف الفرنسية بأقوال قدماء المؤرخين على ذلك، فيقول جوستن مارستر، وهو مؤرخ لاتيني من القرن الثاني: (إنه كان في زمنه في الكنيسة مؤمنون يعتقدون أن عيسى هو المسيح، ويعتبرونه إنساناً بحتاً، وإن كان أرقى من غيره من الناس، وحدث بعد ذلك أنه

(١) المسيح بين الحقائق والأوهام - محمد وصفي، ص ٦٧.

كلما نما عدد من تنصر من الوثنيين ؛ ظهرت عقائد جديدة لم تكن من قبل ^(١)

فقد كان المسيحيون الأوائل موحدين، وكانت تلك هي تعاليم المسيح وتلاميذه، ولكن بولس - الذي عرفنا أنه أدخل إلى النصرانية معظم العقائد - نادى أولاً بالوهية المسيح، وعارض تلاميذ المسيح ومضى في ترويج أفكاره لأطماع توسعية أرادها.

ويصف بعض المعاصرين لذلك العهد الدور الهام الذي لعبه قسطنطين في تاريخ الكنيسة حين أنشأ (مجمع نيقية) لمعالجة الانقسام الداخلي في الكنيسة، وذلك في عام ٣٢٥ م.. أي بعد المسيح بثلاثمائة سنة.. فقد عمل هذا المجمع على إنشاء (عقيدة نيقية) التي أصبحت فيما بعد (المذهب الأرثوذكسي) للكنيسة..

ففي هذا المجمع اجتمع الأساقفة والبطارقة من شتى الديار ثلاث مرات في زمن قسطنطين، وعدة مرات بعد ذلك، وقرروا ما سموه بالأمانة التي صرّحوا فيها بتثليثهم، ولعن كل من يخالفهم، خصوصاً منهم من كانوا يقولون بعقيدة التوحيد؛ ويبرؤون من ألوهية المسيح، ويقولون بأنه عبد الله ورسوله..

سكت قليلاً، ثم قال: إن شئت التأكد من هذا، فاقراً كتاب (تاريخ الأمة القبطية)، و(نُظُم الجواهر) الذي ألفه ابن البطريق، وحكى فيه تاريخ المجامع.. وهو مسيحي طبعاً..

وكتاب (الروح القدس في محكمة التاريخ) لروبرت كيل تسلر.. فقد ذكر هؤلاء جميعاً أن الامبراطور قسطنطين كان يعلق أهمية كبيرة على تحقيق السلام وتكوين كنيسة واحدة بقدر الإمكان في إمبراطورية واحدة.

لذلك فقد كان ينتقي الأساقفة المنوط بهم الإشتراك في المجمع.. لأنه

^(١) انظر دائرة معارف القرن العشرين، محمد فريد وجدي. (٢٠٢/١٠). نقلاً عن النصرانية من التوحيد إلى

التثليث. د/ محمد أحمد الحاج. ص (٢٢٥)

طوال سنوات كثيرة كان هناك مقاومة - على أساس الكتاب المقدس - للفكرة القائلة أن يسوع هو الله، وفي محاولة لحل الجدل دعا قسطنطين الامبراطور الروماني جميع الأساقفة إلى نيقية ..

بالطبع، لم يكن قسطنطين حينذاك مسيحياً، بل تم تعميده كمسيحي في أواخر حياته.. ولم يتعمد حتى صار على فراش الموت، وعنه يقول هنري تشادويك في كتاب (الكنيسة الباكورة): (كان قسطنطين، كأبيه يعبد الشمس التي لا تقهر واهتداؤه لا يجب أن يفسر أنه اختبار داخلي للنعمة.. لقد كان قضية عسكرية، وفهمه للعقيدة المسيحية لم يكن قط واضحاً جداً، ولكنه كان على يقين من أن الانتصار في المعركة يكمن في هبة إله المسيحين)

ومن الثابت تاريخياً أن قسطنطين قد أدار المؤتمر بصورة واقعية، فقد كان يشعر، بل ويتصرف كرئيس للمجمع.. فكان يأمر الأساقفة بما يجب عمله وما يجب تركه، وقد أعلن في مناسبة أخرى مؤكداً: (إنني أرغب في قانون كنسي)

وقد قبلت الكنيسة كل هذا صاغرة، لذلك أصبح القيصر أسقفها العام (الدولي) المعترف به.. ولم يكن غير قسطنطين الذي أدخل ما تعارف عليه بصيغة (هومسيوس) الشهيرة في قرارات مجمع نيقية وفرضها على الأساقفة المعارضين بإستعمال سطوته

وبالمناسبة فهو لم يكن له تأثير فعال وغير مباشر فقط على تكوين العقيدة، بل كان أيضاً يصوت معهم.

وكما كانت الكنيسة إحدى مؤسسات الدولة أصبحت أيضاً قرارات المجامع وعلى الأخص البنود التي تخص العقيدة والتي رفعها قسطنطين إلى مرتبة القوانين التي تصدرها

الدولة، وبالتالي أصبح لها نفس الصورة الإلزامية للمفهوم القانوني العام.. فأصبحت بعد ذلك ملزمة لكل الرعية.

وكذلك تحولت قرارات المجامع الأربعة المسكونية الأخرى بهذه الطريقة إلى قوانين عامة.

قلت: سلمت لهذا، فحدثني عن السبب الرابع^(١).

قال: السبب الرابع هو هجر المحكمات، واتباع المتشابهات.

^(١) خصصناه بالمطلبين التاليين لأهميته.

المحكم

قلت: ما تريد بالمحكمات؟

قال: هي النصوص المقدسة التي ينطق فيها الكتاب المقدس بوحداية الله.

قلت: أراك تريد الحديث في أمر لا تملك عليه أي أدلة.. فما كان لكل كنائس العالم، ولكل رجال الدين الذين تمتلئ بهم تلك الكنائس أن يغفلوا عن مثل هذه النصوص لتفهمها أنت وثلة قليلة ممن معك.

قال: لا بأس.. فلنكن صادقين مع أنفسنا.. ولنفتح الكتاب المقدس لنسمعه، وهو يصيح فينا بالتوحيد الخالص.. التوحيد الذي جاء به جميع الأنبياء.

قلت: أنا مستعد لسماعك، فتحدث كما شئت.

قال: بورك فيك.. فقد رأيت فيك من حسن الاستماع ما لم أعهده في سائر من تحدثت معهم من رجال الدين.

كان الرجل يتصور أنني أحاكمه مع أنني في الحقيقة كنت تلميذا بسيطا بين يديه يحاول أن ينهل من أشعة محمد التي فاضت عليه.

قال: لقد استقرأت جميع النصوص التي تنفي الطبيعة التي تزعمونها للمسيح، فوجدت أنها تدور على تقرير حقيقتين كبيرتين:

الأولى أن المسيح عبد لله.. وأنه نال شرفه العظيم بهذه العبودية.. وقد رأيت أن كل ما تنسبونه للمسيح من طبيعة هو ناتج عن سوء فهمكم لعظمة العبودية.

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الحقيقة عن المسيح في مواضع كثيرة، فقال: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢)، وقال: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ

الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ وَقَالَ الْمَسِيحُ يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ ﴿٧٢﴾ (المائدة: ٧٢)

ولأجل هذا كان أول ما نطق به المسيح هو تقريره لعبوديته لله، كما قال تعالى مخبراً عن نطقه في المهد: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيًّا وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾ (مريم: ٣٠-٣١)

وقد أخبر الله تعالى عن شهادته في الموقف يوم القيامة، فقال على لسانه: ﴿مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَا أَمَرْتَنِي بِهِ أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (المائدة: ١١٧)

وأما الحقيقة الثانية، فهي حقوق إنسانية المسيح التي تتجلى في طبيعته البشرية، وما تقتضيه هذه الطبيعة من سلوك، قال تعالى: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ بُيِّنَ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)

كان لقراءته تأثيرها العظيم في نفسي.. فالكلمات واضحة.. والمعاني واضحة تمتلئ بها النفس والروح والعقل.. ولكن كبريائي كانت تحول بيني وبين الاستماع الحقيقي المؤدي إلى الإذعان.

كتمت دموعاً حارة في عيني، وتظاهرت ببعض القوة، وقلت له: لو كنت أؤمن بكتاب محمد ما جلست معك هذا المجلس.. لقد زعمت لي بأن الكتاب المقدس يحوي هذه الحقائق، فأين هي منه؟

قال: سأذكر لك ثلاث حقائق في الكتاب المقدس.. ومن الأسفار التي تؤمنون بها.

وحدانية الله:

قلت: فهات أولها.

قال: لقد نص الكتاب المقدس في نصوص كثيرة على وحدانية الله:

ففي سفر (الثنية ٦: ٤-٩) ورد هذا النص: (اسْمَعُوا يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ: الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبُّ وَاحِدٌ، فَأَجِبُوا الرَّبَّ إِلَهُكُمْ مِنْ كُلِّ قُلُوبِكُمْ وَنُفُوسِكُمْ وَقَوَّتِكُمْ. وَضَعُوا هَذِهِ الْكَلِمَاتِ الَّتِي أَوْصِيَكُمْ بِهَا عَلَى قُلُوبِكُمْ، وَقُصُّوْهَا عَلَى أَوْلَادِكُمْ، وَتَحَدَّثُوا بِهَا حِينَ تَجْلِسُونَ فِي بُيُوتِكُمْ، وَحِينَ تَسِيرُونَ فِي الطَّرِيقِ، وَحِينَ تَنَامُونَ، وَحِينَ تَنْهَضُونَ. ارْبُطُوهَا عَلَامَةً عَلَى أَيْدِيكُمْ، وَاجْعَلُوهَا عَصَائِبَ عَلَى جِبَاهِكُمْ. اكْتُبُوهَا عَلَى قَوَائِمِ أَبْوَابِ بُيُوتِكُمْ وَبَوَابِ مَدِينِكُمْ)

وفي (مرقس ١٢: ٢٨-٣٠): (وَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ وَاحِدٌ مِنَ الْكَتَبَةِ كَانَ قَدْ سَمِعَهُمْ يَتَجَادَلُونَ، وَرَأَى أَنَّهُ أَحْسَنَ الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، فَسَأَلَهُ: (أَيُّهُ وَصِيَّةٌ هِيَ أَوْلَى الْوَصَايَا جَمِيعاً؟) فَأَجَابَهُ يَسُوعُ: (أَوْلَى الْوَصَايَا جَمِيعاً هِيَ: اسْمَعْ يَا إِسْرَائِيلُ، الرَّبُّ إِلَهُنَا رَبُّ وَاحِدٌ فَاحْبِبِ الرَّبَّ إِلَهَكَ بِكُلِّ قَلْبِكَ وَبِكُلِّ نَفْسِكَ وَبِكُلِّ فِكْرِكَ وَبِكُلِّ قُوَّتِكَ. هَذِهِ هِيَ الْوَصِيَّةُ الْأُولَى)

وفي الرِّسَالَةُ إِلَى مُؤْمِنِي رُومَا (٨: ١-٥): (فَمَنْ ظَنَّ أَنَّهُ يَعْرِفُ شَيْئاً، فَهُوَ لَا يَعْرِفُ شَيْئاً بَعْدَ حَقِّ الْمَعْرِفَةِ. أَمَّا الَّذِي يُحِبُّ اللَّهَ، فَإِنَّ اللَّهَ يَعْرِفُهُ. فَنِيمَا يَخْصُ الْأَكْلَ مِنْ ذَبَائِحِ الْأَصْنَامِ، نَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّ الصَّنَمَ لَيْسَ بِإِلَهٍ مَوْجُودٍ فِي الْكَوْنِ، وَأَنَّهُ لَا وُجُودَ إِلَّا لِلَّهِ وَاحِدٍ. حَتَّى لَوْ كَانَتْ الْإِلَهَةُ الْمَرْعُومَةُ مَوْجُودَةً فِي السَّمَاءِ أَوْ عَلَى الْأَرْضِ وَمَا أَكْثَرَ تِلْكَ الْإِلَهَةِ وَالْأَرْبَابِ!)

وفي (كورنثوس ١٢: ٥-٨): (وَلَكِنَّ الرَّبَّ وَاحِدٌ. وَأَنْوَاعُ أَعْمَالِ مَوْجُودَةٍ، وَلَكِنَّ اللَّهَ وَاحِدٌ، الَّذِي يَعْمَلُ الْكُلَّ فِي الْكُلِّ. وَلَكِنَّهُ لِكُلِّ وَاحِدٍ يُعْطَى إِظْهَارُ الرُّوحِ لِلْمَنْفَعَةِ. فَإِنَّهُ لِيُوَاحِدٍ يُعْطَى بِالرُّوحِ كَلَامٌ حِكْمَةٍ، وَلَا آخَرَ كَلَامٌ عِلْمٍ بِحَسَبِ الرُّوحِ الْوَاحِدِ)

وفي (نحميا ٩: ٥-٧): (فُؤِمُوا وَبَارِكُوا الرَّبَّ إِلَهُكُمْ مِنَ الْآزَلِ إِلَى الْآبَدِ، وَلِيَبَارِكْ اسْمُكَ الْمَجِيدُ الْمُتَعَالِي فَوْقَ كُلِّ بَرَكَهٍ وَتَسْبِيحٍ. أَنْتَ وَحْدَكَ هُوَ الرَّبُّ. أَنْتَ صَانِعُ

السَّمَاوَاتِ وَسَمَاءِ السَّمَاوَاتِ، وَكُلَّ كَوَاكِبِهَا، وَالْأَرْضِ وَجَمِيعِ مَا عَلَيْهَا، وَالْبَحَارِ وَكُلِّ مَا فِيهَا. أَنْتَ تُحْيِيهَا، وَكُلُّ جُنْدِ السَّمَاءِ يَسْجُدُونَ لَكَ)

وفي (الملوك الثاني ١٩: ١٥-١٩): (وَصَلَّى قَائِلًا: (أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهَ إِسْرَائِيلَ، الْمُتَرَبِّعُ فَوْقَ الْكَرُوبِيمِ، أَنْتَ وَحْدَكَ إِلَهٌ كُلِّ مَمَالِكِ الْأَرْضِ. أَنْتَ وَحْدَكَ خَلَقْتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ. أَرْهَفْ يَا رَبُّ أُذُنِيكَ وَاسْتَمِعْ. افْتَحْ يَا رَبُّ عَيْنِيكَ وَانْظُرْ، وَاسْمَعْ كُلَّ تَهْدِيدَاتِ سَنَحَارِيبِ الَّتِي أَرْسَلَهَا لِيُعِيرَ اللَّهُ الْحَيَّ. حَقًّا يَا رَبُّ إِنَّ مُلُوكَ أَشُورَ قَدْ أَهْلَكُوا الْأُمَمَ وَدَمَرُوا دِيَارَهُمْ، وَطَرَحُوا آلِهَتَهُمْ إِلَى النَّارِ وَأَبَادُوهَا لِأَنَّهُمَا لَيْسَتْ فِعْلًا إِلَهَةٌ بَلْ خَشَبًا وَحِجَارَةً مِنْ صَنْعَةِ أَيْدِي النَّاسِ، فَخَلَصْنَا الْآنَ أَيُّهَا الرَّبُّ إِلَهُنَا مِنْ يَدِهِ، فَتَذَرِكُ مَمَالِكِ الْأَرْضِ بِأَسْرِهَا أَنْكَ أَنْتَ وَحْدَكَ الرَّبُّ الْإِلَهُ)

وفي (رسالة يوحنا ١٥: ٣-٤): (عَظِيمَةٌ وَعَجِيبَةٌ هِيَ أَعْمَالُكَ أَيُّهَا الرَّبُّ الْإِلَهُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ. عَادِلَةٌ وَحَقٌّ هِيَ طُرُقُكَ يَا مَلِكُ الْقِدِّيسِينَ. مَنْ لَا يَخَافُكَ يَا رَبُّ وَيُمَجِّدُ اسْمَكَ، لِأَنَّكَ وَحْدَكَ قُدُّوسٌ، لِأَنَّ جَمِيعَ الْأُمَمِ سَيَأْتُونَ وَيَسْجُدُونَ أَمَامَكَ، لِأَنَّ أَحْكَامَكَ قَدْ أُظْهِرَتْ)

وفي (إشعياء / ٤٤: ٢٤) (أنا الرب صانع كل شيء)

وفيه (إشعياء / ٤٥: ٥): (أنا الرب وليس آخر. لا إله سواي)

وفيه (إشعياء / ٤٦: ٩): (لأنني أنا الله وليس آخر. الإله وليس مثلي)

وفي سفر (هوشع / ١٣: ٤): (والهاً سواي لست تعرف)

وفي سفر (حقوق / ١: ١٢): (ألست أنت منذ الأزل يا ربُّ إلهي قدوسي لا تموت)

وفي (متى / ٤: ١٠) من أقوال المسيح: (للب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد)

وفيه (متى / ٦: ٢٤) من أقوال المسيح: (لا يقدر أحد أن يخدم سيدين)

وفي (متى / ١٩: ١٧) و(مرقس / ١٠: ١٨) من أقوال المسيح: (ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله)

وفي (متى / ٢٢: ٣٧ - ٣٨) من أقوال المسيح: (تحب الرب إلهك من كل قلبك .. هذه هي الوصية الأولى والعظمى)

وفي (متى / ٢٣: ٩) من أقوال المسيح: (لأن أباكم واحد الذي في السماء) وفي (مرقس / ١٢: ٢٩) من أقوال المسيح: (إن أول كل الوصايا... الرب إلهنا رب واحد)

وفي (مرقس / ١٣: ٣٢) من أقوال المسيح: (وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين في السماء ولا الابن إلا الآب)

وفي (يوحنا / ١: ١٨): (الله لم يره أحد قط) وفي (يوحنا / ١٧: ٣) من أقوال المسيح: (أنت الإله الحقيقي وحدك)

وفي (رؤيا يوحنا / ١: ٨): (أنا هو الألف والياء البداية والنهاية يقول الرب)، أي أن الرب قال هذا وليس المسيح.

عبودية المسيح:

لم أجد بعد أن ذكر لي كل هذه النصوص إلا أن أقول له: عرفت الأولى.. فما الثانية؟ قال: لقد نص الكتاب المقدس في نصوص كثيرة منه على عبودية المسيح.. وهو يتفق في ذلك تماماً مع القرآن الكريم.

قلت: أين هذا؟

قال: إن كل حرف من الكتاب المقدس يشهد للمسيح بالعبودية: لقد بشر النبي أشعيا (٤٢: ١) بنبي عظيم، أول صفاته أنه عبد الله ورسوله.. تقول

البشارة تقول : (هو ذا عبدي أعضده)، وقد اعتقد كاتب إنجيل متى أن تلك النبوءة قد تحققت في المسيح، فاقتبسها ووضعها في إنجيله في الإصحاح الثاني عشر.. ووجه الدلالة فيها لا يخفي.. فالله سمى المسيح عبدا.

وبمثل ذلك جاء سفر أعمال الرسل (٣: ١٣، ٢٦) فقد ورد فيه هذا النص : (إن إله إبراهيم وإسحاق ويعقوب، إله آبائنا، قد مجد عبده يسوع)^(١)

وبمثل ذلك قال في سفر أعمال الرسل (٤: ٢٧) : (تحالف حقاً في هذه المدينة هيردوس وبنطيوس بيلاتس والوثنيون وشعوب إسرائيل على عبدك القدوس يسوع الذي مسحته)^(٢)

وفي نفس السفر (٤: ٢٩، ٣٠) ورد : (فانظر الآن يارب إلي تهديداتهم، وهب لعبيدك أن يعلنوا كلمتك بكل جرأة باسطاً يدك ليجري الشفاء والآيات والأعاجيب باسم عبدك القدوس يسوع)

ونصوص الكتاب المقدس تحوي الدلائل التي لا تحصى على أن المسيح لم يكن إلانيا من أنبياء الله أرسله الله كما أرسل سائر الأنبياء:

لقد كتب لوقا في (٤: ١٨) يقول : (وَعَادَ يَسُوعُ إِلَى مَنَاطِقَةِ الْجَلِيلِ بِقُدْرَةِ الرُّوحِ؛ وَدَاعَ

^(١) وقد ورد هكذا في العهد الجديد على حسب الطبعة الكاثوليكية، لكن الطبعة البروتستانتية الإنجيلية للكتاب المقدس تستبدل كلمة عبده، بكلمة فتاه.

وقد اتفقت الترجمات الإنجليزيتان : الملك جيمس والقياسية، على استخدام كلمة : Servant مقابل كلمة : عبد، العربية.

وبمثل ذلك اتفقت الترجمات الفرنسيتان : لوي سيجو، والمسكونية على استخدام كلمة : Serviteur مقابل كلمة : عبد، العربية.

^(٢) العهد الجديد المطبعة الكاثوليكية _ منشورات دار المشرق بيروت.

صِيَّتُهُ فِي الْقُرَى الْمُجَاوِرَةِ كُلِّهَا. وَكَانَ يُعَلِّمُ فِي مَجَامِعِ الْيَهُودِ إِلَى أَنْ قَالَ، وَوَقَفَ لِيَقْرَأَ. فَقُدِّمَ إِلَيْهِ كِتَابُ النَّبِيِّ إِشْعِيَاءَ، فَلَمَّا فَتَحَهُ وَجَدَ الْمَكَانَ الَّذِي كُتِبَ فِيهِ: رُوحُ الرَّبِّ عَلَيَّ، لِأَنَّهُ مَسَحَنِي لِأُبَشِّرَ الْفُقَرَاءَ؛ أَرْسَلَنِي لِأَنَادِيَ لِلْمَاسُورِينَ بِالْإِطْلَاقِ)

فإذا كانت هذه النبوة التي جاءت على لسان النبي أشعيا هي نبوة عن المسيح فإنها تقول: (روح الرب علي)، أي وحي الله.

فهل ترى المسيح قال: هي ذاتي أو أقنومي أو جزئي أو نفسي؟

قلت: ولكنه قال: (روح الرب علي) وهي لا تختلف في الدلالة عن ذلك.

قال: لقد ورد في الكتاب المقدس أن روح الرب حلت على ألداد وميداد كما في سفر العدد (١١: ٢٦)، وعلى صموئيل كما في الإصحاح العاشر الفقرة السادسة من سفر صموئيل. وقد قالها النبي حزقيال عن نفسه في سفره كما في الإصحاح الحادي عشر الفقرة الخامسة، حيث يقول حزقيال: (وحل عليَّ رُوحُ الرَّبِّ)

ثم إن قوله: (أرسلني لأنادي للمأسورين بالإطلاق) دليل على أنه نبي مرسل، وليس هو الرب النازل إلى البشر كما تزعمون.

ثم إن ما جاء في انجيل لوقا (٤: ٣٤) من قول المسيح: (لا بد لي أن أبشر المدن الأخرى بملكوت الله لأنني لهذا أرسلت) دلالة صريحة على أن المسيح رسول مرسل من الله.

صمت قليلا، ثم قال: عندما أحيا المسيح الميت الذي هو ابن وحيد لامرأة أرملة، حدث أن جميع الناس الحاضرين مجدوا الله، فماذا قالوا؟

أجبت من غير شعور: لقد قالوا: (قد قام فينا نبي عظيم، وتفقد الله شعبه)

قال: أليس في هذا دليلا على أن المسيح لم يكن إلا بشرا رسولا، فإنه بعد أن أحيا هذا

الميت استطاع جميع الحاضرين أن يفرقوا بين الله وبين المسيح، فمجدوا الله، وشهدوا للمسيح بالنبوة، وشكروا الله إذ أرسل في بني إسرائيل نبياً، ويسمون أنفسهم شعب الله إذ أن الله تفقده أي اهتم به، وأرسل فيهم نبياً جديداً.

قلت: هذا قولهم، وعلى حسب معرفتهم... وهو ليس قول المسيح حتى تستدل به.
قال: ولكن المسيح أقرهم على هذا القول، ولم ينكره عليهم مع أن ذلك ذاع في كل مكان.

ومع ذلك.. دعنا من هذه النصوص.. فالأدلة الكثيرة لا تجعلنا نهتم بالجدل في نصره بعضها.. وقد قال علمنا الله ذلك، فقال يقص علينا قصة إبراهيم مع الملك: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ (البقرة: ٢٥٨)، فمع أن إبراهيم كان يعلم أن الملك لا يقدر على إحياء الموتى، ومع ذلك لم يجادله في ذلك.. اكتفاء بكثرة الأدلة.
وسأسلك معك هذا السلوك.. ولن أجادل في نصره أي نص تعترض عليه.

صمت حياء، فقال: لقد تكرر وصف نبوة المسيح في الأناجيل كثيرا.. ففي رواية لوقا (٧: ٣٩) نجده يذكر أن الفريسي بعدما رأى المرأة تبكي وتمسح قدمي المسيح بشعرها قال في نفسه: (لو كان هذا نبياً، لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه)

وهذا القول يدل على أنه داخله الشك في نبوة المسيح، وهو يثبت أن المسيح كان معروفاً بالنبوة ومشتهراً بها، ويدعيها لنفسه، لأن الفريسي داخله الشك فيما هو معروف له، وإلا لكان قال في نفسه: (لو كان هذا هو الله لعرف من هي هذه المرأة التي تلمسه)
وهذا يدل على أن المسيح لم يكن معروفاً إلا بالنبوة، سواء بين المؤمنين به أو أعدائه..

فكلهم اتفقت كلمتهم على صفة النبوة.

وسأسوق لك من النصوص ما يدل على ذلك:

لقد ورد في إنجيل لوقا (٢٤: ١٩): أن تلميذين من تلاميذ المسيح وصفوه بالنبوة وهو يخاطبهم، فكانا يقولان: (يسوع الناصري الذي كان إنساناً نبياً مقتدرًا في الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب) ولم ينكر عليهم المسيح هذا الوصف.

وورد في إنجيل يوحنا (٩: ١٧) قول الرجل الأعمى: (قالوا أيضاً للأعمى: ماذا تقول أنت عنه من حيث أنه فتح عينيك، فقال: إنه نبي)

وورد في إنجيل متى (٢١: ١٠، ١١) أن المسيح لما دخل أورشليم ارتجت المدينة كلها وسألت من هذا؟ فكانت الإجابة من الجموع الغفيرة من المؤمنين والتلاميذ الذين دخلوا مع المسيح مدينة القدس هي: (هذا يسوع النبي من ناصرة الجليل)

فأنت ترى أن كل الجموع تسأل، وكلهم يجيبون، وعلى رأسهم تلاميذ المسيح، وكلهم متفقون على طبيعة واحدة للمسيح هي طبيعة البشرية المتوجة بتاج النبوة.

ورد في إنجيل يوحنا (٦: ١٤) أن الناس الذين رأوا معجزة تكثير الطعام التي صنعها المسيح فآمنوا بها قالوا: (إن هذا هو بالحقيقة النبي الآتي إلى العالم)، فأقرهم المسيح، ولم ينكر عليهم وصفهم له بالنبوة مع أنهم كانوا جمعا كثير حوالي خمسة آلاف رجل.. ولم يقل أحدهم بخلاف ذلك.

قلت: كل هذا ما قالوه.. لا ما قاله..

قال: لا بأس.. سأسوق لك بعض ما قال.. لقد ورد في إنجيل متى (١٣: ٥٧) أن المسيح لما رأى أهل الناصرة يحاربونه وينكرون معجزاته رد عليهم قائلاً: (ليس نبي بلا كرامة إلا في وطنه وفي بيته).. فالمسيح لم يذكر لهم أنه إله، وانما ذكر أنه نبي، ولا كرامة لنبي في

بلده، فالألوهية لم تكن تخطر ببال المسيح مطلقاً.

وفي إنجيل لوقا (١٣ : ٣٣) يتكلم المسيح وهو يعرض نفسه قائلاً: (لا يمكن أن يهلك نبي خارجاً عن أورشليم)، وهو إقرار من المسيح بأنه نبي من الأنبياء، وليس للأنبياء كلهم إلا طبيعة واحدة هي البشرية المقترنة بوحى الله.

وفي إنجيل متى في الإصحاح الخامس يقول المسيح: (لَا تَحْتَسِبُوا أَنِّي جِئْتُ لِأُلْغِيَ الشَّرِيعَةَ أَوْ الْأَنْبِيَاءَ. مَا جِئْتُ لِأُلْغِيَ، بَلْ لِأُكْمَلَ)

فهذا النص واضح في أن المسيح رسول قد خلت من قبله الرسل، وأنه ليس إلا واحداً ممن سبقوه، فلا هو رب ولا إله.. وإنما هو نبي بشر جاء ليعمل بالشرعة التي سبقته، وهي شريعة موسى، ويكمل ما بناه الانبياء قبله.

وفي إنجيل يوحنا (١٢ : ٤٩) يقول: (لم أتكلم من نفسي، لكن الأب الذي أرسلني، هو أعطاني وصية ماذا أقول، وبماذا أتكلم)، فهذا النص واضح في أن المسيح عندما كان يدعو تلاميذه، ويعلمهم لم يكن يدعوهم إلا على أنه رسول من الله، وأنه كان يدعوهم إلى توحيد الله، وعبادته.

ولم يرد هذا في الأناجيل فقط، بل نجد هذا في سائر الأسفار، ففي أعمال الرسل (٣ : ٢٢) حمل بطرس قول موسى عليه السلام الوارد في العهد القديم: (إن نبياً مثلي سيقم لكم الرب إلهكم) على المسيح^(١) مع أنه صرح بأن الله سيقم لهم نبياً، ولم يقل سينزل لهم الرب. قلت: حتى لو اعتبرناه نبياً.. فإن ذلك لا يتنافى مع ما ندعيه له.. فكما أن كونه إنساناً لم يحجبه أن يكون ابناً لله.. فكونه نبياً أولى أن لا يحجب.

(١) ذكرنا الأدلة الكثيرة على أن هذه البشارة خاصة به ﷺ.

قلت هذا لمجرد استفزازه، فإن ما ذكرته لا يقوم على أي أساس عقلي صحيح.

قال: لا بأس.. مع أن كلامك هذا يتنافى مع المنطق السليم إلا أنني سأذكر لك من النصوص ما يبين عبودية المسيح.. وأن علاقته بالله لم تكن إلا علاقة العبودية.

ألم تقرأ ما ورد من قيامه بالصلاة وعبادته لله طوال الليل كله، لقد قال لوقا في إنجيله (٦: ١٢): (وفي تلك الأيام خرج إلى الجبل ليصلي، وقضى الليل كله في الصلاة لله؟)

ويحدثنا متى (١٤: ١٥) عن معجزة إشباع الآلاف من الجياع بخمسة أرغفة وسمكتين فيقول: (وَأَمَرَ الْجُمُوعَ أَنْ يَجْلِسُوا عَلَى الْعُشْبِ. ثُمَّ أَخَذَ الْأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَبَارَكَ وَكَسَّرَ الْأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَاهَا لِلتَّلَامِيذِ، فَوزَّعُوهَا عَلَى الْجُمُوعِ. فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا)، وهذا التصرف دليل على العبودية.. فما كان لينظر إلى السماء إلا لأجل انتظاره مددا منها.

وقد تكرر منه هذا الفعل حينما أحيا لعازر، فإنه ورد بإنجيل يوحنا (١١: ٤١): (وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: (أَيُّهَا الْآبُ، أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْمًا تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنِّي قُلْتُ هَذَا لِأَجْلِ الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِي لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي)

بل إن المسيح لم يرض أن يوصف بالصلاح حرصا على وصف العبودية وخوفا من الشرك، ففي متى (١٩: ١٦، ١٧): (وَإِذَا وَاحِدٌ يَتَقَدَّمُ إِلَيْهِ وَيَسْأَلُ: (أَيُّهَا الْمُعَلِّمُ الصَّالِحُ، أَيُّ صِلَاحٍ أَعْمَلُ لِأَحْصُلَ عَلَى الْحَيَاةِ الْأَبَدِيَّةِ؟)، فَأَجَابَهُ الْمَسِيحُ: (لِمَاذَا تَدْعُونِي صَالِحًا، لَيْسَ أَحَدٌ صَالِحًا إِلَّا وَاحِدٌ وَهُوَ اللَّهُ).. فإذا كان المسيح لم يرض بأن يوصف بالصلاح، فكيف يرضى بأن يوصف بالألوهية!!

بل إن المسيح يصرح بعبوديته لله، فيقول: (الحق الحق أقول لكم: ما كان الخادم أعظم من سيده، ولا كان الرسول أعظم من مرسله) (يوحنا ١٣: ١٦)

إن هذا النص من الكتاب المقدس يعبر عما أراده القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعًا﴾ (النساء: ١٧٢)

بل إن المسيح يصرح بوحدانية الله التي تهدم أقانيم التثليث التي تؤسسونها، ألم تقرأ ما جاء في إنجيل يوحنا (١٧: ٣) من أن المسيح توجه ببصره نحو السماء قائلاً لله: (وهذه الحياة الأبدية أن يعرفوك أنت الإله الحقيقي وحدك ويسوع المسيح الذي أرسلته) فإذا كنتم تقولون بأن الله قد تجسد في جسد المسيح يسوع، فمن هو الإله الذي كان يخاطبه يسوع؟

ألا تلاحظ أن قوله: (ويسوع المسيح الذي أرسلته) يشير إلى الوظيفة التي أرسل المسيح من أجلها.. وهي الوظيفة التي تتفق مع كلام الذي سميتموه: (الهرطقي آريوس).. والذي كان يعتبر المسيح وسيطاً بين الله والبشر!؟

ألا ترى أن المسيح قال: (أنت الإله الحقيقي وحدك)، بينما لم يذكر نفسه إلا بقوله: (المسيح الذي أرسلته).. فأين التثليث في هذا؟

وقد وردت النصوص الكثيرة المؤكدة أن الله هو رب المسيح وإلهه:

فالله تعالى موصوف في رسالة بطرس الأولى (١: ٣) وفي الرسالة إلى أهل أفسس (١: ١٧) بـ (الله أبو ربنا يسوع المسيح)

وفي رؤيا يوحنا وهو الكتاب الأخير من العهد الجديد، يصف الله سبحانه وتعالى بأنه إله المسيح وربّه: (لإلهه وأبيه (المسيح) (رؤيا يوحنا ١: ٦)

وفي الإصحاح الثالث العدد ١٢ يقول المسيح عن الهيكل: (هيكل إلهي... اسم إلهي... مدينة إلهي)

وفي أثناء حياته على الأرض تطلع يسوع لأبيه بما شابه ذلك، وقد تكلم عن الصعود قائلاً: (إلى أبي وأبيكم والهي وإلهكم) (يوحنا ٢٠: ١٧).

وقد ورد في الأناجيل التي تؤرخ لسيرة المسيح ما يؤكد كل هذا، ويبين أن المسيح ليس إلا رسولا لا يختلف عن سائر الرسل دائم الصلة بالله، عظيم العبودية له:

جاء في مرقس (١٣: ٣٢) أن المسيح بعدما سئل عن موعد الساعة قال: (وَأَمَّا ذَلِكَ الْيَوْمُ وَتِلْكَ السَّاعَةُ فَلَا يَعْرِفُهُمَا أَحَدٌ، لَا الْمَلَائِكَةُ الَّذِينَ فِي السَّمَاءِ وَلَا الْإِبْنُ، إِلَّا الْآبُ)

فإذا كان الابن الذي هو الأقنوم الثاني من الثالوث حسبما تعتقدون، فكيف ينفي عن نفسه العلم بموعد الساعة ويثبته للأب فقط؟!

قلت: هذا النفي من جهة ناسوته لا من جهة لاهوته.

قال: لا.. إن النفي جاء عن الابن مطلقاً، وأثبت العلم بالموعد للأب فقط.. وتخصيص العلم بموعد الساعة للأب فقط دليل على بطلان ألوهية الروح القدس، وأن لا مساواة بين ما تذكرونه من أقانيم.

ومثل ذلك ما ورد في يوحنا (١: ٥١) من قول المسيح: (الحق أقول لكم من الآن سترون السماء مفتوحة وملائكة الله صاعدين نازلين على ابن الإنسان)

فإذا كان المسيح يصرح بأن ملائكة الله سوف تنزل عليه من السماء لتأييده فأين هو الإله خالق الملائكة الذي حل بالمسيح واتحد به.

ومثل ذلك ما ورد في لوقا (٣: ٢٣): (ولما ابتداء يسوع كان له نحو ثلاثين سنة)، فالمسيح - كما يذكر لوقا - لما بدأ دعوته كان عمره ثلاثين سنة.. فإذا كان المسيح هو الله المتجسد، فماذا كان يفعل هذا قبل تلك الفترة وطوال الثلاثين سنة؟!

ومثل ذلك ما ورد في متى (٣: ١٣): (حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن، إلى

يوحنا ليعتمد منه، ولكن يوحنا منعه قائلاً: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتي إلي؟ فأجاب يسوع وقال له: اسمح الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر، حينئذ سمح له. فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء، وإذا السماوات قد انفتحت له، فرأى روح الله نازلاً مثل حمامة وآتياً عليه وصوت من السماوات قائلاً: هذا هو ابني الحبيب الذي به سررت)

فلو كان المسيح هو الله نفسه الذي تجسد ونزل لعالم الدنيا - كما تزعمون - لكانت رسالته مبتدئة منذ ولادته، ولكان روح القدس ملازماً له باعتباره جزء اللاهوت الذي لا يتجزأ، ولما احتاج إلى من ينزل عليه بالوحي أو الرسالة، ولم يكن هناك أي معنى أصلاً لابتداء بعثته بهبوط روح القدس عليه وابتداء هبوط الملائكة صاعدين نازلين بالوحي والرسائل عندما بلغ الثلاثين من العمر واعتمد على يد يوحنا النبي!

ومثل ذلك ما كتبه لوقا (٣: ٢١) عن بدء بعثة المسيح بنزول روح القدس عليه، فقد ورد فيه: (ولما اعتمد جميع الشعب اعتمد يسوع أيضاً، وإذا كان يصلي انفتحت السماء ونزل عليه الروح القدس بهيئة جسمية مثل حمامة، وكان صوت من السماء قائلاً: أنت ابني الحبيب بك سررت. وكان يسوع عند بدء رسالته في نحو الثلاثين من عمره... ورجع يسوع من الأردن وهو ممتلئ من الروح القدس)

فلو كان المسيح إلهاً متجسداً لما احتاج لروح القدس ليهبط عليه.. ولو كان التثليث حقاً لكان المسيح متحداً دائماً وأزلاً مع روح القدس، لأن الثلاثة واحد فما احتاج أن يهبط عليه كحمامة!

ثم ألا ترى فيما كتبه متى ولوقا ما يبطل زعمكم أن الثلاثة واحد فالروح القدس منفصل عن الذات وهو نازل بين السماء والأرض والابن صاعد من الماء.

إنسانية المسيح:

قلت: لقد ذكرت ما شئت من النصوص عن عبودية المسيح.. فاذا كر لي ما يدل على إنسانيته على حسب ما فهمت؟

قال: كل ما سبق ذكره يدل على إنسانيته، فالعبودية لا تخرج عن صاحبها الإنسانية.
قلت: فما تقصد بالإنسانية إذن؟

قال: أقصد منها نواحي الضعف التي تعتري الإنسان، والتي يستحيل أن يتصف بها الله، وهو ما استدل به القرآن الكريم على عدم صحة ما ترمون المسيح به من دعاوى، فإله تعالى يقول: ﴿مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ انْظُرْ كَيْفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ الْآيَاتِ ثُمَّ انْظُرْ أَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ (المائدة: ٧٥)
قلت: فاذا كر لي ما في كتبنا من الدلالة على هذا.

قال: اعذرني.. فأنت أعرف بذلك مني.
قلت: لا بأس.. أريد أن أسمع منك.. ألا ترى أنني صادق في حوارى معك؟
قال: أشكرك على ذلك.. وأنا مستغرب هذا السلوك الذي لم أعهده من غيرك.
قلت: لا بأس.. كل ينفق مما عنده.

قال: الأناجيل.. بل الكتاب المقدس جميعا يصرح أن المسيح أضعف من أن يكون إلها:

لقد ذكر لوقا (٢٢: ٤٣) أن المسيح بعدما وصل وتلامذته الي جبل الزيتون واشتد عليه الحزن والضيق حتى أن عرقه صار يتصبب كقطرات دم نازلة: (ظَهَرَ لَهُ مَلَاكٌ مِنَ السَّمَاءِ يَقْوِيهِ)

والإمداد بالقوة لا يكون إلا للضعيف المحتاج.. فإن كنتم تزعمون أن للمسيح طبيعة لاهوتية.. فهل هذا الملك أقوى من الله؟!.. وأين كان لاهوت المسيح في تلك

اللحظة؟!.. أما كان الاولى به أن يظهر طبيعته اللاهوتية المزعومة بدلاً من أن يكتسب ويحزن ويشتد عليه الضيق والخوف، ويظهر بذلك المظهر.

بل إن المسيح يجسد إنسانيته بكاملها على الصليب - كما تزعمون - بقوله: (إلهي إلهي لماذا تركتني) (متى ٢٧: ٤٦)، ولا يمكن أن تفهم الكلمات إلا لمن رأى المسيح إنساناً كسائر البشر.

وفوق هذا هناك الكثير من الأدلة التي يعرضها الإنجيل حول الطبيعة البشرية للمسيح، فهو يذكر أنه منهمك، وكان عليه أن يجلس لكي يشرب من البئر (انجيل يوحنا ٤: ٦) ونجده يبيكي لموت لعازر (انجيل يوحنا ١١: ٣٥)

وفوق كل هذا هنالك الوصف لمعاناته في النهاية، وهذا يجب أن يكون دليلاً على إنسانيته: (الآن نفسي قد اضطربت)

ونجده يشكر ويصلي للرب لكي ينقذه من حتمية الموت (انجيل يوحنا ١٢: ٢٧):
(وكان يصلي قائلاً يا أبتاه إن أمكن فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت) (انجيل متى ٢٦: ٣٩)

وفي إنجيل متى (٤: ٦) أن الشيطان بعدما أخذ المسيح إلى المدينة المقدسة وأوقفه على حافة سطح الهيكل قال له: (إن كنت ابن الله فاطرح نفسك إلي أسفل لأنه قد كتب: يُوصِي مَلَأَتُكَ بِكَ، فَيَحْمِلُونَكَ عَلَى أَيْدِيهِمْ لِكَيْ لَا تَصُدَّمَ قَدَمُكَ بِحَجَرٍ)

وفي هذا النص إقرار من المسيح للشيطان بأنه قد كتب عنه في العهد القديم أن الله يوصي ملائكته به ليحملونه ويحفظونه - كما نجد هذا ثابتاً بالزمزم الواحد والتسعين - فإذا كان المسيح هو رب العالمين، وأن الأب متحد معه وحال فيه، فكيف يوصي الله ملائكته به لكي يحفظوه؟

وفي أنجيل مرقس (١: ١٢): (وَفِي الْحَالِ اقْتَادَ الرُّوحُ يَسُوعَ إِلَى الْبَرِّيَّةِ، فَقَضَى فِيهَا أَرْبَعِينَ يَوْمًا وَالشَّيْطَانُ يُجَرِّبُهُ. وَكَانَ بَيْنَ الْوُحُوشِ وَمَلَائِكَةٍ تَخْدُمُهُ)

فإذا كان المسيح إله متجسد - حسبما تعتقدون - فهل يمكن أن يعقل أن يتسلط عليه الشيطان طوال أربعين يوماً؟

قلت: إن الشيطان جربه كإنسان، ولم يجربه كإله.

قال: ولكن النص الوارد في متى (٤: ٣) يثبت - حسب اعتقادكم - أن الشيطان جربه كإله لا كإنسان، فقد ورد فيه: (فَتَقَدَّمَ إِلَيْهِ الْمُجَرَّبُ وَقَالَ لَهُ: إِنْ كُنْتَ ابْنَ اللَّهِ، فَقُلْ لِهَذِهِ الْحِجَارَةِ أَنْ تَتَحَوَّلَ إِلَى خُبْزٍ!) ولم يقل له: (إن كنت ابن الإنسان)

وفي متى (٤: ٨) أن إبليس أخذ المسيح إلى قمة جبل عال جداً، وأراه جميع ممالك العالم، وقال: (أعطيك هذه كلها إن جثوت وسجدت لي).. فكيف يطمع إبليس في أن يسجد له، وأن يخضع له من فيه روح اللاهوت!؟

وقد كتب متى في الإصحاح الأول ابتداء من الفقرة الأولى حول تجربة إبليس للمسيح أن إبليس كان يقود المسيح إلى حيث شاء فينقاد له، فتارة يقوده إلى المدينة المقدسة، ويوقفه على جناح الهيكل، وتارة يأخذه إلى جبل عال جداً.. فهل يمكن لعاقل بعد هذا أن يقول أن الله تعالى كان في جسد المسيح، وكان هذا الجسد بهذه حاله مع إبليس.

وقد ورد في الكتاب المقدس أن المسيح انصرف هرباً من اليهود، فكيف يتصور أن رب العالمين كان في جسد، وكان هذا الجسد يتجنب اليهود من مدينة إلى مدينة هرباً منهم. ورد في متى (١٢: ١٤) ومرقس (٣: ٦) أن الفريسيين تشاوروا على المسيح لكي يقتلوه، فلما علم المسيح انصرف من مكانه.

وكتب يوحنا (١١: ٥٣) أن اليهود لما قرروا قتل المسيح فمن ذلك اليوم لم يعد المسيح يتجول بينهم جهاراً، بل ذهب إلى مدينة اسمها أفرام.

بل ورد في كيفية معاملة اليهود له ما يدل على بشريته:

ورد في متى (٢٦: ٦٧) أن اليهود عذبوا المسيح وبصقوا في وجهه وضربوه.. قال متى: (فبصقوا في وجه يسوع ولطموه، ومنهم من لكمه)

وجاء في إنجيل لوقا (٢٢: ٦٣): (وأخذ الذين يحرسون يسوع يستهزئون به ويضربونه ويغطون وجهه ويسألونه: من ضربك؟ تنبأ! وزادوا على ذلك كثيراً من الشتائم) ألا ترى أن اليهود اتخذوا المسيح لعبةً يلعبون بها إهانته له وتحقيراً للشأنه، ومع ذلك لم يجد أحداً يدافع عنه؟

أين كان أولئك الألوفا الذين حكمت عنهم الأناجيل بأنهم آمنوا به، وشفى كثيراً من أمراضهم المزمنة؟

أين تلك الجموع الغفيرة التي خرجت لملاقاته، حين دخوله أورشليم، وهو راكب الجحش والأتان معاً؟

بالإضافة إلى ما ذكرته الأناجيل، فإن الكثير من المزامير - التي هي بمثابة نبوءات عن المسيح كما تعتقدون - تؤكد على حاجة المسيح لأن يخلصه الرب:

فمزامير (٩١: ١١، ١٢) نراها مقتبسة في انجيل متى (٦: ٤) في الحديث عن المسيح، وفي المزامير (٩١: ١٦) تكمن النبوءة عن تخلص المسيح: (من طول الايام (أي حياة أبدية) أشبعه وأريه خلاصي)

وفي مزامير (٦٩: ١، ١٨، ٢١، ٢٩): (خلصني يا الله.. اقترب إلى نفسي بسبب أعدائي أفدني.. يجعلون في طعامي علقماً، وفي عطشي يسقونني خلاً.. خلاصك يا الله

فليرفعني)

المتشابه

قلت: أنا أسلم لك كل ما ذكرت من النصوص، فهي تحوي من دلائل البشرية ما لا أجد له، ولا يجد له غيري مخرجا.. ولكن هذه النصوص هي نفسها التي تدلنا على ما نعتقد من عقائد.. فما تريد منا؟.. أتريد أن نطرح تلك النصوص لهذه النصوص؟.. وكيف يكون ذلك، وكلاهما نصوص مقدسة؟

قال: نفس الإشكال يمكنني أن أطرحه عليك.. أتريد أن تطرح ما ذكرت لك من النصوص لما لديك من نصوص توهمك بالهية المسيح؟

قلت: أنا لم أطرح هذه النصوص، ولا تلك النصوص.. ولكني فهمت ما ذكرت من النصوص على ضوء ما لدي من نصوص.

قال: فلم لم تفهم النصوص المتشابهة على ضوء النصوص المحكمة؟.. لقد استفدت من قراءتي للكتاب المقدس للمسلمين أن في كلام الله متشابهها ومحكما.. وفهمت منه أنه ينبغي إخضاع المتشابه للمحكم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (آل عمران: ٧)

قلت: فأيهما المحكم؟.. وأيهما المتشابه؟

قال: المحكم هو ما دل على الحقائق بأصالتها وبساطتها.. والتي يدل عليها العقل بادئ الرأي.

قلت: لم أفهم ما تقصد..

قال: أرايت لو لم يرد ما ذكرت من نصوص متشابهة، والتي هي محصورة على كل

حال، أكان لأحد من الناس ينسب للمسيح الإلهية؟

لم أملك إلا أن أقول: لا..

قال: ولا تملك إلا أن تقول ذلك.. فحياة المسيح لا تختلف عن سائر حياة من عرفنا من الأنبياء.. فكلهم معلمون دعاة إلى الله حصل لهم مؤيدات كثيرة من الله تدل على الوظيفة التي كلفوا بها.

قلت: وماذا تستتج من هذا؟

قال: أستتج أن الأصل هو نبوة المسيح.. فهي التي يدل عليها العقل المجرد من جهة.. وهي التي تدل عليه النصوص الكثيرة من جهة أخرى.

قلت: وما تسميه نصوصا متشابهة.. هل تحذفها من الكتاب المقدس؟.. أم تغير ترجمتها؟

قال: لا هذا ولا ذاك.. وإنما أحاول فهمها على ضوء النصوص الأخرى.. فإن احتجت إلى التأويل أولت..

قلت: أليس التأويل تحريفا؟

قال: يكون التأويل تحريفا عندما يلوي عنق النص.. لكنه إن انسجم مع النص كان هو الأسلوب الوحيد الذي نتعامل به مع النص.

قلت: فهل تطبق لي هذا التأويل على ما لدي من نصوص متشابهة، لنرى مدى أحقية التأويل؟

قال: أجل.. لابد لمن يريد أن يعرف الحقيقة من الاهتمام بالتفاصيل المؤدية إليها.. بكل التفاصيل..

قلت: لدي عشرات النصوص التي وردت في العهد الجديد أو القديم، وهي كلها

تحدث عن ألوهيته، منها النصوص التي سمته رباً وإلهاً أو ابناً لله، ومنها النصوص التي أفادت أن فيه حلولاً إلهياً، ومنها النصوص التي أضافت خلق المخلوقات إليه، ثم ما ظهر على يديه من معجزات إلهية إليه كتنبئه بالغيب وإحيائه الموتى...

قال: قبل أن تعرض لي ما شئت من نصوص أريد أن أسألك.. هل يوجد نص واحد منها يصرح فيه المسيح بألوهيته، أو يطلب من الناس عبادته.

لقد قال بعض علماء المسلمين^(١) لكبير قساوسة السويد: (أضع رأسي تحت مقصلة لو أطلعتموني على نص واحد قال فيه عيسى عن نفسه: أنا إله، أو قال: اعبدوني)

قلت: نعم.. لا يوجد مثل هذا النص.. وفي ذلك حكم جليلة عبر عنها القس فندر في كتابه (مفتاح الأسرار) مبرراً عدم تصريح المسيح بألوهيته في العهد الجديد، فقال: (ما كان أحد يقدر على فهم هذه العلاقة والوحدانية قبل قيامه وعروجه.. فلو قال صراحة لفهموا أنه إله بحسب الجسم الإنساني.. إن كبار ملة اليهود أرادوا أن يأخذوه ويرجموه، والحال أنه ما كان بين ألوهيته بين أيديهم إلا عن طريق الألغاز)

قال: فأنت تعتبر الألوهية لم يصرح بها إلا بعد العروج.. وحينذاك لم يصرح بها المسيح.. بل فهمتموها أنتم.. لأنه لم يظهر إنجيل جديد بعد عروج المسيح وقيامته.

ثم إن المسيح كان يواجه اليهود مرراً، فيقول لهم مثل هذا الكلام القاسي: (الويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المرءون.. أيها العميان.. لأنكم تشبهون القبور المكلسة، أيها الحيات والأفاعي كيف تهربون من دينونة جهنم) (متى ٢٣/ ١٣-٣٤)، فكيف له أن يترك التصريح بالحقيقة لأخلص أتباعه؟

(١) هو الشيخ أحمد ديدات - رحمه الله -

قلت: نحن فسرنا ما ورد من نصوص كان يلمح فيها إلى ألوهيته.
قال: فهلم لتلك النصوص لنحاول فهمها على أساس المحكمات من النصوص.
قلت: لكي يكون حوارنا علمياً، فقد حصرت ما لدي من نصوص تفيد ما نؤمن به من عقائد في أربعة أمور..

قال: أراك أصابتك عدوى الأربع.. فما هي؟
قلت: الكلمة، والبنوة، والحلول والاتحاد، وخصائص الألوهية.
١ - الكلمة:

قال: فلنبداً بالكلمة.. فهي أكبر ما تستدلون به.
قلت: أجل.. ففي إنجيل يوحنا نجد العلم المتعلق بحقيقة طبيعة المسيح، لقد صرح بما لم يصرح به غيره.

لقد قال بصراحة وعمق وإيمان: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله، وكان الكلمة الله، هذا كان في البدء عند الله، كل شيء به كان، وبغيره لم يكن شيء مما كان) (يوحنا ١ / ١-٣).. فلم يقل: (كانت الكلمة مع الله)، أو (كانت الكلمة إله).. بل قال بكل وضوح ودون أي إغاز: (وكان الكلمة الله)

بل هو يؤكد بكل صراحة أن التجسد هو الله، فيقول: (والكلمة صار جسداً، وحل بيننا، ورأينا مجده كما لوحيده من الآب مملوءاً نعمة وحقاً) (يوحنا: ١ / ١٤)

قال: سأرد على هذا من أربعة وجوه.. فاصبر علي..
قلت: لك كل الحرية.. وكل الوقت.. فقد اتفقنا على البحث عن الحقيقة.. ولا شيء غير الحقيقة.

قال: أولاً.. من هو يوحنا؟.. ومتى كتب إنجيله؟.. وكيف يجروء على قول ما لم يقله

المسيح؟

قلت: أتريد أن تشككني في يوحنا كما شككتني في بولس؟

قال: إن الباحث عن الحقيقة لا يهتم من يطرح في طريقها من الرجال.. أليس الحق

أحب إلينا من الرجال؟

قلت: بلى.. ولكن الرجال هم الذين نعرف بهم الحق..

قال: فلندرسهم لنرى مدى أهليتهم لتبليغ الحق.

قلت: لا بأس.. ولكن تذكر أنه من القديسين.. ولا ينبغي أن نتحدث عن القديسين إلا

بصحبة الأدب.

قال: لك علي ذلك.. والمؤمن طاهر اللسان.. أتعلم متى كتب إنجيل يوحنا؟

قلت: كتب بعد حوالي ستين عاما من رحيل المسيح على حسب ما يذكر

المؤرخون^(١).

قال: فمثل هذا كيف يحفظ ما قاله المسيح؟.. ثم ألا تعلم أن أغلب ما في إنجيل يوحنا

من رسائل بولس؟ وقد عرفت من هو بولس.. بل قد جاء في دائرة المعارف الفرنسية التي

لم يكتبها المسلمون أن إنجيل يوحنا ومرقس من وضع بولس..

قلت: دعنا من هذا.. فقد سبق الحديث عنه.. نريد أن نتعامل بدون أي خلفية مع كلام

يوحنا.. ما الذي يشككك فيه؟

قال: أولا.. إن هذا الكلام الخطير الذي يحول من المسيحية البسيطة التي تتجلى في

سائر الأناجيل إلى فلسفة معقدة يستدعي البحث عن مصدر هذا الكلام.

^(١) كتب إنجيل يوحنا في حوالي ٩٠ - ٩٥ م.. انظر التفاصيل المرتبطة به وبإنجيله في (الكلمات المقدسة) من

هذه السلسلة.

قلت: وضح ما تريد.

قال: اذكر لي أول جملة بدأت بها سائر الأناجيل.

قلت: أول جملة في إنجيل متى تقول: (كتاب ميلاد يسوع المسيح ابن داود ابن

إبراهيم) (متى: ١/ ١)

وأول جملة في إنجيل مرقس: (بدأ إنجيل المسيح ابن الله) (مرقس: ١/ ١)

وأول جملة في إنجيل لوقا: (إذا كانوا كثيرين قد أخذوا بتأليف قصته) (لوقا: ١/ ١)

قال: وبينها جميعاً أول جملة في إنجيل يوحنا: (في البدء كان الكلمة..)

(يوحنا: ١/ ١)

قلت: وما الغرابة في ذلك؟

قال: إن يوحنا يوضح مقصده من هذا الإنجيل، فهو يريد أن يثبت فيه ما ذكره في هذه

المقدمة.. ولهذا لا يوجد مثل هذا الكلام إلا في إنجيل يوحنا ورسائل بولس، بينما تخلو

الأناجيل الثلاثة من دليل واضح ينهض في إثبات ألوهية المسيح.

ولعل خلو هذه الأناجيل عن الدليل هو الذي دفع يوحنا، أو كاتب إنجيل يوحنا لكتابة

إنجيل عن لاهوت المسيح، فكتب ما لم يكتبه الآخرون، وجاءت كتابته مشبعة بالغموض

والفلسفة الغربية عن بيئة المسيح البسيطة التي صحبه بها العوام من أتباعه^(١).

(١) ينه ديدات إلى أن هذا النص قد انتحله كاتب الإنجيل من فيلون الإسكندراني (ت ٤٠م)، وأنه بتركياته الفلسفية غريب عن بيئة المسيح وبساطة أقواله وعامية تلاميذه، وخاصة يوحنا الذي يصفه سفر أعمال الرسل بأنه عامي عديم العلم، فيقول: «فلما رأوا مجاهرة بطرس ويوحنا، ووجدوا أنهما إنسانان عديما العلم وعاميان تعجبوا» (أعمال ١٣/ ٤)

وفيلون الإسكندراني (٢٠ ق.م - ٤٠ م) يهودي عاش في العصر الهلنستي بالإسكندرية، وهو فيلسوف ومفكر كان متأثراً بالفلسفة اليونانية، فقد كان يعتبر أن العقل أو اللوجوس هو الذي صدر عنه وجود كل المخلوقات. وكان

قلت: فأنت تستدل باختلاف مقدمة إنجيل يوحنا عن سائر مقدمات الأناجيل على اختلافه عنها.

قال: ليست المقدمة وحدها.. لقد كانت المقدمة هي الإعلان عن المقصد الذي قصده يوحنا من إنجيله.. والذي أعلن عنه بعد ذلك بكل صراحة بقوله: (وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله) (يوحنا: ٢٠ / ٣)

بعد هذا نرى أن أشياء كثيرة يخالف بها هذا الإنجيل سائر الأناجيل:
فلا توجد في هذا الإنجيل حادثة التجلي: أي تغير هيئة المسيح على الجبل، لأن المجد الثابت والمتواصل للمسيح الأرضي لا يترك مجالاً لمثل هذا الأمر.
وفيه إشارات لكون المسيح كلي العلم، ولكون قدرة المسيح غير البارزة، ولكن الموجودة الكامنة، قدرة لا حد لها.. بل إن فيه تصويراً للمسيح على أنه لا يعتره التعب ولا الجوع ولا العطش، وفيه عرضٌ للمسيح باعتباره شخصاً ذا سيطرة وتسيير كاملين ومستديمين لكل ما يفعله وما يحصل له حتى موته.

وهو ينفرد بالتصريح باتحاد الأب والابن حيث يقول: (أنا والأب واحد) (يوحنا: ١٠ / ٣٠)، ويقول: (كل من رآني فقد رأى الأب) (يوحنا: ١٤ / ٩)

قلت: وسائر الأناجيل؟

قال: في الأناجيل الثلاثة المتشابهة.. أي أناجيل متى ومرقس ولوقا يرى المسيح محدوداً ضمن حدود حياته الأرضية ومنصبه الرسالي.. فهي تعبر عما قاله المسيح وما فعله في حين أن إنجيل يوحنا هو تفسير لما يمثله المسيح، فهو يعبر عن فهم المعنى الألوهي

يكفي هذا (اللوغوس) بقوله (الكلمة) ومن المعروف أن يوحنا كتب إنجيله بعد وفاة (فيلون) واستعار منه (مصطلح الكلمة)

للمسيح، ذلك الفهم والتصور الذي تطور ونما في الدوائر المسيحية في نهاية القرن الميلادي الأول.

قلت: فكيف تفسر هذا الاختلاف؟

قال: إن الذي يظهر لي كما ظهر لباحثين كثيرين.. وهو ما يدل عليه واقع الدعوة للمسيحية أنه حصل خلال ستين عاماً بعد وفاة المسيح أن لغة البنوة لله، أي عبارة (ابن الله) التي يمتلئ بها الكتاب المقدس نقلت من تربة لتربة أخرى.. نقلت من تربة الفكر اليهودي إلى تربة جديدة هي تربة العالم الإغريقي الروماني وما يحمله من وثنية.

قلت: وما سر هذا التحول؟

قال: هو ما ذكرناه من الاهتمام بانتشار الدين والذي زاحم الاهتمام بصفاته.. لقد كان إنجيل يوحنا يعبر عن رغبات المتدينين الجدد الممثلين بالوثنية.

ولهذا كان الترحيب والتهليل لفكرة المسيح إلهاً استجابة طبيعية لجماعة تؤمن بإله يُعتقد فيه أن من شأنه أنه يكشف عن نفسه للإنسان ويعرّف نفسه للإنسان.. ومن هنا نجد إنجيل يوحنا يحدثنا عن الابن الوحيد الذي أظهر الله وعرفه فيقول: (الله لم يره أحد، الابن الوحيد الذي هو في حضن الآب هو خبّر) (يوحنا: ١ / ١٨).. ويخبرنا أيضاً أن الابن (خرج من عند الآب وأتى إلى العالم) (يوحنا: ١٦ / ٢٨)

قلت: وعيت ما أردته من الوجه الأول.. فما الوجه الثاني؟

قال: أنت تعلم أن من أساليب قومك في التحريف تغيير الترجمات.

قلت: دعك من هذا.. ألم نتفق على احترام بعضنا بعضاً؟

قال: أعذر إليك إن كان هذا الكلام قد ساءك.. ولكن البحث عن الحقيقة قد اضطرنا

إليه اضطراراً.

قلت: فما في اختلاف الترجمات من الأدلة على الحقيقة التي نبحت عنها؟
قال: لقد لاحظت أن هناك تلاعباً في الترجمة الإنجليزية، وهي الأصل الذي عنه
ترجم الكتاب المقدس إلى لغات العالم.

قلت: فما هو المصدر الذي نرجع إليه لفهم النص الأصلي؟
قال: لفهم النص على حقيقته لا بد أن نرجع إلى الأصل اليوناني.. فالنص في الترجمة
اليونانية تعريبه هكذا: (في البدء كان الكلمة، والكلمة كان عند الله) وهنا يستخدم النص
اليوناني بدلاً من كلمة (الله) كلمة (hotheos)، وفي الترجمة الإنجليزية تترجم (God)
للدلالة على أن الألوهية حقيقة^(١).

ثم يمضي النص فيقول: (وكان الكلمة الله)، وهنا يستخدم النص اليوناني كلمة
(tontheos)، وكان ينبغي أن يستخدم في الترجمة الإنجليزية كلمة (god) بحرف صغير
للدلالة على أن الألوهية مجازية (إله)، والتي لا تعني في اصطلاح الكتاب المقدس
بالضرورة الله المعبود بحق، بل تأتي أحياناً على معنى السيد والرئيس المطاع أو على معنى
ملاك عظيم، كما وقع في نص سفر الخروج: (جعلتك إلهاً لفرعون) (الخروج ٧ / ١)
ولهذا استخدم النص اليوناني كلمة (tontheos)، والتي ينبغي في النص الإنجليزي
(god) مع وضع أداة التنكير (a).

^(١) كمثال على ذلك أنه عندما تقول: عبد اليونان القدامى آلهة كثيرة، فإنك تقول بالإنجليزية:

The Ancient Greeks worshipped many gods.

وعندما تقول: نحن نعبد إلهاً واحداً، فإنك تقول بالإنجليزية:

We worship one God.

فعندما يكون الإله معبوداً بحق تستخدم في بدايته الحرف الكبير G وعندما لا يكون معبوداً بحق تستخدم في بدايته
الحرف الصغير g.

لكن الترجمة الإنجليزية حرفت النص اليوناني لمقدمة يوحنا فاستخدمت لفظة (God) التي تفيد ألوهية حقيقة بدلاً من (god) التي تفيد ألوهية معنوية أو مجازية، فوقع اللبس في النص، وهذا ولا ريب نوع من التحريف^(١).

صمت، فقال: سأذكر لك من الشواهد ما يؤيد هذا الوجه.. فكلمة إله لا تعني بالضرورة الله المعبود بحق كما في الكتاب المقدس:

فقد استعملت للدلالة على الشيطان كما في (كورنثوس الثانية: ٤ : ٤): (الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين لئلا تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح الذي هو صورة الله)

واستعملت كلمة آلهة التي هي ثيؤس اليونانية، فقد جاء في (يوحنا ١٠ : ٣٤): (أجابهم يسوع أليس مكتوباً في ناموسكم أنا قلت أنكم آلهة) وفي (أعمال ١٠ : ٤٠): (قائلين لهرون اعمل لنا آلهة تتقدم أمامنا. لأن هذا موسى الذي أخرجنا من أرض مصر لا نعلم ماذا أصابه)

^(١) بعض الترجمات تقرر ذلك مثل ترجمة العالم الجديد التي تنص على:

.In the beginning was the Word, and the Word was with God, and the Word was divine" New World "Translation

و كذلك هذه الترجمة وتسمى العهد الجديد ترجمة أمريكية:

.In the beginning the Word existed. The Word was with God, and the Word was divine." The New Testament, An American Translation, Edgar Goodspeed and J. M. Powis Smith, The University of Chicago Press, p. ١٧٣

و في قاموس الكتاب المقدس لجون ماكنزي طبعة كولبير صفحة ٣١٧ :

Jn ١:١ should rigorously be translated 'the word was with the God [=the Father], and the word was a divine being.'" The Dictionary of the Bible by John McKenzie, Collier Books, p. ٣١٧.

وفي (أعمال: ١٠: ٤٣): (بل حملتم خيمة مولوك ونجم إلهكم رمفان التماثيل التي صنعتوها لتسجدوا لها. فأنتقلكم إلى ما وراء بابل) فإنه الوثنيين هنا أيضا (ثيؤس)
وفي (أعمال: ١٤: ١١): (فاجمعو لما رأوا ما فعل بولس رفعوا صوتهم بلغة ليكأونية قائلين ان الآلهة تشبهوا بالناس ونزلوا إلينا).. فحتى بولس حصل هو أيضا على نفس اللفظة اليونانية.

وفي (أعمال: ١٩: ٢٦): (وانتم تنظرون وتسمعون انه ليس من افسس فقط بل من جميع اسيا تقريبا استمال وازاغ بولس هذا جمعا كثيرا قائلا إن التي تصنع بالأيادي ليست آلهة)

وفي (كورونثوس ٨: ٥): (لأنه وان وجد ما يسمى آلهة سواء كان في السماء أو على الأرض كما يوجد آلهة كثيرون وأرباب كثيرون)
وكل الأمثلة السابقة كانت الكلمة في الأصل ثيؤس.

وقد اتفق مفسروا العهد القديم على أن المقصود بالآلهة وبينى العلي: الرؤساء والقضاة والملائكة، وأن لقب آلهة وأبناء الله لهم، ليس إلا لقبا تشريفيا لا أكثر، ولا يعني أبدا أنهم شركاء الله تعالى في ذاته ولا هوته.

بناء على ذلك فعبارة: (وإله هو الكلمة) معناها: (وكائنٌ روحيٌّ عظيمٌ بل رئيسٌ للكائنات وعظيمٌ مقربٌ من الله هو الكلمة)

بالإضافة إلى كل هذا.. أجبني.. أنتم تقولون: إن الكلمة هي الله.. وليست الكلمة هي الإله بمفهوم الكتاب المقدس لكلمة الله.
قلت: أجل.. ذلك ما نقوله.

قال: فيمكنك أن تستبدل إذن كلمة: (الكلمة) بكلمة: (الله)

قلت: أجل.. يمكن ذلك.

قال: سيصير النص حينها هكذا: (في البدء كان الله، وكان الله عند الله، وكان الله هو الله، الله كان في البدء عند الله).. هل ترى النص بهذه الصورة قائم المبنى مستقيم المعنى.. أم أنك تراه مختل المبنى غير مستقيم المعنى، بل لا معنى له ولا يصح. صمت، فقال: من البديهي أن الشيء لا يكون عند نفسه، فلا يصح أن نقول كان زيد عند زيد.

قلت: وعلى التفسير الذي ذكرته، والذي ترى أن الترجمة حرفته. قال: سيستقيم المعنى بذلك.. لأنه إذا صار الإله المُنكَرَ بمعنى الكائن الروحي العظيم الذي هو غير الله، صح أن نعتبره كان عند الله. قلت: أسلم لك هذا.. فحرف واحد قد يغير المعنى تغييرا كلياً.. ومع ذلك.. فهذا توجيه لا يكفي.. أنا أريد توجيهها للنص نفسه.. وأنت إلى الآن تطوف بالنص.. ولا تجرؤ على القرب منه.

قال: لا يمكن أن تفهم النص مبتورا عن سياقه.. ولكن مع ذلك بحثت في هذا.. وهو الوجه الثالث من وجوه الرد على الاستدلال بهذا القول.

بماذا يبدأ هذا القول؟

قلت: يبدأ بقوله: (في البدء كان الكلمة)

قال: أنتم تفهمون من هذا أزلية المسيح.

قلت: أجل.. فالمسيح الإله كان موجوداً في الأزل قبل الخليقة.. وهذا النص يدل على ذلك.. ويدل على ذلك نصوص أخرى:

فهذا يوحنا يقول على لسان المسيح: (إن إبراهيم تشوق إلى أن يرى يومي هذا، فقد

رآني وابتهج بي، من قبل أن يكون إبراهيم كنت أنا(يوحنا ٨ / ٥٦-٥٨)، فهذا يدل على أن وجوده كان قبل إبراهيم، وذلك لا يعني إلا أنه كائن أزلي.

ويوحنا يقول عن المسيح: (هو ذا يأتي مع السحاب، وستنظره كل عين، والذين طعنوه...أنا هو الألف والياء، البداية والنهاية)(الرؤيا ١ / ٧-٨) أي الأول والآخر. فهذه النصوص مصرحة برأي النصارى بأولية المسيح وأبديته، وعليه فهي دليل ألوهيته.

قال: هذه نتيجة فهمتموها.. ويمكن تأويلها لمن أراد أن يحافظ على إحكام النصوص من غير أن ينسب غيرها من النصوص إلى القول على المسيح. قلت: فكيف تؤولها.. وهي واضحة صريحة.. أم أنك ستعود بي إلى أنها أقوال ليوحنا؟

قال: لن أعود بك إلى ذلك.. فللحق من الأدلة ما لا يعوزنا إلى التكرار. فلنبداً بأول كلمة.. وهي كلمة (البداء)؟.. ما معنى كلمة (البداء)؟ قلت: هي الأزل الذي لا بداية له.

قال: ولكنها لم ترد في الكتاب المقدس بهذا المعنى فقط.. بل وردت بمعان أخرى: فقد وردت للدلالة على وقت بداية الخلق والتكوين كما ورد في سفر التكوين: (في البدء خلق الله السموات والأرض)(التكوين ١ / ١) ووردت للدلالة على وقت نزول الوحي، كما في قول متى: (ولكن من البدء لم يكن هذا)(متى ١٩ / ٨)

ووردت للدلالة على فترة معهودة من الزمن كما في قول لوقا: (كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء)(لوقا ١ / ٢)، أي في أول رسالة المسيح..

بل ورد مثل ذلك من قول يوحنا، فقد قال: (أيها الإخوة لست أكتب إليكم وصية جديدة بل وصية قديمة كانت عندكم من البدء. الوصية القديمة هي الكلمة التي سمعتموها من البدء) (يوحنا ١) ٢ / ٧).

ومثل ذلك قوله: (ولكن منكم قوم لا يؤمنون. لأن يسوع من البدء علم من هم الذين لا يؤمنون ومن هو الذي يسلمه) (يوحنا ٦ / ٦٤).

وعلى هذا فلا يجوز اعتبار هذه الكلمة يراد بها الأزل.

قلت: لا.. في هذا المحل لا يفهم منها إلا الأزل.

قال: بأي قرينة فهمت ذلك؟

قلت: بقرينة الأقوال الأخرى التي ذكرتها.. فهي تفسر المراد بالبدء.

قال: ولهذا سترك كلمة البدء لنبحث في دلالة ما ذكرت من أقوال تستدل بها على أزلية المسيح.

قلت: المنهج العلمي يقتضي هذا.

قال: ما المراد بقول بولس عن نفسه وأتباعه: (كما اختارنا فيه قبل تأسيس العالم لنكون

قديسين) (أفسس: ١ / ٤).. فهل كان بولس ومن معه من القديسين أزليين وآلهة كال المسيح؟

قلت: لا.. مراده من ذلك أن اختيار الله واصطفاء له قديم.

قال: أتقصد أنه أراد أن يقول: (اختارنا بقدره القديم)، ولا يفيد أنهم وجدوا حينذاك.

قلت: أجل.. هذا ما ينبغي أن يفهم من قول بولس.

قال: وهذا ما ينبغي أن يفهم من قول يوحنا عن المسيح.. فليس المقصود الوجود

الحقيقي للمسيح كشخص، بل المقصود الوجود القدري والاصطفائي.

وهذا الاصطفاء هو المجد الذي منحه الله المسيح، كما في قوله: (والآن مجدني أنت

أيها الأب عند ذاك بالمجد الذي كان لي عندك قبل كون العالم (يوحنا ١٧ / ٥)، وهو المجد الذي أعطاه لتلاميذه حين اصطفاهم واختارهم للتلمذة كما الله اختاره للرسالة: وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني (يوحنا ١٧ / ٢٢)

ومثله عرف إبراهيم المسيح قبل خلقه، لا بشخصه طبعاً، لأنه لم يره قطعاً: (فقد رأيته وابتهج بي)، فالرؤية مجازية، وهي رؤية المعرفة، وإلا لزم النصارى أن يذكروا دليلاً على رؤية إبراهيم لابن الذي هو الأقنوم الثاني.

قلت: فقول يوحنا على لسان المسيح أنه قال: (من قبل أن يكون إبراهيم كنت أنا) (يوحنا ٨ / ٥٦-٥٨)، ألا يدل على وجوده في الأزل؟

قال: لا.. وغاية ما يفيد النص إذا أخذ على ظاهره أن للمسيح وجوداً أرضياً يعود إلى زمن إبراهيم، وزمن إبراهيم لا يعني الأزل.

ومع ذلك، فلو كان المسيح أقدم من إبراهيم وسائر المخلوقات، فإن له لحظة بداية خلق فيها، كما لكل مخلوق بداية، وقد ذكر بولس هذا فقال: (الذي هو صورة الله غير المنظور بكر كل خليقة) (كولوسي ١ / ١٥)، وبكر الخلائق أي أولها، وذلك يستدعي كونه مخلوقاً.

صمت، فقال: أتعرف ملكي صادق كاهن ساليمة في عهد إبراهيم؟

قلت: وكيف لا أعرفه، وقد أثنى عليه بولس ثناء حسناً لم يحظ به غيره؟

قال: ألا يخبر بولس أن لا أب له ولا أم، وأنه لا بداية له ولا نهاية؟

أدركت ما يرمي إليه، فقلت: أجل.. لقد قال عنه: (ملك صادق هذا ملك ساليمة كاهن الله العلي... بلا أب، بلا أم، بلا نسب، لا بداءة أيام له، ولا نهاية حياة، بل هو مشبه بابن الله، هذا يبقى كاهناً إلى الأبد) (عبرانيين ٧ / ١-٣)

قال: فلم لا تقولون بالوهية ملكي صادق الذي يشبه بابن الله.. بل هو متفوق على المسيح الذي تذكرون أنه صلب ومات، وله أم بل وأب حسب ما أورده متى ولوقا، في الحين الذي ينتزه فيه ملكي صادق عن ذلك كله؟

صمت، فقال: دعنا من ملكي صادق وهيا بنا إلى سليمان ألم يقل عن نفسه: (أنا الحكمة أسكن الذكاء، وأجد معرفة التدابير... الرب قناني أول طريقه، من قبل أعماله منذ القديم، منذ الأزل مسحت، منذ البدء، منذ أوائل الأرض، إذ لم يكن ينابيع كثيرة المياه، ومن قبل أن تقرر الجبال أبدئت، قبل التلال أبدئت)(الأمثال ٨ / ١٢ - ٢٥).

قلت: لعله يشير هنا إلى المسيح.

قال: لا.. أنت والجميع تدركون أنه يشير به إلى نفسه.. فسليمان هو الموصوف بالحكمة في الكتاب المقدس، كما في سفر الأيام: (مبارك الرب إله إسرائيل الذي صنع السماء والأرض، الذي أعطى داود الملك ابناً حكيماً صاحب معرفة وفهم، الذي يبني بيتاً للرب وبيتاً لملكه)(أيام: ٢ / ١٢)

بينما لم تطلق الحكمة أصلاً على المسيح، ولم يختص بها، فلا وجه في الدلالة على ألوهية المسيح بهذا النص قطعاً.

قلت: ولكنه قال: (منذ الأزل مسحت)

قال: هذه الكلمة لا تدل على المسيح وحده، لأن لفظ (المسيح) لقب أطلق على كثيرين غير المسيح.. فالمسحاء من مسحهم الله ببركته من الأنبياء كداود وإشعيا كما في (المزمور: ٤٥ / ٧)، و(إشعيا: ٦١ / ١)، فلا وجه لتخصيص المسيح بهذا اللقب.

قلت: وما ترد على ما ورد في نصوص سفر الرؤيا، والتي ذكرت أن المسيح هو الألف والياء، وأنه الأول والآخر؟

قال: أولاً.. جميع ما في هذا السفر مجرد رؤيا منامية غريبة رآها يوحنا، ولا يمكن أن يعول عليها، فهي منام كسائر المنامات التي يراها الناس، فقد رأى يوحنا حيوانات لها أجنحة وعيون من أمام، وعيون من وراء، وحيوانات لها قرون بداخل قرون، كما في (الرؤيا: ٨/٤)

قلت: ولكن يوسف كما يقول قرآنكم رأى الكواكب والشمس والقمر ساجدة له، ومع ذلك اعتبرت رؤياه صحيحة صادقة.. بل كانت حياة يوسف كلها تأويلاً لهذه الرؤيا.
قال: صدقت.. وهذا ما أردت أن أجرك إليه.. هل يمكن لفلكي أن يستنتج من قول يوسف حقائق علمية تربط بالفلك؟

قلت: لا.. فالرؤيا لا يراد بها ظاهرها.. بل كانت الكواكب تشير إلى إخوة يوسف، والشمس والقمر يشير إلى والديه.
قال: فكذلك ما ذكرت من الرؤيا.. لا بد لها من تأويل.. أو أن فهمها يختلف باختلاف مؤولها.

قلت: ولكن هناك من الرؤى ما يكون له من الوضوح ما لا يستدعي تأويلاً.
قال: لا بأس.. سأسلم لك هذا.. لقد ورد في آخر هذا السفر مثل هذه العبارات صدرت عن أحد الملائكة كما يظهر من سياقها، وهو قوله: (أنا يوحنا الذي كان ينظر ويسمع هذا.. وحين سمعت ونظرت خررت لأسجد أمام رجلي الملاك الذي كان يريني هذا. فقال لي: انظر لا تفعل. لأنني عبد معك ومع إخوتك الأنبياء والذين يحفظون أقوال هذا الكتاب. اسجد لله. وقال لي: لا تختتم على أقوال نبوة هذا الكتاب لأن الوقت قريب.. وها أنا آتي سريعاً، وأجرتي معي. أنا الألف والياء. البداية والنهاية. الأول والآخر) (الرؤيا ٢٢/٨-١٣)، وليس في ظاهر النص ما يدل على انتقال الكلام من الملاك إلى المسيح أو

غيره.

صمت، فقال: فلتترك: (البداء).. ولنذهب إلى الكلمة.

ما المقصود بالكلمة؟ هل هو المسيح؟ أم أن اللفظ يحتمل أموراً أخرى؟

قلت: لفظة (الكلمة) لها إطلاقات عديدة في الكتاب المقدس، حيث يراد منها الأمر الإلهي الذي به صنعت المخلوقات، كما جاء في المزامير (بكلمة الله صنعت السماوات) (المزمور ١٣/٦)، ومثل ذلك ما ورد في التكوين: (وقال الله: ليكون نور فكان نور) (التكوين ١/٣)

ويراد منها الأَقْنوم الثاني من الثالوث.

قال: أين تجد ذلك في الكتاب المقدس؟

قلت: هذا ما يفهم من الكتاب المقدس.

قال: لقد اتفقنا على التفريق بين النص والفهم.. فقد يفهم أحدهم من كلامك ما لم ترده.

قلت: ولكن النصوص تستدعي الفهم.

قال: وفي حال الاختلاف في الفهوم نبحت في النصوص للبحث عن الفهم الصحيح.
قلت: أجل..

قال: فلماذا نخرج بالكلمة عن المراد منها.. والذي ذكر في الكتاب المقدس.. بل ذكر في كتاب المسلمين المقدس، فالله تعالى سمي المسيح كلمته، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ﴾ (النساء: من الآية ١٧١)..
فقد سمي المسيح كلمة لأنه خلق بأمر الله من غير سبب قريب، أو لأنه أظهر كلمة الله، أو

لأنه الكلمة الموعودة على لسان الأنبياء^(١).

قلت: إن يوحنا وضع المراد من الكلمة، فيقول: (وكان الكلمة الله)، فقد أطلق عليه اسم الله.

قال: فقد أطلق هذا الاسم على غير المسيح.. فهل تعتبرون كل من أطلق عليه هذا الاسم إلها؟

لقد أطلق على القضاة في العهد القديم هذا الاسم، فقد ورد فيها: (الله قائم في مجمع الله. في وسط الآلهة يقضي. حتى متى تقضون جوراً وترفعون وجوه الأشرار) (المزمور ٨٢/١).. ورد في سفر الخروج (٨: ٢٢): (وإن لم يوجد السارق يقدم صاحب البيت إلى الله ليحكم، هل يمد يده إلى ملك صاحبه) فقلوه: إلى الله، أي: إلى القاضي.. وورد في نفس السفر (٩: ٢٢): (في كل دعوى جنائية من جهة ثور أو حمار أو شاة أو ثوب أو مفقود ما، يقال: إن هذا هو، تقدم إلى الله دعواها، فالذي يحكم الله بذنبه يعوض صاحبه باثنين)، فقلوه إلى الله، أي: إلى القاضي نائب الله..

وأطلق لفظ الله على الملك، كما ورد في سفر القضاة (١٣: ٢١، ٢٢): (وَلَمْ يَتَجَلَّ

(١) نص المفسرون على أن معنى تسمية المسيح كلمة الله هو أن الله تعالى قد خلقه بالكلمة، وهي (كن)، وأن الكلمة نفسها ليست ذات المسيح، فالمسيح مخلوق بالكلمة وليس هو الكلمة.

وهذا ما يدل عليه قوله تعالى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٤٧)

فقد بينت هذه الآية الكريمة أنه لما تعجبت مريم - عليها السلام - من ولادة هذا الولد من غير أب أجابها الملاك مقررًا أن الله تعالى يخلق ما يشاء، فإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون، فدل ذلك على أن هذا الولد مما يخلقه الله بقوله (كن فيكون)

ويدل على هذا كذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران: ٥٩)

مَلَاكُ الرَّبِّ ثَانِيَةً لِمَنْوَحَ وَزَوْجَتِهِ. عِنْدَيْدِ أَذْرَكَ مَنْوَحُ أَنَّهُ مَلَاكُ الرَّبِّ. فَقَالَ مَنْوَحُ لِامْرَأَتِهِ
نموت موتاً لآثِنًا قَدْ رَأَيْنَا اللَّهَ) وواضح أن الذي تراءى لمنوح وامرأته كان الملك.

وأطلق على الشرفاء في قول داود: (أحمدك من كل قلبي، قدام الآلهة أرغم لك
(١٣٨/١)

وأطلق على الأنبياء كموسى في سفر الخروج (٧: ١): (قال الرب لموسى: انظر أنا
جعلتك إلهاً لفرعون وهارون أخوك يكون نبيك))

فلو كان إطلاق كلمة الله أو إله على المخلوق يقتضي أن اللاهوت حل فيه للزم بناء
على النصوص السابقة أن يكون الملك والقاضي والإشراف كلهم آلهة، وهذا لم يقل به
أحد.

ولكن بالنظر لكون الملائكة والقضاة نواباً عن الله أطلق عليهم كلمة الله، وبالنظر إلى
أن أولئك الأشراف فيهم صفة المجد والقوة اللتين يوصف بهما الله، أطلق عليهم لفظ الله
مجازاً.

قلت: فما تفهم أنت من: (الكلمة)؟

قال: أرى أن إطلاق الكلمة على المسيح في هذا الموضع تدل على أنه المقصود مما
جاء بكلام الأنبياء عنه وبشارتهم به فقد ورد في سفر أرميا (٣٣: ١٤) قوله: (ها أيام تأتي
يقول الرب: وأقيم الكلمة الصالحة التي تكلمت بها إلي بيت إسرائيل وإلي بيت يهوذا في
تلك الأيام) فالمراد بالكلمة الصالحة هنا هي كلمة الوعد والبشرى بالمسيح المنتظر.

وورد في سفر اشعيا (٢: ٣) قوله: (لأنه من صهيون تخرج الشريعة ومن أورشليم
كلمة الرب)

ومما يؤكد هذا أنه كثيراً ما يطلق لفظ (الكلمة) في الكتاب المقدس ويراد بها كلمة

الوعد والبشرى:

فقد ورد في (المزمور: ٤٢: ١٠٥): (لأنه ذكر كلمة قدسه مع إبراهيم عبده)
وورد في سفر (أخبار الأيام الأول: ١٦: ١٥): (اذكروا إلي الأبد عهده الكلمة التي
أوصى بها إلي ألف جيل الذي قطعه مع إبراهيم)
وبذلك تكون إضافة الكلمة إلى الله من باب الاحتراز عن الكلمة التي للشيطان، وهي
التي لا تصدق، كما جاء في سفر (الأمثال: ٥: ٣٠): (كل كلمة من الله نقية)
صمت، فقال: فلتترك هذا.. ولنحاول فهم قوله: (والكلمة كان عند الله).. ماذا تعني
الكلمة في هذا المحل؟

قلت: لا شك أنها تعني المثلية والمساواة.

قال: لقد ورد في الكتاب المقدس: (اقتنيت رجلاً من عند الرب) (التكوين ١ / ٤)،
فقاين ليس مساوياً للرب، ولا مثله، ومع ذلك عبر عنه بالعندية، أي أنه جاءها من عنده.
وفي موضع آخر: (وأمر الرب على سدوم وعمورة كبريتاً وناراً من عند الرب
(التكوين ١٩ / ٢٤))

سكت قليلاً، ثم قال: لقد ذكرنا ثلاثة وجوه للرد هي المصدر، والترجمة، والمحتوى،
وبقي لنا وجه رابع يقره العقل السليم.

قلت: فما هو؟

قال: هو لوازم القول.. فاللوازم قد يرد بها على ما فهم من القول.

قلت: ذلك صحيح..

قال: ألا ترى أنه يلزم من هذا النص إبطال عقيدة التثليث؟

قلت: كيف ذلك؟

قال: إن النص يتحدث عن الله والكلمة فقط، ولا يوجد أي أثر للأقنوم الثالث الذي هو الروح القدس.. فإذا كان الروح القدس هو إله حق مساوي للأب والابن في كل شيء، وأن له كل المجد الذي للأب والابن، فلماذا لم يذكر في هذه الافتتاحية المهمة؟ صمت، فقال: هذا اللازم الأول.. والثاني: ألم يقل يوحنا: (وكان الكلمة الله).. ألا يلزم عن هذا القول أن الجسد هو الله؟

قلت: لا يلزم ذلك.

قال: ولكن يوحنا قال: (والكلمة صار جسداً).. وبذلك يصبح للكلمة كيان مستقل إلهي.. وهو تصور لا يقبله إلا وثني.

صمت، فقال: لقد اعتبر يوحنا أن الكلمة هي الله، وأن الكلمة صارت جسداً.. ألا يلزم من ذلك صيرورة الله جسداً؟

صمت، فقال: وإذا صار الله جسداً.. أليس ذلك تغييراً فيه.. مع أن الكتاب المقدس يعلمنا أن الله لا يتغير (ملاخي ٣: ٦)؟

صمت، فقال: إذا صدقنا كلمة يوحنا، واعتبرنا الله صار جسداً.. فهذا يلزم عنه أن كل ما وقع لهذا الجسد من قبل اليهود من ضرب وجلد هو واقع على الكلمة لأن الكلمة صارت جسداً، وهذا من أبطل الباطل في حق الله الكامل المنزه عن كل نقص.

صمت، فقال: هل الكلمة هي التي تنطق بنفسها أم ينطق بها غيرها؟

قلت: بل ينطق بها الغير.

قال: فمن نطق بكلمة المسيح فكان؟ أليس هو الله؟

قلت: بلى..

قال: فالكلمة كانت عند الله، أي نطق الله بها، وهي كلمة (كن المسيح) فكان.. فكيف

تتحول الكلمة التي نطق الله بها، فتصير هي الله نفسه؟

صمت، فقال: هل رأيت إنساناً نطق بكلمة، ثم تحولت هذه الكلمة في الحال لتصبح

هي نفس الإنسان الذي نطق بها!؟

هل تتحول القصيدة التي ألفها شاعر لتصير هي نفس الشاعر!؟ أم أن الشاعر هو

ناطق، والقصيدة منطوقة بفمه، فيكون هو ناطقها، أي موجدتها وصانعها، والقصيدة

مصنوعة مصوغة بإرادته؟

صمت، فقال: ألا يكون القول عادة معبرا عن عقيدة قائله؟

قال: أجل.. إلا إذا كان منافقا يظهر خلاف ما يبطن.

قلت: لا.. لن نتحدث هنا إلا عن القديسين.. وعن يوحنا بالذات.. لقد وردت عن

يوحنا كلمات كثيرة تنبئ عن تصوره للعلاقة بين المسيح والله تعالى من خلال ما سطره في

إنجيله :

فهو ينقل عن المسيح قوله: (الحق الحق اقول لكم انه ليس عبد اعظم من سيده ولا

رسول أعظم من مرسله) (يوحنا: ١٣: ١٦)، فهو قد صرح هنا بأن الله أعظم ممن يرسله أو

المرسل أعظم من المرسل، فإذا كان الرسول ليس بأعظم من مرسله كما يقول المسيح،

وأن هناك فرق بين المرسل والمرسل، فلنثبت من كلام يوحنا أن الابن قد وقع عليه الإرسال

وأنه مرسل من الله.

وهو يقول في رسالته الأولى: (إن الله قد أرسل ابنه الوحيد إلى العالم لكي نحيا به)

(٩: ٤)

وهو يقول: (لأن الذي أرسله الله يتكلم بكلام الله. لأنه ليس بكييل يعطي الله الروح)

(يوحنا ٣: ٣٤)

وينقل عن المسيح قوله: (الآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي) (يوحنا: ٥: ٣٧)، فهل ترى أن من يريد أن يقنعنا بأن المسيح والله واحد يكتب مثل هذا؟

وينقل عنه قوله: (سمعتكم أني قلت لكم أنا اذهب ثم آتي إليكم. لو كنتم تحبونني لكنتم تفرحون لأنني قلت أمضي إلى الآب. لأن أبي أعظم مني) (يوحنا: ١٤: ٢٨).. فهل يستطيع أي شخص أن يذهب إلى نفسه، وتكون نفسه أعظم منه.

وهو يقول: (تكلم يسوع بهذا ورفع عينيه نحو السماء وقال أيها الآب قد أتت الساعة. مجد ابنك ليمجدك ابنك أيضا) (يوحنا: ١: ١٧) ومعنى هذا على حسب فهمكم لكلمة يوحنا: (مجدت نفسي حتى أمجد نفسي)

وينقل عن المسيح قوله: (أيها الآب أريد أن هؤلاء الذين أعطيتني يكونون معي حيث أكون أنا لينظروا مجدي الذي أعطيتني لأنك أحببتني قبل إنشاء العالم) (يوحنا: ١٧: ٢٤)

فهل ترى بعد كل هذا أن بداية إنجيل يوحنا تنسجم مع بقية إنجيل يوحنا نفسه؟

٢- البنية

قلت: سلمت لك بكل ما ذكرت.. فلنتنقل إلى اللفظ الثاني الذي نستنبط منه عقائدنا.. فالنصوص الإنجيلية تصف المسيح أنه ابن الله، وهي أدلة صريحة على ألوهية المسيح.

قال: سنرد على هذا من أربعة وجوه كذلك: المصدر، والترجمة، والمحتوى، واللوازم.

قال: أجبني هل سمى المسيح نفسه ابن الله؟

قلت: أجل.. لقد سمى نفسه كذلك في (يوحنا ١٠ / ٣٧)

قال: مرة واحدة كان ذلك، وفي الإنجيل الذي شككنا في مصدره.. والمحققون مع ذلك يشككون في صدور هذه الكلمات من المسيح أو تلاميذه، كما قال سنجر في كتابه

(قاموس الإنجيل): (ليس من المتيقن أن المسيح نفسه قد استخدم ذلك التعبير)

ويقول شارل جنير: (المسيح لم يدع قط أنه المسيح المنتظر، ولم يقل عن نفسه بأنه ابن الله، فهذه لغة استخدموها المسيحيون فيما بعد في التعبير عن المسيح)

ويقول العالم كولمن بخصوص هذا اللقب: (إن الحوارين الذين تحدث عنهم أعمال الرسل تأسوا بمعلمهم الذي تحفظ على استخدام هذا اللقب ولم يرغب به، فاستنوا بسنته) ويرى جنير أن المفهوم الخاطئ وصل إلى الإنجيل عبر الفهم غير الدقيق من المتنصرين الوثنيين فيقول: (مفهوم (ابن الله) نبع من عالم الفكر اليوناني)

قلت: ولكن مع ذلك، فقد أقر المسيح من أطلق عليه هذا الاسم.

قال: ستحدث عن هذا عند البحث عن دلالة الكلمة في الكتاب المقدس.. ولكني الآن أقول لك بأن بولس - وهو من هو - هو أول من استعمل الكلمة، وكانت حسب لغة المسيح تعني عبد الله، وترجمتها اليونانية servant، فأبدلها بالكلمة اليونانية pais بمعنى طفل أو خادم تقرباً إلى المتنصرين الجدد من الوثنيين.

وقد عرفنا أنه كان يهتم بنشر المسيحية بغض النظر عن صفاتها.

قلت: دعنا من هذا.. فأنا لا أحب التعرض لأحد بسوء.

قال: وأنا مثلك.. فلتترك الكلام في هذا.. ولنبحث في الكلمة نفسها.. أستم تستدلون بكون ابن الله على طبيعته الإلهية؟

قلت: بلى..

قال: فقد ذكر المسيح أيضاً أنه ابن الإنسان.. بل قد ذكر ذلك في ثلاث وثمانين نصاً من النصوص، كلها أطلقت على المسيح لقب (ابن الإنسان)، فلئن كانت تلك التي أسمته ابن الله دالة على ألوهيته، فإن هذه مؤكدة لبشريته، صارفة تلك الأخرى إلى المعنى

المجازي.

صمت، فقال: أليس من الكتاب المقدس قول متى: (قال له يسوع: للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار. وأما ابن الإنسان فليس له، أين يسند رأسه) (متى ٨ / ٢٠)
أليس فيها: (ابن الإنسان ماض كما هو مكتوب عنه) (مرقس: ١٤ / ٢١)؟
أليس فيها: (ليس الله إنساناً فيكذب، ولا ابن إنسان فيندم) (العدد ٢٣ / ٩) فالمسيح ليس الله؟

صمت، فقال: ومع ذلك.. هل خص المسيح بإطلاق هذا اللقب عليه؟
قلت: لا.. قد ورد في الكتاب المقدس ذكر لأبناء كثيرين لله..
قال: فعدد لي منهم من ذكروا بهذا الوصف.
قلت: هم كثيرون:

فمنهم آدم الذي قيل فيه: (آدم ابن الله) (لوقا: ٣ / ٣٨)
ومنهم سليمان، فقد جاء في سفر الأيام: (هو يبنى لي بيتاً... أنا أكون له أباً، وهو يكون لي ابناً) (الأيام: ١٧ / ١٢ - ١٣)

ومنهم داود كما في المزامير: (أنت ابني، أنا اليوم ولدتك) (المزمور ٧ / ٢)
ومنهم الملائكة، كما في لوقا: (مثل الملائكة وهم أبناء الله) (لوقا ٢٠ / ٣٦)
قاطعني، وقال: وقد سمت النصوص آخرين أيضاً بأنهم أبناء الله، أو ذكرت أن الله أبوهم:

فالحواريون أبناء الله، كما قال المسيح عنهم: (قولي لهم: إني أصعد إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم) (يوحنا ١٧ / ٢٠)

وقال للتلاميذ أيضاً: (فكونوا أنتم كاملين، كما أن أباكم الذي في السماوات هو كامل

(متى ٤٨ / ٥)

وعلمهم المسيح أن يقولوا: (فصلوا أنتم هكذا: أبانا الذي في السماوات، ليتقدس اسمك) (متى ٩ / ٦)، وقوله: (أبوكم الذي في السماوات يهب خيرات للذين يسألونه) (متى ١١ / ٦)، فكان يوحنا يقول: (انظروا أية محبة أعطانا الآب حتى ندعى أولاد الله) (يوحنا: ١ / ٣)

بل إنه أطلق هذا اللقب على اليهود كما في قول المسيح لليهود: (أنتم تعملون أعمال أبيكم، فقالوا له: إننا لم نولد من زنا. لنا أب واحد، وهو الله) (يوحنا ٨ / ٤١)
وقد أطلق هذا اللقب في الكتاب المقدس على اليهود كثيراً، كما في قوله: (يكون عدد بني إسرائيل كرمل البحر الذي لا يكال ولا يعدّ ويكون عوضاً عن أن يقال لهم: لستم شعبي، يقال لهم: (أبناء الله الحي) (هوشع: ١ / ١٠).
ومثل ذلك ما ورد: (لما كان إسرائيل غلاماً أحببته، ومن مصر دعوت ابني) (هوشع: ١ / ١١).

ومثل ذلك ما جاء في سفر الخروج عن جميع شعب: (فتقول لفرعون هكذا: يقول الرب: إسرائيل ابني البكر. فقلت لك: أطلق ابني ليعبدني فأبيت) (الخروج ٤ / ٢٢)..
وخاطبهم داود قائلاً: (قدموا للرب يا أبناء الله، قدموا للرب مجداً وعزّاً) (المزمور ١ / ٢٩)

ومثله قوله: (لأنه من في السماء يعادل الرب. من يشبه الرب بين أبناء الله) (المزمور ٦ / ٨٩).

وفي سفر أيوب: (كان ذات يوم أنه جاء بنو الله ليمثلوا أمام الرب) (أيوب ١ / ٦).
بل أطلق هذا على الشرفاء والأقوياء كما ورد: (أن أبناء الله رأوا بنات الناس أنهن

حسناً. فاتخذوا لأنفسهم نساء من كل ما اختاروا... إذ دخل بنو الله على بنات الناس وولدن لهم أولاداً. هؤلاء هم الجبابرة الذين منذ الدهر ذوو اسم) (التكوين ٦/ ٢)
وقال الإنجيل عن صانعي السلام: (طوبى لصانعي السلام، لأنهم أبناء الله يُدعون)
(متى ٥/ ٩)

التفت إلي، وقال: فهل ترى أن كل هؤلاء يمكن اعتبارهم آلهة؟
قلت: لا..

قال: فلم تخصون المسيح وحده بالألوهية مع أن نفس اللفظ أطلق على غيره؟
قلت: ولكن المعنى الحقيقي للبنوة ورد خاصاً بالمسيح.
قال: في أي موضع؟

قلت: لقد نطقت به الشياطين، ففي إنجيل لوقا: (كانت شياطين أيضاً تخرج من كثيرين وهي تصرخ وتقول: أنت المسيح ابن الله، فانتهرهم، ولم يدعهم يتكلمون لأنهم عرفوه أنه المسيح) (لوقا ٤/ ٤١)

قال: أولاً هذا كلام الشياطين.. وثانياً: انتهرها المسيح.. وثالثاً: لا دليل على أن المراد من البنوة هنا نفس ما ورد في سائر المواضع.. ورابعاً: لم تقل الشياطين أن هذا هو ابن الله الحقيقي لا المجازي الذي تعودوا عليه.

قلت: لكن نصوص الكتاب المقدس تذكر تميزاً مستحقاً للمسيح في بنوته عن سائر الأبناء.

قال: وما هي؟

قلت: لقد جاء وصف المسيح بأنه الابن البكر أو الوحيد لله (عبرانيين: ١/ ٦،
يوحنا: ٣/ ١٨)

وسمي ابن الله العلي (لوقا: ١/ ٣٢، ٧٦)

وذكر أنه ابن ليس مولوداً من هذا العالم كسائر الأبناء، بل هو مولود من السماء، أو من فوق (يوحنا ١/ ١٨).

قال: ولكن كل ما ذكرته تثبت النصوص أمثاله لأبناء آخرين:

فالبكورية وصف بها إسرائيل: (إسرائيل ابني البكر) (الخروج: ٤/ ٢٢-٢٣)

ومثل ذلك افرام: (لأنني صرت لإسرائيل أباً، وإفرام هو بكري) (إرميا: ٩/ ٢١)

ومثل ذلك داود: (هو يدعوني: أنت أبي وإلهي وصخرة خلاصي، وأنا أيضاً أجعله

بكرًا، فوق ملوك الأرض علياً) (المزمور ٨٩/ ٢٦-٢٧)

وابن الله العلي، ذكر مثلها لغير المسيح:

فقد ذكرت لسائر بني إسرائيل: (وبنو العلي كلكم) (مزمور: ٨٢/ ٦)

وذكرت في تلاميذ المسيح، فهم أيضاً بنو العلي: (أحبوا أعداءكم... فيكون أجركم

عظيماً

وعبارة (الابن الوحيد) في الكتاب المقدس لا تعني بالضرورة الانفراد والوحداية

الحقيقية، بل قد يقصد بها الخطوة الخاصة والمنزلة الرفيعة، فقد ورد في سفر التكوين: (يا

إبراهيم! فقال: هاأنذا. فقال: خذ ابنك وحيدك الذي تحبه، اسحق، واذهب إلى أرض

المريا) (تكوين: ٢٢/ ١-٢)، فأطلق الكتاب المقدس على اسحق لقب الابن الوحيد

لإبراهيم، هذا مع أنه، طبقاً لنص التوراة نفسها، كان إسماعيل قد وُلد لإبراهيم، قبل إسحق،

كما جاء في سفر التكوين: (فولدت هاجر لأبرام ابناً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر

إسماعيل. كان أبرام ابن ست وثمانين لما ولدت هاجر إسماعيل لأبرام) (تكوين: ١٦ /

١٥-١٦)، ثم تذكر التوراة أنه لما بلغ إبراهيم مائة سنة بشر بولادة إسحق (التكوين: ١٧:

١٥ إلى ٢٠)، وبناء عليه لم يكن اسحق ابناً وحيداً لإبراهيم بالمعنى الحقيقي للكلمة، مما يؤكد أن تعبير (الابن الوحيد) لا يعني بالضرورة- في لغة الكتاب المقدس- معنى الانفراد حقيقة، بل هو تعبير مجازي يفيد أهمية هذا الابن، وأنه يحظى بعطف خاص ومحبة فائقة وعناية متميزة من أبيه، بخلاف سائر الأبناء.

التفت إلي، وقال: فأنت ترى من خلال هذا أنه لا خصوصية للمسيح.. لا في لفظ البنوة، ولا في الصفات المرتبطة بها.

قلت: نحن نستدل على ذلك بأدلة أخرى.

قال: لا.. دعنا مع هذا الدليل.. ولنتكلم عن كل دليل على حدة.. وإلا وقعنا في الدور.. ألسنا نبحث عن الحق؟

قلت: بلى..

قال: فلا ينبغي أن نتلاعب بالأدلة حين نبحث عنه.

قلت: نحن لا نتلاعب.. بل نحن نشير إلى أدلة أخرى.

قال: فأنت ترى أن هذا الدليل لا يكفي لتقرير ما تريدون.

لم أملك إلا أن أرد بالإيجاب، فقال: فلنطرحه إذن من جملة الأدلة.. لقد طرحنا دليل الكلمة.. وهنا نطرح دليل البنوة.

قلت: فما معنى البنوة الذي تراه؟

قال: عند تتبعنا لاستخدام عبارة (ابن الله) في الأناجيل نرى أن هذا التعبير يقصد به

معنى الصالح البار الوثيق الصلة بالله والمتخلق بأخلاق الله.. ويدل لهذا أدلة كثيرة:

فمرقس، وهو يحكي عبارة قائد المائة الذي شاهد المصلوب وهو يموت قال: (حقاً

كان هذا الإنسان ابن الله)(مرقس ١٥ / ٣٩).

ولما حكى لوقا القصة نفسها أبدل العبارة بمرادفها فقال: (بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً)(لوقا ٢٣ / ٤٧).

ومثل هذا الاستخدام وقع من يوحنا حين تحدث عن أولاد الله فقال: (وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله. أي المؤمنون باسمه)(يوحنا ١ / ١٢)

ومثله قال: (الذي يسمع كلام الله من الله)(يوحنا ٨ / ٤٧)

ومثل هذه الإطلاق المجازي للنبوة معهود في الكتب المقدسة التي تحدثت عن أبناء الشيطان، وأبناء الدهر (يوحنا: ٨ / ٤٤، لوقا: ١٦ / ٨)

وبهذا المعنى كان يستخدم اليهود - مخاطبي المسيح - لفظة (ابن الله)، التي لم تكن غريبة عليهم، بل شائعة ومستخدمة لديهم بهذا المعنى، ولذلك نجد أن أحد علماء اليهود وهو (نتنائيل) لما سمع من صديقه فيليس، عن نبيٍّ خرج من مدينة الناصرة، استنكر ذلك في البداية، لكنه لما ذهب ليرى المسيح بنفسه، عرفه المسيح وقال فيه: (هو ذا إسرائيلي خالص لا غش فيه)، فقال له نتنائيل: (من أين تعرفني؟)، فأجابه المسيح: (قبل أن يدعوك فيليس وأنت تحت التينة، رأيته)، فأجابه نتنائيل: (رأيي! أنت ابن الله، أنت ملك إسرائيل)(يوحنا ١: ٥-٤٩).. فلا شك أن مقصود نتنائيل، كإسرائيلي يهودي موحد، عالم بالكتاب المقدس، من عبارة ابن الله هذه، لم يكن: أنت ابن الله المولود منه والمتجسد ولا مقصوده: أنت أقنوم الابن المتجسد من الذات الإلهية.

قلت: وما أدراك بذلك؟

قال: لأن هذه الأفكار كلها لم تكن معروفة في ذلك الوقت، ولا تحدث المسيح نفسه عنها، ولأن هذه الحادثة حدثت في اليوم الثاني لبعثة المسيح فقط.. إن الواضح المقطوع به أن مقصود نتنائيل من عبارته أنت ابن الله: أنت مختار الله ومجتهبه، أو أنت حبيب الله أو

من عند الله، أو أنت النبي الصالح البار المقدس، ونحو ذلك.

ومما يؤكد ذلك، أن لقب (ابن الله) جاء بعينه، في الإنجيل، في حق كل بارٍّ صالح غير المسيح، كما استعمل (ابن إبليس) في حق الإنسان الفاسد الطالح:

ففي إنجيل متى (٥: ٩): (طوبى لصانعي السلام فإنهم أبناء الله يُدْعَوْنَ).. وفيه أيضا: (وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم، باركوا لاعنيكم، أحسنوا إلى مبغضيك، وصلوا لأجل الذين يسيئون إليكم، ويطردونكم، لكي تكونوا أبناء أبيكم الذي في السموات) (متى ٥: ٤٤-٤٥)

وفي إنجيل لوقا (٦: ٣٥): (بل أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا وأتمم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما وتكونوا بني العليِّ فإنه منعم على غير الشاكرين والأشرار)، فسمَّى الأبرار المحسنين بلا مقابل المتخلِّقين بخُلُقِ الله بـ (أبناء العلي) و(أبناء أبيهم الذي في السموات)..

و في الإصحاح الأول من إنجيل يوحنا يقول: (وأما الذين قبلوه (أي قبلوا السيد المسيح)، وهم الذين يؤمنون باسمه، فقد مكَّنه أن يصيروا أبناء الله) (١: ١٢) وكل هذا يدل على أنه في لغة مؤلفي الأناجيل واللغة التي كان يتكلمها السيد المسيح، كان يُعبَّر بـ (ابن الله) عن كل رجل بار صالح وثيق الصلة بالله مقرب منه يحبه الله ويتولاه ويجعله من خاصته وأحبابه.

قلت: فما وجه الاستعارة في هذا؟

قال: وجه هذه الاستعارة في هذا واضح.. فالأب جُبلَ على أن يكون شديد الحنان والرأفة والمحبة والشفقة لولده، حريصا على أن يجلب له جميع الخيرات ويدفع عنه جميع الشرور، فإذا أراد الله تعالى أن يبين هذه المحبة الشديدة والرحمة الفائقة والعناية الخاصة

منه لعبده فليس أفضل من استعارة تعبير كونه أبا لهذا العبد وكون هذا العبد كابن له.

هذا إذا أحسنا ظننا بالكتاب المقدس، ولم نتصور وقوع التحريف فيه.

قلت: وهو الأصل.

قال: أنا أتعامل معك على هذا الأصل.. وقد جاء في رسائل العهد الجديد ما يوضح

هذا المجاز أشد الإيضاح ولا يترك فيه أي مجال للشك أو الإبهام:

فقد جاء في رسالة يوحنا الأولى (١: ٥-٢) قوله: (كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح

فقد ولد من الله. وكل من يحب الوالد يحب المولود منه أيضا. بهذا نعرف أننا نحب أولاد

الله إذا أحببنا الله وحفظنا وصاياه)

وفي آخر نفس هذه الرسالة: (نعلم أن كل من ولد من الله لا يخطئ بل المولود من

الله يحفظ نفسه والشرير لا يمسسه) (١٨: ٥)

وفي الإصحاح الثالث من نفس تلك الرسالة، يقول يوحنا: (كل من هو مولود من الله

لا يفعل خطيئة لأن زرعته يثبت فيه ولا يستطيع أن يخطئ لأنه مولود من الله، بهذا أولاد الله

ظاهرون وأولاد إبليس..) (رسالة يوحنا الأولى: ٣: ٩-١٠)

وفي الإصحاح الرابع من تلك الرسالة: (أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضا لأن المحبة

هي من الله وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله) (رسالة يوحنا الأولى: ٤: ٧)

وفي رسالة بولس إلى أهل رومية (٨: ١٤-١٦): (لأن كل الذين يتقادون بروح الله

فأولئك هم أبناء الله. إذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف، بل أخذتم روح التبني الذي

به نصرخ يا أبا الأب. الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا أولاد الله.))

وفي رسالة بولس إلى أهل فيليبس (٢: ١٤-١٥): (افعلوا كل شيء بلا دمدمة ولا

مجادلة. لكي تكونوا بلا لوم وبسطاء أولاد الله بلا عيب في وسط جيل معوج وملتو

تضيئون بينهم كأنوار في العالم)

ففي كل هذه النصوص استعملت عبارات: ابن الله، أبناء الله، أولاد الله، والولادة من الله، بذلك المعنى المجازي.

قلت: فما هي اللوازم التي تنتج عن هذا القول.. ويرد بها عليه.

قال: كثيرة.. أولها أن تعتبر كل من أطلق عليه هذا الإطلاق ابناً لله.. لأنك لا يصح أن تعتبر اللفظ حقيقة في موضع، ثم تعتبره مجازاً في نفس الموضع.
قلت: لم أفهم ما الذي ترمي إليه.

قال: رأيته لو قلت لك: استضفت أسداً، وأطعمته من أطيب الطعام، وألبسته من أحسن الثياب.. فما تفهم من هذا الكلام؟

قلت: أفهم منه المعنى المجازي.. فهذه الأوصاف لا تليق إلا بأسد بشري.
قال: رأيته لو قلت لك: أنا أقصد معنى حقيقياً، ومعنى مجازياً.

قلت: كيف يمكن أن يجتمعا في محل واحد؟

قال: أقول لك: إن الأسد الذي أطعمته أسد حقيقي.. بينما الأسد الذي لبس الثياب أسد مجازي.

قلت: لا يستقيم الكلام بهذا.. وأنت تحتاج بهذا إلى تصحيح كلامك، فالتعبير خانك في الدلالة على مرادك.

قال: فهل خان التعبير كتاب الكتاب المقدس.. حينما راح يصف الكل أبناء الله.. فرحتم أنتم تميزون بعضهم، فتجعلون بعضهم أبناء حقيقيين، وتجعلون آخرين أبناء مجازيين.

٣- الحلول والاتحاد:

قلت: فلنتقل إلى المعنى الثالث الذي نستنبط منه عقائدنا.. فبعض النصوص تفيد حلولاً إلهياً في المسيح:

منها ما ورد في (يوحنا ١٠ / ٣٨) من قول المسيح: (لكي تعرفوا وتؤمنوا أن الآب في، وأنا فيه)

ومنها ما يفيد اتحاداً ومماثلة بين المسيح والله، كما في (يوحنا ١٤ / ٩-١٠) من قول المسيح: (الذي رأيته فقد رأي الآب.. الآب الحال في) أو قوله: (أنا والآب واحد) (يوحنا ١٠ / ٣٠)

فهذه النصوص تفيد بصراحة ووضوح أن المسيح هو الله، أو أن حلولاً إلهياً حقيقياً لله فيه.

قال: سأرد على هذا من وجوه.

قلت: على أن لا يكون منها ردك على مصدره.. فقد علمت موقفك من يوحنا.

قال: لا بأس.. فلنعتبر يوحنا كما نعتبرونه..

قلت: ولا ترد علي كذلك باختلاف التراجم.

قال: لا بأس.. فالتراجم في هذا قد تكون متوافقة.

قلت: لم يبق لك إلا أن ترد علي بمحتوى النص، وبلوازمه.

قال: أجل.. لم يبق لنا إلا هاتين الناحيتين.. وفيهما بحمد الله الغنى.

قال: فلنذكر كل نص على حدة، ونحاول أن نناقشه على ضوء هاتين الناحيتين:

أنا والآب واحد:

قلت: فلنبداً بقول المسيح لليهود: (أنا والآب واحد) (يوحنا ١٠ / ٣٠)

قال: عندما قال المسيح ذلك، هل أقره اليهود عليه؟

قلت: لا.. لقد أنكر عليه اليهود هذا القول، وسارعوا لرحمته بالحجارة.. ولكن لا عبرة بفعالهم، ولا يمكن أن تستدل به.

قال: أنا لا أستدل بفعالهم، ولكنني أستدل بموقف المسيح، فإنهم عندما فعلوا ذلك عرفهم المسيح وجه خطئهم في الفهم.. ووضح لهم أن هذه العبارة لا تقتضي ألوهيته، وبين لهم أنه استعمل هذا اللفظ على سبيل المجاز لا على سبيل الحقيقة.. وإلا لزم من ذلك أن يكونوا كلهم آلهة.

ولن أطيل عليك.. بل تكفي قراءة نص المحاورة للرد على الاستدلال بهذا الدليل، لقد ورد نص المحاورة هكذا: (قال لهم: (أنا والآب واحد)، فتناول اليهود أيضاً حجارة ليَرْجُمُوهُ. فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: أَرَيْتُكُمْ أَعْمَالاً صَالِحَةً كَثِيرَةً مِنْ عِنْدِ أَبِي، فَسَبَبَ أَيَّ عَمَلٍ مِنْهَا تَرْجُمُونَنِي؟) فأجابه اليهود قائلين: (ليس من أجل الأعمال الحسنة نرجمك، ولكن لأجل التجديف، وإذا أنت إنسان تجعل نفسك إلهاً، فَقَالَ لَهُمْ يَسُوعُ: (أَلَيْسَ مَكْتُوباً فِي شَرِيعَتِكُمْ: أَنَا قُلْتُ إِنَّكُمْ آلِهَةٌ؟ فَإِذَا كَانَتِ الشَّرِيعَةُ تَدْعُو أَوْلِيَّكَ الَّذِينَ نَزَلَتْ إِلَيْهِمْ كَلِمَةُ اللَّهِ آلِهَةً وَالْكِتَابُ لَا يُمَكِّنُ أَنْ يُنْقَضَ فَهَلْ تَقُولُونَ لِمَنْ قَدَّسَهُ الْآبُ وَبَعَثَهُ إِلَى الْعَالَمِ: أَنْتَ تُجَدِّفُ، لِأَنِّي قُلْتُ: أَنَا ابْنُ اللَّهِ؟)

فلا شك أن معنى هذه المحاورة أن اليهود فهموا خطأ من قول المسيح: (أنا والآب واحد) أنه يدعي الألوهية، فأرادوا لذلك أن يتقموا منه، ويرجموه، فرد عليهم المسيح خطأهم، وسوء فهمهم بأن هذه العبارة لا تستدعي ألوهيته، لأن (آساف) قديماً أطلق على القضاة أنهم آلهة بقوله الثابت في المزمور (٨٢: ٦): (أنا قلت: إنكم آلهة، وبنو العلي كلكم)

ولم يفهم أحد من هذه العبارة تأليه هؤلاء القضاة، ولكن المعنى المسوخ لإطلاق لفظ

آلهة عليهم أنهم أعطوا سلطاناً أن يأمرُوا ويتحكمُوا ويقضُوا باسم الله.
وبموجب هذا المنطق الذي شرحه المسيح لليهود ساغ للمسيح أن يعبر عن نفسه
بمثل ما عبر به آساف عن أولئك القضاة الذين صارت إليهم كلمة الله.
ولا يقتضي كل من التعبيرين أن في المسيح، أو أن في القضاة لاهوتاً حسبما فهمه
اليهود خطأ.

قلت: ألا يمكن أن يكون المسيح قد فعل ذلك بهم من باب المداراة؟
قال: لو فعل ذلك لكان مغالطة منه وغشاً لا مداراة، وهذا لا يليق بالأنبياء الهادين إلى
الحق، فكيف يليق بمن تزعمونه إلها.

فإن كان المسيح هو رب العالمين الذي يجب أن يعبد، وقد صرفهم عن اعتقاد ذلك
بضره لهم ذلك المثل، فيكون بذلك قد أمرهم بعبادة غيره، وصرفهم عن عبادته.
قلت: فما تفهم أنت من هذا القول؟

قال: هذا القول يفهم على ضوء المحكمات، وعلى ضوء ما فسرهُ المسيح ببساطة
ويسر.. إن المسيح يريد أن يقول لهم: (إن قبولكم لأمرٍ هو قبولكم لأمر الله).. هو تماماً
مثل قول رسول الرجل: أنا ومن أرسلني واحد.. وهو تماماً مثل قول الوكيل: أنا ومن وكلني
واحد.. لأنه يقوم فيما يؤديه مقامه، ويؤدي عنه ما أرسله به ويتكلم بحجته، ويطالب له
بحقوقه.

صمت، فقال: ومع ذلك فإن هذا اعتباركم هذا التعبير دالاً على الحقيقة المجردة
يلزمكم بأن تتعاملوا مع كل النصوص التي تشابهه بنفس المعاملة.
قلت: المنطق يقتضي هذا.

قال: فهذا التعبير الذي أطلقه المسيح على نفسه، بأنه والآب واحد، أطلقه بعينه تماماً

على الحواريين عندما قال في نفس إنجيل يوحنا: (ولست أسأل من أجل هؤلاء فقط، بل أيضاً من أجل الذي يؤمنون بي بكلامهم ليكون الجميع واحداً كما أنك أنت أيها الآب فيّ وأنا فيك، ليؤمن العالم أنك أرسلتني، وأنا قد أعطيتهم المجد الذي أعطيتني، ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد. أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد) (إنجيل يوحنا ١٧ / ٢٠ - ٢٣)

فالوحدة هنا ليس المقصود منها معناها الحرفي، أي الانطباق الذاتي الحقيقي، وإنما هي وحدة مجازية أي الاتحاد بالهدف والغرض والإرادة.

وذلك ظاهر ظهوراً واضحاً من قوله: (ليكونوا هم أيضاً واحداً فينا)، وقوله: (ليكونوا واحداً كما أننا نحن واحد، أنا فيهم وأنت فيّ ليكونوا مكملين إلى واحد)، حيث أن المسيح دعا الله تعالى أن تكون وحدة المؤمنين الخالص مع بعضهم البعض مثل وحدة المسيح مع الله، ولا شك أن وحدة المؤمنين مع بعضهم البعض وصيروتهم واحداً ليست بأن ينصهروا مع بعض ليصبحوا إنساناً واحداً جسماً وروحاً، بل المقصود أن يتحدوا مع بعضهم بتوحد إرادتهم ومشيتهم ومحبتهم وعملهم وغرضهم وهدفهم وإيمانهم.. فهي هي وحدة معنوية.. فكذلك كانت الوحدة المعنوية بين الله والمسيح.

ويؤكد ذلك أن المسيح دعا الله تعالى لوحدة الحواريين المؤمنين، ليس مع بعضهم البعض فحسب بل مع المسيح ومع الله تعالى أيضاً، بحيث يكون الجميع واحداً، فلو كانت وحدة المسيح مع الله هنا تجعل منه إلهاً، لكانت وحدة الحواريين مع المسيح ومع الله تجعل منهم آلهة أيضاً.. ويلزم عن ذلك كله أن المسيح يدعو الله تعالى أن يجعل تلاميذه آلهة.. فهل يعقل ذلك؟

قلت: فما تفهم أنت من هذا النص؟

قال: إن المسيح بقوله ذلك يسأل الله تعالى أن يفيض عليهم من آلائه وعنايته وتوفيقه إلى ما يرشدهم إلى مراده اللائق بجلاله بحيث لا يريدون إلا ما يريد، ولا يحبون إلا ما يحبه ولا يبغضون إلا ما يبغضه، ولا يكرهون إلا ما يكرهه، ولا يأتون من الأقوال والأعمال إلا ما هو راض به، مؤثر لوقوعه.

ويدل لهذا من الواقع أن إنسانا لو كان له صديق موافق لغرضه بحيث يكون محبا لما يحبه ومبغضا لما يبغضه كارها لما يكرهه، جاز أن يقال: أنا وصديقي واحد.

ويتأكد هذا المعنى المجازي لعبارة المسيح إذا لا حظنا الكلام الذي جاء قبلها وأن المسيح كان يقول: إن الذي يأتي إلي ويتبعني أعطيه حياة أبدية ولا يخطفه أحد مني، لأن أبي الذي هو أعظم من الكل هو الذي أعطاني أتباعي هؤلاء، ولا أحد يستطيع أن يخطف شيئا من أبي، أنا وأبي واحد، يعني من يتبعني يتبع في الحقيقة أبي لأنني أنا رسوله وممثل له وأعمل مشيئته فكلانا شيء واحد.

وقد ورد في القرآن الكريم - مع حرصه على صفاء التوحيد - هذا التعبير، فقد قال تعالى: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا﴾ (النساء: ٨٠).. فهل قال أحد من المسلمين أن الرسول هو الله.

بل قد جاء نحو هذا التعبير بالوحدة المجازية مع الله، عن بولس - مع ما علمنا عنه - في إحدى رسائله، وهي رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس (٦ / ١٦ - ١٧) حيث قال: (أم لستم تعلمون أن من التصق بزانية هو جسد واحد لأنه يقول: يكون الاثنان جسدا واحدا؟ وأما من التصق بالرب فهو روح واحد)، وعبارة الترجمة العربية الكاثوليكية الجديدة هي: (ولكن من اتحد بالرب صار وإياه روحا واحدا).

فكل هذا يثبت أن الوحدة هنا لا تفيد أن صاحبها هو الله تعالى عينه - تعالى الله عن

ذلك - وإنما هي وحدة مجازية، وقد ورد مثلها في كثير من النصوص المقدسة عند المسلمين، فقد ورد في الحديث القدسي الشريف الصحيح أنه ﷺ قال راويا عن الله تعالى: (.. وما يزال عبدي يتقرب إليَّ بالنوافل حتى أحبه، فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها..) وكل المسلمين متفقون على أنه ليس المقصود من الحديث أن الله تعالى يحل بكل جارحة من هذه الجوارح، أو أنه يكون هذه الجوارح بعينها، لأن هذا من المحال، بل إن المقصود أنه لما بذل العبد أقصى جهده في عبادة الله وطاعته، صار له من الله قدرة ومعونة خاصتين، بهما يقدر على النطق باللسان، والبطش باليد.. وفق مراد الله تعالى وطبق ما يشاؤه ويحبه.

التفت إلي، فرآني مستغرقا في السماع، فقال: ليس ذلك فقط.. بل قد جاء في إنجيل يوحنا (١٧: ١١) أن المسيح طلب من الآب أن يحفظ تلاميذه فقال: (يا أبت القدوس احفظهم باسمك الذي وهبته لي ليكونوا واحداً كما نحن واحد)

فقد ذكر المسيح وجه شبه بينه وبين تلاميذه، ولما كان المسلم به أن وجه الشبه بين المشبهين لا بد أن يكون متحققاً في طرفي التشبيه كان من غير الجائر أن يكون وجه الشبه بين وحدة المسيح بالآب، ووحدة التلاميذ بعضهم ببعض، هو الجوهر والمجد والمقام. لأن هذا المعنى لو كان موجوداً في المشبه به، وهو وحدة المسيح بالآب على الفرض والتقدير، فهو قطعاً غير موجود في المشبه وهو وحدة التلاميذ بعضهم ببعض.

لذلك اقتضى القول بأن وجه الشبه هو الغاية والطريق وإرادة الخير والمحبة دون أن تكون هناك خصومة أو مخالفة أو عداوة.

فالتشبيه في قول المسيح: (ليكونوا واحداً كما نحن) يفسر لنا معنى الوحدة في قوله: أنا والآب واحد)

من رأي فقد رأى الآب:

قلت: فلنتقل إلى ما ورد في إنجيل يوحنا من قول المسيح: (من رأي فقد رأى الآب)
قال: إن المسيح - على ضوء ما سبق - أراد أن يقول: إن من رأي هذه الأفعال التي
أظهرها فقد رأى أفعال أبي، وهذا ما يقتضيه السياق الذي جاءت به هذه الفقرة.

فهذا الكلام كان عن المكان الذي سيذهب إليه المسيح، وأنه ذاهب إلى ربه، ثم سؤال
توما عن الطريق إلى الله، فأجابه المسيح أنه هو الطريق، أي أن حياته وأفعاله وأقواله
وتعاليمه هي طريق السير والوصول إلى الله.

وهذا مما لا خلاف فيه، فكل قوم يكون نبيهم ورسولهم طريقا لهم إلى ربهم.. ثم
يطلب فيليب من المسيح أن يريه الله، فيقول له متعجبا: (كل هذه المدة أنا معكم، وما
زلت تريد رؤية الله)، ومعلوم أن الله تعالى ليس جسما حتى يرى، فمن رأى المسيح
ومعجزاته وأخلاقه وتعاليمه التي تجلى فيها الله تعالى أعظم تجل، فكأنه رأى الله، فالرؤية
رؤية معنوية.

قلت: السياق لا يلغي دلالة النص.. ولا ينبغي أن ننحرف بالنص عن معناه اللفظي
بسبب سياقه.

قال: لا بأس.. سأعامل معك على ضوء هذا.. وأعتبر النص قاعدة، أو آية مبتورة عن
كل سياق.

أجيني.. هل يمكن على حسب الكتاب المقدس.. بل على حسب أسفار العهد
الجديد أن يرى الله؟

صمت، فقال: أنت تعلم أن هذه الأسفار اتفقت على عدم إمكان رؤية الله:

فقد ورد في إنجيل يوحنا (١: ١٨): (الله لم يره أحد قط)

وورد في إنجيل يوحنا (٥: ٣٧): (والآب نفسه الذي أرسلني يشهد لي لم تسمعوا صوته قط ولا أبصرتهم هيئته)

وورد في رسالة يوحنا الأولى (٤: ١٢): (الله لم ينظره أحد قط)
وقال بولس في رسالته الأولى إلى تيموثاوس (٦: ١٦) عن الله: (الذي لم يره أحد ولا يقدر أن يراه)

فلو قلنا: إن رؤية المسيح هي رؤية لله لحصل التناقض بين هذه النصوص.

قلت: فما تفهم أنت من هذا النص؟

قال: ما سبق ذكره من أن النص يراد به المجاز لا الحقيقة.. وهذا معنى يقبله العقل،
وتساعد عليه النصوص الإنجيلية المماثلة الأخرى، فقد ورد مثل هذا التعبير مرات عديدة،
دون أن يقصد به قطعاً ما يفهم من ظاهر النص:

ففي إنجيل لوقا (١٠/ ١٦) يقول المسيح لتلاميذه السبعين الذين أرسلهم اثنين اثنين
إلى البلاد للتبشير: (الذي يسمع منكم يسمعي والذي يرذلكم يرذلني والذي يرذلني يرذل
الذي أرسلني).. فهل يمكن الاستدلال بقوله: (من يسمعكم يسمعي) على أن المسيح
حال بالتلاميذ، أو أنهم المسيح ذاته؟

صمت، فقال: ومثل ذلك ما جاء في إنجيل متى (١٠/ ٤٠) من أن المسيح قال
لتلاميذه: (من يقبلكم يقبلني، ومن يقبلني يقبل الذي أرسلني)

ومثله ما جاء في إنجيل لوقا (٩ / ٤٨) من قول المسيح في حق الولد الصغير: (من
قبل هذا الولد الصغير باسمي يقبلني ومن قبلني يقبل الذي أرسلني)

قلت: فما وجه هذا المجاز؟

قال: هو واضح.. فكل من أرسل رسولاً أو مبعوثاً أو ممثلاً عن نفسه، فكل ما يُعاملُ

به هذا الرسول يعتبر في الحقيقة معاملة للشخص المرسل .

وقد جاء مثل هذا المجاز في كتاب المسلمين المقدس كثيراً.. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى ﴾ (الأنفال: من الآية ١٧)، وقوله تعالى: ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ﴾ (الفتح: من الآية ١٠)، وقوله تعالى: ﴿ مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ ﴾ (النساء: من الآية ٨٠)

صمت، فقال: ومع ذلك.. فلو فرضنا صحة ما فهمتم من هذا النص.. فإنه يلزم عنه لوازم لا تقبلونها.

قلت: مثل ماذا؟

قال: لقد ورد في رسالة بولس إلى أهل غلاطية (٣: ٢٨) قوله: (لأنكم جميعاً واحد في المسيح يسوع)، فهل هذا القول يعني أن أهالي غلاطية متحدون في الجوهر والقوة وسائر الصفات مع المسيح، أو أنهم متحدون في الإيمان بالمسيح، وفي شرف متابعتة.

قلت: لا شك أن الثاني هو المراد.. وهو الأقرب للفهم والعقل.

قال: فطبق هذا المعنى على قول المسيح.. ولا تكل بمكيالين.

أنا في الآب والآب في:

قلت: فلنتقل إلى قول المسيح: (أنا في الآب والآب في).. فهذا النص يستدل به قومي على الاتحاد والحلول بين الله والمسيح.

قال: سأرد على هذا النص بمحتوى هذا النص ولازمه.

أما محتواه.. فإن المراد منه على حسب لغة الكتاب المقدس هو حلول رضا الله ومحبه وقداسته ورضاه في المسيح.

قلت: أنت تتعسف في تفسير النص.. فإن المسيح ذكر ذاته، ولم يذكر ما ذكرت من

مواهب.

قال: أنا لا أتعسف في تفسير النص.. بل أحمله على غيره من النصوص، فقد ورد مثل هذا في الكتاب المقدس، ولم تفهموا منه ما فهمتموه، فقد جاء في الكتاب المقدس.. بل في العهد الجديد.. بل في رسالة يوحنا الأولى (٣: ٢٤) في وصف الله: (من يحفظ وصاياه يثبت فيه وهو فيه، وبهذا نعرف أنه يثبت فينا، من الروح الذي أعطانا) وورد في نفس الرسالة (٤: ١٢، ١٣): (إن أحب بعضنا بعضاً فالله يثبت فيه، ومحبه قد تكلمت فينا، بهذا نعرف أننا نثبت فيه وهو فينا)

وقد ورد في العهد القديم في المزمور (٦٨: ١٦): (ولماذا أيتها الجبال المسنمة ترصدن الجبل الذي اشتهاه الله لسكنه، بل الرب يسكن فيه إلى الأبد).. وورد في مزمور (١٣٥: ٢١): (مبارك الرب من صهيون الساكن في أورشليم) وانطلاقاً من هذه النصوص نحن بين أمرين:

إما أن نعتبر كل من يؤمن بالمسيح، ويحفظ وصاياه يثبت الله فيه، ويثبت هو في الله، بلا مزية أو فرق بين المسيح وبينه، وبذلك يتحد الجميع بالله وبحلولهم في الله، والله يحل فيهم، ويكون كل واحد من هؤلاء المؤمنين بالمسيح أو ممن يحفظ وصاياه هو الله شأنه شأن المسيح نفسه.

وبذلك تنتهي الأقانيم الثلاث لتبدأ أقانيم لا حصر لها.

وإما أن نجنح للتأويل.. وذلك بأن نؤول ثبوت الله فيمن يحفظون وصاياه، وفيمن يحبون المؤمنين به، أو فيمن يحبون بعضهم بعضاً، أو فيمن يؤمنون بالمسيح بثبوتهم فيهم بالمحبة والرضا.

ومثل ذلك سكنى الله في الجبل أو في مدينة أورشليم، وتأويل ذلك هو وضع اسم

الله المقدس عليها.

وجرياً على قاعدة المساواة في التأويل يجب تأويل ما ورد من حلول الله في المسيح بحلوله فيه بالمحبة والقداسة والطاعة والرضا وهذا هو المعنى الذي تتفق جميع النصوص على الدلالة عليه.

قلت: فما لازم هذا القول الذي ينفي ظاهره؟

قال: ما ذكرته لك من لزوم الاتحاد في كل ما ذكرنا.. بالإضافة إلى ذلك ورد في الكتاب لمقدس أن روح الله حلت على حزقيال وألداد وميداد كما أن روح الله تحل في المؤمنين، فهل قال أحد إن واحداً من هؤلاء متحد مع الله، أو أنه هو الله:

فقد ورد في سفر حزقيال (١١: ٥) قول حزقيال النبي: (وحل علي روح الرب)

وورد في سفر العدد (١١: ٢٦) عن ألداد وميداد: (فحل عليهما الروح)

وورد برسالة يعقوب (٤: ٥) قول يعقوب: (الروح الذي حل فينا يشترك إلي الغيرة

والحسد)

وورد في رسالة بطرس الأولى (٤: ١٤) قول بطرس: (لأن روح المجد والله يحل

عليكم)

فإذا كانت روح الله حلت على حزقيال وألداد وميداد وهي تحل بعد ذلك على غيرهم.. فلم تخصصون المسيح بأقنوم خاص به.. ولا تجعلون كل هؤلاء أقانيم مع الله؟ التفت إلي، فرآني مستغرقاً في السماع، فقال: لقد ورد في الكتاب المقدس عدة فقرات بحق الحواريين والمؤمنين تشبه عبارة: (أنا في الآب والآب في)، ومع ذلك فأنتم لا تفسرونها كما فسرتم قول المسيح: (أنا في الآب والآب في)

لقد ذكر إنجيل يوحنا (١٤: ٢٠) قول المسيح: (في ذلك اليوم تعلمون أنني أنا في أبي

وأنتم في وأنا فيكم)

وورد في رسالة يوحنا الأولى (٤: ١٣) قوله: (بهذا تعرف أننا نثبت فيه وهو فينا) أي الله.

فلو أخذنا بظاهر هذا الكلام لأصبح المسيح والحواريون وجميع المؤمنين آلهة كذلك.

وبهذا نعلم بأن الحديث عن الروابط بين الله والمسيح، أو بين المسيح والمؤمنين، أو بين الله والمؤمنين لا يعني الحديث عن روابط بين جواهر أو اتصال ذات بذات، وإنما غاية القول فيه أن يكون حديثاً عن صلات روحية معنوية.

عمانوئيل:

قلت: فلنتقل إلى ما اقتبسه متى في الإصحاح الأول من إنجيله بنبوءة سابقة جاءت في سفر إشعياء في الإصحاح السابع يقول متى: (وهذا كله كان لكي يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل: (هوذا العذراء تحبل وتلد ابناً ويدعون اسمه (عمانوئيل) الذي تفسيره الله معنا)

قال: وهل ترى أن هذه النبوءة تصدق على المسيح؟

قلت: أتشكك فيما ذكر متى؟

قال: لا.. ولكنه اجتهد اجتهد.. والاجتهاد قد يكون خاطئاً.

قلت: ولكن متى ملهم.

قال: ألم نتفق على أن نطرح في بحثنا كل ما نعرفه من أنواع التقديس؟

قلت: أتريد أن تشككني في متى أيضاً؟

قال: لا أريد أن أشككك في نيته.. ولكنني أشكك في اجتهداه.. ولا حرج على

المجتهد إذا اجتهد وأخطأ.

قلت: فما الذي تراه من أسباب تخطئة متى في اجتهاده؟

قال: لو قمنا بقراءة الإصحاح من سفر اشعيا كاملاً لرأينا أن هذه الفقرة لا تتنبأ عن المسيح القادم، بل هي وعد الله لأحاز بن يوثان ملك يهوذا على لسان النبي إشعيا بأنه سوف يعطيه آية وعلامة لزوال ملك أعدائه، وقد بين له النبي اشعيا آية خراب ملك أعدائه وزواله، وهي أن امرأة شابة تحبل وتلد ابناً يسمى عمانوئيل، ثم تصبح أرض أعدائه خراباً قبل أن يميز هذا الصبي بين الخير والشر.

فالفقرة السادسة عشر من الإصحاح السابع من سفر إشعيا تقول: (لَأَنَّهُ قَبْلَ أَنْ يَعْرِفَ الصَّبِيُّ كَيْفَ يَرْفُضُ الشَّرَّ وَيَخْتَارَ الْخَيْرَ، فَإِنَّ إِسْرَائِيلَ وَأَرَامَ اللَّتَيْنِ تَحْشِيَانِ مَلِكَيْهِمَا تُصْبِحَانِ مَهْجُورَتَيْنِ) أي أن أحاز سوف ينتصر على إِسْرَائِيلَ وَأَرَامَ قبل أن يميز الصبي بين الخير والشر.

ومما يؤكد هذا أن هذه النبوءة قد تحققت في زمن اشعيا النبي، وتحقق معها كل ما ورد منها من أحداث.

قلت: ولكن النص ذكر عذراء تلد.. وهي لا تصدق إلا على مريم.

قلت: إن هذا يعود بنا إلى التحريفات التي سببتها الترجمات.. ففي النص العبري حسب النسخة المسوريه لسفر اشعيا نرى أن الكلمة المترجمة إلى (عذراء) في النص العبري هي كلمة (شابة) وليس عذراء، كما في الترجمة العربية، وبهذا نرى أن الترجمة العربية لم تكن أمينة في ترجمة النص من سفر اشعيا.

ثم نرى كيف قام كاتب الإنجيل المنسوب إلى متى باستعمال كلمة (عذراء) بدل كلمة (شابه) عند اقتباسه لهذا النص من سفر اشعيا لجعلها نبوة تحققت في المسيح.

ثم بعد كله هل دعي المسيح في يوم من الأيام (عمانوئيل)؟
قلت: لا..

قال: فالنبوءة تتعلق بـ (عمانوئيل) لا بيسوع.. ولا بالمسيح.. ولا ببعسى.
قلت: دعنا من كل هذا.. فأنت تعود بنا إلى السياق.. نريد أن نبحث في المحتوى..
فلا ينبغي أن ننشغل عن المحتوى بأي شيء آخر.
قال: لا بأس.. ما معنى كلمة (عمانوئيل)؟
قلت: لقد فسرنا الإنجيل بمعنى (الله معنا)
قال: فهل تراها تصدق على المسيح فقط.. أم أنها يمكن أن تصدق على كل من يؤمل
منه الخير، ويرجى من جهته الإحسان.

صمت، فقال: هل معنى (الله معنا) أن الله بذاته مشخص وموجود معنا، أو الموجود
معنا هو عون ورعايته، كقول القائل: (الله معنا) يقصد بذلك معونة الله وتوفيقه ورعايته؟
صمت، فقال: إن عمانوئيل - لو فرضنا صحة ما فهمه متى - يراد منه أن المسيح مبعوث
من عند الله ليعين ويرعى قومه.

قلت: ولماذا لا يفهم منه المعنى الظاهر؟

قال: لو فرضنا أن نبوءة اشعيا تنطبق على المسيح وأن عمانوئيل معناه (الله) وليس
الله معنا.. فلا يمكن أن نتخذ من تسمية المسيح الله دليلاً على كونه هو الله.. فقد سبق أن
ذكرنا أن الكتاب المقدس أطلق اسم الله على غير المسيح كما أطلقه على المسيح تماماً،
فقد أطلق اسم الله على الملاك وعلى القاضي وعلى الأنبياء كموسى وعلى الأشراف
وغيرهم.

فبما أن هؤلاء جميعاً يطلق عليهم اسم الله، كالمسيح فإما أن يعتبروا جميعاً آلهة

حسب المعنى الظاهر وهو محال عقلاً، أو يؤول الظاهر ويكون لفظ الله قد أطلق عليهم بالمعنى المجازي أو التشبيهي.

قال الرب لربي:

قلت: فلننتقل إلى قول المسيح لليهود في إنجيل لوقا (٢٠: ٤٢): (كيف يُقال للمسيح أنه ابن داود، وداود نفسه يقول في كتاب المزامير: (قال الرب لربي: اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك)، فداود نفسه يدعو المسيح رباً، فكيف يكون المسيح ابنه؟)

قال: هل ترى أن هذه البشارة المذكورة في المزامير تتعلق بالمسيح؟

قلت: لا شك في ذلك.. وهل تشك أنت في ذلك؟

قال: لا.. ولكنني أتساءل عن مدى انطباقها على المسيح^(١).. فالمسيح لم يضع أعداءه في مواضع قدميه، بل كان يهرب من أعدائه كما في الأناجيل بل إنهم ضربوه ولكموه وجلدوه كما تحكي الأناجيل.

قلت: أريد أن تشككني في هذه النبوءة كما شككتني في غيرها.. أراك تريد أن تلغي كل النبوءات المرتبطة بالمسيح.

قال: لا.. أنا لا يهمني أن تكون هذه البشارة مرتبطة بالمسيح أو غيره، فكلهم مصطفىون من الله.. وذلك مجرد تساؤل لا تشكيك، وقد سحبت قولتي.. فهل بنا إلى المهم.

قلت: أجل.. هذا القول من الأقوال التي نستدل بها على طبيعة المسيح.

قال: أنا أرى في هذه الجملة التي استشهد بها السيد المسيح من سفر المزامير دليلاً

(١) انظر الأدلة الكثيرة على انطباق هذه النبوءة على رسول الله ﷺ في رسالة (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

واضحاً على نفى ألوهيته لا على إثباتها.

قلت: كيف.. وقد جاء فيها: (قال الرب لربي)

قال: عبارة المزامير تقول: قال الرب (أي الله) لربي (أي المسيح): اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك، وبناء على هذه الجملة لا يمكن أن يكون المقصود من كلمة ربي الثانية هو الله أيضاً، وذلك لأن المعنى سيصبح عندئذ: قال الله لِلَّهِ اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك.. وكيف يجلس الله عن يمين نفسه.

قلت: هذا الكلام مبني على طبيعة المسيح.

قال: لا بأس.. إذا كان ربي الثانية إلهاً فإنه لا يحتاج لأحد حتى يجعل أعداءه موطئاً لقدميه، بل هو نفسه يسخر أعداءه بنفسه ولا يحتاج إلى من يسخرهم له. صمت، فقال: مخاطبة الله لإله آخر تعني وجود إلهين اثنين وهذا يناقض العقيدة التي تتبنونها.. فأنتم تعتبرون الثلاثة واحداً.

قلت: لا بأس.. ولكن كيف سمى داود المسيح رباً؟

قال: إذا رجعنا لمزامير داود في العهد القديم وجدنا أن البشارة هي الفقرة الأولى من المزمور رقم ١١٠، ولفظها - كما في الترجمة الكاثوليكية الحديثة: (قال الرب لسَيِّدي اجلس عن يميني حتى أجعل أعداءك موطئاً لقدميك)^(١)

فما عبر عنه المسيح بلفظة ربي، هو في الحقيقة بمعنى سيدي.. ولذلك نجد أن الترجمات العربية المختلفة للعهد الجديد، خاصة القديمة منها كانت تستخدم لفظة السيد في مكان لفظة الرب، ولفظة المعلم في مكان لفظة ربِّي.

(١) العهد القديم / ص ١٢٦٩.

قلت: أنت تهرب إلى اختلاف الترجمات.

قال: لا بأس.. فلنبق على كلمة: (ربي).. بمراجعة بسيطة للأناجيل ندرک أن لفظة الرب تستخدم بحق المسيح بمعنى السيد والمعلم، فقد جاء في إنجيل يوحنا (١: ٣٨) مثلاً: (فقالا: ربي! الذي تفسيره يا معلم، أين تمكث؟).. وجاء فيه أيضاً: (١٦: ٢٠): (قال لها يسوع: يا مريم! فالتفتت تلك وقالت له: ربوني! الذي تفسيره يا معلم)

بل إن القرآن الكريم مع تشدده في نفي ذرائع الشرك استخدم هذه اللفظة بهذا المعنى، فقد جاء فيه: ﴿يَا صَاحِبِي السَّجْنِ أَمَّا أَحَدُكُمَا فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْرًا﴾ (يوسف: من الآية ٤١)، وجاء فيه: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنَسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ فَلَبِثَ فِي السَّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ﴾ (يوسف: ٤٢)

قلت: فما المراد من تلك العبارة إذن؟

قال: إن ما يريده المسيح من عبارته تلك هو تذكير اليهود بمقامه العظيم قائلاً لهم: كيف تعتبرون المسيح مجرد ابن داود، مع أن داود نفسه اعتبر المسيح الآتي المبشر به والذي سيجعله الله دائماً لبني إسرائيل يوم الدينونة: رباً له: أي سيداً له ومعلماً^(١)؟

صورة الله:

قلت: فلنتقل إلى وصف بولس للمسيح بأنه صورة الله، وأنه الله القدير.
قال: إن كون المسيح صورة الله لا يعني ما تفهمونه من الألوهية، بل معنى ذلك أن الله جعله نائباً عنه في إبلاغ شريعته الأدبية والروحية إلي من أرسل إليهم، والدليل على ذلك قول بولس نفسه في رسالته الأولى إلي أهل كورنثوس (١١: ٧): (فإن الرجل لا ينبغي أن

(١) انظر ما يتعلق بهذه البشارة في (أنبياء يبشرون بمحمد) من هذه السلسلة.

يغطي رأسه لكونه صورة الله ومجده، وأما المرأة فهي مجد الرجل)، فمعنى هذا أن الله أناب الرجل عنه في سلطانه على المرأة، ومقتضى هذا السلطان أن لا يغطي رأسه بخلاف المرأة.

بالإضافة إلى هذا.. فإن القول بكون المسيح هو صورة الله يلزم عنه أنه غير الله تعالى، لأن كون شيء على صورة شيء لا يقتضي أنه هو، بل بالعكس يفيد أنه غيره، فمثلاً صور الآلهة المعبودة من دون الله والمصنوعة من الذهب والنحاس والخشب هي بالقطع ليست عين الإله المعبود، وبناء على هذا فإن القول بأن المسيح هو صورة الله يفيد بلا شك أنه غيره لا عينه.

بالإضافة إلى هذا.. فقد ذكر الكتاب المقدس أن الله خلق آدم كما خلق المسيح، فلا ميزة للمسيح في هذا المعنى فقد ورد في سفر التكوين (١: ٢٦): (قال الله: نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه)

وورد نفس المعنى في سفر التكوين (٩: ٩): (لأن الله على صورته عمل الإنسان) بل إن هذه الصفة تكررت بعينها مرات عديدة في الكتاب المقدس بعهديه القديم والجديد، ووصف بها الإنسان بشكل عام والرجل بشكل خاص، ويفهم من تتبع موارد استعمالها في الكتاب المقدس أنها تعني نوع من التشابه العام أو العلاقة والترابط بين الإنسان ككل والله:

فقد جاء في سفر التكوين: (وقال الله: لنصنع الإنسان على صورتنا كمثالنا وليتسلط على أسماك البحر وطيور السماء والبهائم وجميع وحوش الأرض وجميع الحيوانات التي تدب على الأرض، فخلق الله الإنسان على صورته، على صورة الله خلقه ذكراً وأنثى)
(تكوين: ١ / ٢٦-٢٧)

وقد فسر مفسرو التوراة هذا بأن المقصود منه ما يتميز به الإنسان عن الجمادات والنباتات والحيوانات من العقل الكامل والقدرة على النطق والتعبير عما يريد والإرادة والاختيار الحر والاستطاعة والقدرة، فضلا عن السمع والبصر والحياة والإدراك والعلم.. أي أن هناك تشابها عاما بين صورة الله في صفاته والإنسان.

قلت: ولكن لم خص المسيح بأنه صورة الله في كلام بولس؟

قال: إن الإنسان كلما ترقى في الكمالات، كلما صار أكثر عكسا لصفات الله، وكلما تجلت فيه أسماء الله وصفاته الحسنى كالعلم والقدرة والعزة والعدل والحلم والكرم والرحمة.. لهذا تحدث بولس عن نفسه وعن سائر القديسين، فقال: (ونحن جميعا نعكس صورة مجد الرب بوجوه مكشوفة كما في مرآة، فتتحول إلى تلك الصورة ونزداد مجدا على مجد، وهذا من فضل الرب الذي هو روح) (قورنتس: ٣ / ١٨)

وقد قال في موصيا المؤمنين بالتخلُّق بأخلاق الله والعيش حياة مسيحية كاملة: (أما الآن فألقوا عنكم أنتم أيضا كل ما فيه غضب وسخط وخبث وشيعة، لا تنطقوا بقيح الكلام ولا يكذب بعضكم بعضا، فقد خلعتكم الإنسان القديم وخلعتم معه أعماله، ولبستم الإنسان الجديد ذاك الذي يجدد على صورة خالقه ليصل إلى المعرفة) (رسالة بولس إلى أهل قورنثوس: ٣ / ٨ - ١٠)

فإذا كانت صورة الله تقتضي الألوهية، فإن هذا يقتضي أن يكون جميع القديسين، بل جميع الرجال آلهة!؟

قلت: ولم لا تقول ما قال قومي من التعليل؟

قال: وما يقولون؟

قلت: يذكرون أن الله تعالى أراد أن يؤنس البشرية، ويقرب منها بصورة يتجلى فيها،

فجاء بالمسيح لذلك.

قال: أنتم تقولون بأن المسيح كان طفلاً، ثم تدرج في المراحل، وصار ينمو حتى صار كبيراً.

قلت: أجل.. نحن نقول هذا.

قال: فأني صورة من صور حياته المرحلية تمثل الله تعالى لتؤنس البشرية؟
إن كانت صورته وهو طفل، فقد نسيتم صورته وهو شاب، وإن كانت صورته، وهو في الشباب فقد نسيتم صورته وهو في دور الكهولة.. وإن كان الله على كل هذه الصور، فالله على هذا أغيار، أي يتغير من طفل إلي شاب إلي كهل.. وهو كما ينص الكتاب المقدس منزّه عن ذلك.

ثم بعد هذا.. ما هي المدة التي عاشها المسيح في الدنيا بين البشر؟
قلت: ثلاثون سنة.

قال: إذن الله قد آنس الناس بنفسه ثلاثين سنة فقط.. مع أن عمر الكون قبل المسيح كان ملايين السنين.. ولسنا ندري كم يكون بعده.. فهل ترك الله في هذه الملايين من السنين الماضية خلقه بلا إناس، وبدون أن يبدو لهم في صورة؟

الله ظهر في الجسد:

قلت: فلننتقل إلى قول بولس كما في رسالته الأولى إلى تيموثاوس (١٦: ٣)^(١): (الله ظهر في الجسد، تبرر في الروح، تراءى للملائكة، كُرِّزَ به بين الأمم، أوْمِنَ به في العالم، رفع في المجد)

(١) كما في الترجمة التقليدية البروتستانتية.

قال: أولاً.. هذا الكلام لبولس، وقد عرفنا أنه لا ينبغي الاعتماد عليه في هذا.. ومع ذلك، فلن نلغي ما فهمتم من هذا الكلام بهذا السبب.. بل هناك أسباب أخرى تدعو إلى إلغاء الاعتماد عليه.

أولها أن ذكر لفظ الجلالة (الله) كفاعل لفعل (ظهر) إنما هو اجتهد وتصرف من المترجم، ولا وجود لهذه اللفظة في الأصل اليوناني بل فعل (ظهر) فيها مذكور بدون فاعل، أي مذكور بصيغة المبني للمجهول (أُظْهِرَ)، كما هو حال سائر أفعال الفقرة: كُرِّرَ به بين الأمم، أو من به في العالم..

وقد اتبعت الترجمة العربية الحديثة الكاثوليكية الأصل اليوناني بدقة فذكرت فعل ظهر بصيغة المبني للمجهول، ولم تأت بلفظ الجلالة هنا أصلاً، وهذا ما ذكرته بحروفه: ولا خلاف أن سر التقوى عظيم. قد أُظْهِرَ في الجسد، وأُعلنَ باراً في الروح وتراءى للملائكة وبُشِّرَ به عند الوثنيين وأومن به في العالم، ورُفِعَ في المجد^(١)

وهكذا في الترجمتين الحديثتين المراجعتين الفرنسية والإنجليزية، وبهذا يبطل الاستدلال بالفقرة على ألوهية المسيح، لأن الذي ظهر في الجسد هو المسيح، الذي كان كائناً روحياً فيما سبق، فهو أول خليفة الله حسب عقيدة بولس.

بالإضافة إلى هذا.. فإن بعض الجمل اللاحقة تؤكد أن الذي ظهر ليس الله ولا هو بإله، كعبارة: أُعلنَ باراً في الروح، أو عبارة رُفِعَ في المجد.. حيث أنه من البديهي أن الله تعالى الممجّد في علاه القدوس أزلاً وأبداً، لا يمكن أن يأتي أحد ويرفعه في المجد أو يعلنه باراً في الروح، إنما هذا شأن العباد المقربين والرسل المكرمين وحسب.

(١) العهد الجديد الطبعة الكاثوليكية.

بالإضافة إلى هذا كله، فإنه يمكن تأويل النص لينسجم مع المحكمات من النصوص، بل لينسجم مع النص نفسه.

فالظهور لا يعني دلالة الحرفية، ولكنه يعني أن الله ظهر برسالاته وآياته التي صنعها رسوله.

الثالث:

قلت: فلنتقل إلى ما ورد في رسالة يوحنا الاولى (٥/٧) فقد جاء فيها: (فإن الذين يشهدون في السماء هم ثلاثة: الأب والكلمة والروح القدس، وهؤلاء الثلاثة هم واحد).. فمفهوم الثالث واضح هنا.. بل ليس هناك ما هو أوضح منه.. فالأب والكلمة والروح هؤلاء الثلاثة هم واحد.

قال: نعم هذا النص واضح تمام الوضوح، ولكن هل هو كلام المسيح أو كلام الأنبياء، أو كلام الحواريين؟ قلت: هو كلام يوحنا..

قال: وهو ليس من تلاميذ المسيح.. فكيف تعتمد عليه في عقيدة تنسخ المسيحية نفسها؟

قلت: أنت تعود بنا إلى التشكيك في يوحنا. قال: لا بأس.. هذه مجرد إشارة.. فأجبنني: هل أنت متأكد من أن هذا هو النص الأصلي^(١)؟

قلت: لو لم يكن هو النص الأصلي ما أثبت في الكتاب المقدس؟

(١) انظر الكلام على هذا النص في رسالة (الكلمات المقدسة) من هذه السلسلة.

قال: لا.. لقد تأكدت من هذا النص.. ورجعت إلى المصادر الأصلية.. وقد وجدت أن هذا النص مخترع، غير موجود في الأصول اليونانية.. بل لم يظهر إلى الوجود إلا في عصور متأخرة، ليس قبل القرن السادس عشر بعد ميلاد المسيح.

قلت: ما تقول؟.. إن ما تنطق به خطير جدا.

قال: سأذكر لك قصة هذا النص، فلا تعجل..

هذا النص وجد فقط في ثمانية مخطوطات، سبعة منها تعود للقرن السادس عشر، والمخطوطة الأخيرة من القرن العاشر أى بعد ألف سنة موجود بها هذا النص على الهامش بخط مختلف، ولا يعرف على وجه الدقة تاريخ كتابته.

ليس ذلك فقط.. بل إن السبعة مخطوطات السابق ذكرها منها أربعة كتب هذا النص فيث هامشها.

وأول مرة ظهرت هذه الكلمات كانت في مخطوطة لاتينية في القرن الرابع على الهامش، ثم ترجمت الى اليونانية.

والقصة واضحة.. لقد لفت نظر أحد النساخ لفظ ثلاثة الموجود في العدد الثامن، والذين يشهدون في الأرض هم ثلاثة: الروح والماء والدم والثلاثة هم في الواحد.. فلم يجد مانعا من أن يضيف على لسان يوحنا ثلاثة أخرى لتساعده في إثبات عقيدة التثليث التي لا تجد لها أى نص صريح في الكتاب المقدس.

بل يقول بعض علمائكم أن النص أضيف باللغة اللاتينية أثناء احتدام النقاش مع أريوس الموحد وأتباعه، فكان لابد من إضافة تقوى مركزهم، ثم وجدت هذه الإضافة طريقا بعد ذلك حتى ظهرت لأول مرة في الطبعة الثالثة من إنجيل ايرازمس سنة ١٥٢٢ ميلادية بضغط على ايرازمس هذا الذى لم يضعها في الطبعة الاولى عام ١٥١٦ والثانية عام

١٥١٩ من كتابه.

وقد سئل عن سبب عدم وضعه هذا النص، فأجاب الإجابة المنطقية الوحيدة، وهي أنه لم يجدها فى أى نص يونانى قديم، فتم وضع المخطوطة رقم ٦١ باليونانى، وبها هذا النص.. وهنا فقط أضافها إيرازمس إلى الكتاب المقدس، وبعد ضغط قوى من الكنيسة الكاثوليكية

فكيف يمكن الاعتماد على نص لم يظهر قبل القرن السادس عشر، وفي مخطوطات محدودة تشكل جزءا من آلاف المخطوطات الموجودة باللغة اليونانية؟! وبما أن الترجمة الألمانية تعتمد على الطبعة الثانية من كتاب إيرازمس هذا، أي طبعة ١٥١٩، فإن الألمان ليس عندهم هذه الصيغة فى أى عصر من العصور.

قلت: ولكن نسخة الملك جيمس الشهيرة فيها هذه الكلمة؟

قال: إن نسخة الملك جيمس الشهيرة اعتمدت بصورة رئيسية على النسخة اليونانية للطبعة العاشرة لنسخة تيودور بيزا التى هى فى الأساس تعتمد على الطبعة الثالثة لنسخة إيرازمس السابق ذكرها، ولذلك فإن هذه الصيغة مشهورة عند الشعوب الناطقة بالإنجليزية فقط أكثر من شهرتها عند غيرهم.

ولذلك عندما اجتمع اثنان وثلاثون عالما نصرانيا مدعمون بخمسين محاضرا مسيحيا لعمل النسخة القياسية المراجعة حذف هذا النص بلا أى تردد.

وهناك - بالإضافة إلى هذا - شهادة عالم كبير هو إسحاق نيوتن الذى يذكر أن هذا المقطع ظهر أول مرة فى الطبعة الثالثة من إنجيل إيرازمس للعهد الجديد، ويضيف نقطة قوية تدل على هذا.. وهو أن هذا النص لم يستخدم فى أى مجادلات لاهوتية حول الثالوث من وقت جيروم، وحتى وقت طويل بعده.

وقد توالى الردود المسيحية على هذا النص، ومن ذلك ما قاله الكاتب جون جلكر
ايست فى كتابه (نعم الكتاب المقدس كلمة الله) الذي وضعه للرد على الشيخ احمد
ديدات: (المثل الثالث الذي أورده ديدات هو أحد العيوب التي صحّحتها ترجمة RSV،
وهذا ما نقرّ به. ففي (يوحنا ١٧: ٥) في ترجمة KJV نجد آية تحدّد الوحدة بين الآب والكلمة
والروح القدس، بينما حُذفت هذه الآية في ترجمة RSV. ويظهر أنّ هذه الآية قد وُضعت
أولاً كتعليق هامشي في إحدى الترجمات الأولى، ثم وبطريق الخطأ اعتبرها نُسَاح الإنجيل
في وقت لاحق جزءاً من النص الأصلي. وقد حُذفت هذه الآية من جميع الترجمات
الحديثة، لأنّ النصوص الأكثر قِدماً لا تورد هذه الآية^(١)).

والنص يخفى تماماً من النسخة الأمريكية القياسية، والطبعة العربية الجديدة من
الكتاب المقدس تضع هذه العبارة بين قوسين.. مع تنبيهها على أن ما يوضع بين القوسين
غير موجود بالأصل.

وهو اعتراف صريح من كتبة الأناجيل أن الابحاث المعروفة التي تقول أن هذا النص
أضيف بعد القرن الخامس عشر الميلادي، وغير موجود في أى مخطوطة يونانية.
التفت إلي، وقد رأي غرقت حيائي مما يفعله قومي بكتابتهم المقدس، فقال: لا بأس..
لقد وجد من قومك من يبرر هذا.

ارتدت إلي نفسي، فقال: لقد قالوا بأن الروح القدس ألهم الكاتب أن يضيف هذه
الزيادة.

ابتسمت لهذا المخرج الذكي، فقال: ألم يكن من الأجدى لهذا الملهم أن يخبر بأن

(١) نعم الكتاب المقدس كلمة الله: صفحة ١٦.

روح القدس ألهمه ليضع هذه الزيادة في ذلك المحل .. ويريح الناس من عناء البحث عن مصدره؟

صمت، فقال: من المسئول عن مصير الملايين من الذين هلكوا وسيهلكون وهم يعتقدون أن عقيدة التثليث التي تعلموها تقوم على نص هو في حقيقة أمره دخیل أقحمته يد كاتب مجهول؟!

٤ - خصائص الألوهية

قلت: فلننتقل إلى المعنى الرابع الذي نستنبط منه عقائدنا.. فكثير من النصوص تسند أمورا للمسيح هي من خصائص الألوهية.
قال: مثل ماذا؟

قلت: لقد أحصيتها في خمس: الدينونة، والمغفرة، والتزول، والسجود، والمعجزات.

الدينونة:

قال: فلنبداً بالدينونة.

قلت: يعتبر الكتاب المقدس المسيح ديانا للخلايق يوم القيامة، كما قال بولس: (أنا أناشدك إذاً أمام الله والرب يسوع المسيح العتيد أن يدين الأحياء والأموات عند ظهوره وملكوته) (تيموثاوس (٢) ١ / ٤)

فلو جمعنا بين هذا النص وما ورد في المزامير من أن (الله هو الديان) (المزامير: ٦ / ٥٠)، فيكون ذلك دليلاً على ألوهيته.

قال: إن هذا القول يتناقض مع نصوص أخرى أراكم تفتخرون بها، وتكثرون من ذكرها، وتباهون على المسلمين بورودها في كتابكم.

قلت: مثل ماذا؟

قال: أنتم تقرؤون على العالم دائماً ما ورد في يوحنا: (لأنه لم يرسل الله ابنه إلى العالم ليدين العالم، بل ليخلص به العالم الذي يؤمن به لا يدان، والذي لا يؤمن قد دين، لأنه لم يؤمن باسم ابن الله الوحيد) (يوحنا: ٣/ ١٧)، فالمسيح - بحسب هذا النص - لن يدين أحداً، وهو ما أكدته يوحنا بقوله على لسان المسيح: (وإن سمع أحد كلامي ولم يؤمن فأنا لا أدينه، لأنني لم آت لأدين العالم بل لأخلص العالم، من رذلني ولم يقبل كلامي فله من يدينه، الكلام الذي تكلمت به هو يدينه في اليوم الأخير) (يوحنا ١٢ / ٤٧-٤٨)

قلت: أترى تناقضاً بين النصين.. ألا يمكن التوفيق بينهما؟

قال: لا حاجة لذلك.. فالتناقض يحصل في كلام الشخص نفسه، لا في كلام شخصين.. فذلك لا ذي ذكرته كلام بولس، وهذا كلام المسيح.

قلت: أتريد أن تعود بنا إلى الشك في بولس؟

قال: لا.. ولكن ليست هذا أول اختلاف بين بولس والمسيح.. إن الاختلاف بينهما أعمق من ذلك.

قلت: دعك من مثل هذا الكلام.. وعد بنا إلى النص.

قال: لا بأس.. أنتم تعتبرون الديونة من خصائص الألوهية.

قلت: هكذا ينص الكتاب المقدس.

قال: إن هذا القول يلزم عنه حاجتكم إلى إضافة أقانيم جديدة للألوهية.

قلت: كيف؟

قال: أنتم ملزمون بإضافة التلاميذ الاثني عشر بما فيهم الخائن يهوذا الأسخريوطي.. ألم تقرأ ما ورد في متى: (فقال لهم يسوع: الحق أقول لكم: إنكم أنتم الذين تبعتموني في

التجديد، متى جلس ابن الإنسان على كرسي مجده تجلسون أنتم أيضاً على اثني عشر
كرسيّاً تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر) (متى ١٩ / ٢٨)

وورد في لوقا: (لتأكلوا وتشربوا على مائدتي في ملكوتي وتجلسوا على كراسي،
تدينون أسباط إسرائيل الاثني عشر) (لوقا ٢٢ / ٣٠)

الغفران:

قلت: ومما يستدل به على طبيعة المسيح ما نقلته الأناجيل من غفران ذنب المفلوج
والخاطئة على يديه، مع أن المغفرة من خصائص الألوهية، وعليه فالمسيح إله يغفر
الذنوب، فقد قال للخاطئة مريم المجدلية: (مغفورة لك خطاياك) (لوقا ٧ / ٤٨)، كما قال
للمفلوج: (ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك)

قال: أنتم تبترون النصوص عن سياقها، فتحرفونها بذلك أخطر تحريف.

قلت: أتريد أن تهرب إلى السياق؟

قال: لا يمكن أن تفهم النص بعيداً عن سياقه.. أرايت لو قطعت كلامك إرباً إرباً.. هل
يمكن أن يفهم أحد مقصودك؟

قلت: لا..

قال: فكذلك فعل قومك.. ولذلك سترجع إلى السياق لفهم الكلام على حقيقته:
ففي قصة المرأة لما شكّ الناس بالمسيح، وكيف قال لها: (مغفورة خطاياك)، مع أنه
مجرد بشر، أزال المسيح اللبس، وأخبر المرأة أن إيمانها هو الذي خلصها.

ولا بأس أن أسوق لك القصة هنا كما أوردها لوقا: (وأما هي فقد دهنت بالطيب
رجليّ، من أجل ذلك أقول لك: قد غُفرت خطاياها الكثيرة، لأنها أحبت كثيراً، والذي يغفر
له قليل يحب قليلاً، ثم قال لها: مغفورة لك خطاياك، فابتدأ المتكئون معه يقولون في

أنفسهم: من هذا الذي يغفر خطايا أيضاً؟! فقال للمرأة: إيمانك قد خلّصك، اذهبي بسلام)
(لوقا ٧/٤٦-٥٠)

ومثل ذلك ما ورد في قصة المفلوج، فإنه لما دار في خلد اليهود أنه يجدف، وبخهم المسيح على الشر الذي في أفكارهم، وصحح لهم الأمر، وشرح لهم أن هذا الغفران ليس من فعل نفسه، بل هو من سلطان الله، لكن الله أذن له بذلك، كما في سائر المعجزات والعجائب التي كان يصنعها، وقد فهموا منه المراد، وزال اللبس من صدورهم.

والقصة بتمامها كما أوردها متى هي: (قال للمفلوج: ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك، وإذا قوم من الكتبة قد قالوا في أنفسهم: هذا يجدف، فعلم يسوع أفكارهم فقال: لماذا تفكرون بالشر في قلوبكم؟ أيما أيسر: أن يقال مغفورة لك خطاياك، أم أن يقال قم وامش؟ ولكن لكي تعلموا أن لابن الإنسان سلطاناً على الأرض أن يغفر الخطايا، حيثذ قال للمفلوج: قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك، فقام ومضى إلى بيته، فلما رأى الجموع تعجبوا، ومجدوا الله الذي أعطى الناس سلطاناً مثل هذا) (متى ٩/٣-٨)

قلت: أنا أو من بأن للنص سلطاناً في حد ذاته.. ولا ينبغي لسياق النص أن يلغي هذا السلطان.

قال: لا بأس.. هل قال للمسيح للمرأة: (قد غفرت لك خطاياك)؟

قلت: لقد قال لها: (مغفورة لك خطاياك)

قال: فالمسيح لم يدع أنه هو الذي غفر ذنبها، بل أخبرها بأن ذنبها قد غُفر، والذي غفره بالطبع هو الله تعالى.

ومثل ذلك قوله للمفلوج: (ثق يا بني، مغفورة لك خطاياك)، فأخبر بتحقيق الغفران، ولم يقل: إنه هو الغافر لها.

وبذلك تكون المغفرة هنا من باب الإخبار بالغيب الذي جعله الله للأنبياء، بل لمن هو دونهم.

ويدل لهذا أن المسيح طلب من الله أن يغفر لليهود، ولو كان يملكه لغفر لهم ولم يطلبه من الله كما في لوقا: (فقال يسوع: يا أبتاه اغفر لهم، لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون) (لوقا ٢٣/٣٤)

صمت، فقال: إن هذا القول يلزمكم بإضافة أقانيم كثيرة للإله الواحد: أولهم تلاميذ المسيح، فقد ذكر المسيح لهم أن بإمكانهم غفران الذنوب التي تتعلق بحقوقهم الشخصية، بل وكل الذنوب والخطايا، كما في متى: (إن غفرتم للناس زلاتهم، يغفر لكم أيضاً أبوكم السماوي، وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضاً زلاتكم) (متى ٦/١٤-١٥)

بل ورد في يوحنا ما هو أخطر من ذلك، فيقول: (من غفرتم خطاياهم تغفر له، ومن أمسكتهم خطاياهم أمسكت) (يوحنا ٢٠/٢٨)

وهذا السلطان دفع لكل التلاميذ، كما في متى: (الحق أقول لكم: كل ما تربطونه على الأرض يكون مربوطاً في السماء، وكل ما تحلّونه على الأرض يكون محلّولاً في السماء، وأقول لكم أيضاً: إن اتفق اثنان منكم على الأرض في أي شيء يطلبانه فإنه يكون لهما من قبل أبي الذي في السموات) (متى ١٨/١٨-٢٠)

وليس التلاميذ فحسب.. بل إن هذا السلطان يمتد إلى الكنيسة التي ورثت هذا السلطان عن بطرس.. فقد أصبح القسس يغفرون للخاطئين عن طريق الاعتراف أو صكوك الغفران، واعتمدوا في إقرار ذلك على وراثتهم للسلطان الذي دفع لبطرس، كما في متى: (أنت بطرس.. وأعطيك مفاتيح ملكوت السماوات، فكل ما تربطه على الأرض

يكون مربوطاً في السماوات، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السماوات
(متى ١٦ / ١٩)، فلو غفر بطرس أو البابا وارثه لإنسان غفرت خطيئته من غير أن يقتضي
ذلك ألوهيته.

النزول:

قلت: ومما يستدل به على طبيعة المسيح ما نقلته الأناجيل من أن المسيح قد أتى من
فوق أو من السماء، و(الذي يأتي من فوق هو فوق الجميع) (يوحنا ٣ / ٣١)، ولهذا نحن
نرى صورة ألوهيته مشرقة في قوله: (أما أنا فمن فوق، أنتم من هذا العالم، أما أنا فلست من
هذا العالم) (يوحنا ٨ / ٢٣).. وكل هذا يدل على أنه كائن إلهي فريد.
قال: مع أن هذا ليس شيئاً من خواص الألوهية إلا أنه يلزمكم بوضع أقانيم جديدة
لألوهة كثيرة:

أولها الملائكة، كما جاء في متى: (لأن ملاك الرب نزل من السماء) (متى ٢٨ / ٢).
ثم أخنوخ الذي صعد إلى السماء كما في العهد القديم: (وسار أخنوخ مع الله، ولم
يوجد، لأن الله أخذه) (التكوين ٥ / ٢٤)، مع أنه ورد في يوحنا: (ليس أحد صعد إلى
السماء إلا الذي نزل من السماء، ابن الإنسان الذي هو في السماء) (يوحنا ٣ / ١٣)، فأخنوخ
مثله.. فلم لا تقولون بألوهيته.

ثم إيليا الذي صعد إلى السماء، كما في العهد القديم: (ففصلت بينهما فصعد إيليا في
العاصفة إلى السماء) (ملوك ٢) (٢ / ١١)

بل إن الأناجيل تذكر أن التلاميذ، هم أيضاً مولودين من فوق أو من الله، ففي يوحنا:
وأما كل الذين قبلوه فأعطاهم سلطاناً أن يصيروا أولاد الله، أي المؤمنين باسمه) (يوحنا
١٢ / ١)

بل إن كل المؤمنين بالمسيح مولودون من فوق بما أعطاهم الله من الإيمان، فهم كسائر المؤمنين كما قال المسيح: (الحق الحق أقول لكم: إن كان أحد لا يولد من فوق لا يقدر أن يرى ملكوت الله) (يوحنا ٣/٣)، وكما قال يوحنا: (كل من يؤمن أن يسوع هو المسيح، فقد ولد من الله) (يوحنا ١/٥)، وقال: (كل من يصنع البر مولود منه) (يوحنا ١/٢/٢٩)

قلت: ولكن المسيح قال: (أما أنا فلست من هذا العالم) قال: ليس هذا دليلاً على الألوهية، فمراده اختلافه عن سائر البشر باستعلائه عن العالم المادي الذي يلهث وراءه سائر الناس.

وقد قال مثل هذا القول في حق تلاميذه أيضاً بعد أن لمس فيهم حب الآخرة والإعراض عن الدنيا، فقال: (لو كنتم من العالم لكان العالم يحب خاصته، لكن لأنكم لستم من العالم، بل أنا اخترتكم من العالم، لذلك يبغضكم العالم) (يوحنا ١٥/١٩) وفي موضع آخر قال عنهم: (أنا قد أعطيتهم كلامك، والعالم أبغضهم، لأنهم ليسوا من العالم كما أنني لست من العالم) (١٧/١٤-١٥)، فقال في حق تلاميذه ما قاله في حق نفسه من كونهم جميعاً ليسوا من هذا العالم، فلو كان هذا على ظاهره، وكان مستلزماً الألوهية، للزم أن يكون التلاميذ كلهم آلهة، لكن تعبيره في ذلك كله نوع من المجاز، كما يقال: فلان ليس من هذا العالم، يعني هو لا يعيش للدنيا ولا يهتم بها، بل همُّه دوماً رضا الله والدار الآخرة.

السجود:

قلت: ومما يستدل به على طبيعة المسيح ما نقلته الأناجيل من سجود بعض معاصري المسيح له.. وفي سجودهم له دليل ألوهيته واستحقاقه للعبادة:

فقد سجد له أب الفتاة النازقة، كما في متى: (فيما هو يكلمهم بهذا إذا رئيس قد جاء، فسجد له) (متى ١٨/٩)

كما سجد له الأبرص: (إذا أبرص قد جاء وسجد له) (متى ٢/٨)
كما سجد له المجوس في طفولته: (فخروا وسجدوا له، ثم فتحوا كنوزهم) (متى ١١/٢)

ففي رضا المسيح بالسجود له دليل على ألوهيته، يدل لهذا أن بطرس رفض سجدوا
كرنيلوس له، وقال له: (قم أنا أيضاً إنسان) (أعمال ١٠/٢٥)، فقد اعتبر السجود نوعاً من
العبادة لا ينبغي إلا لله.

قال: إن هذا يلزمكم بإضافة أقانيم كثيرة للإله الواحد:

ألم يرد في العهد القديم أن يعقوب وأزواجه وبنيه سجدوا ليعسو بن إسحاق حين
لقاءه، فقد ورد فيه: (وأما هو فاجتاز قدامهم، وسجد إلى الأرض سبع مرات، حتى اقترب
إلى أخيه.. فاقتربت الجاريتان هما وأولادهما وسجدتا، ثم اقتربت ليئة أيضاً وأولادها
وسجدوا. وبعد ذلك اقترب يوسف وراحيل، وسجدا) (التكوين ٣٣/٧-٣)؟

ألم يسجد موسى لحماه حين جاء من مديان لزيارته فقد جاء: (فخرج موسى لاستقبال
حميه، وسجد، وقبله) (خروج ١٨/٧)؟

ألم يسجد إخوة يوسف تبجيلاً لأخيهم يوسف، فقد جاء: (أتى إخوة يوسف،
وسجدوا له بوجوههم إلى الأرض) (التكوين ٤٢/٦)؟

بل إن هذه العادة استمرت في بني إسرائيل، فقد جاء: (وبعد موت يهوياذا جاء
رؤساء يهوذا، وسجدوا للملك) (الأيام ٢) (٢٤/٧)

قلت: فما تفهم أنت من هذا السجود؟

قال: هذا نوع من التحية.. وهو لا حرج فيه إذا لم يرتبط بنية العبادة، وقد ذكره القرآن الكريم مع شدة تحرزه من كل ذرائع الشرك، فقد قال تعالى عن يوسف: ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى الْعَرْشِ وَخَرُّوا لَهُ سُجَّدًا وَقَالَ يَا أَبَتِ هَذَا تَأْوِيلُ رُؤْيَايَ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّي حَقًّا وَقَدْ أَحْسَنَ بِي إِذْ أَخْرَجَنِي مِنَ السِّجْنِ وَجَاءَ بِكُمْ مِنَ الْبَدْوِ مِنْ بَعْدِ أَنْ نَزَغَ الشَّيْطَانُ بَيْنِي وَبَيْنَ إِخْوَتِي إِنَّ رَبِّي لَطِيفٌ لِمَا يَشَاءُ إِنَّهُ هُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (يوسف: ١٠٠)

قلت: فلماذا رفض بولس وبطرس سجود الوثنيين لهما؟

قال: لقد خشيا أن يكون سجودهم من باب العبادة، لا التعظيم، خاصة مع رؤيتهم معجزات التلاميذ، فقد يظنونهم آلهة لما يرونه من أعاجيبهم.

المعجزات:

قلت: ومما يستدل به على طبيعة المسيح ما نقلته الأناجيل من معجزات لا يمكن أن تصدر من بشر، ولهذا ورد في سفر أعمال الرسل: (أيها الرجال الاسرائيليون اسمعوا هذه الاقوال. يسوع الناصري رجل قد تبرهن لكم من قبل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده في وسطكم كما انتم ايضا تعلمون) (سفر أعمال الرسل ٢: ٢٢)

ولهذا عندما تسأل أي مسيحي: ما الذي ذلك على كون المسيح إلهاً؟ فيقول لك: دل عليه ظهور الافعال والمعجزات العجيبة على يديه، كإحياء الموتى والسلطان على الطبيعة وشفاء البرصى والعمي وتكثير الطعام.

قال: لا أظن أن المسيحي الذي يقول هذا يكون قد قرأ الكتاب المقدس مرة واحدة في حياته.

قلت: وما أدراك بذلك؟

قال: لأن كل من قرأ الكتاب المقدس سيعلم أن المعجزات وحدها لا تكفي للدلالة

على النبوة، فكيف تكفي للدلالة على الألوهية؟.. لقد ورد في متى (٢٤ : ٢٤): (سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة، ويعطون آيات عظيمة وعجائب حتى يضلوا المختارين).. فإذا كان المنافق الكاذب يستطيع أن يأتي بالمعجزات والافعال العجيبة، فعلى أي قياس يمكننا أن نميز بين الانبياء الحقيقيين ومدعي النبوة؟!... وإذا كان الحال كذلك فهل نستطيع اعتبار معجزات المسيح دليل على نبوته فضلاً عن اتخاذكم إياها دليلاً على ألوهيته؟!

دعنا من هذا.. فأنا أتحدث مع حبر عالم لا مع عامي.. أجبني: هل كان قيام المسيح بصنع المعجزات والافعال العجيبة استناداً إلي قوته الذاتية وسلطانه، أم استناداً إلي قوة الله؟

صمت، فقال: من العجيب أن تعتبروا المعجزات دليلاً على الألوهية مع كون المسيح نفسه يقر بأن القدرة التي كان يمتلكها هي مدفوعة له من الله تعالى.. لقد قال في إنجيل متى (١١ : ٢٧): (كل شيء قد دفع إلي من أبي) فالرب هو الدافع والمسيح هو المدفوع له.. ولا شك أن هناك فرقا عظيم بين الدافع والمدفوع له.

ليس هذا فقط.. بل قد ورد التصريح بهذه الحقيقة العظيمة في مواضع كثيرة من الأناجيل:

فقد جاء في إنجيل يوحنا (٥ : ١٩): (فأجاب يسوع، وقال لهم: الحق الحق أقول لكم لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئاً إلا ما ينظر الآب يعمل)

وفيه أيضاً، وفي نفس الإصحاح (٥ : ٣٠): (أنا لا أقدر أن أفعل من نفسي شيئاً. كما أسمع أدين ودينونتي عادلة لأنني لا أطلب مشيئتي بل مشيئة الآب الذي أرسلني)

وفي نفس الإنجيل (٥ : ٣٦): (وأما أنا فلي شهادة أعظم من يوحنا. لأن الأعمال التي أعطاني الآب لأعملها، هذه الأعمال بعينها التي أنا أعملها هي تشهد لي أن الآب قد

أرسلني)

وفي نفس الإنجيل (٤: ٣٥): (الآبُ يَحِبُّ الابنَ وقد دفع كل شيء في يده)

وفي إنجيل متى (٢٨: ١٨): (فتقدّم يسوع وتمهّل قائلاً: دُفِعَ إِلَيَّ كل سلطان في

السماء وعلى الأرض)

وفي إنجيل لوقا (١٠: ٢١-٢٢): (والتفت (أي المسيح) إلى تلاميذه وقال: كل شيء

قد دُفِعَ إِلَيَّ من أبي)

وفي نفس الإنجيل (١١: ٢٠) يقول المسيح: (ولكن إن كنت أنا بإصبع الله أخرج

الشياطين فقد أقبل عليكم ملكوت الله)

وقد كان الحاضرون يعلمون ذلك.. يدل لذلك ما ورد في إنجيل يوحنا (١١: ٢١) _

(٢٢): (فَقَالَتْ مَرْثَا لِيَسُوعَ: (يَا سَيِّدُ لَوْ كُنْتُ هَهُنَا لَمْ يَمُتْ أَخِي. لَكِنِّي الْآنَ أَيْضاً أَعْلَمُ أَنَّ كُلَّ

مَا تَطْلُبُ مِنَ اللَّهِ يُعْطِيكَ اللَّهُ إِيَّاهُ)

ولهذا كان المسيح قبل أن يقوم بالمعجزة يتوجه ببصره نحو السماء ويطلب الله

ويشكره كما جاء في إنجيل يوحنا (١١: ٤١): (وَرَفَعَ يَسُوعَ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: (أَيُّهَا

الآبُ، أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ لِي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْماً تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنِّي قُلْتُ هَذَا لِأَجْلِ

الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِي لِيُؤْمِنُوا أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي)

وقد تكرر منه هذا الفعل كما في إنجيل متى (١٤: ١٥ _ ٢١): (وَأَمَرَ الْجُمُوعَ أَنْ

يَجْلِسُوا عَلَى الْعُشْبِ. ثُمَّ أَخَذَ الْأَرْغِفَةَ الْخَمْسَةَ وَالسَّمَكَتَيْنِ، وَرَفَعَ نَظْرَهُ إِلَى السَّمَاءِ، وَبَارَكَ

وَكَسَّرَ الْأَرْغِفَةَ، وَأَعْطَاهَا لِلتَّلَامِيذِ، فَوَزَّعُوهَا عَلَى الْجُمُوعِ. فَأَكَلَ الْجَمِيعُ وَشَبِعُوا)

لقد قام المسيح برفع نظره نحو السماء قبل أن يقوم بالمعجزة وقبل أن يبارك، وكأنه

يدعو خالق السموات والأرض ليمنحه ما يطلبه من معجزات.

صمت قليلا، ثم قال: ألا تعلم أن هذا القول يلزمكم بإضافة أقانيم كثيرة للإله الواحد؟
قلت: كيف ذلك؟

قال: لقد بشر المسيح كل من يؤمن به بأنه سيعمل من العجائب مثل أعمال المسيح، بل في إمكانه أن يعمل ما هو أعظم منها، فقد جاء في يوحنا على لسان المسيح: (الحق الحق أقول لكم: من يؤمن بي فالأعمال التي أنا أعملها يعملها هو أيضاً ويعمل أعظم منها) (يوحنا ١٤: ١٢)

صمت، فقال: لماذا لا تتخذون (اليشع) إلهاً، فقد ذكر الكتاب المقدس في سفر الملوك الثاني (٤: ٣٢) أن (اليشع) قد أحيا طفلاً ميتاً.. بل قد جاء فيه ما هو أعظم من ذلك، فقد ورد عنه في سفر الملوك الثاني (١٣: ٢٠) انه أحيا ميتاً وهو ميت فقد ورد فيه: (وَمَاتَ أَلِيشَعُ فَدَفَنُوهُ. وَحَدَّثَ أَنَّ غَزَاةَ الْمُوَابِيِّينَ أَغَارُوا عَلَى أَرْضِ إِسْرَائِيلَ عِنْدَ مَطْلَعِ السَّنَةِ الْجَدِيدَةِ، فِيمَا كَانَ قَوْمٌ يَقُومُونَ بِدْفْنِ رَجُلٍ مَيِّتٍ. فَمَا إِن رَأَوْا الْغَزَاةَ قَادِمِينَ حَتَّى طَرَحُوا الْجُثْمَانَ فِي قَبْرِ أَلِيشَعِ، وَمَا كَادَ جُثْمَانُ الْمَيِّتِ يَمَسُّ عِظَامَ أَلِيشَعِ حَتَّى اِزْدَدَتْ إِلَيْهِ الْحَيَاةُ، فَعَاشَ وَنَهَضَ عَلَى رِجْلَيْهِ)

بل جاء في سفر (حزقيال) ما هو أعظم من ذلك، فقد جاء في الاصحاح (٣٧: ٧) أنه أحيا جيشاً عظيم جداً من الأموات.

ومع هذا لم يقل أحد أن النبي اليسع أو أن النبي حزقيال بهما طبيعة لاهوتية أو أن الرب قد حل بهما. تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

أما تكثير الطعام ومباركته، فإننا نجد في الكتاب المقدس عن اليسع كما في سفر الملوك الثاني (٤: ١، ٧) أنه صنع معجزة تكثير الزيت، والذي يقرأ هذه المعجزة سيجد أن اليسع لم يرد في خبرها أنه رفع نظره نحو السماء، ولا أنه بارك وشكر الله كما فعل المسيح،

ومع ذلك لم يقل أحد أن في أليشع طبيعة لاهوتية مع أن هذه الاعجوبة أبلغ مما وقع للمسيح.

أما خضوع عناصر الطبيعة.. فإن الطبيعة - حسب الكتاب المقدس - قد خضعت لكثيرين، وكان منهم أليشع وإيليا ويشوع، فالذي يقرأ ماجاء في سفر الملوك الثاني (١: ٧، ١٤) سيجد أن إيليا أمر عنصر النار التي هي سيدة العناصر، فأخضعها وأطاعته بمجرد أمره فنزلت من السماء، فلم يكن من إيليا إلا انه أمر فكان.

وجاء في سفر الملوك الثاني (٢: ٧، ٨) عن إيليا واليشع: (ووقف كلاهما بجانب الأردن، وأخذ إيليا رداءه ولفه وضرب الماء، فانفلق إلي هنا وهناك فعبّر كلاهما في اليبس) أليس انفلاق الماء الذي وقع معجزة لإيليا واليشع أعظم من هدوئه الذي وقع معجزة للمسيح.. ومع ذلك لم تقولوا أنتم.. ولم يقل أحد إن في إيليا طبيعة لاهوتية.

أما شفاء العمي والبرصى.. فقد نص الكتاب المقدس على أن هذه المعجزة قد حدثت على يد اليشع، كما في سفر الملوك الثاني (٦: ١٤ - ٢٠).. ومن يقرأ ما جاء في خبر هذه المعجزة سيجد أن ما فعله أليشع لم يكن بفرد واحد أو باثنين أو بثلاثة بل كان بجيش كبير.. ومع ذلك لم تقولوا أنتم.. ولم يقل أحد إن في اليشع طبيعة لاهوتية.

أما التنبؤ بأحداث المستقبل.. فاليشع قد تم له ذلك.. وذلك عندما وعد المرأة الشونمية التي لم يكن لها ابن ورجلها قد شاخ (فَقَالَ لَهَا أَلِيشَعُ: (فِي مِثْلِ هَذَا الْوَقْتِ مِنَ السَّنَةِ الْقَادِمَةِ سَتَحْضِنِينَ ابْنًا بَيْنَ ذِرَاعَيْكَ. فَقَالَتْ: (لَا يَأْسِيْدِي رَجُلُ اللَّهِ. لَا تَخْدَعْ أَمَتَكَ) لَكِنَّهَا حَمَلَتْ وَوَلَدَتْ ابْنًا فِي الزَّمَنِ الَّذِي أَنْبَأَ بِهِ أَلِيشَعُ) (سفر الملوك الثاني: ٤: ١٦)

بالإضافة إلى هذا.. فإن الكثير من الانبياء تنبؤوا بالغيب والأحداث المستقبلية ممن وردت أسماؤهم في الكتاب المقدس.. بل قاموا بصنع الآيات والمعجزات كالمسيح

تماماً.. ومع هذا لم يقل أحد منكم ولا من غيركم أن فيهم طبيعة لاهوتية.
التفت إلي، فرآني مستغرقاً في السماع، فقال: أنتم أعلم بالمسيح من تلاميذ المسيح؟
قلت: لا.. هم أعلم بالمسيح منا.
قال: فقد حصلت كل هذه المعجزات أمام أعينهم، ومع ذلك كان أقصى ما قالوا: (قد
قام فينا نبي عظيم) كما جاء في (لوقا: ١٦: ٧)، وم يكن من المسيح إلا أن أقرهم ولم ينكر
عليهم وصفهم له بالنبوة.

بل إن المسيح نفسه لم يقصد من المعجزة إلا إقناعهم بنبوته كما جاء في إنجيل
يوحنا (١١: ٤١): (وَرَفَعَ يَسُوعُ عَيْنَيْهِ إِلَى السَّمَاءِ وَقَالَ: أَيُّهَا الْآبُ، أَشْكُرُكَ لِأَنَّكَ سَمِعْتَ
لي، وَقَدْ عَلِمْتُ أَنَّكَ دَوْماً تَسْمَعُ لِي. وَلَكِنِّي قُلْتُ هَذَا لِأَجْلِ الْجَمْعِ الْوَاقِفِ حَوْلِي لِيُؤْمِنُوا
أَنَّكَ أَنْتَ أَرْسَلْتَنِي)

فهل يمكن لمخلص للمسيح بعد هذا أن يتخذ من قيام المسيح بإحياء الموتى دليلاً
على ألوهيته؟

التفت إلينا صاحبنا (آريوس)، وقال: هذا حديثي مع ذينك الرجلين الصالحين.. لقد
عشت في رحاب كلمتهما أياماً جميلة.. ولكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت
تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني..
لقد بعثها جميعاً بثمان بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام
الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

ثالثا - القدوس

في اليوم التالي.. وفي وقت متأخر من الليل.. قام رجل منا فرحا مسرورا، وأسرع يوقظ الجمع، وهو يقول لهم: أيها الجمع.. هلموا.. لقد تذكرت الآن أشياء حصلت لي في حياتي.. لا شك أن لها دورا كبيرا فيما نبحث عنه.. لا شك أن لها دورا كبيرا في التعريف بالإله الذي انشغلنا جميعا بالبحث عنه.

استبشر الجمع، وراحوا يلتفون به، وهم يقولون: هيا.. أخبرنا.. ما أشد شوقنا للتعرف على إلهنا.. فلن يخلصنا من هذه الحال غيره.

قال: سأعرفكم أولا بنفسي.. أنا (فريدريك ماكس مولر)^(١).. وقد كنت باحثا في كثير من مراكز البحوث.. وأجريت في حياتي بحثا كثيرة إلى درجة أنني أنسى عناوينها.. بل أنسى النتائج التي توصلت إليها من خلالها.. وأحيانا أطلع بعضها، فأتوهم أن غيري هو الذي قام بها مع أنني لم أقم بها إلا أنا..

لعل ذلك كان بسبب الآلية التي كنت أجري فيها بحثي.. فقد كنت أقدم على البحوث كما تقدم آلة الحرث على الحرث.. وآلة الزرع على الزرع.. وآلة الحصاد على الحصاد.. لقد كنت أزرع فرضيات بحثي بعد أن أهين لها الأرضية المناسبة.. ثم أتركها

(١) أشير به إلى (فريدريك ماكس مولر) (١٨٢٣ - ١٩٠٠م)، وهو عالم ألماني اهتم بصفة خاصة باللغة السنسكريتية الهندية القديمة.. أسهم في الدراسة المقارنة في مجالات اللغة والدين وعلم الأساطير على الرغم من أن علماء العصر الحديث قد نبذوا الكثير من نظرياته.

كان أهم أعماله أول إصدار باللغة الإنجليزية من ريك - فيدا، وهو أقدم كتاب هندوسي مقدس.. نشر في ستة مجلدات بين عامي ١٨٤٩م و ١٨٧٣م، كما حرر كتب الشرق المقدسة، الذي يضم في ٥١ مجلداً ترجمات دارسين مختلفين لموضوع كل الديانات الآسيوية الرئيسية فيما عدا النصرانية واليهودية.. ونشر أول هذه الكتب في عام ١٨٧٥م. (الموسوعة العربية العالمية)

لأحصدها بعد ذلك بكل آلية بعيدا عن كل المشاعر..

أذكر أنني أجريت مرة بحثا عن اليتامى.. وأذكر أنني زرت خلالها كثيرا من الأسر التي تضم يتامى.. وأذكر مع ذلك كله أن عيني لم تتكرم علي بدمعة واحدة مع كثرة المآسي التي رأيتها..

لكن بحثا مهما كنت قد بذلت فيه كامل وسعي في بعض تلك الأيام.. أذكر أنه كان قد أثر في بعض التأثير.. كانت له علاقة بما نحن فيه..

لقد أنستني الأيام.. لكنني اليوم تذكرته.. تذكرته بكل تفاصيله.. وسأقص عليكم قصته.

ساد الجمع الحاضر صمت عميق سرعان ما قطعه (فريدريك) بقوله: في تلك الأيام كلفت أن أجري بحثا حول (قداسة الإله في الأديان والمذاهب).. وقد طلب مني أن تكون دراسة مقارنة مستوعبة.. فلا يهم المركز التحليلات بقدر ما تهمة المعلومات.

لقد وفر لي مركز البحث لتيسير إجراء البحث كل الوسائل، وأمدني بما أحتاجه من المال للتنقل إلى أي بقعة أشاء من بقاع العالم.. وقد أتاح لي ذلك فرصة للتعرف على التصورات المختلفة التي تحملها البشرية عن الله^(١).

لقد زرت لأجل إجراء ذلك البحث اليونان والهند والصين.. وبلاد كثيرة..

قال رجل منا: فبم بدأت رحلتك؟

عقائد اليونان:

(١) من المصادر المهمة التي رجعت إليها لذكر التفاصيل المرتبطة بالتصورات المختلفة للأديان والمذاهب عن (الله) كتاب (الله) للعقاد، فهو من أحسن ما ألف من الكتب في هذا الباب.

قال: باليونان^(١).. فقد كانت أقرب البلاد إلينا.. وكانت أكثر البلاد امتلاء بالتصورات المختلفة عن الله.

لقد حفلت اليونان في عهودها القديمة بجميع أنواع العقائد البدائية قبل أرباب (الأوليمب) الذين خلدوا في أشعار هوميرو وهزيود.. لقد عبدوا الأسلاف والطواطم ومظاهر الطبيعة وأعضاء التناسل ومزجوا العبادات جميعا بطلاسم السحر والشعوذة.. واستمدوا من جزيرة (كريت) عبادة النيازك وحجارة الرواسب التي شاعت بيت أهل الجزيرة من أقدم عصورها البركانية.. فرمزوا بها إلي أرباب البراكين والعوالم السلفية.. واتخذها بعضهم (طوطم) يتسبون إليها انتساب الأبناء إلي الآباء.

ولما شاعت بين الإغريق عبادة (أرباب الأوليمب) كان من الواضح أنها أرباب مستعارة من الأمم التي سبقتهم إلي الحضارة وتنظيم العبادات.. فالإله (زيوس) أكبر أرباب الأوليمب هو الإله (ديوس) المعروف في الديانة الهندية الآرية القديمة.. واسمه متداول في العبادات الأوربية جميعا مع قليل من التصحيف بين اللغات واللهجات.. ومن تصحيفاته أسماء الله والإلهية عند الفرنسيين والطلليان والإنجليز المعصرين.

والربة (أرتيميس) - ومثلها الربة أفروديت أو فينوس - هي الربة عشتار اليمانية البابلية.. ومنها كلمة (ستار) التي تدل علي النجم في بعض اللغات الأوربية الحديثة. والربة (ديمتر) هي أزيس المصرية كما قال هيرودوت، وهي واحدة من أرباب كثيرة تشابهت عبادتها في بلاد الإغريق وعبادتها بين قدماء المصريين.

(١) نذكر هنا ما ذكره العقاد من التصورات الدينية والتي كانت منتشرة بين العامة، ولها كانت تقام المعابد.. أما التصورات الفلسفية، فلها محلها الخاص.. وهي على العموم أفضل بكثير من الاعتقادات العامة.

وأضيف إلي هذه الأرباب (أدونيس) عن (أدوناي) العبرية بمعنى السيد أو الإله، وأضافوا إليها في مصر بعد الإسكندر المقدوني عبادة إله سموه سرايس وهو اسم مركب من اسمي أوزيريس وأيس المعبودين المصريين، وكان لهما معبد تدفن فيه العجول التي تعبد اسم أيس بعد موتها وذهابها إلي مغرب أوزيريس.

كما أضيفت إليها عبادة (ديونيسيس) في أطوارها المتتابعة التي تلبست أخيرا بعبادة (مترا) في الديانة الأورفية السرية.

وقد ترقى اليونان في تصور صفات الأرباب خلال العصور التاريخية.. فعبدوا قبل المسيح بوضع مئات من السنين آلهة هي علي أسوأ مثال من العيوب الإنسانية.. وعبدوها بعد ذلك وهي ترقى إلي الكمال وتقترب إلي فكرة (التنزيه) التي سبقهم إليها المصريون والهنود والفرس والعبرانيون.

فكان أرباب الأوليمب في مبدأ أمرهم يقتربون أقبح الآثام ويستلمون لأغلظ الشهوات.. وقد قتل زيوس أباه (كرونوس) وضاجع ابنته، وهجر سماءه ليطارد عرائس العيون والبحار، ويغازل بنات الرعاة في الخلوات، وغار من ذرية الإنسان، فأضمر له الشر والهلاك، وضمن عليه بسر (النار) فعاقب المارد برومئوس لأنه قبس له النار من السماء.

ولم يتصوروه خالقاً للعالم أو خالقاً للأرباب التي تسكنه في جبل الأوليمب وتركب معه متن السحاب، فهو علي الأكثر والد لبعضها، ومنافس لأنداده منها، وتعوزه أحيانا رحمة الآباء ونبل العداوة بين الأنداد.

ولم يزل (زيوس) إلي عصر (هومير) خاضعا للقدر مقيدا بأوامره، عاجزا عن الفكاك من قضائه.

لقد صوره لنا الشاعر المتدين علي مثال أقرب إلي خلائق الرحمة والإنصاف، ومثال

الكمال، ولكنه نسب الخلق إلى أرباب أقدم منه ومن سائر المعبودات الأولمبية.. وهي (جيا) ربة الأرض و(كاوس) رب الفضاء و(أيروس) رب التناسل والمحبة الزوجية، وجعل أيروس يجمع بين الأرض وزوجها الفضاء فتلد منه الكائنات السماوية والأرضية وآخرها أرباب الأولمب، وعلي رأسهم (زيوس) الملقب بأبي الأرباب.

وكان (أكسينوفون) المولود بآسيا الصغرى قبل الميلاد بنحو ستة قرون أول من نقل إلى الإغريق فكرة الإله الواحد المنزه عن الاشتباه، فكان ينعي علي قومه أنهم يعبدون أربابا علي مثال أبناء الفناء، ويقول: إن الحصان لو عبد إلها لتمثله في صورة الحصان.. وأن الأثيوبي لو تمثل إلها لقال إنه أسود الإهاب.. وأن الإله الحق أرفع من هذه التشبيهات والتجسيمات، ولا يكون علي شيء من هذه الصفات البشرية.. بل هو الواحد الأحد المنزه عن الصور والأشكال، وأنه فكر محض ينظر كله ويسمع كله ويفكر كله ويعمل كله في تقويم الأمور وتصريف أحكام القضاء.

وكان أثر الديانات الآسيوية والمصرية أظهر من كل ما تقدم في الديانة الأورفية السرية، لأنها كانت ملتقي عبادة إيزيس وعبادة مترا وعبادة المجوس والبراهمة. فعرفوا الروح وعرفوا تناسخ الأرواح، وعرفوا أدوار التطهير والتكفير، ومزجوا بها عبادة (ديونيس) الذي كان في عصورهم الغابرة إله الخمر والقصف والترف.. فجعلوا خمره رمزا إلي النشوة الإلهية: نشة الحياة والشباب الخالد المتجدد علي مدي الأيام.

عقائد الهنود:

قال رجل منا: حدثنا عن اليونان.. فحدثنا عن الهند.. فهي من أقدم البلاد.. ولا شك أن نصيبا من الحقيقة عندها..

قال (فريدريك): لقد زرت الهند، وبحثت في معابدها ومخطوطاتها، والتقيت برجال دينها.. وقد وجدت أن الديانات الهندية القديمة تعود إلى أزمنة أقدم من العصر الذي دونت فيه أسفارها المعروفة بالكتب الفيدية.. وقد اختلف المؤرخون في العصر الذي تم فيه هذا التدوين.. فبعضهم يرده إلى ألف وخمسمائة سنة قبل الميلاد.. وبعضهم يرده إلى ستة آلاف سنة قبل الميلاد.. ولكنهم جميعا مع ذلك لا يختلفون في سبق الديانة الهندية لهذا العصر بزم من طويل.

وقد وجدت أن المؤرخين - ولست أدري مدى صحة ما ذهبوا إليه - يتفقون على أن الديانة الهندية القديمة مزيج من شعائر الهنود الأصلاء، وشعائر القبائل الآرية التي أغارت على الهند قبل الميلاد بعدة قرون.. وقد كانت تلك القبائل تقيم علي البقاع الوسطي بين الهند ووادي النهرين.. فاتجهت طائفة منها غربا إلى أوربة، واتجهت طائفة منها شرقا إلى الأقاليم الهندية من شمالها إلى جنوبها علي السواحل الغربية، قبل أن تتوغل منها إلى جميع أنحاء البلاد.

ويرى بعض المؤرخين أن من مصادر الديانات الهندية القديمة ما نقل إليها من الديانات البابلية والمصرية، ويعلمون ذلك جغرافيا بتوسط الموقع الذي قام فيه الآريون الأولون، وأنهم لم تكن لهم في موقعهم ذاك حضارة سابقة لحضارة مصر وبابل وأشور. لا يهمننا في هذا المقام كل هذا.. إنما الذي يهمننا هو تصور هذه الديانات لله..

لقد رأيت من خلال البحث المستوعب المستقصي أن (الله) في الديانات الهندية القديمة لم يكن واحدا.. بل كان أنواعا شتى من الآلهة.. منها آلهة تمثل قوى الطبيعة وتنسب إليها.. فيذكرون المطر، ويشتقون منه اسم (الممطر).. ويعتبرونه الإله الذي يتوجهون إليه في طلب الغيث.. ومن هنا كان (أندر) هو إله السحاب، لأنه مشتق من كلمة (أندر) بمعنى

المطر، أو بمعني السحاب.

ويذكرون إلى جانب (أندر) إله النار.. وإله النور.. وإله الريح.. وإله البحار..
ويجمعونها جميعا في ديانة شمسية تلتقي بأنواع شتي من الديانات..

وأقدم الأسماء عندهم كان اسم (ديفا) Deva.. وهو يعني (المعطي).. لقد بقيت آثار
من هذا الاسم في اللغات اليونانية واللاتينية وبعض اللغات الأوربية الحديثة.. فكلمة (ديو)
الفرنسية Dieu وكلمة ديتي Deity الإنجليزية، وكلمة (زيوس) اليونانية القديمة مأخوذة من
أصلها الهندي المتقدم.

بالإضافة إلى هذا، فقد رأيت البرهمية القديمة تشتمل علي عبادة الأسلاف.. كما
تشتمل علي عبادة المظاهر الطبيعية.. ولذلك فإن تقديس الملك عندهم تقليد موروث من
تقديس جد القبيلة.. وقد تحول إلي تقديس الرئيس الأكبر في الدولة بعد أن تحولت القبيلة
إلي الأمة.

وقد ذكر العلامة (اليوت سميث) كما قال في كتابه (المبادئ) The Beginning أن مواسم
تقديس الملك التي لا تزال مرعية في جوار الهند كانت تحاكي مراسم قصة الخليفة كما
تخيلها المصريون.. فلم يكن حق الملك مستمدا من الجلوس علي العرش أو من البناء
بالمملكة التي تنقل إليه حقوقه الملكية، ولكنه يتولى هذا الحق بعد تقديسه في حفل يمثل
قصة الخليفة^(١)، وكأنهم يعنون بهذا أن الملك يستمد من ذلك التقديس قدرته علي الخلق

(١) يذكر العقاد أن قصة الخليفة في الهند تشبه قصة الخليفة المصرية في أكثر من صيغة واحدة من صيغها العديدة
: فالحياء خرجت من بيضة (ذهبية) كانت تطفو علي الماء في العماء ، والإله الأكبر كان ذكرا وأنثي فهو الأب والأم
للأحياء كما جاء عن (رع) في بعض الأساطير المصرية، وبناء العالم من صنع بناء ماهر في أساطير مصر والهند علي

ومنح الحياة، وهي قدرة لا غني عنها لاضطلاعه بالفرائض الملكية.

وقد وجدت أن عبادة (الطوطم) تعززت في الهند بعقيدتهم في وحدة الوجود وتناسخ الأرواح كما تعززت بعقيدة الحلول.. فلذلك عبدوا الحيوان علي اعتباره جدا حقيقيا أو رمزيا للأسرة ثم للقبيلة.. ثم تطورا أكثر^(١)، فأمنوا بأن الله يتجلى في كل موجود، أو يخص بعض الأحياء بالحلول فيه.. وآمنوا مع ذلك كله بتناسخ الأرواح.

لقد رأيت الطوطمية عاشت عندهم في أرقى العصور كما عاشت في عصور الهمجية لهذا الامتزاج بين الاعتقاد الحديث والاعتقاد القديم.. لكنهم خلصوا في الأخير إلى الإيمان بالإله الواحد، وإن اختلفوا في المنهج الذي سلكوه في التعرف عليه.. فلم يكن إيمانهم به علي الأساس الذي قام عليه إيمان الشعوب الأخرى بالتوحيد.

لقد بدأوا - أولا - بإبطال جميع المظاهر، فنسبوا إليها التعدد والاختلاف لأنها تتكرر وتزول وتستمر من ورائها الحقيقة الأبدية التي لا تتكرر ولا تزول، وتلك هي حقيقة القضاء والقدر التي تقدر للآلهة وتقضي عليهم كما تقدر لسائر الموجودات وتقضي عليها في أجلها المحدود.

وهنا ذهب حكماءها إلي مذهبين غير متفقين..

أما الفريق الأول منهما.. فتمثل تلك الحقيقة إلها واحدا قريبا من الإله الواحد في أكثر

السواء، وتتفق مصر وبابل والهند علي الإله الأكبر قد خلق الأرض بكلمة ساحرة.. فأمرها بأن توجد فبرزت علي الفور إلي حيز الوجود. (الله، للعقاد)

(١) هذا ما عبر به العقاد.. ويعبر به علماء مقارنة الأديان عادة عند بحثهم في تاريخ الأديان.. ونحن نرى أن الأمر ليس خاضعا للتطور المتوهم.. وإنما هو خاضع لتأثير رسل الله والدعاة إليه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)

ديانات التوحيد، قال ماكس مولر الثقة الحجة في اللغات الآرية: (أيا كان العصر الذي تم فيه جمع الأناشيد المسطورة في الرجفida فقبل ذلك العصر كان بين الهنود مؤمنون بالله الأحد الذي لا هو بذكر ولا بأنثى ولا تحده أحوال التشخيص وقيود الطبيعة الإنسانية، وارتفع شعراء الفيدا في الواقع إلي أوج في إدراكهم لكنه الربوبية لم يترق إليه مرة أخرى غير أناس من فلاسفة الإسكندرية المسيحيين، ولكنه فوق هذا لا يزال أرفع وأعلي مما يطيف بأذهان قوم يدعون أنفسهم بالمسيحيين)

وتبدو مدانة هؤلاء البراهمة لمذاهب الموحدين المؤمنين (بالذات الإلهية) من إيمانهم بالخلاص علي يد الله، وبقاء فريق منهم بعد ذلك بمئات السنين ينقسمون في شرح سبيل الخلاص علي نهجهم الذي لا نستغربه من قوم يعظمون الحيوان ذلك التعظيم.. فمنهم من يسمي سبيل الخلاص بالسبيل القردية.. ومنهم من يسميها بالسبيل القطية.. ويقصدون بهذه التسمية أن الله يخلص الإنسان إذا تشبث به كما يتشبث ولد القرد الصغير بأمه وهي تصعد به إلي رؤس الأشجار، أو أن الله علي اعتقاد الآخرين يخلص الإنسان وهو مغمض العينين مستسلم للقضاء، كما يستسلم ولد القطة لأمه وهي تحمله مغمضا من مكان إلي مكان.

فالله الذي يخلص عباده هذا الخلاص أو ذاك هو (ذات) علي كلتا الحالتين يتشبث بها العبد أو يستسلم لقضائها فتسهر عليه وإن غفل عنها.

ويتسمي هذا الإله بثلاثة أسماء علي حسب فعله في الوجود، فهو (برهما) حين يكون الموجود الخالق، وهو (فشنو) حين يكون الواقى المحافظ، وهو (سيفا) حين يكون المهلك الهادم.

وأما الفريق الثاني فالحقيقة الأبدية عنده معني ليس له قوام من (الذات) الواعية، وإنما

هو قانون يقضي بتلازم الآثار والمؤثرات، ويقابل الاعتقاد بالقضاء والقدر عند المؤمنين بالأديان الكتابية.

إلا أنه قضاء يسري علي الآلهة كما يسري علي البشر، ويتغلغل في طبائع الخالقين كما يتغلغل في طبائع المخلوقات، وحكمه الذي لا مرد له هو حكم التغير الدائم والفناء، وحكم الإعادة والإبداء.

ولم أر من خلال بحثي أن أحدا من الأقدمين بلغ في تعظيم الأكوان المادية مبلغ البراهمة، سواء في تقدير السعة أو تقدير القدم أو تقدير البقاء.. فقد جعل البراهمة للكون أربعة أعمار تساوي اثنتي عشر ألف سنة إلهية وأربعة ملايين وثلاثمائة وعشرين ألف سنة شمسية.. وبعض المتأخرين يضاعفها ألف ضعف ويقولون أنها جميعا دورة واحدة من دورات الوجود.. وأن هذه الدورة هي يوم يقظة يقابله ليل هجوع، ينقضي بين كل دورة فنية وكل دورة آخذة في الابتداء.

والقانون الأبدي karma يقلب الأدوار فيبدئها ويحفظها ويفنيها، ثم يختم هذا النهار بليل من الليالي الهجوع، ثم يعود فيطلع النهار كرة أخرى أخرى دواليك إلي غير انتهاء، لأنه لا انتهاء للزمان.

ويتضاءل الإنسان الفاني كلما تعاظم هذا الفناء الخالد أو هذا الخلود الذي يتجدد بالفناء، فليس للإنسان حساب كبير في هذه الحسبة الأبدية.. لأنه (رقم) ضئيل يغرق في طوفان الأرقام التي لا يحيط بها العد والإحصاء.

وعلي هذه القاعدة قامت البوذية التي بشر بها البوذا جوتاما قبل الميلاد المسيحي بحوال خمسة قرون.. فليل (جوتاما) بمئات السنين كان نساك الهند يتغنون بمضامين النشيد المرهوب الذي تحدث عما كان قبل أن كان أو يكون:

(حينذاك لم يكن ما وجد أو ما لم يوجد، ولم يكن ما تثبته وما لا تنفيه.

لا أجواء ولا سماء وراء الأجواء.

وماذا عساها تنطوي عليه؟ أين كانت وأين قرارها؟ أهي هاوية الماء التي ليس لها من

قرار؟

لم يكن موت: فلم يكن خلود.

لم يكن ما يموت فلم يكن ما ليس يموت.

ولم يكن ثمة نهار ولا ليل. ولم يكن إلا (الأحد) يتنفس حيث لا أنفاس. ولا شيء

سواه.

وكان البدء في ظلام: عليكم بلا ضياء.

ومن البذرة في تلك القشرة (الأحد) بحرار الحياة.

وانتصر الحب حين نبتت البذرة من لباب العقل السرمدي، وناجي الشعراء قلوبهم

فتبينوا بالحكمة ما هو مما ليس هو.. فقد نفذ شعاع القلب خلال ما هنالك، فماذا نظروا

فوق الأحد وماذا نظروا دونه؟ كل ما هنالك حملة لبذور.. قوي: قوة من أدني ومشئئة من

أعلي. ولا أحد يدري. ولا من يعلم من أين جاء ما جاء. فإنما جاءت الأرباب بعد ذلك..

فمن إذن يعلم ما جري؟ أهو الذي حدثت منه الخليقة؟ لعل الذي يعرفه (أحد) واحد في

أعلي عليين. ولعله لا يدري كذلك..)

وقبل (جوتاما) آمن البراهميون بالدورة في وجود الكون والدورة في وجود الإنسان..

فالكون يتجدد حلقة بعد حلقة.. والإنسان يتنقل في جسد بعد جسد.. وسلسلة الأكوان

ليس لها انتهاء.. وسلسلة الحياة الإنسانية قد تنتهي إلي السكينة أو الفناء.

لقد قامت البوذية علي أساس البرهمية في كل عقيدة من عقائد الأصول.. وإنما

تميزت عنها بتبسيط العقائد لطبقات من الشعب غير طبقات الكهان، فأخرجتها من حجابها المكنون في المحاريب إلى المدرسة والبيت وصفوة المريدين.

ولا تعتبر البوذية إضافة في صميم العقائد الدينية، بل هي إضافة في آداب السلوك وفلسفة الحياة.. وهي إضافة في عرض الآراء علي غير المستأثرين بها قديما من سدنه الهيكل والمحراب.

وبهذه الآداب ينجو الإنسان من رباط ذلك الدولاب الدائر بالولادة والموت والتجدد في حياة بعد حياة وجثمان وراء جثمان، فيدخل في (النرفانا) ولا يولد بعد ذلك ولا يموت. وحكمه في هذا المصير حكم الأرباب والملائكة وحكم السماوات والأرضين.. فكلها خاضع لقانون القضاء والقدر الذي لا فكاك منه لموجود، وكلها عرضة للتفكير والتطهير والتحول والتغيير، ثم للذهاب في غمرة الفناء الأخير.

وقد وجدت أن موضع التناقض في هذه الفلسفة^(١) أنها تنكر (الشخصية الإنسانية)

(١) انتقد العقاد الدراسات الأوروبية التي استلهم منها، قال: (علينا أن نحترس من مغالاة الشراح الأوروبيين بهذه الفلسفة البوذية. لأنهم يتعصبون لكل منسوب إلي الآرية علي اعتبارها عنصر الأوروبيين الأقدمين والمعاصرين، فقد رفعوها فوق قدرها بلا مراء، وزعموا أنها (جرأة العقل الكبرى) في مواجهة المشكلة الكونية، وأنها الخطوة المقتحمة التي لم يذهب وراءها ذو عقيدة في مطاوح التأمل والإقدام)

وقد رد علي هذا بقوله : (لكنها لا تحسب من الجرأة العقلية بوصف من الأوصاف، فما هي إلا جرأة حسية في أقصى ما تطوحت إليه من الفروض والأطاني، وما البوذية كلها إلا تمللًا من وطأة الحس والجسد، ولا سعادتها القسوي إلا ضيقًا بالحس وهربًا منه إلي الفناء أو (اللاوعي) علي أحسن تقدير.. والمحسوس عندها شامل للمعقول، والكائن يحق الحس عندها شامل للكائن يحق العقل وحق الوعي وحق الذات.. والآلهة عندما تأتي في المرتبة التالية بعد مرتبة الأكوان وما ارتفعت الأكوان عندها إلي هذه المرتبة إلا بأنها هي المحسوس، وهي أول ما يفاجئنا قبل أن نفكر وقبل أن نتأمل وقبل أن ندين باعتقاد)

ولا تعترف بالذات أو بالروح وهي مع هذا تؤمن بتناسخ الأرواح وثبوت شيء في الإنسان يبقى علي التنقل بين الأجساد والدورات.. وهي تؤمن بالكل أو (المطلق) الصمدي الوجود، ثم تنفي عنه الذات كما تنفيها عن الإنسان.. مع أن الكل بغير ذات لا يكون كلا بمعني من معاني الكلمة.

عقائد الصين:

قال رجل من القوم: لم نكد نفهم من هذه الديانات شيئا.. فحدثنا عن غيرها.
قال: بعد الهند قصدت الصين.. وقد كنت آمل من خلال ضخامتها وكثرة شعوبها وترامي أطرافها أن أجد فيها جميع أنواع التصورات عن الإله..
لكنني لم أجدهم- عبر تاريخهم الطويل- يحبون الخوض في مباحث ما وراء الطبيعة..
ولهذا فإن التدين بينهم يكاد يكون ضربا من أصول المعاملة وأدب البيت والحضارة.
أما العبادات.. فأشيعها بينهم عبادة الأسلاف والأبطال.. وأرواح أسلافهم مقدمة بالرعاية علي جملة الأرواح التي يعبدونها، ويمثلون بها عنصر الطبيعة أو مطالب المعيشة..
ولهذا، فإنه لا يقدر الصيني قربانا هو أغلي قيمة، وأحب إلي نفسه من قربانه إلي روح سلفه المعبود.. وهو يحتوي الأغذية والأشربة والأكسية والطيوب، ومنهم من يحرق ورق النقد هبة للروح التي يعتقدون أنها تحتاج إلي كل شيء كانت تحتاج إليه، وهي في عالم الأجساد.

والخير والشر عندهم هو ما يرضي الأسلاف أو يسخطهم من أعمال أبنائهم.. فما أرضي السلف فهو خير وما أسخطهم فهو شر.. وقد يختارون فردا من أفراد الأسرة ينوب عن جده المعبود فيطعمونه ويكسونه ويزدلفون إليه ويحسبون أن روح الجد هي التي تتقبل

هذه القرابين في شخص ذلك الحفيد.

وتتمشي عبادة العناصر الطبيعية جنبا إلى جنب مع عبادة الأسلاف والأبطال..
فالسما والشمس والقمر والكواكب آلهة معبودة أكبرها إله السماء (شانج تي).. ويليه إله
الشمس.. فبقية الأجرام السماوية.. فالعناصر الأرضية.

وهم يتقربون إلى (شانج تي) بالذبائح، ويبلغون صلواتهم بإشعال النار علي قمم
الجبال، فيعلم الإله - مما أودعه الكاهن دواخينها- فحوي الرسالة التي يرفعها إليه عباده،
ولا يحسنون الترجمة عنها كما يحسنها الكهان.

وإله السماء عندهم هو (الإله) الذي يصرف الأكوان، ويدبر الأمور، ويرسم لكل
إنسان مجري حياته الذي لا محيد عنه.. وإنما يداول تركيب الوجود من عنصرين هما (ين)
عنصر السكون و(يانج) عنصر الحركة.. وقد يفسر عنصر السكون بالراحة والنعيم وعنصر
الحركة بالشقاء والعذاب.. فهما بهذه المثابة يقابلان عنصري الخير والشر وإلهي النور
والظلام في الأديان الثنائية.

وقد امتزجت عبادة الأسلاف بعبادة العناصر الطبيعية في القرن العاشر حين تسمي
عاهل الصين باسم (ابن السماء).. ويقال إنه استعار الفكرة من كاهن ياباني أراد أن يزدلف
إليه فعلمه مراسم تأليه الميكاد في بلاده.. فنقلها العاهل إلى بلاد الصين.

وقد أراد الفيلسوف (شوهستي) في القرن الثاني عشر أن ينشئ بوذية صينية توفق
مذهب بوذا في أمور وتخالفه في أمور، فدعا إلى دين لا إله فيه ولا خلود للروح، ووضع
(لي) موضع (كارما) الهندية أو القانون أو القضاء والقدر.

وسمي دولاب الزمن (تايشي) لأنه هو المحرك لجميع الكائنات، وجعل القانون
والدولاب والمادة أو (ووشي) قوام العالم ظاهرة وخافية.. وإنما ينشأ الوعي أو الإدراك

في الإنسان من قدح القانون للمادة كما ينقدح الحجر من الزناد، فيخرج الشر ثم ينطفئ فيموت.. وتزول الأرواح كما تزول الأجساد متي (نضجت) كما تنضج الثمرة في أجلها المعلوم.. وقد يبطئ النضج فيطول بقاء الروح فهي إذن طيف أو شبح، كأنها الثرة في حالة العفن والإهمال.

ولما مات كنفيشوس (٤٧٨ ق. م) أقاموا له الهياكل وعبدوه علي سنتهم في عبادة أرواح الأسلاف الصالحين، وأوشكوا أن يتخذوا عبادته عبادة رسمية علي عهد أسرة هان في القرن الثاني قبل الميلاد، وأوجبوا تقديم القرابين والضحايا لذكراه في المدارس ومعاهد التعليم، وكانت هياكله في الواقع بمثابة مدارس يؤمها الناس لسماع الدروس كما يؤمونها لأداء الصلاة.. ولم تزل عبادته قائمة إلي العصور المتأخرة بل إلي القرن العشرين.. فخصوه في سنة ١٩٠٦ بمراسم قربانية كمراسم الإله الأكبر (شانج تي) إله السماء لأنه في عرفهم (ند السماء) ومن لم يؤمن اليوم ببروبيته من الصينيين المتعلمين فله في نفسه توقيف يقرب من التأليه، وقد جعلوا يوم ميلاده - وهو السابع والعشرون من شهر أغسطس - عيداً قومياً يحجون فيه إلي مسقط رأسه، وينوب عن الدولة موظف كبير في محفل الصلاة أمام محرابه.

ويظهر أن بيئة الصين لم تواجه أبناءها بالعقد النفسية، ولكنها واجهتهم بتقلبات العناصر الطبيعية التي تعودت الشعوب قديماً أن تروضها بالسحر والكهانة، فجار نصيب الإيمان بالسحر علي نصيب الإيمان بالدين، وذاع عن أهل الصين - من ثم - أنهم أقدر أمة علي تسخير الطبيعة بالطلاسم والأرصاء.

وموقف اليابان من الرسالة الدينية كموقف الصين علي الإجمال.. فقد تشابهت عقائدهم في أصولها وعبدوا الأرواح والأسلاف والعناصر الطبيعية.. وإذا كان لأهل اليابان

سمة خصوصية في العبادات فهي أنهم اختاروا ربة أنثى لعبادة السلف الأعلى حين وحدوا الأسلاف في أكبرها وأعلاها.. وتلك الربة هي (اميتراسوا-أموكامي) التي لا تزال معبودة إلي اليوم.

ويؤخذ من الأساطير اليابانية أنها كانت ربة الغزاة الذين أغاروا فيما قبل التاريخ علي جزيرة كيوشو، وأخضعوا أهلها وطردهم منهزمين إلي الجبال، وكان أهل كيوشو الأولون يعبدون إله الريح والمطر (سوسا-نو-وو) فهبط هذا الإله بهزيمتهم إلي المرتبة التالية لمرتبة الربة السلفية.. ثم انعقدت الوثام بين الفريقين بعد تناسي الإحن والترات وامتزاج القبائل الغازية والممغزوة، فأصبح الإلهان أخوين وأصبحت (أميتراسو) هي كبري الأخوين.

ولا يعتقد اليابانيون أن هذه الربة خلقت الكون أو خلقت الإنسان، لأنهم يعتقدون أن عهدا قد سبقته عهود مديدة تنازع فيها الأمر عشرات الألوف من الأرباب.. وهذه أرباب عندهم هي بمثابة الأرواح والملائكة والجنة والشياطين من عناصر الخير والشر عند الأمم الكتابية.. ويسمون الواحد منها (كامي).. وهي كلمة تطلق علي كل رائع خارق للعادة بالغ في القوة أو الجمال.. ثم استسلمت هذه الأرباب بعد كفاح طويل وصار الأمر إلي الربة الكبرى برضوان من خالق السماوات والأرضين.

أما الخلق فهو منسوب عندهم إلي إله السماء (أزانا جي-نوميكوتو) وزوجته وأخته إلهة الأرض (أزانا مي-نوميكوتو).. فولدا جزر اليابان وألقهاها ببدور الآلهة، وجاء أبناء اليابان الآدميون من سلالة الآلهة.. فكلهم في النسب الأعلى - وليس الميكاد وحده- إلهيون.

وفي إحدي الروايات الأسطورية أن ربة الأرض احترقت وهي تضع إله النار فجرد

رب السماء سيفه وضرب به إله النار، فانبعثت من وميض سيفه ومن ضرباته رهط من أرباب الزوابع والبروق والرعود.. ولم ترجع الأرض إلى خصبها إلا بعد شفاء ربها وخروجها من هاوية الظلام لتلد الماء والطمي وعناصر الزرع والحياة.

وينسبون الخلق في رواية أخرى إلي (أزانا جي) وحده وهو يبحث عن رفيقة صباه.. فمن عينه اليسري خلقت الشمس ومن عينه اليمنى خلق القمر، ومن عطسته خلق (سوسا-نو-وو) رب الرياح والأمطار.. ولكنه أعجب من بين أبنائه بالشمس دون شقيقها فخلع عليها عقدا يتلألًا بالجواهر وبوأها أرفع عرش في السماء.

فالديانة اليابانية الأصلية شمسية سلفية جمعت معني التوحيد أولاً في إله السماء حيث تصوره أبا للخلقة بمفرده أو مشاركة زوجته، ثم جمعتها في الربة الواحدة علي اعتبارها ربة مختارة بين أرباب.

عقائد الفرس:

قال رجل منا: الصين لا تختلف عن الهند في هذا.. فحدثنا عن غيرها.. إلى أين قصدت بعد الصين واليابان؟

قال: لقد قصدت بلاد فارس.. أو على الأصح المخطوطات والآثار التي تحدثت عن الديانة الفارسية القديمة.. وقد وجدت أن وشائج القربى بينها وبين الديانات الهندية والطورانية والبابلية واليونانية كانت متصلة.

فالفرس الأقدمون من السلالة الهندية الجرمانية، وموقع بلادهم قريب من دولة بابل، قريب من أقاليم الطورانيين، قريب من مسالك الحضارة بين المشرق والمغرب، وقد تلقت حضارة فارس وحضارة مصر في السلم والحرب غير مرة، وانقضي زمن طويل علي الدنيا

المتحضرة وهي تقرر بين المجوسية وبين الحكمة أو اللم بأسرار الطبيعة والسيطرة عليها بالسحر والمعرفة الإلهية.. وكان لليهود وأبناء فلسطين وأمم العرب علاقات قديمة بالدولة الفارسية تارة وبالدولة البابلية تارة أخرى.. فاتصل من ثم تاريخ المجوس بتاريخ اليهود والمسيحيين والمسلمين.

فالأقدمون من الفرس يلتقون مع الهند في عبادة (مترا) إله النور، وتسمية الإله بالـ (أسورا)، أو الـ (أهورا) وإن اختلفوا في إطلاقه علي عناصر الخير والشر.. فجعله الفرس من أرباب الخير والصالح، وجعله الهند من أرباب الشر والفساد. والبابليون عرفوا عبادة (مترا) في القرن الرابع عشر قبل الميلاد، ورفعوه إلي المنزلة العلية بين الآلهة التي تحارب قوي الظلام.

واستعار الفرس من البابليين كما أعاروهم، فأخذوا منهم سنة التسبيع في عدد الآلهة، وجعلوا (أورمزد) علي رأس سبعة من أرباب الحكمة والحق وقوى الطبيعة وأنواع المرافق والصناعات.

ولم تخل الديانة المجوسية من عقائد الطورانيين، لأن (زرادشت) عاش بينهم زمنا، وبشرهم بدينه، فاضطر إلى مجاراتهم في عبادتهم ليجاروه في عبادته، وأدخل أربابا لهم في عداد الملائكة المقربين^(١).

(١) هذا ما ذكره العقاد في كتابه (الله) بناء على دراسات الغربيين.. ونحن نرى أن في هذا تجديفا خطيرا.. فالأدلة الكثيرة تشير إلى أن زرادشت كان موحدًا.. وقد رجحنا كونه كذلك بناء على ما ورد من النصوص عن السلف الصالح.. وقد قال ابن حزم بهذا، فقد جاء في الفصل: (أما زرادشت فقد قال كثير من المسلمين بنبوته) (الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٩٠/١)

وخلاصة ما جاء به (زرادشت) من جديد في الديانة أنه أنكر الوثنية، وجعل الخير المحض من صفات الله، ونزل بإله الشر إلي ما دون منزلة المساواه بينه وبين الإله الأعلى، وبشر بالشواب وأنذر بالعقاب، وقال بأن خلق الروح سابق لخلق الجسد، وحاول جهده أن

ثم عقب على ذلك بقوله: (ليست النبوة بمدفوعة قبل رسول الله ﷺ لمن صحت عنه معجزة، قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ (فاطر: ٢٤)، وقال: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ تَقُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ (النساء: ١٦٤)

ثم بين أن الذي ينسب إليه المجوس من الأكذوبات باطل مفترى منهم، واستدل على ذلك بالتحريفات الواقعة في الديانات المختلفة، ثم بين قاعدة جلية في ذلك فقال: (وبالجملة فكل كتاب وشريعة كانا مقصودين على رجال من أهلها، وكانا محظورين على من سواهما فالتبديل والتحريف مضمون فيهما، وكتاب المجوس وشريعتهم إنما كان طول مدة دولتهم عند المؤيد، وعند ثلاثة وعشرين هريذا، لكل هريذ سفر قد أفرد به وحده لا يشاركه فيه غيره من الهرايزة ولا من غيرهم، ولا يباح بشيء من ذلك لأحد سواهم، ثم دخل فيه الخرم بإحراق الإسكندر لكتابهم أيام غلبته لدارا بن دارا، وهم مقرون بلا خلاف منهم أنه ذهب منه مقدار الثلث ذكر ذلك بشير الناسك وغيره من علمائهم)

ونفس ما دفع به ابن حزم عن زرادشت ما نسب إليه المجوس ذكره غيره من العلماء، قال الباقلاني: (وكذلك الجواب عن المطالبة بصحة أعلام زرادشت إما أن نقول إنها في الأصل مأخوذة عن آحاد، لأن العلم بصدقهم غير واقع لنا، أو نقول إنه نبي صادق ظهرت على يده الأعلام، ودعا إلى نبوة نوح وإبراهيم، وإنما كذبت المجوس عليه في إضافة ما أضافته إليه من القول بالتثنية وقدم النور والظلام وحدوث الشيطان من فكرة وشكة شكها بعض أشخاص النور، وهو بمنزلة كذب النصارى على المسيح ﷺ من دعائه إلى اعتقاد التثليث والاتحاد والاختلاط، وأن مريم ولدت مسيحا بلاهوته دون ناسوته وغير ذلك) (تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل: ٢٠٣)

وقد ذكر ابن حزم أن هذا القول ليس بدعة للمتأخرين، بل أن من السلف من قال بذلك، قال: (وممن قال أن المجوس أهل كتاب علي بن أبي طالب وحذيفة رضي الله عنهما، وسعيد بن المسيب وقتادة وأبو ثور وجمهور أصحاب أهل الظاهر، وقد بينا البراهين الموجبة لصحة هذا القول في كتابنا المسمى الإيصال في كتاب الجهاد منه وفي كتاب الذبائح منه وفي كتاب النكاح منه) (الفصل في الملل والأهواء والنحل: ٩٠/١)، ثم قال: (ويكفي من ذلك صحة أخذ رسول الله ﷺ الجزية منهم، وقد حرم الله عز وجل في نص القرآن في آخر سورة نزلت منه وهي براءة أن تؤخذ الجزية من غير كتابي)

يقصر الربانية علي إله واحد موصوف بأرفع ما يفهمه أبناء زمانه من صفات التنزيه .
وليست المجوسية كلها من تعليم زرادشت أو تعليم كاهن واحد من كهان الأمة
الفارسية.. فقد سبقه الفرس إلي عقائدهم في أصل الوجود وتنازع النور والظلام، ولكنه
تولى هذه العقائد بالتطهير وحملها علي محمل جديد من التفسير والتعبير .
فالمجوس كانوا يعتقدون أن هرمز وأهرمن مولودان لإله قديم يسمى زروان ويكني
به عن الزمان.. وأنه اعتلج في جوفه وليدان، فندر السيادة علي الأرض والسماء لأسبقهما
إلي الظهور، فاحتال أهرمن بخبثه وكيدته حتي شق له مخرجاً إلي الوجود قبل (هرمز)
الطيب الكريم، فحققت لأهرمن سيادة الأرض والسماء، وعز علي أبيها أن ينقض نذره،
فأصلحه بموعده ضربه لهذه السيادة ينتهي بعد تسعة آلاف سنة.. ويعود الحكم بعده لإله
الخير خلداً بغير انتهاء، ويؤذن له يومئذ في القضاء علي إله الشر وتبديد غياهب الظلام.
وزعموا أن مملكة النور ومملكة الظلام كانتا قبل الخليفة منفصلتين، وأن هرمز طفق
في مملكته يخلق عناصر الخير والرحمة و(أهرمان) غافل عنه في قراره السحيق، فلما نظر
ذات يوم ليستطلع خبر أخيه راعه اللمعان من جانب مملكة أخيه، فأشفق علي نفسه من
العاقبة، وعلم أن النور يوشك أن يتشتر ويستفيض، فلا يترك له ملاذاً يعتصم به ويضمن فيه
البقاء.. فثار وثار معه خلائق الظلام وهي شياطين الشر والفساد، فأجبطت سعي هرمز،
وملأت الكون بالخبائث والأرزاء.. وران هذا البلاء علي الكون حتي كانت معركة
(زرادشت)، فكان البشير بانتهاء زمان وابتداء زمان، ولكنه لم يختم صراع العدوين
اللدودين، بل أذن بتحول النصر من صف إلي صف، وتراجع الشر والظلام عن مملكة
الخير والنور، وسيدوم هذا الصراع اثني عشر ألف سنة، وينجم علي رأس كل ألف منها
بشير من بيت زرادشت، فيعزز جحافل هرمز، ويوقع الفشل في جحافل أهرمن، وتنقضي

المدة فينكص أهرمز علي عقبيه مخلدا في أسفل سافلين لا فكاك له أبد الأبدن من هاوية الظلمات وسجن المذلة والهوان.

لقد رأيت من خلال تسمية الإلهين دلالة واضحة علي انتقال الفكرة الإلهية طبقة طبقة من صورة التجسيم إلى صورة التنزيه.. فإن هرمز مأخوذ من (أهورا) بمعنى السيد، و(مازداو) بمعنى الحكيم، وأهرمن مأخوذة من (انجرو) بمعنى السيئ وماينوش بمعنى الفكر والروح، والمعنيان من عالم الفكر المجرد أو القريب من التجريد.. ثم أصبحت كلمة أهرمز مرادفة لروح القدس، وكلمة أهريمان مرادفة لروح الشر أو روح الأذى والفساد، وقيل في مجمل الأساطير المجوسية أن أهريمان إنما هو فكرة سيئة خطرت علي بال زروان فكان منها إله الظلام.

وفي (الزندفستا) يذكر زرادشت أنه سأل هرمز: (يا هرمز الرحيم! صانع العالم المشهود.. يا أيها القدس الأقدس: أي شيء هو أقوى القوي جميعا في الملوك والملوكوت).. فقال هرمز: (إنه هو اسمي الذي يتجلي في أرواح عليين.. فهو أقوى في عالم الملوكوت).. فسأله زرادشت أن يعلمه هذا الاسم فقال له: إنه هو (السر المسئول) وأما الأسماء الأخرى فالاسم الأول هو (واهب الأنعام)، والاسم الثاني هو المكين، والاسم الثالث هو الكامل، والاسم الرابع هو القدس، والاسم الخامس هو الشريف، والاسم السادس هو الحكمة، والاسم السابع هو الحكيم، والاسم الثامن هو الخبرة، والاسم التاسع هو الخير، والاسم العاشر هو الغني، والاسم الحادي عشر هو المغني، والاسم الثاني عشر هو السيد، والاسم الثالث عشر هو المنعم، والاسم الرابع عشر هو الطيب، والاسم الخامس عشر هو القهار، والاسم السادس عشر هو محق الحق، والاسم السابع عشر هو البصر، والاسم الثامن عشر هو الشافي، والاسم التاسع عشر هو الخلاق،

والاسم العشرون هو (مزدا) أو العلیم بكل شيء.

وقد حرم زرادشت عبادة الأصنام والأوثان وقُدس الناس علي أنها هي أصفي وأظهر العناصر المخلوقة، لا علي أنها هي الخلاق المعبود.. وذكر أن الخلائق العلوية كلها كانت أرواحا صافية لا تشاب بالتجسيد، فخيرها الله بين أن يقصبيها من منال (هرمن) أو يلبسها الجسد لتقدر علي حربه والصمود في ميدانه، لأن عناصر الفساد لا تحارب بغير أجساد.. فأبت أن تعتصم بمعزل عن الصراع القائم بين هرمز وأخيه، واختارت التجسد لتؤدي فريضة الجهاد في ذلك الصراع.

ويذكر زرادشت أن (هرمز) أو أورمز أو (أهورامازدا) مستو علي عرش النور محفوفًا بستة من الملائكة الأبرار، وتدل أسماؤهم علي أنهم صفات إلهية كالحق والخلود والملك والنظام والصلاح والسلامة، ثم استعيرت لها سمات (الذوات) بعد تداول الأسماء أو تداول الأنباء عما تفعله وما تؤمر به وما تتلقاه من وحي الله.

وتفيض أقوال (زرادشت) كلها باليقين من رسالته واصطفاء الله إياه للتبشير بالدين الصحيح والقضاء علي عبادة الأوثان.. ومن أمثلة هذا اليقين قوله: (أنا وحدي صفيك الأمين، وكل من عداي فهو عدو لي مبين).. وأن الله أودع الطبائع عوامل الخير جميعا، فإن هي حادت عن سواء السبيل كان إرسال الرسل للتذكير والتحذير آخر حجة لله علي الناس.. وأن زرادشت هو هذه الحجة التي أبرزها الله إلي حيز الوجود لتهدي من ضل وتذكر من غفل وتسصلح من فيه بقية للصلاح، وكلما انقضي ألف عام برز إلي حيز الوجود خليفة له من سلالته، ولكن الأرواح التي تحف بالعرش هي التي تحمل بذرته إلي رحم عذراء تلهمها تلك الأرواح أن تتطهر في تلك الساعة بالماء المقدس في عين صافية مدخرة في ناحية من الأرض ليومها الموعود.

ويناجي زرادشت هرمز ويسمع جوابه ويسأله سؤال المتعلم المسترشد لمرشده وهاديه، فيناديه: رب! هب لي عونك كما يعين الصديق أخلص صديق.. ويسأله رب! ألا تنبني عن جزاء الأخيار؟ أيجزون يا رب بالحسنة قبل يوم المعاد؟ أو يسأله: من أقر الأرض فاستقرت ورفع السماء فلا تسقط؟ ومن خلق الماء والزرع؟ ومن ألجم للرياح سحب الفضاء وهي أسرع الأشياء؟

ورواية الخليفة في مذهب زرادشت أن هرمز خلق الدنيا في ستة أدوار.. فبدأ بخلق السماء، ثم خلق الماء، ثم خلق الأرض، ثم خلق النبات، ثم خلق الحيوان، ثم خلق الإنسان.

وأصل الإنسان رجل يسمى (كيومرت) قتل في فتنة الخير والشر، فنبت من دمه ذكر يسمى ميشة وأنثى تسمى ميشانة، فتزوجا وتناسلا، وساغ من أجل ذلك عند المجوس زواج الأخوين.

ويفرق المجوس بين الخلائق جريا علي مذهبهم في اشتراك الخلق بين خالق الطيبات وخالق الخبائث، أو بين إله النور وإله الظلام.. فالأحياء النافعة من خلق أهرمن كالثور والكلب والطير البريء.. والأحياء الضارة من خلق أهرمن كالحية وما شابهها من الحشرات والهوام.

والناس محاسبون علي ما يعملون.. فكل ما صنعوه من خير أو شر فهو مكتوب في سجل محفوظ.. وتوزن أعمالهم بعد موتهم فمن رجحت عنده أعمال الخير صعد إلي السماء ومن رجعت عنده أعمال الشر هبط إلي الهاوية ومن تعادلت عنده الكفتان ذهب إلي مكان لا عذاب فيه ولا نعيم، إلي أن تقوم القيامة ويتطهر العالم كله بالنار المقدسة فيرتفعون جميعا إلي حضرة هرمز في نعيم مقيم.

وتوزن الأعمال عند قنطرة تسمى قنطرة (شفاد) تتوافي إليها أرواح الأبرار والأشرار علي السواء بعد خروجها من أجسادها.. فيلقاها هناك (رشنوه) ملك العدل و(ميترا) رب النور وينصبان لها الميزان ويسألانها عما لديها من الأعذار والشفاعات، ثم يفتحان لها باب النعيم أو باب الجحيم.

عقائد اليهود:

قال رجل منا: دعنا من كل هذه الديانات القديمة.. فالبحت فيها ألصق بالتاريخ مما نحن فيه.. نحن نبحت عن ربنا.. فحدثنا عما عرفته من خلال بحثك عنه.
قال آخر: حدثنا عن اليهود.. فلا زال لليهود وجود.. ولا زالت لهم معابدهم وطقوسهم.

تنفس (فريدريك) الصعداء، وقال: من الصعب التحدث عن الإله عند اليهود بصفة علمية..

قلنا: لم؟

قال: لقد كان لكل عصر إلهه.. ولكل جماعة يهودية إلهها.. ومن الصعب أن يحصر هذا حاصر..

لكنني مع ذلك سأذكر لكم بعض ما قال رجل خبير في اليهودية استفدت منه كثيراً..
إنه رجل من المسلمين التقيت به كان اسمه (عبد الوهاب المسيري)^(١)

(١) عبد الوهاب المسيري (١٩٣٨-٢٠٠٨) مؤلف موسوعة اليهود و اليهودية والصهيونية، وهي أحد أهم الأعمال الموسوعية العربية في القرن العشرين.. استطاع من خلالها إعطاء نظرة جديدة موسوعية موضوعية علمية للظاهرة اليهودية بشكل خاص، و تجربة الحداثة الغربية بشكل عام، مستخدماً ما طوره أثناء حياته الأكاديمية من تطوير مفهوم النماذج التفسيرية.

وقد حدثني هذا الرجل الخبير^(١) أن الأصل في (الإله) الذي يؤمن به اليهود هو أنه إله واحد لا جسد له ولا شبيهه.. لا تدركه الأبصار.. وتعتمد عليه المخلوقات كافة.. ولا يعتمد هو على أيٍّ منها، إذ هو يتجاوزها جميعاً ويسمو عليها.

وأن كل مظاهر الطبيعة والتاريخ ليست إلا تعبيراً عن قدرته.. فهو روح الكون غير المنظورة، السارية فيه، والتي تُمدّه بالحياة؛ وتسمو عليه وتلازمه في آن واحد.

وأخبرني أن التوحيد في اليهودية وصل إلى ذروته على يد بعض الأنبياء الذين خلّصوا التصور اليهودي للإله من الشوائب الوثنية التي علقت به، فصار أكثر إنسانية وشمولاً وسمواً، وأقل عزلة وقومية وتعالياً.

وأخبرني أن هذا التيار التوحيدي استمر في مختلف فترات تاريخ اليهودية.. وتدل على بعض آثاره من الصلوات اليهودية دعاء الشماع، أي شهادة التوحيد اليهودية وقصائد مثل (آني مأمّين) (إني مؤمن) و(يجدال) (تنزّه الرب) التي تؤكد فكرة التوحيد.

وأخبرني أن التصور اليهودي للإله قد تراكم عليه في فترات التاريخ الطويلة ما انحرف به انحرافات كثيرة خطيرة.. حتى غدا التوحيد مجرد طبقة واحدة ضمن طبقات مختلفة.. فالعهد القديم، كما هو من خلال مصادره المتعددة، يطرح رؤى متناقضة للإله تتضمن درجات مختلفة من الحلول بعضها أبعد ما يكون عن التوحيد.

وتتبدّى الحلولية في الإشارات العديدة إلى الإله، التي تصفه ككائن يتصف بصفات البشر، فهو يأكل ويشرب ويتعب ويستريح ويضحك ويبكي، غضوب متعطش للدماء، يحب ويبغض، متقلب الأطوار، يُلحق العذاب بكل من ارتكب ذنباً سواء ارتكبه عن قصد

(١) انظر مادة (إله) من موسوعة اليهودية، للمسيري.

أو ارتكبه عن غير قصد، ويأخذ الأبناء والأحفاد بذنوب الآباء، بل يحس بالندم ووخز الضمير (خروج ٣٢ / ١٠ - ١٤)، وينسى ويتذكر (خروج ٢٣ / ٢ - ٢٤)، وهو ليس عالمًا بكل شيء، ولذا فهو يطلب من أعضاء جماعة إسرائيل أن يرشدوه بأن يصبغوا أبواب بيوتهم بالدم حتى لا يهلكهم مع أعدائهم من المصريين عن طريق الخطأ (خروج ١٢ / ١٣ - ١٤) ..

وهو إله متجرد، ولكنه في الوقت نفسه يأخذ أشكالاً حسية محددة، فهو يطلب إلى اليهود (جماعة إسرائيل) أن يصنعوا له مكاناً مقدساً ليسكن في وسطهم (خروج ٢٥ / ٨)، كما يسير أمام جماعة إسرائيل على شكل عمود دخان في النهار كي يهديهم الطريق، أما في الليل فكان يتحول إلى عمود نار كي يضيء لهم (خروج ١٣ / ٢١ / ٢٢).

وهو إله الحروب (خروج ١٥ / ٣ - ٤) يعلم يدي داود القتال (صمويل ثاني ٢٢ / ٣٠ - ٣٥)، يأمر اليهود بقتل الذكور، بل الأطفال والنساء (عدد ٣١ / ١ - ١٢)، وهو إله قوي الذراع يأمر شعبه ألا يرحم أحداً (تثنية ٧ / ١٦ - ١٨)، وهو يعرف أن الأرض لا تُنال إلا بحد السيف. ولذا، فهو يأمر شعبه المختار بقتل جميع الذكور في المدن البعيدة عن أرض الميعاد، (أما سكان الأرض نفسها فمصيرهم الإبادة ذكوراً كانوا أم إناثاً أم أطفالاً) (تثنية ٢٠ / ١٠ - ١٨) وذلك لأسباب سكانية عملية مفهومة.

والمقاييس الأخلاقية لهذا الإله تختلف باختلاف الزمان والمكان، ولذا فهي تتغير بتغير الاعتبارات العملية، فهو يأمر اليهود (جماعة إسرائيل) بالسرقة، ويطلب من كل امرأة يهودية في مصر أن تطلب من جاريتها ومن نزيلة بيتها (أمتعة فضة وأمتعة ذهب وثياباً وتضعونها على بنيكهم وبناتكم فتسلبون المصريين) (خروج ٢٢ / ٣)

وهكذا، فإننا نجد منذ البداية، أن فكرة الإله الواحد المتسامي تتعاش مع أفكار أخرى

متناقضة معها، مثل تشبيه الإله بالبشر، ومثل فكرة الشعب المختار، فهي أفكار تتناقض مع فكرة الوحدانية التي تطرح فكرة الإله باعتباره إله كل البشر الذي يسمو على العالمين.

وفي إطار هذه الرؤية للإله ليس من الغريب أن يسقط أعضاء جماعة يسرائيل في عبادة العجل الذهبي (ويترجمها هارون أخو موسى)^(١)، وأن يقبل العهد القديم عناصر وثنية مثل الترافيم والإيفود (الأصنام)، وكلها تعبير عن رؤية حلولية مشرقة لا تختلف كثيراً عما جاء في العهد القديم.. ولهذا ليس من الغريب أن نجد شعائر تدل على الثنوية في العبادة اليسرائيلية.

ورغم أن الإله، حسب بعض نصوص العهد القديم، يفصح عن نفسه في الطبيعة والتاريخ ويتجاوزهما، فهو مصدر النظام في الطبيعة، وهو أيضاً الذي يجعل التاريخ في نظام الطبيعة وتناسقها، إلا أننا نجد أنه يتحول من كونه حقيقة مطلقة تعلو على المادة (الكونية الطبيعية أو التاريخية) يصبح امتداداً لما هو نسبي، وامتداداً للشعب اليهودي على وجه الخصوص.. فيصبح الخالق امتداداً لوعي الأمة بنفسها، فيظل إلهاً قومياً خاصاً مقصوراً على الشعب اليهودي وحده، بينما نجد أن للشعوب الأخرى آلهتها (خروج ٦/٧) حتى تصبح وحدانية الإله من وحدانية الشعب.

ولذا، نجد أن الشعب ككل، وليس الإنسان ذو الضمير الفردي، يشهد على وحدانية الإله في صلاة الشمامسة، ويظهر الاتجاه نفسه في أفكار دينية مثل الاختيار والوعد الإلهي وأرض الميعاد التي تصبح مقدسة ومختارة تماماً مثل الشعب (وتلاحم الإله بالأرض والشعب هو الثالث الحلولي).

(١) حسبما ينص الكتاب المقدس.. أما القرآن الكريم فهو يبرئ هارون عليه السلام، وينسب العبادة للسامري.

ولهذا، ظلت اليهودية دين الشعب اليهودي (جماعة إسرائيل) وحده، ونجد أن الغرض الإلهي يتركز في هذا الشعب دون سواه، فقد اختير من بين جميع الشعوب ليكون المستودع الخاص لعطف يهوه.. كما أن مجرى الطبيعة أو تاريخ البشر يدور بإرادة الإله حول حياة ومصير اليهود.. ويتضح هذا في مفهوم التاريخ اليهودي المقدس الذي لا يمكن فهم تاريخ الكون بدونه، كما يتبدى في رؤية آخر الأيام حيث ترتبط صورة الآخرة والنشور في كتب الرؤى (أبو كاليبس)، وفي بعض أجزاء العهد القديم، بسيادة اليهود على العالمين، ثم يتعمق الاتجاه الحلولي مع ظهور اليهودية التلمودية الحاخامية.. ويزداد الحلول الإلهي، فنجد أن القداسة تتعمق في الحاخامات من خلال مفهوم الشريعة الشفوية، حيث يتساوى الوحي الإلهي بالاجتهاد البشري، ويصبح الحاخامات ذوي إرادة مستقلة يقارعون الإله الحجة بالحجة، وتُجمع آراؤهم في التلمود الذي يصبح أكثر قداسة من التوراة (التي يفترض أنها معادلة للإله وتحوي سر الكون).

وقد بلغ الحلول الإلهي درجة أن المشناه (التي تضم تفسير الحاخامات) شُبِّهت باللوجوس في اللاهوت المسيحي، أي أنها كلمة الإله المقدسة، كانت موجودة في عقله منذ الأزل.. وتُستخدَم كلمة «ابن الله» للإشارة إلى الشعب اليهودي، أي أنه هو أيضاً اللوجوس.

ويخلع التلمود على الإله صفات بشرية بشكل عام، ويهودية بشكل خاص، وبشكل أكثر تطرفاً من التوراة.

وقد جاء في التلمود أنه بعد وصول الماشيخ، سيجلس الإله على عرشه يقهقه فرحاً لعلو شأن شعبه، وهزيمة الشعوب الأخرى التي تحاول دون جدوى أن يكون لها نصيب في عملية الخلاص، أي أن الشعب اليهودي والتاريخ اليهودي يزدادان قداسة ومركزية في

الدراما الكونية.. ويقضي الإله وقته وهو يلعب مع حوت، ويبكي من أجل هدم الهيكل، ويندم على فعلته، وهو يلبس العمام، ويجلس على عرشه، ويدرس التوراة ثلاث مرات يومياً.. وتنسب إلى الإله صفات الحقد والتنافس، وهو يستشير الحاخامات في كثير من الأمور.

ويصل الحلول إلى منتهاه، وإلى درجة وحدة الوجود في تراث القبّالاه، فهو تراث يكاد يكون خالياً تماماً من أي توحيد أو تجاوز أو علو للإله، وبحيث لا يصبح هناك فارق بين الجوهر الإلهي والجوهر اليهودي، ويصبح الفارق الأساسي هو بين الجوهر اليهودي المقدّس وجوهر بقية البشر، ويصبح الفرق بين اليهود والأغيار فرقاً ميتافيزيقياً، فاليهود قد خُلقوا من مادة مقدّسة (حل فيها الإله بروحه) مختلفة عن تلك المادة (الوضيعة العادية) التي خُلق منها بقية البشر. ويكتسب الإله صفات بشرية، ولذا فهو يغازل الشعب اليهودي (بنت صهيون) ويدخل معه (أو معها) في علاقة عاطفية قوية ذات إحياءات جنسية، وهي فكرة أصبحت أساسية في التراث القبّالي.

وتتضح النزعة نفسها في قصة الخلق في التراث القبّالي، فالإله لا يخلق العالم من العدم، وإنما صدرت عنه التجليات النورانية العشرة (سفירות) التي تأخذ صورة آدم الأول أو القديم (آدم قدمون) أي أن صورة الإله هي صورة الإنسان، وتستقل التجليات العشرة تماماً عن الخالق حتى أنه يتحدث مع الشخيانه (التجلي العاشر).. كما أن التجلي المذكور للإله يطارد التجلي المؤنث، وتصبح تلاوة الشماع، حسب الفكر القبّالي، هي المحاولة التي يبذلها اليهود ليتوحد التجلي الذكوري بالتجلي الأنثوي، ويجتمعان معاً بالمعنى الجنسي.

وفي داخل التراث القبّالي، يصبح التجلي العاشر (شخيانه) الذات الإلهية والتعبير

الأنثوي عن الإله، وهو نفسه جماعة إسرائيل، أي أن الزواج بين الخالق والشعب يصبح هنا توحداً كاملاً.

ويقوم هذا الشعب بتوزيع رحمة الإله على العالمين، ثم تصل الحلولية إلى ذروتها والشرك إلى قمته، حين يصبح الإنسان اليهودي شريكاً للإله في عملية الخلق نفسها، ويزداد الإله اعتماداً على الإنسان.

وبعد عملية السقوط، وتَهْشُم الأوعية في القَبَّالاه اللوربانية، تنفتت الذات الإلهية نفسها، وتتوزع الشرارات الإلهية، ولا يتأتى للإله أن يستعيد كماله ويحقق ذاته إلا من خلال شعبه اليهودي.. فاليهود، بأنامهم، يؤخرون عملية الخلاص التي تؤدي إلى خلاص العالم وإلى اكتمال الإله، وهم، بأفعالهم الخيرة، يعجلون بها.. ولذا، فالأغيار والإله يعتمدون على أفعال اليهود الذين يشغلون مكانة مركزية في العملية التاريخية والكونية للخلاص.

ويظهر هذا النزوع الحلولي المتطرف في أحد التعليقات القَبَّالية في أحد كتب المدراش على إحدى فقرات سفر أشعيا (٤٣ / ١٢)، حيث جاء فيها: (أنتم شهودي، يقول الرب، وأنا الله)، وهي فقرة تؤكد وحدانية الإله وتساميه. وهي وإن كانت تتحدث عن علاقة خاصة، فإنها مع هذا أبعد ما تكون عن الحلولية أو الشرك. ولكن كاتب المدراش الحاخامي يفرض الطبقة الحلولية على الطبقة التوحيدية فرضاً فيفسرها بقوله: (حينما تكونون شهودي أكون أنا الإله، وحينما لا تكونون شهودي فكأنني لست الإله)، وكأن كينونة الإله من كينونة الشعب وليس العكس.

بل إن كمال الإله يتوقف على الشعب، إذ قال أحد الحاخامات: (حينما ينفذ اليهود إرادة الإله، فإنهم يضيفون إلى الإله في الأعلى. وحينما يعصي اليهود إرادة الإله، فهم كما لو أنهم يضعفون قوة الإله العظمى في الأعلى)

ورغم أن كاتب المدرash يستخدم دائماً عبارة (كما لو أن) لتأكيد بعدها المجازي، فإن تكرارها وارتباطها بالمفاهيم الأخرى ينقلها من عالم المجاز إلى عالم العقائد الحرفية المباشرة التي لا تحتاج أي تفسير.

وعلى أية حال، فإن التيار التوحيدي ظل لمدة طويلة أساسياً في النسق الديني اليهودي، بل كان يكتسب أحياناً قوة كما حدث من خلال التفاعل مع الفكر الديني الإسلامي، كما هو الحال مع كل من سعيد بن يوسف الفيومي وموسى بن ميمون.. وكثيراً ما حاول الحاخامات الوقوف ضد الاتجاه الحلولي الشعبي (الفلكلوري)، فحاولوا أن يفسروا الطبائع البشرية للإله بأنها مجرد محاولة لتبسيط الأمور حتى يفهمها العامة. بل يُلاحظ أن عبارة (كما لو أن) كانت تضاف حتى في التفسيرات القبالية الحلولية الأولى لتأكيد الطابع المجازي للخطاب، ولكن هذا التحفظ تآكل بالتدريج وتغلغل القبالة ذات الأصول الشعبية في صفوف العامة ثم في صفوف المؤسسة الحاخامية نفسها وسيطر فكر حلولي حرفي متطرف. ومع تغلغل القبالة ذات الأصول الشعبية والغنوصية والتي اكتسبت أبعاداً مسيحية، حدثت عملية تنصير لليهودية، حيث فقدت اليهودية هويتها واكتسبت هوية شبه مسيحية جديدة تستند إلى تشويه العقائد المسيحية.

ومع بدايات العصر الحديث، كانت الحسيدية أوسع المذاهب انتشاراً، وهي شكل من أشكال الحلولية المتطرفة بكل ما تحمل من شرك وثنية. ويتضح هذا في الدور الذي يلعبه التساديك إرادته معادلة لإرادة الإله، فهو الوسيط بين اليهود والخالق، وهو محل القداسة، وهو الإنسان التقي صاحب القدرة الذي يمكنه النطق باسم الإله والتحكم فيه والتأثير في قراراته.

وقد تبنى الفيلسوف اليهودي مارتن بوبر رؤية حلولية للإله، فتحدث عن الحوار الدائر

بين الشعب والإله باعتبار أنهما طرفان متساويان، وهذا تصوّر ممكن داخل إطار حلولي قومي. كما نجد فرقاً يهودية حديثة مثل اليهودية المحافظة واليهودية التجديدية تبنيان تصوراتهما الدينية على أساس فكرة الشعب المقدّس، مع إسقاط فكرة الإله تماماً (حلولية موت الإله)، أو وضعها في مرتبة ثانوية (حلولية شحوب الإله).

ويصل الأمر إلى حد أن حاخاماً إصلاحياً مثل إيوجين بوروفيتز يتحدث عن حرب عام ١٩٦٧ باعتبار أنها لم تكن تهدد دولة إسرائيل فحسب، وإنما تهدد الإله نفسه باعتبار أن الإله والشعب والأرض يُكوّنان جوهرًا واحدًا، فمن أصاب جزءاً من هذا الجوهر بسوء (أرض دولة إسرائيل على سبيل المثال)، فقد أصاب الذات الإلهية نفسها.

بل إن بعض المفكرين الدينيين اليهود يتحدثون عن (لاهوت موت الإله)، وهي محاولة الوصول إلى نسق ديني خال تماماً من أي جوهر إلهي مفارق، فهي حلولية بدون إله. وقد تفرّع من هذا (لاهوت الإبادة) أو (لاهوت ما بعد أوشفيتس) الذي يذهب دعائه إلى أن الإله شرير لأنه هجر الشعب اليهودي.. كما يذهبون إلى أن المطلق أو الركيزة النهائية هو الشعب اليهودي (دون الإله) وأن القيمة الأخلاقية المطلقة هي البقاء، وأن الآلية الأساسية لإنجاز ذلك هي الدولة الصهيونية، فكأن الدولة الصهيونية هي الإله أو اللوجوس في الحلولية الصهيونية بدون إله.

عقائد المسيحيين:

قال رجل منا: فحدثنا عن تنزيه الإله في نظر المسيحيين.
قال: لست أدري ما أقول لكم.. ولا بما أجيبكم.. لقد احترت فيما أكتبه عن تنزيه المسيحيين لله..

لقد وجدت الكتاب المقدس بعهديه متضاربا في ذلك غاية التضارب..

فبينما أقرأ النصوص التي يسمى فيها الرب باسم القدوس، كما في (اللاوين ١١ : ٤٤ - ٤٥): (أَنَا الرَّبُّ إِلَهُكُمْ، فَكَّرِسُوا أَنْفُسَكُمْ وَتَقَدَّسُوا، لِأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ، وَلَا تُنَجِّسُوا أَنْفُسَكُمْ بِشَيْءٍ مِنَ الدَّيِّبِ الْمُتَحَرِّكِ عَلَى الْأَرْضِ. لِأَنِّي أَنَا الرَّبُّ الَّذِي أَخْرَجَكُمْ مِنْ دِيَارِ مِصْرَ لِأَكُونَ لَكُمْ إِلَهًا. فَكُونُوا قِدِّيسِينَ لِأَنِّي أَنَا قُدُّوسٌ)

بينما أقرأ هذا النص وغيره.. والتي تمتلئ بتنزيه الله وتقديسه، بل تسميه قدوسا.. في نفس الوقت أقرأ الكثير من النصوص التي تصف الله بما لا يمكن أن يوصف به إله.. ولذلك لم يصعب عليهم أن يرسموه في الكنائس والمعابد بصورة رجل عجوز ذي لحية طويلة بيضاء يظهر عليه الشيب والعجز والتعب..

لقد كان لهذه الصورة سندها من الكتاب المقدس..

ففي الكتاب المقدس النصوص التي تصف الله بالعجز.. ففي (تكوين ٣٢ / ٢٤ - ٢٨) نبأ مصارعة يعقوب لله: (فبقي يعقوب وحده، وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر.. وقال: اطلقني لأنه قد طلع الفجر، فقال: لا اطلقك إن لم تباركني) وفي سفر القضاة لم يستطع الرب أن يطرد سكان الوادي، لأن مركباتهم حديدية.. ففي (القضاة ١ / ١٩): (وكان الرب مع يهوذا فملك الجبل ولكن لم يطرد سكان الوادي لأن لهم مركبات حديد)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يسكر.. ففي (المزمور ٧٨ / ٦٥): (فاستيقظ الرب كنائم كجبار معيط من الخمر)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب ينام.. ففي (مزمور ٣٥ / ٢٢): (قدرأيت يا رب لا تسكت يا سيد لا تتبعد عني استيقظ وانتبه الى حكمي يا الهي وسيدي الى دعواي)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يمشي على عكاز، ففي (مز مور ٢٣ / ٤): (أيضا إذا سرت في وادي ظل الموت لا اخاف شرا لانك انت معي. عصاك وعكازك هما يعزيانني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب جاهل.. ففي (رسالة بولس إلى أهل كورنثوس الأولى ١ / ٢٥): (لأن جهالة الله احكم من الناس. وضعف الله أقوى من الناس) وفيه النصوص التي تدل على أن الرب عنده خزانة، وفيها آلات الرجز.. ففي (إرميا ٥٠ / ٢٥): (فتح الرب خزانته واخرج آلات رجزه لان للسيد رب الجنود عملا في ارض الكلدانيين)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يسيء.. ففي (١ ملوك ١٧ / ٢٠): (وصرخ الى الرب وقال ايها الرب الهي أيضا الى الارملة التي انا نازل عندها قد اسأت بإماتتك ابنها) وفيه النصوص التي تدل على أن الرب ينقض العهد.. ففي (زكريا ١١ / ١٠): (فاخذت عصاي نعمة وقصفتها لانقض عهدي الذي قطعته مع كل الاسباط فنقض في ذلك اليوم وهكذا علم اذل الغنم المنتظرون لي انها كلمة الرب)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يصيح كالوالدة وينخر ويخرب.. ففي (إشعيا ٤٢ / ١٣-١٦): (الرب كالجبار يخرج. كرجل حروب ينهض غيرته. يهتف ويصرخ ويقوى على اعدائه قد صمت منذ الدهر سكت تجلدت. كالوالدة اصيح. انفخ وانخر معا اخرب الجبال والأكام واجفف كل عشبها واجعل الانهار يبسا وانشف الآجام واسير العمي في طريق لم يعرفوها. في مسالك لم يدروها امشيهم. اجعل الظلمة امامهم نورا والمعوجات مستقيمة هذه الامور افعلها ولا اتركهم)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب ينسى.. ففي (مز مور ١٣ / ١): (الى متى يارب

تساني كل النسيان. الى متى تحجب وجهك عني)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب عمود سحاب نهارا وعمود نار ليلا.. ففي (خروج: ١٣ / ٢١): (وكان الرب يسير امامهم نهارا في عمود سحاب ليهديهم في الطريق وليلا في عمود نار ليضيء لهم. لكي يمشوا نهارا وليلا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يصفر للذباب ويعمل حلاقاً ويصفق.. ففي (إشعيا ٧ / ١٨-٢٠): (ويكون في ذلك اليوم ان الرب يصفر للذباب الذي في اقصى ترع مصر وللنحل الذي في ارض اشور فتأتي وتحل جميعها في الاودية الخربة وفي شقوق الصخور وفي كل غاب الشوك وفي كل المراعي. في ذلك اليوم يحلق السيد بموسى مستأجرة في عبر النهر بملك اشور الراس وشعر الرجلين وتنزع اللحية ايضا)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يأمر الناس بسب الأنبياء.. ففي (صموئيل الثاني ١٦ / ١٠-١١): (فقال الملك مالي ولكم يا بني صروية. دعوه يسب لأن الرب قال له سب داود ومن يقول لماذا تفعل هكذا. وقال داود لايشاي ولجميع عبيده هوذا ابني الذي خرج من احشائي يطلب نفسي فكم بالحري الآن بنياميني. دعوه يسب لان الرب قال له)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يحتاج علامة ليتذكر بها.. ففي (تكوين ٩ / ١٥-١٦): (اني اذكر ميثاقي الذي بيني وبينكم وبين كل نفس حية في كل جسد. فلا تكون ايضا المياه طوفانا لتهلك كل ذي جسد فمتى كانت القوس في السحاب ابصرها لأذكر ميثاقا ابديا بين الله وبين كل نفس حية في كل جسد على الارض)

وفيه النصوص التي تدل على أن الرب يولول ويبكي ويصرخ ويصوت.. ففي (ميخا ٨ / ٨): (من اجل ذلك انوح وأولول. امشي حافيا وعريانا. اصنع نحيبا كبنات آوى ونوحا

كرعال النعام)

قلت: حدثنا عن أكثر الأديان شهرة.. ولم تحدثنا عن الإسلام.. فهل بحثت في قداسة إله المسلمين؟

قال: أجل.. لقد استغرق مني ذلك كل وقتي.. بل لأجله رحلت إلى بلاد إسلامية متعددة..

قلت: فما وجدت؟

قال: إن شئت الصراحة.. لم أجد ديناً من الأديان يحمل تعظيماً لله وتقديساً له مثل دين المسلمين.

قلت: فحدثنا عما وجدت.

قال: لقد رأيت المسلمين يقدسون الله تقديساً عظيماً.. بل إن الأمر يصل بهم إلى تقديس كل ما يضاف إلى الله.. فيتحرزون أشد الاحتراز من كل كلمة يطلقونها على الله. قال بعض من كان معنا: فحدثنا عن أقوال المسلمين في هذا، فإننا نرى لهم حكمة كبيرة، ومعارف عظيمة.

قال: قبل أن أحدثكم عن ذلك أحدثكم حديث ذلك، فلا يؤخذ العلم إلا من مصادره. قلنا: فحدثنا.

قال: لقد كان من أوائل المدن التي زرتها من بلاد المسلمين بلدة يقال لها (قم)، وبما أنها كانت حافلة بالعلم والعلماء، والمقربين والمطهرين، فقد كان الكل يطلق عليها (قم المقدسة)

وقد تشرفت بالجلوس إلى كثير من حلقات العلم فيها.. وهي حلقات تقام في كل

مكان.. في المدارس والمساجد.. بل وفي الأسواق وأمام البيوت.. وسأذكر لكم الآن بعض ما بقي عالقا من تلك المجالس المباركة التي شرفني الله بالجلوس فيها.

وقبل أن أذكر لكم ذلك أذكر لكم النتيجة العامة التي وصلت إليها.. فالكلام لا يحسن ولا يستجاد فهمه إلا إذا انطلق من الإجمال إلى التفصيل..

قلنا: ذلك أدعى لسرورنا.. فما هي النتيجة التي وصلت إليها؟

قال: لقد رأيت كل مجالس العلم في تلك المدينة الطيبة تركز أحاديثها في هذا الباب على ناحيتين من نواحي التقديس.. وهما سهلا التصور بحسب القسمة العقلية.

قلنا: ما هما؟

قال: الذات والأفعال.. فلا يقدر الله إلا إذا قدست ذاته.. وقدست مثل ذلك أفعاله.

١ - قداسة الذات الإلهية

قلنا: فحدثنا عن تقديس ذات الله.

قال: على تلة مرتفعة في تلك المدينة الجامعة بين العلم والإيمان والأدب رأيت منصة عالية جلس عليها رجل يلبس عمة الأزهر، وقد التفت الناس حوله.. وقد تعجبت عندما علمت أن ذلك الرجل مصري، وأنه شيخ من شيوخ الأزهر.. وأن اسمه (محمود شلتوت)^(١)، وقد قلت لمن أخبرني عن هذا الرجل: أعقمت أرحام نسائكُم أن تلد العلماء حتى أتيتم بهذا المصري.. ورفعتموه إلى هذا المنصب الرفيع.

ابتسم الرجل، وقال: لكأنك لا تعرفنا.. أو لكأنك لا تعرف الإسلام.

قلت: وعلاقة هذا بكم؟.. وما علاقته بالإسلام؟

قال: أما علاقته بنا.. فنحن قوم لم نشرف إلا بالإسلام.. وقد كان لنا في عهد نبينا ﷺ ممثل له عنا.. وقد قال فيه رسول الله ﷺ: (سلمان منا آل البيت)^(٢)

وأما علاقة ذلك بالإسلام.. فالإسلام لا ينظر إلى ما ينظر إليه الناس من تصنيفات وضعتها لهم أهواؤهم وشياطينهم.. إن ربنا يقول لنا: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (١٣) (الحجرات)

وإن نبينا ﷺ يقول لنا: (ليس لأحد على أحد فضل إلا بالدين أو عمل صالح)^(٣)،

(١) أشير به إلى (محمود شلتوت) (١٨٩٣ - ١٩٦٣)، وهو شيخ الجامع الأزهر من (١٩٥٨ - ١٩٦٣ م)،

وقد سعى جاهداً مخلصاً للتقريب بين المذاهب الإسلامية.. ولأجل ذلك اخترناه في هذا المحل.

(٢) رواه البيهقي في الدلائل وغيره.

(٣) رواه أحمد والبيهقي.

ويقول: (أيها الناس! ألا إن ربكم واحد، ألا إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأسود على أحمر، ولا لأحمر على أسود إلا بالتقوى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (الحجرات: ١٣)^(١))

قال لي ذلك، ثم انصرف مسرعا لسمع من ذلك الجالس على تلك المنصة العالية.
أحسست بشيء يدعوني إلى أن أحث خطاي إليه..

وعندما وصلت، كان أول ما سمعته منه قوله: أيها الباحثون عن الله.. لا يمكنكم أن تعرفوا الله إلا إذا نزهتم بصائركم من أدناس التشبيه.. فما عرف الله من شبهه.. وما عرف الله من قاسه على خلقه.. أو قاس خلقه عليه.. وما عرف الله من وضع الله في قوالب صورها له عقله أو صورها له هواه.. فالله أعظم من أن يحاط به.

قال بعض الحاضرين: فكيف نصل إلى هذه المرتبة؟

قال شلتوت: اقرأوا القرآن.. وستجدونه مملوءا بتنزيه الله وتعظيمه.. فلا يتحقق التعظيم إلا إذا تحقق التنزيه.

قال الرجل: نجد الله في القرآن الكريم يسمى نفسه (قدوسا)^(٢).. قال تعالى: ﴿هُوَ

(١) رواه البيهقي.

(٢) (القدوس) مشتق في اللغة من (التقديس)، ويعني في اللغة التطهير، ومنه سميت الجنة حظيرة القدس كما ورد في الحديث أن رسول الله ﷺ قال عن رب العزة: (من ترك الخمر وهو يقدر عليه لأسقيته منه في حظيرة القدس، ومن ترك الحرير وهو يقدر عليه لأكسونه إياه في حظيرة القدس) (رواه البزار)، ومن ذاك تسمية جبريل - عليه السلام - روح القدس قال تعالى: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ (النحل: ١٠٢)

والقداسة تعني الطهر والبركة، وقدس الرجل ربه أي عظمه وكبره، وطهر نفسه بتوحيده وعبادته، ومحبة وطاعته، ومن ذلك قول الملائكة: ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ (البقرة: ٣٠)، فالقدوس يعني المطهر المنزه عن كل

اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ السَّلَامُ الْمُؤْمِنُ الْمُهَيَّمِنُ الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ الْمُتَكَبِّرُ
سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿ (الحشر: ٢٣)، وقال: ﴿ يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي
الْأَرْضِ الْمَلِكُ الْقُدُّوسِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ ﴾ (الجمعة: ١)
وفي الحديث أنه ﷺ كَانَ يَقُولُ فِي رُكُوعِهِ وَسُجُودِهِ: (سُبُّوحٌ قُدُّوسٌ رَبُّ الْمَلَائِكَةِ
وَالرُّوحِ) ^(١)

فما المراد بهذا الاسم؟

قال شلتوت: إن هذا الاسم يشير إلى طائفة كثيرة من المعاني كلها تبشر بتنزيه الله عن
كل ما لا يليق به:

فهي تنزهه عن الشريك.. فالقدوس واحد، قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ..﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ (١) اللَّهُ الصَّمَدُ (٢) لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ (٣) وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا
أَحَدٌ﴾ (الإخلاص)

وهي تنزهه عن الشبيه.. فالقدوس لا يشبهه شيء، قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾
﴿(الإخلاص: ٤)، وقال تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: من
الآية ١١)

وهي تنزهه أن يكون له زوجة أو ولد، قال تعالى إخباراً عن مقالة الجن: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى
جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ٣)، وقال: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ
لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ لَّهُ قَانُتُونَ (١١٦)﴾ (البقرة)

نقص المتصف بكل أنواع الكمال (انظر: لسان العرب ٦/ ١٦٨، وشرح أسماء الله الحسنى للرازي ص ٩٤، والمقصد
الأسنى ص ٦٥، وغيرها)

^(١) رواه مسلم.

وهي تنزهه عن الموت والنوم، قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ..﴾ (٥٨) ﴿الفرقان﴾

وهي تنزهه عن الظلم، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكْ حَسَنَةً يَضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (٤٠) ﴿النساء﴾

وهي تنزهه عن الكذب.. فقولهُ الصدق وخبره الحق، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (النساء: ٨٧)

وهي تنزهه عن الضلال والنسيان، قال تعالى مخبرا عن نبيه موسى عليه السلام أنه قال: ﴿لَا يَصِلُ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ (طه: ٥٢)

وهي تنزهه عن الفناء.. فالقدوس باق، قال تعالى: ﴿وَلَا تَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ لَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (القصص: ٨٨)

وهي تنزهه عن كل العوراض التي لا تتناسب مع جلال الألوهية.. كما قال تعالى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا يَئُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾ (البقرة: ٢٥٥)

وهي تنزهه عن الفقر والبخل، قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (١٥) ﴿فاطر﴾

وهي تنزهه عن التعب والنصب.. قال تعالى: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾ (ق: ٣٨)

وهي تنزهه عن الحاجة إلى الآلات والأدوات وتقدم المادة والمدة، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (النحل: ٤٠)

وهي تنزهه عن انتهاء القدرة وحصول الفقر، قال تعالى: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ (آل عمران: ١٨١)

وهي تنزهه عن الحاجة قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يَطْعَمُ﴾ (الأنعام: ٢٤) { وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ } (المؤمنون: ٨٨)

وهي تنزهه عن أن يخلق الباطل، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (ص: ٢٧)، وقال تعالى حكاية عن المؤمنين: ﴿وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا﴾ (آل عمران: ١٩١)

وهي تنزهه أن يخلق للعب، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لِأَعْيُنٍ، وَمَا خَلَقْنَاهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ﴾ (الدخان: ٣٩٣٨)

وهي تنزهه أن يخلق للعبث؛ قال تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ فَتَعَالَى الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ (المؤمنون: ١١٥، ١١٦)

وهي تنزهه أن يرضى بالكفر، قال تعالى: ﴿وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾ (الزمر: ٧)
وهي تنزهه عن إرادة الظلم، قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعِبَادِ﴾ (غافر: ٣١)
وهي تنزهه عن حب الفساد، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ الْفُسَادَ﴾ (البقرة: ٢٠٥)
وهي تنزهه عن أن يعاقب من غير سابقة جرم، قال تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧)

وهي تنزهه عن أن ينتفع بطاعات المطيعين أو يتضرر بمعاصي المذنبين، قال تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾ (الإسراء: ٧)
وهي تنزهه أن يعترض أحد على أفعاله وأحكامه، قال تعالى: ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ (الأنبياء: ٢٣)، وقال تعالى: ﴿فَعَالٌ لَّمَّا يُرِيدُ﴾ (البروج: ١٦)

وهي تنزهه عن أن يخلف وعده ووعيده، قال تعالى: ﴿مَا يُدُلُّ الْقَوْلَ لَدَى وَمَا أَنَا
بظلامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (ق: ٢٩)

قال آخر: سمعنا ما وردنا من كلام ربنا.. فأسمعنا بعض ما يدل على هذا من كلام أئمة
الهدى الذين جعلهم الله مصابيح لخلقهم يهتدون بها.

قال شلتوت: كل أئمة الهدى تحدثوا عن هذا.. ودعوا الناس إليه بجميع صروف
الدعوة.

روي أن رجلاً قال لعلي: هل تصف ربنا نرداد له حباً وبه معرفة؟ فغضب وخطب
الناس، فقال فيما قال: (عليك يا عبدالله بما ذلك عليه القرآن من صفته، وتقدمك فيه
الرسول من معرفته، فاتم به، واستضي بنور هدايته، فإنما هي نعمة وحكمة أوتيتهما، فخذ ما
أوتيت وكن من الشاكرين، وما كلفك الشيطان علمه مما ليس عليك في الكتاب فرضه، ولا
في سنة الرسول وأئمة الهدى أثره، فكل علمه إلى الله، ولا تقدر عظمة الله عليه قدر عقلك،
فتكون من الهالكين.. واعلم يا عبد الله أن الراسخين في العلم، هم الذين أغناهم الله عن
الاعتحام على السدد المضروبة دون الغيوب، إقراراً بجهل ما جهلوا تفسيره من الغيب
المحجوب، فقالوا: ﴿.. آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا..﴾ (٧) ﴿آل عمران﴾، وقد مدح الله
اعترافهم بالعجز عن تناول ما لم يحيطوا به علماً، وسمى تركهم التعمق فيما لم يكلفهم
البحث عن كنهه رسوخاً)

وقال في خطبة أخرى: (الحمد لله المعروف من غير رؤية، والخالق من غير رؤية،
الذي لم يزل قائماً دائماً إذ لا سماء ذات أبراج، ولا حجب ذات أرتاج، ولا ليل داج، ولا
بحر ساج، ولا جبل ذو فجاج.. وأشهد أن من شبهك بتباين أعضاء خلقك، وتلاحم حقائق
مفاصلهم المحتجة لتدبير حكمتك، لم يعقد غيب ضميره على معرفتك، ولم يباشر قلبه

اليقين بأنه لا ند لك، وكأنه لم يسمع تبرأ التابعين من المتبوعين إذ يقولون: ﴿تَاللَّهِ إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ (٩٧) إِذْ تُسَوِّىكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (٩٨)﴾ (الشعراء).. كذب العادلون بك إذ شبهوك بأصنامهم، ونحلوك حلية المخلوقين بأوهامهم، وجزؤوك تجزئة المجسمات بخواطيرهم، وقدروك على الخلقة المختلفة القوى بقرائع عقولهم^(١)

وعن الفتح بن يزيد الجرجاني قال: ضمنى وأبا الحسن الطريق في منصرفي من مكة إلى خراسان وهو سائر إلى العراق، فسمعتة يقول: (من اتقى الله يتقى، ومن أطاع الله يطاع)، فتلطفت الوصول إليه، فوصلت، فسلمت عليه، فرد عليّ السلام ثم قال: (يا فتح من أرضى الخالق لم يبال بسخط المخلوق، ومن أسخط الخالق فقم أن يسلط الله عليه سخط المخلوق، وإن الخالق لا يوصف إلا بما وصف به نفسه، وأنى يوصف الذي تعجز الحواس أن تدركه، والأوهام أن تناله، والخطرات أن تحده، والأبصار عن الإحاطة به، جل عما وصفه الواصفون، وتعالى عما ينعتة الناعتون، نأى في قربه، وقرب في نأيه، فهو في نأيه قريب، وفي قربه بعيد، كيف كيف فلا يقال: كيف؟ وأين الآين فلا يقال: أين؟ إذ هو منقطع الكيفوية والآينوية)

وقال الحسين: (إن الله عز وجل يقول: ﴿وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُتَّبَعِي (٤٢)﴾ (النجم)، فإذا انتهى الكلام إلى الله فأمسكوا)

وقال: (يا محمد، إن الناس لا يزال بهم المنطق حتى يتكلموا في الله، فإذا سمعتم ذلك فقولوا: لا إله إلا الله الواحد الذي ليس كمثله شيء)
وقال: (من نظر في الله كيف هو هلك)

(١) انظر: نهج البلاغة ج ١ ص ١٦٤.

وقال: (يا ابن آدم لو أكل قلبك طائر لم يشبعه، وبصرك لو وضع عليه خرق إبرة لغطاه، تريد أن تعرف بهما ملكوت السماوات والأرض، إن كنت صادقاً فهذه الشمس خلق من خلق الله، فإن قدرت تملأ عينيك منها فهو كما تقول.. فمن هداك لاجترار الغذاء من ثدي أمك، وعرفك عند الحاجة مواضع طلبك وإرادتك. هيهات، إن من يعجز عن صفات ذي الهيئة والأدوات فهو عن صفات خالقه أعجز. ومن تناوله بحدود المخلوقين أبعد)

ومن خطبة له في التوحيد قال: (ما وحده من كيفه، ولا حقيقته أصاب من مثله، ولا إياه عني من شَبَّهه، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه.. كل معروف بنفسه مصنوع، وكل قائم في سواه معلول.. فاعلٌ لا باضطراب آله، مقدر لا بجول فكرة، غني لا باستفادة، لا تصحبه الأوقات، ولا ترفده الأدوات، سبق الأوقات كونه، والعدم وجوده، والإبتداء أزاله.. بتشعيره المشاعر عُرِفَ أن لا مُشْعِرَ له، وبمضاداته بين الأمور عرف أن لا ضد له، وبمقارنته بين الأشياء عُرِفَ أن لا قرين له، ضاد النور بالظلمة، والوضوح بالبهمة والجمود بالبلل)

وقال الباقر: (تكلموا في خلق الله، ولا تتكلموا في الله، فإن الكلام في الله لا يزداد صاحبه إلا تحيراً)

وقال: (إياكم والتفكر في الله، ولكن إذا أردتم أن تنظروا إلى عظمته فانظروا إلى عظيم خلقه)

وقال الصادق: (إن الله تبارك اسمه، وتعالى ذكره، وجل ثناؤه، سبحانه وتقدس، وتفرد وتوحد، ولم يزل ولا يزال، وهو الأول والآخر والظاهر والباطن فلا أول لأوليته، رفيعٌ في أعلى علوه، شامخ الأركان، رفيع البنيان عظيم السلطان، منيف الآلاء، سني العلياء، الذي عجز الواصفون عن كنه صفته، ولا يطيقون حمل معرفة إلهيته، ولا يحدون حدوده، لأنه بالكيفية لا يتناهى إليه)

وروي أن رجلاً قام إلى الإمام الرضا، وقال له: يا بن رسول الله صف لنا ربك، فإن من قبلنا قد اختلفوا علينا.. فقال الرضا: (إنه من يصف ربه بالقياس لا يزال الدهر في الالتباس، مائلاً عن المنهاج، ظاعناً في الإعوجاج، ضالاً عن السبيل، قائلاً غير الجميل، أعرفه بما عرّف به نفسه من غير رويّة، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة، لا يدرك بالحواس، ولا يقاس بالناس، معروف بغير تشبيه، ومدان في بعده لا بنظير، لا يمثل بخليقته، ولا يجور في قضيتّه.. فهو قريب غير ملتزق، وبعيد غير متقصّ، يحقّق ولا يمثل، ويوحّد ولا يبعّض، يعرف بالآيات ويثبت بالعلامات، فلا إله غيره الكبير المتعال)

لست أدري كيف قطعت عن لساني لجام الصمت، ورحت أقول: إني أرى بهذه المدينة حلقة كثيرة.. فأني حلقة تراها أعرف من غيرها بربها لتصحنا بها؟
قال شلتوت: اجلس إليها جميعاً.. واستفد منها جميعاً.. وأحسن الظن بها جميعاً..
قلت: لا أقصد هذا.

قال: أنت تقصد أحقها بالحق، وأولها به.
قلت: أجل.. فذلك ما أريده.. فلا أريد أن أقع في الوهم.
قال: الناس ينظرون إلى الحق من مناظر مختلفة لا متناقضة.. ففيهم العامة وفيهم الخاصة.. وفيهم أهل الكثافة وفيهم أهل اللطافة.. وفيهم المحققون وفيهم الحرفيون..
ولكل واحد من هؤلاء الحق الذي يتناسب معه.

قلت: فكيف أميز ما يتناسب معي مع ما يتناسب مع غيري؟
قال: فكيف تميز ما يصلح لمعدتك من الطعام مع ما لا يصلح؟
قلت: أي طعام أكلته أضرب بي علمت أنه لا يصلح لمعدتي.

قال: وكذلك كل معرفة أوقعتك في دنس التشبيه والتمثيل فاجتنبها إلى غيرها.. فإله لا يحاط به.

كانت أول حلقة انضمت إليها - بعد جلوسي للشيخ محمود شلتوت- حلقة يتوسطها شيخ قد أوتي علماً كثيراً، وقدرة على الجدل لا تضاهي، كان اسمه (ابن طاووس)^(١).. وقد كان تلاميذه يلتفون حوله، فيسألونه غرائب المسائل، فيجيبهم بجنان ثابت، وعلم وافر، وحجة تأبى إلا أن تنقاد العقول لها.

سأنقل لكم بعض ما دار في تلك الحلقة:

كان أول ما بدأ به ابن طاووس درسه قوله: نتناول اليوم في هذا الدرس الحديث عن ركن مهم من أركان المعرفة بالله، لا تتم المعرفة إلا به..

إنه تنزيه الله، وإجلاله، وتسييحه وتقديسه.. فلا يمكن أن تتم المعرفة بالله، أو تصدق إلا إذا خالطها هذا الإكسير.. إكسير التقديس والتنزيه والإجلال.

قال رجل من الحاضرين: نحن نعرف الجملة.. ولكننا نفتقر إلى التفصيل.

قال: سأذكر لكم سبعة أشياء يقدر الله عنها.. وقيسوا عليها غيرها.

قالوا: وما هي؟

قال: الشبيه.. والحاجة.. والجهل.. والعجز.. والجسمية.. والزمان.. والمكان.

(١) أشير به إلى ابن طاووس (ت ٦٧٣ هـ)، وهو جمال الدين أبو الفضائل أحمد بن موسى الحسني، الحلبي، كان من أكابر فقهاء الإمامية ومجتهديهم، عالماً بالحديث ورجاله، متكلماً، أدبياً، شاعراً مجيداً، مصنفًا. وهو أول من قسم - من علماء الإمامية - الحديث إلى الأقسام الأربعة المشهورة: صحيح وموثق وحسن وضعيف.

الشبيه:

قالو: فحدثنا عن الأول مما يجب تنزيه الله عنه.. حدثنا عن تنزه الله عن الشبيه^(١).
قال: التشبيه أو التمثيل هو إثبات شيء من خصائص المخلوق للخالق، أو إثبات شيء من خصائص الخالق للمخلوق^(٢).. وقد نطق القرآن الكريم بتنزيه الله تعالى عنه، فقال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (الشورى: ١١)، وقال: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ (الإخلاص: ٤)، وقال: ﴿فَلَا تَضْرِبُوا لِلَّهِ الْأَمْثَالَ﴾ (التَّحَلُّ: ٧٤)، وقال: ﴿هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا﴾ (مريم: ٦٥)؛ أي مثلاً وشبيهاً^(٣).

ومثل ذلك نطقت أسماء الله الحسنى بتنزيه الله عنه.. فقد سمى الله نفسه المقدسة بأسماء كثيرة تدل على تفرده المطلق:

(١) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة في هذا الفصل من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السعدي، كلية التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلامية.

(٢) للأسف نجد الكثير من المصنفات ترمي الكثير من العلماء والصالحين بالتشبيه مع انعدام البيئة.. بينما تدافع على من شئت الدفاع عنه، وترمي نفس المراجع التي استفادت منها تلك المعلومات بأنها مراجع غير موثوقة..
وكمثال على ذلك الدفاع عن مقاتل بن سليمان مع أنه رمي بالتشبيه في تلك المراجع التي رمي فيها غيره.. فقد قال ابن تيمية مدافعا عنه: (أما مقاتل فالله أعلم بحقيقة حاله، والأشعري ينقل هذه المقالات من كتب المعتزلة، وفيهم انحراف على مقاتل بن سليمان؛ فلعلهم زادوا في النُّقل عنه، أو نقلوا عنه، أو نقلوا عن غير ثقة، وإلا فما أظنه يصل إلى هذا الحد!)

ونحن نقول تعليقا على هذا: لم لا ينتهج هذا المنهج مع سائر العلماء والفرق؟.. ولم لا تكون البيئة الصحيحة هي الدليل لا مجرد النقل؟.. ولم لا يترك المجال للآخرين ليدافعوا عن أئمتهم وعلمائهم ما دام الأمر بهذه الصفة؟.. ولم لا يقال بأن للتأثير السياسي والمذهبي دوره في بيان مقولات الفرق والمذاهب، وخاصة منها من لم يترك أثرا من كتاب أو أتباع؟

(٣) روي ذلك عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جبير، وقتادة، وابن جريج، وغيرهم.

فمن أسمائه الدالة على ذلك: الواحد، والأحد^(١)؛ أي المتفرد بمعاني الكمال؛ فليس له مثل في ذاته، ولا شريك في أفعاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك العزيز؛ أي الذي لا مثل له ولا نظير؛ فالعزيز - في بعض معانيه - هو النادر الذي يصعب أو يتعذر وجود مثله؛ يقال: عز الشيء فهو عزيز إذا قل فلا يكاد يوجد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ﴾ (فصلت: ٤١)؛ أي كتاب محال مثاله، ووجود مثاله.

ومن أسمائه الدالة على ذلك القهار؛ أي الواحد الذي لا نظير له ولا ند؛ لأن القهر ملازم للوحدة، فلا يكون اثنان قهاران متساويين في قهرهما أبداً؛ فالقهر المطلق لا يكون إلا مع الوحدة.. فلا يكون القهار إلا واحداً؛ إذ لو كان معه كفؤ له؛ فإن لم يقهره لم يكن قهاراً على الإطلاق، وإن قهره لم يكن كفؤاً، وكان القهار واحداً.

ولهذا، فإن الذي يقهر جميع الأشياء هو الواحد الذي لا نظير له، وهو الذي يستحق أن يعبد وحده كما كان قاهراً وحده، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا مُنذِرٌ وَمَا مِن إِلَهٍ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ (ص: ٦٥)؛ فأبطل الشرك، وقرر ألوهيته بوحده، وقهره لكل شيء.

ومن أسمائه الدالة على ذلك المتكبر؛ أي العظيم، المتعالي عن صفات الخلق، والتاء

(١) اسم الواحد مقارب لاسم الأحد، وقد فرق ابن الأثير بينهما من وجهين:

الأول: أن الأحد بني لنفي ما يذكر معه من العدد؛ فهو يقع على المذكر والمؤنث؛ يقال: ما جاءني أحد؛ أي ذكر ولا أنثى، وأما الواحد فإنه وضع لمفتتح العدد، تقول: جاءني واحد من الناس، ولا تقول فيه: جاءني أحد من الناس. الثاني: أن الواحد يفيد الانفراد بالذات؛ لأنه بني على انقطاع النظر والمثل، والأحد يفيد الانفراد بالمعاني؛ لأنه بني على الانفراد والوحدة عن الأصحاب..

في اسم المتكبر تاء المتفرد، والمتخصّص، لا تاء المتعاطي والمتكلّف^(١)..
ومن أسمائه الدالة على ذلك اللّطيف ؛ فقد فسّر بالّذي لطف عن أن يدرك بالكيّفيّة،
وهذا التّفسير يتضمّن التّنزيه عن وجود المثل ؛ لأنّ إدراك الكيّفيّة إنّما يكون بمعرفة الذات،
أو بمعرفة النّظير المماثل ؛ فإذا تعذّر إدراك الكيّفيّة على الخلق جميعاً كان ذلك دليلاً على
انتفاء معرفتهم بحقيقة الذات، وعلى عدم النّظير المماثل الّذي تعتبر ذات الخالق بذاته.
بالإضافة إلى هذا فإن جميع أسماء التّنزيه المطلق تدل على هذا؛ كالقدّوس، والسّلام،
والسبّوح ؛ فإنها تدلّ على سلامة الرّبّ، وطهارته، ومباعدته عن كلّ عيب، أو نقص، وعن
أن يكون له كفء في ذاته، أو صفاته، أو أفعاله.
ومثل ذلك جميع أسماء التّمجيد، الّتي تدلّ على جميع صفات الكمال ؛ كالصّمد،
والمجيد، والعظيم، والواسع، والأعلى ؛ فإنّ هذه الأسماء تنافي جميع النّقائص ؛ لأنّ
ثبوت الكمال يستلزم نفي ضده، وما يستلزم ضده؛ وتنافي أيضاً وجود المثل والكفء ؛ لأنّ
اتّصاف الرّبّ بأعلى صفات الكمال يستحيل معه وجود المثل ؛ لأنهما إن تماثلا ارتفع
الكمال عنهما معاً، وإن لم يتماثلا فالكمال الأعلى لأحدهما وحده.

قال بعض الحاضرين: عرفنا الدليل، ولكننا لم نعرف المدلول.. فما المراد بتنزيه الله
عن الشّيه؟

قال ابن طاووس: المراد به أمران:

أما الأول.. فهو تمثيل المخلوق بالخالق.. وهو إما أن يكون كلياً بوصف المخلوق

(١) ويحتمل أن يفسّر بما يعمّ النّقائص والعيوب؛ أي المتعالي عن مماثلة الخلق في ذواتهم وصفاتهم، وعن جميع
النّقائص والعيوب؛ فيكون من أسماء التّمجيد المستوعبة لجميع معاني التّقدّيس، ويدخل بالتالي ضمن أسماء التّنزيه
المطلق؛ كالصّمد، والمجيد، والعليّ.

بجميع صفات الخالق.. واعتباره بذلك ربا كما فعل المشركون.. وقد يكون جزئياً؛ وذلك بوصف المخلوق ببعض خصائص الخالق؛ كوصفه بالقدرة التامة، والعلم المحيط، والإرادة النافذة، والغنى المطلق..

وأما الثاني.. فالزعم أن الله على صورة الإنسان - مثلاً - أو الزعم بأن في الله بعض صفات الإنسان.

قام بعض الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا.. والقرآن دل على وقوع التسوية بين ذات الله تعالى وبين خلقه في صفات كثيرة، ولم يلزم منها أن يكون القائل مشبهاً..

فقد قال تعالى عن نفسه: ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾، وقال في حق الإنسان: ﴿فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً﴾ (الإنسان: ٢).. وقال في حقه: ﴿وَاصْنَعِ الْفَلَكَ بِأَعْيُنِنَا﴾ (هود: ٣٧)، وقال في حق المخلوقين: ﴿تَرَىٰ أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ﴾ (المائدة: ٨٣)

وقد سمي نفسه عزيزاً فقال: ﴿الْعَزِيزُ الْجَبَّارُ﴾ (الحشر: ٢٣)، ثم ذكر هذا الاسم في حق المخلوقين بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ إِنَّ لَهُ أَبَا شَيْخًا كَبِيرًا﴾ (يوسف: ٧٨)، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَكْنَا الضُّرَّ﴾ (يوسف: ٨٨)

وسمى نفسه بالملك، وسمى بعض عبيده أيضاً بالملك فقال: ﴿وَقَالَ الْمَلِكُ اتُّوْنِي بِهِ﴾ (يوسف: ٥٠)

وسمى نفسه بالعظيم ثم أوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (التوبة: ١٢٩)

وسمى نفسه بالجبار المتكبر وأوقع هذا الاسم على المخلوق فقال: ﴿كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ﴾ (غافر: ٣٥)

ابتسم ابن طاووس، وقال: أأست ابن خزيمة^(١)؟

قال ابن خزيمة: بلى.. كيف عرفتني؟

قال ابن طاووس: لا تشغل بذلك.. وأخبرني.. أأست أنت الذي تقول في الكتاب الذي سميت (التوحيد): (نحن نثبت لله وجهاً ونقول: إن لوجه ربنا من النور والضياء والبهاء، ما لو كشف حجابهِ لأحرقَت سبحات وجهه كل شيء أدركه بصره، ووجه ربنا منفي عنه الهلاك والفناء، ونقول إن لبني آدم وجوهاً كتب الله عليها الهلاك والفناء، ونفى عنها الجلال والإكرام، غير موصوفة بالنور والضياء والبهاء، ولو كان مجرد إثبات الوجه لله يقتضي التشبيه لكان من قال إن لبني آدم وجوهاً وللخنازير والقردة والكلاب وجوهاً، لكان قد شبّه وجوه بني آدم بوجوه الخنازير والقردة والكلاب.. ولا شك أنه اعتقاد الجهمية لأنه لو قيل له: وجهك يشبه وجه الخنازير والقردة لغضب ولشافه بالسوء، فعلمنا أنه لا يلزم من إثبات الوجه واليدين لله إثبات التشبيه بين الله وبين خلقه)

قال ابن خزيمة: بلى.. قد ذكرت هذا الكلام.. وما أورده من النصوص دليل عليه..

فهل لك اعتراض على ما أقول؟

قال ابن طاووس: اسمح لي أن أذكر لك بأن السر في مذهبك هذا هو أنك لم تعرف جيداً حقيقة المثليين.. ولو أنك عرفت ما وقعت فيما وقعت فيه.

قال ابن خزيمة: يشرفني أن تعلمني علمها..

قال ابن طاووس: المثالان هما اللذان يقوم كل واحد منهما مقام الآخر في حقيقته وماهيته.. ولتفهم هذا تحتاج أن تعرف بأن المعتبر في كل شيء، إما تمام ماهيته، وإما جزء

(١) أشير به إلى أبي بكر بن خزيمة (٢٢٣ - ٣١١ هـ) السلمي، النيسابوري الشافعي، صاحب التصانيف، أحد أبرز علماء الحديث. من مؤلفاته: التوحيد وإثبات صفة الرب؛ ولا يخفى سر اختيارنا له هنا.

من أجزاء ماهيته، وإما أمر خارج عن ماهيته، ولكنه من لوازم تلك الماهية، وإما أمر خارج عن ماهيته ولكنه ليس من لوازم تلك الماهية.

وهذا التقسيم مبني على الفرق بين ذات الشيء وبين الصفات القائمة به.. وذلك معلوم بالبديهة، فإننا نرى الحبة من الحصرم كانت في غاية الخضرة والحموضة، ثم صارت في غاية السواد والحلاوة.. فالذات باقية والصفات مختلفة، والذات الباقية مغايرة للصفات المختلفة.. وهكذا نرى الشعر قد كان في غاية السواد، ثم صار في غاية البياض.. فالذات باقية والصفات متبدلة والباقي غير المتبدل، فظهر بهذا أن الذوات مغايرة للصفات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بكل ما ذكرته من هذا.

قال ابن طاووس: ما دمت قد سلمت بهذا، فاعلم أن اختلاف الصفات لا يوجب اختلاف الذوات أبداً، لأننا نرى الجسم الواحد كان ساكناً ثم يصير متحركاً، ثم يسكن بعد ذلك، فالذوات باقية في الأحوال كلها على نهج واحد ونسق واحد، والصفات متعاقبة متزايلة.. فثبت بهذا أن اختلاف الصفات والأعراض لا يوجب اختلاف الذوات.

قال ابن خزيمة: أنا أسلم لك بهذا أيضاً.

قال ابن طاووس: إذا سلمت بهذا فاعلم أن الأجسام التي تألف منها وجه الكلب والقرد مساوية للأجسام التي تألف منها وجه الإنسان والفرس.. وإنما حصل الاختلاف بسبب الأعراض القائمة، وهي الألوان والأشكال والخشونة والملاسة وحصول الشعور فيه وعدم حصوله.

فالاختلاف إنما وقع بسبب الاختلاف في الصفات والأعراض، فأما ذوات الأجسام فهي متماثلة.. إلا أن العوام لا يعرفون الفرق بين الذوات وبين الصفات، فلا جرم يقولون إن وجه الإنسان مخالف لوجه الحمار، وقد صدقوا، فإنه حصلت تلك المخالفة بسبب

الشكل واللون وسائر الصفات، فأما الأجسام من حيث إنها أجسام فهي متماثلة متساوية.
قال ابن خزيمة: أنت ترد بهذا على ما ذكرت من الوجه.

قال ابن طاووس: أجل.. فالكلام الذي أوردته إنما تخاطب به العوام.. وهم لا يعرفون
أن المعبر في التماثل والاختلاف حقائق الأشياء وماهياتها لا الأعراض والصفات القائمة
بها.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فلنفرض أنني سلمت لك بهذا.. إن هذا يوقعك في القول
بأن الأجسام كلها متماثلة.. فإن كنت تقول بذلك، فما دليلك عليه؟
قال ابن طاووس: ها هنا مقامان..

أما المقام الأول، فإن نعتبر هذه المقدمة إما أن تكون مسلمة أو لا تكون مسلمة.. فإن
كانت مسلمة فقد حصل المقصود.. وإن كانت ممنوعة، فنقول فلم لا يجوز أن يقال إله
العالم هو الشمس أو القمر أو الفلك أو العرش أو الكرسي.. ويكون ذلك الجسم مخالفاً
لماهية سائر الأجسام، فكان هو قديماً أزلياً واجب الوجود وسائر الأجسام محدثة
مخلوقة.. ولو أن الأولين والآخرين اجتمعوا على أن يسقطوا هذا الإلزام عن المجسمة لا
يقدرّون عليه؟

قال ابن خزيمة: فإن قالوا: هذا باطل لأن القرآن دلّ على أن الشمس والقمر والأفلاك
كلها محدثة مخلوقة؟

قال ابن طاووس: يقال لهم حينذاك: إن هذا من باب الحماقة المفرطة، لأن صحة
القرآن وصحة نبوة الأنبياء مفرعة على معرفة الإله، فإثبات معرفة الإله بالقرآن وقول النبي
لا يقوله عاقل.

قال ابن خزيمة: لا بأس.. فما المقام الثاني؟

قال ابن طاووس: المقام الثاني هو أن علماء الأصول أقاموا البرهان القاطع على تماثل الأجسام في الذوات والحقيقة^(١).. وإذا ثبت هذا ظهر أنه لو كان إله العالم جسماً لكانت ذاته مساوية لذوات الأجسام إلا أن هذا باطل بالعقل والنقل.

أما العقل فلأن ذاته إذا كانت مساوية لذوات سائر الأجسام وجب أن يصح عليه ما يصح على سائر الأجسام، فيلزم كونه محدثاً مخلوقاً قابلاً للعدم والفناء قابلاً للترقق والتمزق.

وأما النقل فقولته تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾

قال بعض الحاضرين: لدي إشكال في الآية أود أن تجيب عنه.

قال ابن طاووس: أنت ترى أن مقصود الآية هو نفي المثل عن الله تعالى بينما ظاهرها لا يوحي بذلك.. إذ أنه يوجب إثبات المثل لله تعالى؟

قال الرجل: أجل.. لقد نطقت بما كنت أريد أن أنطق به.. ألا ترى ذلك صحيحاً؟

قال ابن طاووس: لقد أجاب العلماء على ذلك، فذكروا بأن العرب الذين نزل بلسانهم القرآن الكريم يقولون مثل هذا في حديثهم.. فهم يقولون مثلاً: مثلك لا يبخل، أي أنت لا تبخل فنفوا البخل عن مثله، وهم يريدون نفيه عنه.. ويقول الرجل منهم: هذا الكلام لا يقال لمثلي.. وهو يريد بذلك (لا يقال لي).. وقد قال الشاعر في هذا: (ومثلي كمثل جذوع النخيل)

وهم في ذلك ينحون منحى المبالغة.. فإنه إذا كان ذلك الحكم منتفياً عن كان مشابهاً بسبب كونه مشابهاً له، فلأن يكون منتفياً عنه كان ذلك أولى.

(١) والعلم الحديث أثبت ذلك الآن.. فمع تعدد أفراد العالم المادي في هذه النشأة إلا أنه مركب جميعاً من مركبات

واحدة محصورة.

قام بعض الحاضرين، وقال: فهل تروي لنا شيئاً مما ذكره أئمة الهدى من سلف هذه الأمة وصالحيتها في تنزه الله عن الشبيه لتؤيد به ما تقول؟

قال ابن طاووس: أجل.. أروي في ذلك الكثير..

فقد سألت بعضهم الصادق فقال له: أخبرني أي الأعمال أفضل؟ قال: توحيدك لربك.. قال: فما أعظم الذنوب؟ قال: تشبيهك لخالقك.

وحدث يونس بن ظبيان قال: دخلت على الصادق فقلت: يا ابن رسول الله! إنني دخلت على بعضهم فسمعتهم يقولون: إن لله وجهاً كالوجه، وبعضهم يقول: له يدان! واحتجوا لذلك بقول الله تبارك وتعالى: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ﴾ (٧٥) ﴿ص﴾، وبعضهم يقول: هو كالشباب من أبناء ثلاثين سنة.. فما عندك في هذا يا ابن رسول الله؟ قال: - وكان متكئاً فاستوى جالساً - وقال: اللهم عفوك عفوك.. ثم قال: يا يونس من زعم أن لله وجهاً كالوجه فقد أشرك، ومن زعم أن لله جوارح كجوارح المخلوقين فهو كافر بالله فلا تقبلوا شهادته ولا تأكلوا ذبيحته، تعالى الله عما يصفه المشبهون بصفة المخلوقين.. فقلوه: ﴿.. خَلَقْتُ بِإِيدِيَّ..﴾ (٧٥) ﴿ص﴾ فاليد القدرة، كقلوه: ﴿.. وَأَيَّدَكُمْ بِنَصْرِه..﴾ (٢٦) ﴿الأنفال﴾، فمن زعم أن الله في شيء، أو على شيء، أو تحوّل من شيء إلى شيء، أو يخلو منه شيء، أو يشغل به شيء، فقد وصفه بصفة المخلوقين، والله خالق كلّ شيء، لا يقاس بالقياس ولا يشبه بالناس، لا يخلو منه مكان، ولا يشغل به مكان، قريب في بعده، بعيد في قربه، ذلك الله ربنا لا إله غيره، فمن أراد الله بهذه الصفة فهو من الموحّدين، ومن أحبّه بغير هذه الصفة فالله منه بريء، ونحن منه براء) وروي أنه قال لهشام: (إنّ الله تعالى لا يشبه شيئاً ولا يشبهه شيء، وكلّ ما وقع في الوهم فهو بخلافه)

وعنه أنه قال: (إنَّ الله تبارك وتعالى لا يوصف بزمان ولا مكان ولا حركة ولا إنتقال ولا سكون ؛ بل هو خالق الزمان والمكان والحركة والسكون والإنتقال، تعالى عمّا يقول الظالمون علواً كبيراً)

وقال الباقر لجابر: يا جابر.. ما أعظم فرية أهل الشام على الله عزَّ وجلَّ، يزعمون أنَّ الله تبارك وتعالى حيث صعد إلى السماء وضع قدمه على صخرة بيت المقدس، ولقد وضع عبد من عباد الله قدمه على حجر فأمر الله تبارك وتعالى أن تتخذه مصلىً.

ثم قال له: (يا جابر! إنَّ الله تبارك وتعالى لا نظير له ولا شبيه، تعالى عن صفة الواصفين، وجلَّ عن أوهام المتوهمين، واحتجب عن أعين الناظرين، لا يزول مع الزائلين، ولا يأفل مع الآفلين، ليس كمثله شيء، وهو السميع العليم)

الحاجة:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثاني.

قال: الثاني مما يتره الله عنه هو الحاجة.. فالله تعالى منزّه عن كل الحاجات التي تفتقر إليها الحوادث..

فهو منزّه عن الأكل والشرب، والسنة والنوم، والصّاحبة والولد، والشريك، والظهير، ونظائرها من لوازم الحدوث والاحتياج، قال تعالى: ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾ (الأنعام: ١٤)، وقال: ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ (الإخلاص: ٢)، وقال: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لَا تَأْخُذُهُ سِنَّةٌ وَلَا نَوْمٌ﴾ (البقرة: ٢٥٥)، وقال: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا﴾ (الجن: ٣)، وقال: ﴿وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُنْ لَهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ وَلِيٌّ مِنَ الذَّلِّ وَكَبِّرْهُ تَكْبِيرًا﴾ (الإسراء: ١١١)، وقال: ﴿قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ رَزَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ

شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ ﴿سبأ: ٢٢﴾

وقد نطقت جميع أسماء الله الحسنى بالدلالة على هذا.. فمن أسماء الله تعالى: الأول، والآخر، والحي، والقيوم، والواجد، والغني، والملك، والقهار.. وغيرها.. وكل هذه الأسماء تبطل الاحتياج من أصله؛ لأنها تدلّ على وحدانيّة الربّ، وأزليّته، وأبديّته، وكمال حياته، وقيامه بنفسه؛ فلا يفتقر لغيره، لا في وجوده، ولا في بقائه، ولا في صفاته، وأفعاله، وتدلّ على إقامته لغيره، وعلى عموم قهره، وكمال غناه وملكه، فلا يحتاج ما يحتاجه المخلوق الفقير المحدث من الأكل والشرب، والسّنة، والنّوم، والصّاحبة، والولد، والشّركاء والأعوان.

الجهل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.

قال: الثالث مما ينزه الله عنه هو الجهل.. فالله تعالى وسّع كلّ شيء علماً، وأحصى كلّ شيء عدداً، فما من شيء قلّ أو جلّ إلّا أحاط به علمه، وجرى به قلمه، فلا يعزب عن ربك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، قال تعالى: ﴿وَمَا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ﴾ (إبراهيم: ٣٨)، وقال: ﴿وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾ (هود: ١٢٣)؛ والغافل الذي لا يفتن للأمر؛ إهمالاً منه، مأخوذ من الأرض الغفل، وهي التي لا علم بها، ولا أثر عمارة، وقال: ﴿لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنسَى﴾ (طه: ٥٢)؛ أي لا يغيب عنه شيء، ولا يغيب عن شيء، أو لا يفوت علمه شيء، ولا ينسى شيء.

وقد نطقت أسماء حسنى كثيرة بالدلالة على كمال علم الله، وكمال إحاطته بكلّ شيء؛ أزلاً وأبداً، غيباً وشهادة، وعلى تقديسه عن الجهل بجميع صورته ومظاهره؛ لأنّ إثبات

الشيء نفي لصدّه ولما يستلزم صدّه عقلاً وسمعاً.

فمن ذلك الأسماء الدالة على شمول العلم، وانتفاء جميع صور الجهل؛ كالعليم، والخبير، والمحيط، والواسع؛ أي الذي وسع علمه كل شيء، وأحاط بما في العالم العلوي والسفلي، فلا يغيب عن علمه شيء.

ومن أسمائه ما يدل على كمال أسباب العلم؛ كالسميع والبصير، والقريب، والرقيب، والشهيد، والمهيمن؛ وهو بمعنى الشهيد؛ أي الحاضر مع عباده، يسمع أقوالهم، ويصير أفعالهم، فلا يغيب عنه من أمرهم شيء يقولونه، أو يفعلونه، قال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ (يونس: ٦١)

العجز:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابع.

قال: الرابع مما ينزه الله عنه هو العجز.. فالله تعالى على كل شيء قدير، كما أنه بكل شيء عليم؛ فلا يسبقه شيء، ولا يعجزه ما يريد، قال تعالى: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمَسْبُوقِينَ﴾ (الواقعة: ٦٠)؛ أي وما نحن بعاجزين.

وقال: ﴿وَمَا كَانَ لِلَّهِ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ (فاطر: ٤٤)؛ فزّه تعالى نفسه عن العجز، وذيل الآية بما يتضمن علّة التنزيه عنه من أسمائه، وهما العليم والقدير؛ لأنّ العجز سببه إمّا الجهل بأسباب الإيجاد، أو قصور الإرادة عن فعل المراد.

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ

لُغُوبٍ ﴿ (ق: ٣٨)

وقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَغَيِّ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى بَلَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (الأحقاف: ٣٣)

وقد نطقت بالدلالة على تنزيه الله عن العجز وأسبابه أسماء كثيرة..

منها ما يدل على انتفائه ؛ لشمول علمه، وكمال أسبابه، وآثاره ؛ كالخبير، والسميع، والحسيب.

ومنهما ما يدل على انتفائه ؛ لكمال قوته، وشمول قدرته ؛ كالقوي، والعلي، والوكيل.
ومن هذا الصنف ما يدل على انتفاء العجز وكمال القدرة بدلالة المطابقة ؛ كالقادر، والقدير، والمقتدر، والمقيت - أي المقتدر بحسب بعض معانيه - وكالقوي، والمتين، أي تام القدرة ؛ فلا يشقّ عليه فعل، ولا يلحقه عجز، أو فتور، أو وهن.

الجسمية:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.

قال: الخامس مما ينزه الله عنه هو الجسمية..

نهض بعض تلاميذه، وقال: كيف تقول ذلك يا شيخنا، وقد رأيت في بعض بلاد المسلمين من يعتبر الجسمية من لوازم الذات.. فلا يتصور ذاتا من غير جسم.. حتى أن بعضهم يذكر جواز لمس الله، ومصافحته ومعانقته.. بل إن بعضهم قال: (معبودي جسم، وله جوارح وأعضاء، من يد ورجل، ورأس، ولسان، وعينين، وأذنين، ومع ذلك فهو جسم لا كالأجسام.. وليس كمثله شيء)

ابتسم ابن طاووس، وقال: أولئك قوم يدعون بالمجسمة.. وهم قوم دعاهم إلى ذلك

أمران:

أما أحدهما، فهو أنسهم المفرط بعالم المادة والمحسوسات.. وهو أنس مصحوب بالسداجة والجهل الذي لا يسمح لهم بتقبل شي غير المادة.. وهو أنس يؤدي الى مقايضة الله عز وجل بالإنسان وصفاته.

وأما ثانيهما، فما ورد في النصوص المقدسة من التعابير الكنائية والمجازية حيث لم يستطيعوا أن يرتقوا ليفهموها على ضوء لغة العرب وأساليبها في البيان.

قال التلميذ: دعنا منهم.. وحدثنا عن الأدلة التي تلزمنا بتنزيه الله عن الجسمية.

قال ابن طاووس: سأذكر لك أربعة براهين على هذا.. قد تكون كافية لإقناعك.

قال الرجل: فهات أولها.

قال ابن طاووس: الأول هو أن الجسم يقتضي التركيب ذلك أنه مكون من أبعاد ثلاثة، من العرض والطول والعمق، والمركب مفترق في وجوده الى وجود أبعاضه، وما كان مفترقا في وجوده فليس واجب الوجود.

قال الرجل: إن ما قام عليه هذا البرهان يحتاج إلى المزيد من التوضيح والاستدلال..

فكيف يتنافى التركيب مع وجوب الوجود؟

قال ابن طاووس: للتركيب ثلاثة أنواع كلها منتفية عن الله تعالى.. أولها: التركيب من الأجزاء الخارجية.. والثاني: التركيب من الأجزاء العقلية.. والثالث: التركيب من الوجود والماهية.

قال الرجل: فما برهان استحالة تركيب واجب الوجود من الأجزاء الخارجية؟

قال ابن طاووس: لذلك براهين كثيرة:

منها أن لوجود الجزء تقدما بالطبع على وجود الكل بالبداهة، فيكون مفترقا إليه، وهو ينافي كونه واجب الوجود.

ومنها أن الكل المركب من جزئين خارجيين ذو جانبيين، وجانبه هذا غير جانبه ذاك، فهو بجانبه هذا غائب ومنعدم عن جانبه الآخر، وبجانبه الآخر منعدم وغائب عن هذا الجانب.. وواجب الوجود شديد الوجود في الغاية لا طريق للنقص والقصور إليه.

ومنها أن وجود الكل في الخارج هو بعينه وجود الأجزاء، فلو فرض للواجب أجزاء خارجية:

فإما أن يكون وجود كل واحد من الأجزاء بنفسه بالفعل، فيكون وجود الكل ووحدته اعتبارياً، فليس الكل واجب الوجود.

وإما أن يكون وجود الكل بالفعل، فيكون وجود كل واحد منها بنفسه بالقوة، وهو ينافي وجوب الوجود، فليست الأجزاء واجبة الوجود، فيلزم تركيب الواجب من الأجزاء غير واجبة الوجود.

قال الرجل: وعيت هذا، فما برهان استحالة تركيب واجب الوجود من الوجود والماهية؟

قال ابن طاووس: واجب الوجود جلت عظمته ليس له ماهية غير وجوده..

قال الرجل: إن ما تقوله خطير..

قال ابن طاووس: اصبر علي حتى أوضح لك مرادي.. إن مرادي من قلبي ذلك هو أن كل موجود ممكن الوجود يتركب من الماهية والوجود، وبعبارة أخرى: كل ممكن زوج تركيب من الوجود والماهية.. وأما واجب الوجود فماهيته عين وجوده، وبعبارة أخرى: ماهيته إنيته، وليس له ماهية سوى وجوده.

قال الرجل: فما برهان هذا؟

قال ابن طاووس: لهذا براهين كثيرة..

منها أن الماهية لا تقتضي الوجود بذاتها.. بل وجودها في الخارج يفتقر إلى علة توجدها.. ومن البديهي أن وجود العلة غير وجود المعلول، ويتقدم عليه.. ومن هذا يعلم أن واجب الوجود وجود محض، وليس له ماهية غيره، وإن كان له ماهية كان اتصافها بالوجود مفتقرا إلى علة، وكان وجود العلة غير وجوده لا محالة، فكان ممكن الوجود، وهذا خلف.

ومنها أنه لو كان لواجب الوجود ماهية غير وجوده لحكم العقل عند تصورها بكونها في نفسها ممكن الوجود.. لأن تلك الماهية لا تخلو من أنها: إما ممتنعة الوجود، أو واجبة الوجود، أو ممكنة الوجود.. فإن كانت ممتنعة الوجود لكان منافيا لكونها واجب الوجود لا محالة.

وان كانت واجبة الوجود يلزمها:

أولا: أن تكون ماهيته مقتضية لوجودها، فيكون وجوده معلولا، فلا يكون وجوده بنفسه واجبا، بل ممكنا.

وثانيا: أن الماهية لأجل كليتها في اللحاظ لا تأبى عن حدوث مصاديق أخرى لها وان كانت بالفعل ذات مصاديق عديدة، والحدوث ينافي وجوب الوجود.

وان كانت ماهيته ممكن الوجود في نفسها، فلا يكون بحسب ماهيته واجب الوجود، وهذا خلف.

فيثبت بعد هذه المقدمات: أن واجب الوجود لا ماهية له، وبعبارة أخرى: ماهيته عين وجوده، ولا يقبل التحليل إلى ماهية ووجود أصلا.

ويتج ذلك أن واجب الوجود - الذي منه وجود جميع الموجودات - هو منبع الوجود والوجود البحث، وصرف الوجود والوجود المطلق.

ونعني بالوجود المطلق: هو الوجود بشرط لا، أي لا حد له، لا المطلق لا بشرط،
بمعنى عدم تقيده بحد، فإنه لا ينافي أي حد من الحدود.

والوجود المطلق لا بشرط هو الوجود الصادر منه جلت عظمتة، فبأي ماهية تعلق
يكون محدودا بحدّها، وليست الماهيات إلا حدود الوجود.

ومنها أنه لو كان لواجب الوجود ماهية لا يخلو أن تكون إما عرضاً أو جوهرًا، فإن
الجوهر هو ماهية إذا وجد وجد في نفسه، والعرض ماهية إذا وجد وجد في غيره.
والجوهر جنس عال يفتقر تحقّقه في الخارج إلى تعيينه في ضمن نوع من أنواعه،
ويفتقر إلى فصل هو المعين لذلك النوع.

فلو كان لواجب الوجود ماهية لافتقرت إلى جزئين: ما به الاشتراك، وما به الامتياز،
والافتقار ينافي وجوب الوجود.

مضافاً إلى أن الجوهر ممكن الوجود، ولذلك يوجد في ضمن الوجودات الممكنة.
التفت ابن طاووس للرجل، وقال: لقد ذكر سلفنا الصالح من العلماء والأولياء هذا
المعنى، فقد قال علي وهو يذكر الله: (ومن حده فقد عده).. وقال السجاد: (إن الله لا
يوصف بمحدودية، عظم ربنا عن الصفة، فكيف يوصف بمحدودية؟)

قال الرجل: عرفت البرهان الأول.. فهات البرهان الثاني.

قال ابن طاووس: البرهان الثاني هو تناهي الجسم وكونه محفوفاً بالإعدام من
الجوانب الستة.. والواجب يمتنع تطرق العدم إليه بوجه من الوجوه.

قال الرجل: فما البرهان على ذلك؟

قال ابن طاووس: إن البراهين على هذا كثيرة:

منها: أنه لو كان الجسم غير متناهي الأبعاد، نفرض فيه نقطة خرج منها خطان حصل

منهما زاوية، وامتد الخطان بامتداد الجسم، فلو كان الجسم غير متناه امتد الخطان إلى غير النهاية، ولما كان مقدار الانفراج بين خطي الزاوية بنسبة مقدار امتداد الخطين، استلزم كون الخطين غير متناهيين، فيكون الانفراج بينهما أيضا غير متناه، وذلك يناقض كونه محصورا بين الخطين.

ومنها: أنه إذا فرض خط ممتد إلى غير النهاية، ونفرض هناك كرة في جانب الخط غير المتناهي تدور حول محور الخط المتصل بين قطبيها اللذين أحدهما فوق الخط غير المتناهي والآخر تحته وقبل شروعاتها في الدوران نفرض خطا خارجا من الكرة عمودا على خط المحور موازيا للخط غير المتناهي، يمتد معه إلى غير نهاية، فإذا دارت الكرة إلى جهة الخط غير المتناهي يتقاطع الخط الخارج من الكرة مع الخط غير المتناهي نقطة فنقطة.

فأول نقطة تقاطع الخطين هي نقطة من الخطين لا نقطة للخطين في امتدادهما بعد تلك النقطة، وإلا لكان التقاطع فيها قبل التقاطع في تلك النقطة.

فثبت أن أول نقطة التقاطع آخر نقطة من الخطين، فالخطان متناهيان لا محالة، وقد فرض كونهما غير متناهيين، وهذا خلف.

ومنها: برهان التطبيق، وهو أنه لو فرضنا ستة خطوط خرجت من نقطة من داخل الجسم إلى الجهات الست ممتدة بامتداد الجسم، ثم قطعنا من كل خط قطعة من جانب تلك النقطة.

فلو فرضنا تطبيق محل القطع من الخط على النقطة المبتدئ منها أصل الخط قبل القطع، فإما أن يمتد إلى غير النهاية، فيكون الزائد مثل الناقص، وهو ممتنع، أو يقصر عنه بمقدار تلك القطعة، فيكون متناهيًا، وكذا أصل الخط لزيادته عليه بمقدار تلك القطعة فقط لا أكثر، فثبت تناهي أبعاد كل جسم.

ويمكن تقرير البرهان بدون فرض التطبيق بأنه: إن كان باقي الخط بعد قطع قطعة مساويا لأصل الخط قبل القطع لزم مساواة الجزء للكل، وهو محال، وإن كان أقل منه لزم كونه متناهيا، وكذلك أصل الخط، لكونه أزيد منه بمقدار تلك القطعة فقط.

قال الرجل: عرفت البرهان الثاني.. فهات البرهان الثالث.

قال ابن طاووس: البرهان الثالث هو أن كل جسم حادث.. ولذلك يستحيل أن يكون واجب الوجود جسما.

قال الرجل: فما الدليل على ذلك؟

قال ابن طاووس: لذلك أدلة كثيرة..

منها أن الجسم لا ينفك عن الحركة أو السكون بالبداهة، فإن الجسم إما ساكن في مكان، أو متحرك من مكان إلى مكان آخر لا محالة.

ومعنى الحركة: هو الكون في الآن الأول في مكان، وفي الآن الثاني في مكان آخر.. ومعنى السكون هو الكون في الآن الأول في مكان والكون في الآن الثاني في ذلك المكان بعينه.

فكل جسم قد تشكل من كونين: الكون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر.

وهذا يؤدي إلى أن الكون في الآن الأول في مكان، والكون في الآن الثاني في ذلك المكان أو مكان آخر، وجودان متميزان، يمكن أن يوجد أحدهما ولا يوجد الآخر.

وذلك لأن لكل جسم له وجود خاص، وتشخص يتميز به عن الأجسام الأخرى

وبغايرها، وذلك الشخص هو الكون في زمان خاص في مكان خاص^(١).

ولما كان منبع الشخص هو الوجود وكان تشخصه بذاته، كانت اللوازم والمشخصات كلها منبعثة من نفس وجود الجسم، فيكون تبدل الكون في زمان خاص في مكان خاص مستلزما لتبدل وجود ذلك الجسم.

وبما أن الكون هو الوجود، فتبدله هو تبدل الوجود، فالجسم لا يزال يتبدل وجوده، وله في كل آن وجود غير وجوده في الآن السابق عليه، وغير وجوده في الآن اللاحق عليه. فالحركة والتبدل إنما هو في وجوده لا في أمر خارج عن وجوده يكون له وجود آخر، فالحركة في ذاته وجوهره، فثبت أن كل جسم له حركة جوهرية.

وهذا كله يؤدي إلى أن حقيقة الحركة هي الوجود والعدم.. أنا فنا.

فكل جسم يوجد وينعدم أنا فآنا، وكل وجود له في آن مسبق بعدمه وملحق بعدمه. نعم، لو لوحظ ماهية الجسم، فليست الحركة والسكون داخله في ماهيته، بل هما خارجتان عن ماهية الجسم عارضتان عليها، وأما وجود الجسم وكونه ليس مغايرا لوجوده وكونه في الآن الأول، بداهة أنه ليس له وجودان في آن واحد، أحدهما وجوده، والثاني وجوده في ذلك الآن، بل ليس له إلا وجود واحد، فتبدله في الآن الثاني هو انعدام وجوده في الآن الأول ووجود وجود آخر له.. وهكذا في الآنات المتوالية إلى آخرها، وإن كان لوجوداته في الآنات المتوالية صورة متصلة ويقال له جسم واحد باعتبارها، كما أن الصورة الاتصالية للحركة تقتضي إطلاق حركة واحدة عليها من أولها إلى آخرها.

وهذا كله يؤدي إلى أن الجسم لا يزال حادثا يتجدد حدوثه في كل آن، والحادث في

(١) وهذا بعينه ما تنص عليه النظرية النسبية من اعتبار الزمان بعدا رابعا متمما لساير الأبعاد.

كل آن غير الحادث في الآن المتقدم عليه.

وبهذا كله يثبت استحالة كون الجسم واجب الوجود، فواجب الوجود تعالى ليس بجسم بالضرورة، لأنه يمتنع عليه العدم، ومنه وجود جميع الموجودات، وهو مكون جميع الكائنات.

قال الرجل: عرفت البرهان الثالث.. فهات البرهان الرابع.

قال ابن طاووس: البرهان الرابع هو ما ورد في النصوص المقدسة الكثيرة من نفي كل مستلزمات الجسمية عن الله.. والتي سنعرف بعضها عند الحديث عن تنزيه الله عن المحل الزماني والمكاني.

قال الرجل: فما تقول فيمن وقع في التجسيم.. هل تكفره.. أم تراك تكفي بتبديعه؟
قال ابن طاووس: لا هذا، ولا ذاك.

قال الرجل: كيف ذلك، وأحسنهم حالا من يقول بتبديعك، وتبديع من يقول بقولك؟
قال ابن طاووس: أنا لا أجرؤ على تكفير مسلم أو تبديعه لرأي رآه، أو اعتقاد اعتقده أداه إليه اجتهاده.. هكذا علمنا نبينا.. وهكذا علمنا ورثته من بعده.

الزمان:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السادس.. حدثنا عن تنزه الله عن الزمان..
قال: يكفيكم في تنزيه الله عن الزمان معرفتكم باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الأوَّل) و(الآخِرُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال: كل حادث مخلوق مرتبط بالزمان.. والله وحده هو الذي لا يجري عليه الزمان..

فهو أقدم من أن يؤثر فيه الزمان، أو يتأثر بالزمان، لأنه هو خالق الزمان^(١) :

فهو الموجود قبل كل موجود، لأنه هو الخالق لكل موجود، قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ ثُمَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾ (١) ﴿الأنعام﴾، وقال: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (٢٢) ﴿الزمر﴾

وهو الباقي بعد كل موجود.. فالذوات كلها فانية وزائلة إلا ذاته المقدسة، فإنها منزّهة عن هلاك المحدثات وزوالها، قال تعالى: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ﴾ (القصص: ٨٨)، وقال: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ (٢٦) وَيَبْقَى وَجْهَ رَبِّكَ ذُو الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ (٢٧) ﴿الرحمن﴾، وقال: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾ (الفرقان: ٥٨)

وهذا ما تنطق به أسماء الله الحسنى.. كالحي، والقيوم، والآخر، والباقي، والوارث وغيرها..

المكان:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تنزه الله عن المكان..

^(١) ذكر الفخر الرازي البرهان على هذا في تفسير معنى (الأول)، فقال: (وأما التقدم الزماني فباطل، لأن الزمان أيضاً ممكن ومحدث، أما أولاً فلما بينا أن واجب الوجود لا يكون أكثر من واحد، وأما ثانياً فلأن أمانة الإمكان والحدوث فيه أظهر كما في غيره لأن جميع أجزائه متعاقبة، وكل ما وجد بعد العدم وعدم بعد الوجود فلا شك أنه ممكن المحدث، وإذا كان جميع أجزاء الزمان ممكناً ومحدثاً والكل متقوم بالأجزاء فالمفتقر إلى الممكن المحدث أولى بالإمكان والحدوث، فإذا كان الزمان بمجموعه وبأجزائه ممكن ومحدث، فتقدم موجد عليه لا يكون بالزمان، لأن المتقدم على جميع الأزمنة لا يكون بالزمان، وإلا فيلزم في ذلك الزمان أن يكون داخلياً في مجموع الأزمنة لأنه زمان، وأن يكون خارجاً عنها لأنه ظرفها، والظرف مغاير للمظروف لا محال، لكن كون الشيء الواحد داخلياً في شيء وخارجاً عنه محال، وأما ثالثاً فلأن الزمان ماهيته تقتضي السيلان والتجدد، وذلك يقتضي المسبوقية بالغير والأزل ينافي المسبوقية بالغير، فالجمع بينهما محال، فثبت أن تقدم الصانع على كل ما عداه ليس بالزمان ألبتة) والعلم الحديث يؤكد هذا، فهو يذهب إلى أن الزمان كالمكان كلاهما حادث.

قال: يكفيكم في تنزيه الله عن المكان معرفتكم باسمين عظيمين من أسماء الله الحسنى.. هما (الظَّاهِرُ) و(البَّاطِنُ)

قالوا: فما الذي يدل عليه هذان الاسمان؟

قال^(١): أعظم المخلوقات جلاله ومهابة المكان والزمان.. أما المكان فهو الفضاء الذي لا نهاية له، والخلاء الذي لا غاية له، وأما الزمان فهو الامتداد المتوهم الخارج من قعر ظلمات عالم الأزل إلى ظلمات عالم الأبد، كأنه نهر خرج من قعر جبل الأزل وامتد حتى دخل في قعر جبل الأبد فلا يعرف لانفجاره مبدأ، ولا لاستقراره منزل.

فالأول والآخر صفة الزمان.. والظاهر والباطن صفة المكان.. والحق سبحانه وسع المكان ظاهراً وباطناً.. ووسع الزمان أولاً وآخرأ.. وإذا كان مدبر المكان والزمان هو الحق تعالى كان منزهاً عن المكان والزمان.

قالوا: زدنا إيضاحاً.

قال: اقرأوا هذه الآيات بعين البصيرة لتعلموا أن الله خالق المكان أعظم من أن ينسب إلى مكان.

قال ذلك، ثم راح يرتل بخشوع هذه الآيات.. ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الحديد: ٤).. ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

(١) هذا الكلام المهم للفخر الرازي في التفسير الكبير.

(المجادلة:٧) .. ﴿لَا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا﴾ (التوبة: ٤٠) .. ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾
 (طه: ٤٦) .. ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨) .. ﴿وَاصْبِرُوا
 إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (الأنفال: ٤٦) .. ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ
 مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ٢٤٩) .. ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُولَّوْا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ
 وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ (البقرة)

قال بعض الحاضرين: فما البرهان العقلي على تنزيه الله عن المكان؟

قال ابن طاووس^(١): لقد ثبت في العلوم العقلية بأدلة كثيرة - لس هذا موضع ذكرها
 - أن المكان إما السطح الباطن من الجسم الحاوي، وإما البعد المجرد والفضاء الممتد،
 وليس يعقل في المكان قسم ثالث.

بناء على هذا، فقد ثبت أن أجسام العالم متناهية، فخارج العالم الجسماني لا خلاء
 ولا ملاء، ولا مكان ولا جهة، فيمتنع أن يحصل الإله في مكان خارج العالم.

وإن كان المكان هو الثاني، فإن طبيعة البعد طبيعة واحدة متشابهة في تمام الماهية، فلو
 حصل الإله في حيز لكان ممكن الحصول في سائر الأحياز.. وحيثئذ يصح عليه الحركة
 والسكون.. وكل ما كان كذلك كان محدثاً بالدلائل المشهورة المذكورة في علم الأصول..
 وهي مقبولة عند جمهور المتكلمين.. فيلزم كون الإله محدثاً، وهو محال.

فثبت بهذا أن القول بأنه تعالى حاصل في الحيز والجهة قول باطل على كل
 الاعتبارات.

قال بعض الحاضرين: فما تقول في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ (٥)؟

(١) هذه البراهين ذكرها الرازي في تفسيره.

(طه)؟

قال ابن طاووس: أقول فيها ما قالت العرب، فالقرآن نزل: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ (الشعراء) (١٩٥)

قال الرجل: فما قالت العرب؟

قال ابن طاووس: لقد قال شاعرهم:

إذا ما بنو مروان ثلت عروشهم وأودت كما أودت إِيَاد وحمير.

يريد: إذ ما بنو مروان هلك ملكهم وبادوا.

وقال آخر:

أظننت عرشك لا يزول ولا يغير

يعني: أظننت ملكك لا يزول ولا يغير.

فعرش الله تعالى هو ملكه.. واستواؤه على العرش هو استيلائه على الملك.. والعرب

تصف الاستيلاء بالاستواء، كما قال شاعرهم:

قد استوى بشر على العراق من غير سيف ودم مہراق

يريد به: قد استولى على العراق.

لقد قال شيخنا الطبرسي في تفسيره لذلك: (يعني استقر ملكه واستقام، وإنما أخرج

هذا على المتعارف من كلام العرب، كقولهم: استوى الملك على عرشه: إذا انتظمت أمور

مملكته، وإذا اختل أمر ملكه قالوا: ثل عرشه، ولعل ذلك الملك لا يكون له سرير، ولا

يجلس على سرير أبدا^(١))

(١) مجمع البيان.

قال الرجل: فلم لا تقول بظاهر النص كما يقول به بعض أهل هذه الحلقات التي تحيط

بنا؟

قال ابن طاووس: لأن ذلك يؤدي إلى محالات كثيرة.. أشار إليها العقل والنقل..

قال الرجل: أنا لا أريد إلا النقل.. فالعقل معقول دون معرفة حقيقة ربه.

قال ابن طاووس: لقد قال تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾ (

الحاقة: ١٧) فلو كان إله العالم في العرش، لكان حامل العرش حاملاً للإله، فوجب أن يكون الإله محمولاً حاملاً، ومحفوظاً حافظاً، وذلك لا يقوله عاقل.

وقال تعالى: ﴿وَاللَّهُ الْغَنِيُّ﴾ (محمد: ٣٨) فحكم بكونه غنياً على الإطلاق، وذلك

يوجب كونه تعالى غنياً عن المكان والجهة.

وعندما طلب فرعون حقيقة الإله من موسى عليه السلام لم يزد موسى عليه السلام على ذكر صفة

الخلاقية ثلاث مرات، فإنه لما قال: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ (الشعراء: ٢٣) ففي المرة

الأولى قال: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ (الدخان: ٧)، وفي

الثانية قال: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأُولِينَ﴾ (الشعراء: ٢٦)، وفي المرة الثالثة: ﴿قَالَ رَبُّ

الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (الشعراء: ٢٨) وكل ذلك إشارة إلى

الخلاقية.. وأما فرعون فإنه قال: ﴿يَاهَامَانَ ابْنِ لِي صَرَحاً لَعَلِّي أَبْلُغُ الْأَسْبَابَ

السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلَى إِلَهِ مُوسَى﴾ (غافر: ٣٦، ٣٧)، فطلب الإله في السماء، فعلمنا أن

وصف الإله بالخلاقية، وعدم وصفه بالمكان والجهة دين موسى، وسائر جميع الأنبياء،

وجميع وصفه تعالى بكونه في السماء دين فرعون وإخوانه من الكفرة.

قال آخر: فما تقول في النصوص التي توهم المكان؟

قال ابن طاووس: أفهمها على ضوء النصوص التي لا توهم المكان.. فالمحكم

يحمل على المتشابه.

قال الرجل: ألسنت تفر بذلك إلى التأويل؟

قال ابن طاووس: ما دامت العرب وجميع الأجناس تقصد في كلامها الظاهر والمؤول.. فلا حرج في أن ينزل القرآن بجميع ذلك.. ففيه الظاهر المحكم، وفيه المؤول المتشابه الذي اختص الراسخون في العلم بعلمه.

قال الرجل: ولكنهم يذكرون أن التأويل تعطيل.

ابتسم ابن طاووس، وقال: فقد رموا أنفسهم بالتعطيل إذن؟

قال الرجل: كيف تقول ذلك؟

قال ابن طاووس: فما يقولون في قوله تعالى: ﴿مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (٧) (المجادلة)

قال الرجل: يقولون: هو معهم بعلمه.

قال ابن طاووس: أرايت إن قلت لك: كنت مع فلان البارحة.. فما تفهم منها؟

قال الرجل: أفهم منها أنك كنت عنده.

قال ابن طاووس: بذاتي أم بعلمي؟

قال الرجل: بذاتك.. هذا هو ظاهر اللفظ.

قال ابن طاووس: فهم قد تركوا ظاهر اللفظ إذن..

قال الرجل: ذلك صحيح.

قال ابن طاووس: وهذا هو التأويل.. ويستحيل عليهم أن لا يقعوا فيه..

قال الرجل: ولكنهم غلبوا بذلك نصوصاً أخرى.

قال ابن طاووس: هم بين أمرين.. بين أن يغلبوا التنزيه الذي دلت عليه النصوص، ودل عليه معها العقل.. وبين أن يغلبوا نصوصاً موهمة يوجهونها كما يشاءون، ويؤولون غيرها كما يشاءون.

قال الرجل: ولكنهم يروون عن بعض السلف أقوالاً تؤيد أقوالهم.
قال ابن طاووس: أعظم السلف وأشرفهم آل بيت رسول الله ﷺ.. وكلهم يقول بما أقول..

قال الرجل: فهل تروي لنا من ذلك شيئاً؟
قال ابن طاووس: لقد حدث إبراهيم بن أبي محمود قال: قلت للرضا: يا ابن رسول الله ما تقول في الحديث الذي يرويه الناس عن رسول الله ﷺ أنه قال: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ كُلَّ لَيْلَةٍ إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا)، فقال: لعن الله المحرّفين للكلم عن مواضعه، والله ما قال رسول الله ﷺ كذلك، إنّما قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يُنْزِلُ مَلَكاً إِلَى السَّمَاءِ الدُّنْيَا كُلَّ لَيْلَةٍ فِي الثَّلَاثِ الْأَخِيرِ، وَلَيْلَةُ الْجُمُعَةِ فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ فَيَأْمُرُهُ فَيُنَادِي: هَلْ مِنْ سَائِلٍ فَأَعْطِيهِ؟ هَلْ مِنْ تَائِبٍ فَأَتُوبَ عَلَيْهِ؟ هَلْ مِنْ مُسْتَغْفِرٍ فَأَغْفِرَ لَهُ؟ يَطَالِبُ الْخَيْرَ أَوَّلَ لَيْلَةٍ، يَطَالِبُ الشَّرَّ أَقْصَرَ؛ فَلَا يَزَالُ يُنَادِي بِهَذَا إِلَى أَنْ يَطْلُعَ الْفَجْرُ، فَإِذَا طَلَعَ الْفَجْرُ عَادَ إِلَى مَحَلِّهِ مِنْ مَلَكَوتِ السَّمَاءِ) حدّثني بذلك أبي، عن جدّي، عن آبائه، عن رسول الله ﷺ^(١)

وحدث ثابت بن دينار قال: سألت زين العابدين عن الله جلّ جلاله هل يوصف بمكان؟ فقال: تعالى الله عن ذلك.. قلت: فلم أسرى نبيّه محمّد ﷺ إلى السماء؟ قال: ليريه ملكوت السماء وما فيها من عجائب صنعته وبدائع خلقه.. قلت: فقول الله عزّ وجلّ: ﴿ثُمَّ

(١) انظر: بحار الأنوار: (ج ٣ ص ٣١٤ ب ١٤ ح ٧)

دَنَا فَتَدَلَّى (٨) فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى (٩) ﴿النجم﴾، قال: ذاك رسول الله ﷺ دنا من حجب النور، فرأى ملكوت السماوات، ثم تدلَّى ﷺ فنظر من تحته إلى ملكوت الأرض حتى ظنَّ أنه في القرب من الأرض كقاب قوسين أو أدنى.

وحدث يونس بن عبد الرحمن قال: قلت لأبي الحسن موسى بن جعفر: لأي علة عرج الله بنبيه ﷺ إلى السماء، ومنها إلى سدرة المنتهى، ومنها إلى حجب النور، وخاطبه وناجاه هناك والله لا يوصف بمكان؟ فقال: (إنَّ الله لا يوصف بمكان، ولا يجري عليه زمان، لكنَّه عزَّ وجلَّ أراد أن يشرف به ملائكته وسكَّان سماواته ويكرمهم بمشاهدته، ويريه من عجائب عظمتة ما يخبر به بعد هبوطه، وليس ذلك على ما يقوله المشبهون، سبحانه الله وتعالى عما يصفون)

كان إلى جنب حلقة (ابن طاووس) حلقة لفتت انتباهي، فقد كان الأصوات ترتفع فيها بقوة، وكأنها تريد أن تراحم بها صوت (ابن طاووس) وتلاميذه.
لست أدري كيف تخلصت من ذلك اللجام الذي كان يلجم لساني الحديث، فقلت لابن طاووس: من هؤلاء؟.. ومن هو زعيم حلقتهم؟.. ولم يرفعون أصواتهم هكذا؟
ابتسم ابن طاووس، وقال: هؤلاء إخوان لنا فيهم العلماء.. وفيهم طلبة العلم.. وقد اعتزلوا حلقتنا لخلافهم معنا في بعض ما ذهبنا إليه من العلم..

قلت: فما هي الآراء التي خالفوكم فيها؟.. وما أدلتهم على ذلك؟
قال: لا يحسن أن يحدث عن المرء إلا لسانه.. فاذهب إليهم واسألهم.

قلت: ألا تعتبرني معتزليا^(١) بذلك؟

قال: لا.. كلنا مسلمون.. نحن وهم.. نحن اختلفنا في بعض المسائل.. ولنا من الأدلة ما نرى أنه قطعي.. ونحن نستند إليه.. ولهم كذلك من الأدلة ما يرون قطعية.. ومن الحرج العظيم أن نلزمهم بما نراه من آراء.

قلت: ألسنت تبتدعهم؟

قال: أنا مبلغ عن الله.. وداعية إلى الله.. لا قاض.. ولا ديان.. الله تعالى هو القاضي، وهو الديان الذي يحكم بيننا كما يحكم بين الخلائق جميعا فيما اختلفوا فيه.
قال ذلك، ثم أشار إلي أن أجلس إلى حلقتهم..
وقد فعلت.. ولكنني لا أريد أن أبث إليكم الآن ما سمعته فيها لأنني لا أرى أنها تنسجم مع عقولكم^(٢)..

(١) لا نريد بالمعتزلي هنا الفرقة المعروفة.. إنما ذكرنا هذا هنا من باب السخرية من القضايا التي فرقت الأمة مع كونها لا تستحق كل ذلك العناء.

(٢) أشير هنا إلى مدرسة أهل الحديث والتي قعد فواعدها ابن تيمية وغيره، قد كنت ذكرت تفاصيل آرائها في الطبعة السابقة، لكنني عدلت عن ذكرها هنا، لأننا شرطنا في هذه السلسلة الجديدة ألا نذكر إلا ما يتوافق فيه المنقول مع المعقول، وآراء أهل الحديث في هذه المسألة تصطدم مع كليهما.

٢ - قداسة الأفعال الإلهية

قلنا: لقد عرفنا المدى الذي وصل إليه المسلمون في تقديسهم لذات ربهم.. فحدثنا عن موقفهم من تقديس أفعاله.

قال: في سوق من أسواق قم.. رأيت رجلاً يلتف الناس حوله، وقد سمعتهم يطلقون عليه لقب (مؤمن الطاق)^(١)، فهرعت معهم إليه، لأسمع ما يقول.

وقد كان من حسن حظي أن سائلاً سأله مؤمن الطاق عن الموضوع الذي كنت أبحث عنه، فقد قال له: يا مولانا.. نرى بعض الناس يصفون ربنا بأوصاف لا يرضونها لأنفسهم..

^(١) أشير به إلى أبي جعفر الأحول، الصيرفي، الكوفي، وهو حمد بن علي بن النعمان بن أبي طريفة البجلي بالولاء (ت ١٦٠ هـ)، المتكلم المناظر الفقيه الملقب بمؤمن الطاق، أو (صاحب الطاق)، وإنما سمي بالطاق لأنه كان صيرفياً في (طاق المحامل) من أسواق الكوفة.

وكان رأساً في العلم والعمل، ثقة، كبير الشأن.. صاحب الإمام جعفر الصادق، وأخذ عنه العلوم والمعارف، وروى عنه، كما عدّ من أصحاب الإمام موسى الكاظم.

وكان من أحق أصحاب الصادق، ومن أحب الناس إليه، وقد صح عنه أنه كان يقول: (أربعة أحب الناس إليّ أحياء وأمواتاً: بُريد بن معاوية البجلي، وزرارة بن أعين، ومحمد بن مسلم، وأبو جعفر الأحول)

كان أبو جعفر كثير العلم، متفوقاً في معارفه، قوياً في حجته، تعددت فيه نواحي العبقرية والنبوغ، فهو عالم بالفقه والكلام والحديث، ذكره ابن النديم، فقال: (كان حسن الاعتقاد والهدي، حاذقاً في صناعة الكلام، سريع الخاطر والجواب)

وكان يتمتع بشخصية فذة، ذا فهم ثاقب وفطنة وذكاء، وكان معروفاً بعلم الكلام وقوة الحجّة، وكثرة المناظرة وخاصة في مسألة الإمامة، حيث كان محباً لأهل البيت منقطعاً إليهم، مجاهراً - برغم قسوة الظروف وجور الحكام - في القول بفضلهم، وكان يتفوق دائماً في مناظراته لما عُرف به من سرعة الجواب، وقوة العارضة، وقد ذكر له ابن النديم والخطيب البغدادي وغيرهما عدة مناظرات، فمن أرادها فليرجع إلى كتبهم.

ونبه إلى أن بعض خصومه نسبوا إليه جملة من الأقوال والآراء التي لا تليق بعقيدته وشأنه كزعمهم بأنه كان من المشبهة، وأنه كان يقول: إنّ الله تعالى إنّما يعلم الأشياء إذا قدرها، والتقدير عند الإرادة، وللإرادة فعل، إلى غير ذلك من المزاعم التي هو منها بريء، والتي لم تثبت.. وإنما ذكرناه هنا لأجل بيان فضله وتنزيهه مما نسب إليه.

فما تقول في ذلك؟

قال: وما يقولون؟

قال الرجل: إنهم يصفونه بالماكر، والمستهزئ، والكائد.. ويعتبرون ذلك من أسماء الله الحسنی.. ويستدلون لذلك من القرآن الكريم بقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (آل عمران: ٥٤)، وقوله: ﴿قَالُوا إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِئُونَ اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ﴾ (البقرة: ١٤ - ١٥)، وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا وَأَكِيدُ كَيْدًا﴾ (الطارق: ١٥، ١٦)

ابتسم مؤمن الطارق، وقال: من حدثكم عن سبع^(١) ينسبها لربه، فقد كذب.. فربنا أجل وأكرم من أن يتصف بها.
قالوا: فما هي؟

قال: المكر، والظلم، والبخل، والخلف، والإهمال، والعبث، والضرر.
المكر:

قال الرجل: كيف تنفي المكر عن الله، والآية صريحة في ذكره.. فالله تعالى يقول: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤) ﴿آل عمران﴾، ويقول: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠) (الأنفال)

قال: المكر في اللغة وفي عرف الناس يراد به أمران:
أما أحدهما، وهو المشهور المتعارف عليه بينهم، وهو ما ينفيه كل عاقل عن الله، فهو

(١) السبع هنا على سبيل المثال لا على سبيل الحصر، وهو ما جرينا عليه في (رسائل السلام) من دلالة السبع على المثال لا على الحصر، بخلاف الأربع التي اعتبرناها دالة على الحصر.

(التَّيَّسِتْ بِشَيْءٍ خَفِيٍّ يَضُرُّ الْخَصْمَ).. فالذي يمكر ويبست شيئاً خفياً بالنسبة لعدوه ضعيف لا يملك القدرة على المواجهة، فلذلك يلجأ إلى أن يبست من ورائه.. ولو كانت عنده قدرة على المواجهة فلن يمكر؛ لذلك لا يمارس المكر إلا الضعيف..

لأن الضعيف إن أصاب فرصة استغلها حيث يظن أنه قد لا تتاح له فرصة ثانية؛ لذلك يندفع إلى قتل خصمه. أما القوي فهو يثق في نفسه وقدراته، ولذلك يعطي خصمه فرصة ثانية وثالثة، ثم يعاقب خصمه على قدر ما أساء إليه.

هذا هو المعنى الأول، وهو مستحيل على الله تعالى بدلائل النصوص المقدسة الكثيرة التي تنزهه عن الضعف والعجز.

وأما المعنى الثاني، وهو صرف الغير عما يقصد خيراً كان أم شراً.. فلا حرج في نسبة ذلك لله.. وهذا ما أرادته الآيات الكريمة..

فالله تعالى في قوله: ﴿وَمَكْرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٥٤) ﴿آل عمران﴾ يخبرنا أن أعداء المسيح عليه السلام الذين وضعوا الخطط الشيطانية للوقوف بوجه الدعوة التي جاء بها قد صرفوا عن غايتهم، وأن الله - لكي يحفظ حياة نبيه ويصون الدعوة - مكر أيضاً فأحبط كل ما مكروه.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠) ﴿الأنفال﴾، فهذه الآية تصور تلك الجهود التي بذلها المشركون للصد عن دين الله، وهم غافلون على ما يدبر لهم مما لا يعلمونه، ولا يستطيعون أن يعلموه.

لقد قال سيد قطب يصور سر هذا التعبير وما يفرزه من مشاعر، فقال: (الصورة التي يرسمها قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (٣٠) ﴿الأنفال﴾ صورة

عميقة التأثير.. ذلك حين تتراءى للخيال ندوة قريش، وهم يتآمرون ويتذكرون ويدبرون ويمكرون.. والله من ورائهم، محيط، يمكر بهم ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون!
إنها صورة ساخرة، وهي في الوقت ذاته صورة مفزعة.. فأين هؤلاء البشر الضعاف المهazيل، من تلك القدرة القادرة.. قدرة الله الجبار، القاهر فوق عباده، الغالب على أمره، وهو بكل شيء محيط؟

والتعبير القرآني يرسم الصورة على طريقة القرآن الفريدة في التصوير؛ فيهز بها القلوب، ويحرك بها أعماق الشعور^(١)

سكت مؤمن الطاق قليلا، ثم قال: لقد ورد الدلالة على هذا المعنى في القرآن باسم آخر هو (الاستدراج)

قالوا: ما الاستدراج؟

قال: لاشك أنكم تعلمون أن من أراد شيئا فأعطاه الله مراده لم يدل ذلك على كون ذلك العبد وجيهاً عند الله تعالى سواء كانت العطية على وفق العادة أو لم تكن على وفق العادة، بل قد يكون ذلك إكراماً للعبد، وقد يكون استدراجاً له، كما قال تعالى: ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف: ١٨٢)

فمعنى الاستدراج أن يعطي الله عبده كل ما يريده في الدنيا بناء على رغبة العبد في ذلك، ليزداد غيه وضلاله وجهله وعناده، فيزداد بذلك كل يوم بعداً من الله.

وقد عبر القرآن الكريم عن هذا الاستدراج بالمكر، قال تعالى: ﴿فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأعراف: ٩٩)

(١) في ظلال القرآن.

وعبر عنه بالخداع، فقال: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ﴾ (النساء: ١٤٢)، وقال: ﴿يَخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ﴾ (البقرة: ٩)

وعبر عنه بالإملاء، فقال: ﴿وَلَا يَحْسِبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ خَيْرًا لَّأَنفُسِهِمْ إِنَّمَا نُثَمِّلِي لَهُمْ لِيُزَادُوا إِثْمًا﴾ (آل عمران: ١٧٨)

فظهر بهذه الآيات أن الإيصال إلى المرادات لا يدل على كمال الدرجات والفوز بالخيرات^(١).

قام بعض الحاضرين، وقال: إنك أردت أن تزيل شبهة، فأوقعتنا في أخرى.

قال مؤمن الطاق: وما هي؟

قال: كيف يملئ الله لهؤلاء، ويمكن لهم؟.. ألا ترى أنه تعالى يعينهم بذلك على الشر والضلالة؟

قال مؤمن الطاق: إن ذلك يستدعي فهم سر الابتلاء والتكليف.. فالله تعالى شاء بحكمته أن يمتحن عباده ليميز الطيب منهم عن الخبيث، وأن يقيم الحجة عليهم بذلك.. وذلك يقتضي لا محالة إمهالهم وأعطاء الفرص المختلفة لهم.. فلا يمكن أن يتحقق الامتحان من غير هذا.

قال الرجل: ولكن كيف يكون هذا، ونحن نرى من الكفار من يعيش مرغدا ويموت مترفا لا يصيبه جرائم ذنوبه ولا تهلكه كثرة معاصيه.. فهل لهذا المتمرد من الواجهة ما جعله بمنأى من عدالة الجزاء الإلهي؟.. وما السر في هذا التمييز الذي تحيرت له الأبواب، بل

(١) انظر: التفسير الكبير للرازي.

صار فتنة تصد القلوب عن دين الله^(١)؟

قال مؤمن الطاق: إن الجواب عن هذا الاعتراض هو أن عدالة الله المطلقة، ورحمته التامة الشاملة، والتي سبقت غضبه تتيح لهذا المتمرد من الفرص، وتبلغه من الحجب ما يكفي لعودته، فإن استمر على بغيه أخذ أخذ عزيز مقتدر بمجرد تسليم روحه.

ولذلك علل الله تعالى عدم تعجيله بالعقوبة بمغفرته ورحمته، فقال تعالى: ﴿وَرَبُّكَ الْغَفُورُ ذُو الرَّحْمَةِ لَوْ يُؤْخِذُهُمْ بِمَا كَسَبُوا لَعَجَّلَ لَهُمُ الْعَذَابَ بَلْ لَهُمْ مَوْعِدٌ لَنْ يَجْدُوا مِنْ دُونِهِ مَوْثِقًا﴾ (الكهف: ٥٨)

وأخبر تعالى أن كل القرى التي نزل عليها العذاب لم ينزل عليها إلا بعد الإمهال الكافي لإقامة الحجة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ اسْتَهْزَيْ بِرُسُلٍ مِنْ قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ (الرعد: ٣٢)، وقال تعالى: ﴿وَكَايْنٍ مِنْ قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ (الحج: ٤٨)

ويضرب تعالى الأمثلة على ذلك بالأمم التي أصابها العذاب، ولم يصبها إلا بعد فترة طويلة من الإمهال وإقامة الحجة، قال تعالى مسلماً نبيه ﷺ في تكذيب من خالفه من قومه: ﴿وَإِنْ يَكْذِبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودٌ وَأَصْحَابُ مَدْيَنَ وَكَذَّبَ مُوسَى فَأَمْلَيْتُ لِلْكَافِرِينَ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ (الحج: ٤٤)

وقد ذكر بعض السلف أنه كان بين قول فرعون لقومه: ﴿أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى﴾ (النازعات: من الآية ٢٤) وبين إهلاكه أربعون سنة)

بل قد أخبر القرآن الكريم أن الله تعالى أمهل قوم نوح عليهم السلام كل تلك الآماد الطويلة،

(١) انظر الجواب المفصل على هذا الإشكال في رسالة (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق)

وبعد تلك الفرص الكثيرة، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَهُمْ ظَالِمُونَ﴾ (العنكبوت: ١٤)

فالإمهال إذن رحمة من الله، أو هو فرصة ممنوحة من الله للظالمين، قد يستغلونها بالرجوع إلى الله، وقد يتكسبون بأن يضاعف لهم العذاب، كما قال ﷺ: (إِنَّ اللَّهَ لِيَمْلِي لِلظَّالِمِ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَهُ لَمْ يَفْلِتْهُ)، ثم قرأ قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخَذَ رَبُّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخَذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود: ١٠٢))^(١)

والأمر الثاني أن امتحان الخلق يقتضي ستر أكثر ما يتعرض له الخلق من الجزاء، لأن تعجيل الجزاء قد يجعل الخلق جميعاً في صف واحد، صف الخير أو صف الشر بحسب الجزاء، كما قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنَّ يَكُونُ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَّجَعَلْنَا لِمَن يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِيُئْتِيَهُمْ سُقْفًا مِّنْ فَضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ (الزخرف: ٣٣) أي لولا أن يعتقد كثير من الجهلة أن إعطائنا المال دليل على محبتنا لمن أعطيناه، فيجتمعوا على الكفر لأجل المال لجعلنا للذين كفروا ذلك الترف الموصوف في الآية.

ولهذا ورد في النصوص الكثيرة الإخبار بأن ما أعطي الكفار من النعيم لا يدل على مرضاة الله، بل قد يدل على سخطه، قال تعالى مصححاً فهم الكفار الخاطئة: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنَيْنَ نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (المؤمنون: ٥٥ - ٥٦)، وقال تعالى: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ خَيْرٌ لَّا تُفْسِدُهُمْ إِنَّمَا نُمِلِّي لَهُمْ لِيَزْدَادُوا إِثْمًا وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ﴾ (آل عمران: ١٧٨)

ولهذا ورد بعد هذه الآية الإخبار بأن هذا الابتلاء هو الذي يميز الخبيث من الطيب،

(١) رواه البخاري ومسلم.

ويميز بين الراغب في الله، والراغب في المتاع الأدنى، قال تعالى: ﴿مَا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَيْثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِنْ رُسُلِهِ مَنْ يَشَاءُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَإِنْ تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٧٩)

ففي الآية الكريمة إشارة إلى أن تعجيل الجزاء قد يؤثر في الابتلاء، ولذلك قال تعالى: ﴿.. وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ..﴾ (آل عمران) ولهذا يرد في القرآن الكريم الإخبار بأن الجزاء الحقيقي هو الجزاء المعد في الآخرة، قال تعالى مخبرا عن جزاء المؤمنين: ﴿وَالْآخِرَةُ عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ (الزخرف: من الآية ٣٥) وقد ورد هذا المعنى عقب ذكر زخارف الحياة الدنيا التي يتهاف عليها الغافلون. وفي نفس الوقت ينهى تعالى المؤمنين من الإعجاب بما أوتي الكفار من النعيم، قال تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ﴾ (التوبة: ٥٥)

فما أمهل به هؤلاء الغافلون ليس دليلا على أي تفضيل لهم، يقول ﷺ: (لو كانت الدنيا تزن عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرا شربة ماء أبدا)^(١) فهذا الإمهال - إذن - كما ينطوي على معاني الرحمة والعدل، وينطوي على معاني الانتقام ممن لم يعرف للنعمة حقها ولا للإمهال حقه، ينطوي كذلك على سر الامتحان الذي يقتضي ستر الجزاء حتى لا يكون الناس أمة واحدة في الخير أو في الشر.

الظلم:

(١) رواه الترمذي وغيره.

قالوا: وعينا هذا، فحدثنا عن الثاني.. حدثنا عن تنزه الله عن الظلم.

قال: لقد ورد في النصوص الكثيرة الإخبار عن تقديس الله تعالى عن الظلم، قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتَ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (آل عمران: ١٨٢)، وقال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعِبَادِ﴾ (غافر: من الآية ٣١)، وقال تعالى: ﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا وَمَا رَبُّكَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ (فصلت: ٤٦)

وقد ورد في النصوص ما يبين تنزه الله عن جميع صور الظلم ومظاهره المختلفة؛ كإضاعة ثواب المحسن، أو نقصه، أو مساواته بالمسيء، أو مواخذة العبد قبل قيام الحجة عليه، أو بما لم يعمل، أو بجرم غيره، أو بزيادة على ذنبه، قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ (البقرة: ١٤٣)، وقال: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَا يَخَافُ ظُلْمًا وَلَا هَضْمًا﴾ (طه: ١١٢)؛ والهضم الانتقاص من الحسنات.

ومن مظاهر تنزيه الله عن الظلم تنزيهه عن التكليف بما لا يطاق، وعن المعالجة بعقوبة العصاة، قال تعالى: ﴿لَا يَكْلَفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦)، وقال: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (النحل: ٦١)، وهذا من كمال عدله، ومن كمال رفق ولطفه أيضًا؛ فإن الله لطيف، رقيق يحب الرفق؛ فلا يكلّف عباده ما لا يطيقون، أو يأخذهم بالتكاليف الشاقة دفعة واحدة، أو يعاجلهم بالعقوبة قبل وجود شرطها، وانتفاء مانعها؛ ولهذا يمهّلهم، ويستأنّي بهم، ولا يهلك على الله إلا هالك.

ومما يتضمّن التنزيه عن المعالجة بالعقوبة مع ما ذكر من الأسماء اسم الحليم، والصبور، والعفو، والغفور؛ فإنّ الذنوب تقتضي ترتّب آثارها من العقوبات العاجلة، ولكن حلم الله على عباده، وصبره عليهم، ومحبّته للعفو عنهم، تقتضي إمهال العصاة، وعدم

معاجلتهم بالعقوبة ؛ ليتمكّنوا من الإتيان بأسباب المغفرة، فيتجاوز عن خطيئاتهم ؛ ولهذا يعافيتهم، ويرزقهم، رغم جرائمهم وجرائمهم.

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الظلم؟

قال مؤمن الطاق: لأن الظالم لم يظلم إلا لكونه محفوفاً بأنواع من النقص كثيرة.. فهو محفوف بالفقر.. والبخل.. والجهل.. والجور.. والضعف.

أما الله تعالى فقد تنزه عن كل ذلك^(١):

فله تعالى كمال الغنى.. فمن أسماء الله الحسنى (الغنيّ، والواسع، والواجد).. ولذلك هو لا يحتاج لأحد من خلقه حتّى يضيع حقّه، أو ينقصه شيئاً منه، قال تعالى: ﴿وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِّلْعَالَمِينَ﴾ (آل عمران: ١٠٨)، ثم قال بعدها: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ (آل عمران: ١٠٩) وهو يشير بذلك إلى أنه منزّه الظلم ؛ لكمال غناه عن خلقه؛ إذ كلّ ما في السموات والأرض ملكه وفي قبضته.

وقال تعالى في آية أخرى مشيراً إلى هذا المعنى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَءَامَنْتُمْ﴾ (النساء: ١٤٧)؛ أي لا منفعة له في عذابكم إن شكرتم وآمنتم ؛ فإن ذلك لا يزيد في ملكه، كما إن ترك عذابكم لا ينقص من سلطانه.

ولله تعالى كمال الكرم ؛ فهو الكريم، الجواد، الوهاب، المجيد، الشكور، فلا يضيع عنده سعي العاملين لوجهه، بل يضاعفه بكرمه وجوده أضعافاً مضاعفة، قال تعالى: ﴿وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧) ؛ أي يشكر عباده على طاعته ؛ فيقبل العمل القليل، ويعطي عليه الثواب الجزيل، ويعطي بالعمل في أيام معدودة نعمًا غير محدودة.

(١) استفدنا الكثير من المعلومات الواردة هنا من كتاب (دلالة الأسماء الحسنى على التنزيه)، إعداد: د / عيسى بن عبد الله السعدي، كلية التربية بالطائف / قسم الدراسات الإسلامية.

ولله تعالى كمال العلم؛ فاسم العليم، والخير، والسميع، والبصير، والحفيظ، والحسيب، ونظائرها تدلّ على كمال إحاطته تعالى بأعمال العباد علماً وكتابة؛ لمجازاتهم بالعدل؛ فكلّ عامل مرتهن بعمله؛ إن خيراً فخير، وإن شراً فشرّ، قال تعالى: ﴿وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِرًا وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ (الكهف: ٤٩)، وقال: ﴿وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢١٥)؛ أي مهما صار منكم من فعل معروف فإنّ الله يعلمه، وسيجزىكم على ذلك أوفر الجزاء، فإنّه لا يظلم أحداً مثقال ذرّة.

ولله تعالى كمال العدل؛ فالله هو العدل، المقسط، المؤمن^(١) لكمال عدله.. وهو الفتّاح؛ أي القاضي بالحقّ؛ فلا يجور أبداً، ولا يضيع مثقال ذرّة من خير أو شرّ، قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْضِي بِالْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَقْضُونَ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ (غافر: ٢٠)

انظروا إلى الإشارة التي تحملها فاصلة النص.. فاسم السميع والبصير يدل بالنص والفحوى على مناط تفرّد الربّ بالحكم بين عباده؛ وهو كماله ونقص ما يدعى من دونه؛ فالله هو الكامل في سمعه وبصره؛ ولهذا كان هو الحكم وحده قدراً وشرعاً، وجزاءً.

ولله تعالى جميع الكمالات التي يفتقر إليها الظالم.. فهو العليّ، والكبير، والجميل، والحميد، ولهذا يضع الأشياء في مواضعها؛ ولا يتصوّر أن يقع منه ظلم ألّبتة، قال تعالى: ﴿فَالْحُكْمُ لِلَّهِ الْعَلِيِّ الْكَبِيرِ﴾ (غافر: ١٢)

(١) وهو في أحد التفسيرين بمعنى الذي أمن عذابه من لا يستحقّه.

وهو الواسع الذي يوسع على عباده في أحكامه الدينية ؛ فلا يكلفهم ما لا يطيقون، ويوسع عليهم في أحكامه القدرية ؛ فلا يعاجلهم بالعقوبة، ويوسع عليهم في أحكامه الجزائي؛ فلا يؤاخذهم بكلّ معصية، بل يتجاوز، ويعفو، ويغفر ؛ لأنه العفو، والغفور، والغفار، ولا بُدَّ أن تتحقق متعلقات هذه الأسماء، وتظهر آثارها.. وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: (وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَوْ لَمْ تُذْنِبُوا لَذَهَبَ اللَّهُ بِكُمْ، وَلَجَاءَ بِقَوْمٍ يُذْنِبُونَ فَيَسْتَغْفِرُونَ اللَّهَ فَيَغْفِرُ لَهُمْ) (١)

البخل:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الثالث.. حدثنا عن تنزه الله عن البخل.

قال: البخل ينافي كمال غنى الربّ وكرمه؛ ولهذا حين قال شاس بن قيس اليهودي: (إِنَّ رَبَّكَ بِخِيلٍ لَا يَنْفَقُ) أنزل الله تعالى قوله: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يُدُّ اللَّهُ مَغْلُولَةً غَلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ (المائدة: ٦٤) ؛ فطردهم الله من رحمته بمقاتلتهم المنكرة، وعاقبهم قبل ذلك بأن جعل هذا الوصف لازماً لهم في الدنيا ؛ فغلّت أيديهم، وكانوا أبخل الناس وأجبنهم.

ولهذا أنكر الله مقالة اليهود، وعظّم فريتهم، وأوعدهم عليها بأعظم العقوبات ؛ فحين قال فنحاص بن عازوراء: (إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ يَقْتَرِضُ مِنَّا)، أنزل الله تعالى قوله: ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ (البقرة: ١٨١) ؛ فأوعدهم على هذه المقالة المنكرة، وعلى رضاهم بأفعال أسلافهم الشنيعة ؛ وهي قتل الأنبياء تمرّداً وعناداً لا جهلاً وضلالاً،

(١) رواه مسلم.

أوعدهم على ذلك بأعظم العقوبات ؛ وهي النيران المحرقة، التي تطلع على الأفئدة ؛ جزاءً وفاقاً، وما ربك بظلام للعبيد.

وأسماء الله الحسنى تبطل ظنون السوء التي ظنتها يهود رب العالمين ؛ فإن من أسمائه الغني، والجواد، والوهاب، والكريم، والواجد، والمجيد، والواسع، وهي كلها تدل على كمال غنى الرب وجوده، قال تعالى : ﴿لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ (النساء: ١٣١) ؛ أي أن له الغنى التام من كل الوجوه ؛ لكماله، ومن سعة غناه أن خزائن السموات والأرض بيديه، وأن جوده على خلقه متواصل في جميع اللحظات.

وجود الله تعالى على خلقه نوعان:

أما أولهما، فهو الجود المطلق عن أي قيد؛ ولا يخلو عنه مخلوق من المخلوقات ؛ فإن الله وسع غناه كل فقر، وعمّ جوده جميع الكائنات، قال تعالى : ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾ (النحل: ٥٣)

وأما الثاني، فهو الجود المقيّد بسؤال السائلين ؛ فمن سأل الله بصدق، وطهارة ممّا يمنع القبول أعطاه سؤاله، وأناله مطلوبه، دون أن ينقص ذلك ممّا عنده شيئاً ؛ لكمال غناه، وسعة خزائنه.

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ : (قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : يَا عَبْدِي لَوْ أَنَّ أَوْلَكُمْ وَآخِرَكُمْ، وَإِنْسَكُمْ، وَجَنَّتُمْ، قَامُوا فِي صَعِيدٍ وَاحِدٍ، فَسَأَلُونِي، فَأَعْطَيْتُ كُلَّ إِنْسَانٍ مَسْأَلَتَهُ مَا نَقَصَ ذَلِكَ مِمَّا عِنْدِي إِلَّا كَمَا يَنْقُصُ الْمِخْيَطُ إِذَا أُدْخِلَ الْبَحْرَ)^(١)

الخلف:

(١) رواه مسلم.

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الرابع.. حدثنا عن تنزه الله عن الخلف.

قال: إخلاف الوعد والوعيد يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال: ﴿إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ﴾ (يونس: ٥٥)، وقال: ﴿فَلَا تَحْسِبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ﴾ (إبراهيم: ٤٧)

قال رجل من الحاضرين: فما سر تنزه الله عن الخلف؟

قال مؤمن الطاق: لقد تنزه الله عن ذلك لما في الخلف من العبث المنافي لحكمة الإله الحق؛ فإن أصل الحق المطابقة والموافقة.. وبما أن أفعال الرب مطابقة للحكمة، وأقواله مطابقة لما عليه الشيء في نفسه؛ لهذا كله كانت أفعاله تعالى وأقواله كلها حقاً، ووعدته ووعيده كله حقاً وصدقاً، قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا وَعَدَ اللَّهُ حَقًّا وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ قِيلًا﴾ (النساء: ١٢٢)

فصدق الله يقتضي تحقق وعده ووعيده، وعدم الخلف فيهما؛ لأنه الإله الحق؛ فلا يكون كلامه إلا حقاً؛ أي مطابقاً لما عليه الشيء في نفسه؛ ولهذا سمي نفسه بالمؤمن؛ فإنه في يدل في بعض معانيه على المصدق؛ أي المصدق لرسوله بما يظهره لهم من آياته، ومصدق المؤمنين ما وعدهم من الثواب، ومصدق الكافرين ما أوعدهم من العقاب. ويدل على استحالة إخلافه تعالى لوعده ووعيده، أو تبديله لكلماته كثير من أسماء الله الحسنی:

منها (العليم، والخبير، والشهيد، والمهيمن، والرقيب، والسميع، والبصير)؛ فإن هذه الأسماء تدل على علم الله تعالى التام المحيط بما دق أو جل من أعمال العباد ﴿لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ (التجم: ٣١)

ومنها (القدير، والعزیز، والقهار، والمقيت، والمتين)؛ فإنها تدلّ على تفرّد الربّ بالقدرة التامة؛ فلا شيء يمنعه من إنفاذ وعده ووعيده في المحلّ الذي تقتضيه حكمته.

ومنها (الرحيم، والرؤوف، والغني، والبرّ، والشكور)؛ فإنّ هذه الأسماء ونظائرها تقتضي إيصال الثواب الموعود لأهله وعدم إخلافه.

ومنها (الحكيم، والحكم، والعدل، والمقسط، والفتاح)؛ فإنّ عدل الله وحكمته يتضمّنان وضع الأشياء في مواضعها؛ فلا يعاقب من لا يستحقّ العقاب، ولا يخلف من يستحقّ الثواب.

الإهمال:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن الخامس.. حدثنا عن تنزه الله عن الإهمال.

قال: إهمال الله لعباده يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال: ﴿أَيْحَسِبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة: ٣٦)، وقال: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنْمَّا أَفْحَسِبْتُمْ أَنْمَّا خَلَقْنَاكُمْ عِبْتًا وَأَنْكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ (١١٥) فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ (١١٦) ﴿ (المؤمنون)؛ أي تنزهه وتقدّس عن هذا الظنّ السيء؛ لأنّه عبث وسفه ينافي حكمته.

ومثله في الدلالة قوله تعالى في تينك الآيتين الكريمتين: ﴿.. رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ﴾ (١١٦) ﴿ (المؤمنون)، فإنّ كونه ربّاً للعرش فما دونه يدلّ على تنزيهه عن إهمال العباد، وتركهم سدى، بلا أمر ولا نهى، ولا ثواب ولا عقاب؛ فإنّ اسم (الربّ) إمّا أن يدلّ على صفة معنّى، ويفسّر بمعنى: المالك، والسيد، وإمّا أن يدلّ على صفة فعل، ويفسّر بمعنى: المربّي.

فإن فسر بالمعنى الأوّل، فمن آثار الملك والسؤدد أنّ الربّ يأمر وينهى، ويشيب

ويعاقب، ويتصرّف في ممالكه بأنواع التصرفات.

وإن فسر بالمعنى الثاني فالمربّي هو المصلح، والمدبّر، والجابر، والقائم ؛ وهذا يتضمّن التربية العامّة والخاصّة.

قالوا: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطاق: تربية الله لخلقه نوعان: عامّة، وخاصّة..

أما العامّة، فهي خلقه للمخلوقين، ورزقهم، وهدايتهم لما فيه مصالحهم، التي فيها بقاؤهم في الدّنيا..

وأما الخاصّة، فترتيته لأوليائه ؛ فيربّيهم بالإيمان، ويوفّقهم له، ويكمّلهم، ويدفع عنهم الصّوارف، والعوائق الحائلة بينهم وبينه.

فحقيقة الرّبوبيّة تتضمّن التّنزيه عن إهمال العباد مطلقاً ؛ أي في جميع شؤون معاشهم ومعادهم.

قال بعض الحاضرين: لقد اعتدنا منك أن تذكر لنا الأسماء الحسنی الدالة على نوع التّنزيه.. فما الأسماء الحسنی التي ترى أن لها علاقة بتّنزيه الله عن الإهمال.

قال مؤمن الطاق: كل أسماء الله الحسنی تدل على ذلك.. وبوسعك أن تقرّها جميعاً على هذا الأساس لترى مدى ارتباطها به.

قال الرجل: فهلا وضحت لنا بضرب بعض الأمثلة التقرّيبية.

قال مؤمن الطاق: سأضرب لك أمثلة تقرّيبية ببعض الأسماء التي لها صلة مباشرة بهذا المعنى:

فمن ذلك اسمه تعالى (الحسيب) ؛ فإنّه يفسّر بالكافي ؛ وهو بالمعنى العام الذي يكفي العباد جميع ما يهتمّهم من أمر دينهم ودنياهم، فيوصل إليهم المنافع، ويدفع عنهم المضار..

وبالمعنى الأخص هو الذي يكفي من توكل عليه كفاية خاصة يصلح بها دينه ودنياه.

ومن ذلك اسمه تعالى (اللطيف)، فقد فسر بـ (من اجتمع له الرق في الفعل، والعلم بدقائق المصالح، وإيصالها إلى من قدرها له من خلقه)، يقول الزجاج في ذلك: (اللطيف يفيد أنه المحسن إلى عباده في خفاء وستر من حيث لا يعلمون، ويسبب لهم أسباب معيشتهم من حيث لا يحتسبون)

ويختص أولياء الله بلطف خاص يتضمن أعلى درجات الإحسان والإصلاح؛ وهو أن يسرهم ليسرى، ويجنبهم العسرى، وقد يكون ذلك بشيء من الابتلاءات والمحن. ومن ذلك اسمه تعالى (الجبار)؛ فقد فسر بمعنى المصلح؛ بناءً على أنه مشتق من جبر لا من أجبر؛ يقال: جبر العظم إذا صلح كسره، وجبر الله مصيبتة؛ إذا أصلح حاله، وعوضه عما فات، يقول الرّازي في ذلك: (الجبر أن تغني الرجل من فقر، أو تصلح عظمه من كسر) وعلى هذا فالجبار الذي يصلح أحوال عباده؛ فيجبر الكسير والمصاب، ويغني الفقير، ويعزّ الذليل، ويسر على المعسر، ويجبر قلوب الخاضعين لجلاله جبراً خاصاً بما يفيض عليها من معارف الإيمان وأحواله.

وهذا المعنى مستقر في قلوب عامة المؤمنين؛ ولهذا يسأل كل واحد منهم ربّه الجبر كل صلاة، وهو إنما يريد هذا الجبر الذي حقيقته إصلاح العبد، ودفع المكاره عنه. ومن ذلك اسمه تعالى (الحفيظ)؛ فإنه يفسر بمعنى الحافظ لعباده ممّا يكرهون. وحفظه لخلقه نوعان؛ عام وخاص؛ فالعام حفظه لجميع المخلوقات بهدايتها لمصالحها، كما قال تعالى: ﴿الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ (طه: ٥٠)

والحفظ الخاص حفظ أوليائه في مصالح دنياهم وفي دينهم؛ فيحفظهم حال حياتهم من الشبهات والشّهوات، ويحفظ عليهم دينهم عند الوفاة، فيتوفاهم على الإيمان. وهذا

الحفظ متفاوت بين المؤمنين بحسب ما عند كل واحد منهم من محافظة على أمر الله ونهيه.

ومن ذلك اسمه تعالى (الرَّزَّاق)؛ أي كثير الرِّزْق ؛ فهو الَّذِي يوصل لجميع خلقه كل ما يحتاجونه في معاشهم وقيامهم، ويوصل لأوليائه رزقًا خاصًا يتضمَّن رزق القلوب بالإيمان، والأبدان بالمال الحلال.

فهذه الأسماء الحسنى جميعا وغيرها تدل على عناية الملك الحقَّ بعباده، وتربيتهم تربيةً عامَّة وخاصَّة، يستحيل معها إهمالهم لا في أمور معادهم، ولا في أمور معاشهم. وهذه المعارف تثمر في القلوب الحيَّة محبة الله، والتَّأله له خوفًا وطمعًا ؛ وهي أعظم مقامات الإيمان، وأصوله الكبرى التي يقوم عليها بناؤه.

العبث:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السادس.. حدثنا عن تنزه الله عن العبث.

قال: العبث يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله، ولهذا نزه الله تعالى نفسه عنه، فقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٦) (الحج)، وقال: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ (٦٢) (الحج)

انظروا كيف سمي الله تعالى نفسه حقا.. ولهذا، فإنه تعالى لا ينسب إليه إلا الحق؛ فقله حق، وفعله حق، ودينه حق، ولقاؤه حق، ووعدته ووعدته حق ؛ فكل شيء منه تعالى مطابق للحكمة البالغة المنافية للسَّفه، والعبث، والخلف.

يقول بعض العلماء في ذلك، وهو الرَّاغِب الأصفهاني: (أصل الحق المطابقة والموافقة، كمطابقة رجل الباب في حَقِّه ؛ لدورانته على استقامة، والحق يقال على أوجه :

الأول: يقال لموجد الشيء بسبب ما تقتضيه الحكمة؛ ولهذا قيل في الله تعالى هو الحق، قال تعالى: ﴿ثُمَّ رُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلَاهُمُ الْحَقُّ﴾ (الأنعام: ٦٢).

الثاني: يقال للموجد بحسب مقتضى الحكمة؛ ولهذا يقال: خلق الله كله حق، قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٧٣)

الثالث: في الاعتقاد للشيء المطابق لما عليه ذلك الشيء في نفسه؛ كقولنا: اعتقاد فلان في الجنة والنار حق، قال تعالى: ﴿فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ﴾ (البقرة: ٢١٣)

الرابع: للفعل والقول الواقع بحسب ما يجب، وبقدر ما يجب، وفي الوقت الذي يجب؛ كقولنا: فعلك حق، وقولك حق، قال تعالى: ﴿كَذَلِكَ حَقَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ عَلَى الَّذِينَ فَسَقُوا أَنَّهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ٣٣)؛ أي تحقق قدره السابق فيهم؛ بمعنى وقع ووجب؛ ولهذا يستعمل في الواجب، والثابت، واللازم^(١)

وبناء على هذا، فإن الحق - تبارك وتعالى - منزّه عن العبث تنزيهاً مطلقاً؛ لمنافاته حكمته البالغة، وحمده، وكماله..

وقد تكرر في القرآن الكريم ذكر هذا المعنى لتستقيم النفوس على معرفة ربها، ولا تظن به السوء.. قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ (٢٧) أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ (٢٨)﴾ (ص)؛ وذلك لأن هذا الظن ينافي أسماء الرب تعالى؛ فالحكيم الحق منزّه عن أن يخلق شيئاً عبثاً أو سفهاً؛ لأن أفعاله

(١) مفردات القرآن.

حقّ ؛ أي مطابقة للحكمة، ومفعولاته حقّ ؛ أي متحقّقة وكائنة بعلم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت مشتملةً على الحكمة، وآيلة لها.

وقال تعالى في آية أخرى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ﴾ (الأنعام: ٧٣)؛ فالحق سابق لخلقها، ومقارن له، وغاية له ؛ ولهذا أتى بالباء الدالة على هذا المعنى دون اللام المفيدة للغاية ليس غير ؛ والحقّ السابق للخلق صدورها عن علم الله وحكمته ؛ ولهذا كانت كلّها حقًا، أي متقنة، مطابقة للحكمة، لا نقص فيها ولا خلل.

ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَنْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ (النمل: ٨٨)، وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ﴾ (السجدة: ٧)، وقوله: ﴿مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِنْ تَفَافُوتٍ﴾ (الملك: ٣)، فهذا الإحكام والإتقان هو الحقّ المقارن للمخلوقات ؛ ولهذا كانت أدلة وبراهين على أصول الإيمان ؛ لتقود الناس للحقّ الغائي ؛ وهو معرفة الربّ وعبادته، وإنجاز وعد الله لمن أطاعه، وإنفاذ وعيده فيمن عصاه.

قال بعض الحاضرين: فما الأسماء المشيرة إلى هذه المعاني التي ذكرتها؟
قال مؤمن الطاق: كل أسماء الله تشير إلى ذلك.. كاسم الحميد، والرّشيد، والجميل..
فهذه الأسماء الثلاثة تدلّ على كمال ذات الربّ وصفاته ؛ وأنّ له من الأفعال أجملها، وأرشدّها، وأحمدّها، وهذا يحيل أن يكون في شيء من أفعال الله - تعالى - عبث أو سفه.
وكاسم الحقّ والحكيم ففيهما دلالة واضحة على نفي العبث في الخلق، واستحالته.
الضرر:

قالوا: وعينا هذا.. فحدثنا عن السابع.. حدثنا عن تنزه الله عن الضرر.
قال: الإضرار بالخلق يتنافى مع كمال الله وعظمته وجلاله..
قاطعهم رجل من الحاضرين، وقال: كيف تقول هذا، ونحن نجد من أسماء الله الحسنى

اسم (الضار)؟

قال مؤمن الطاق: الضار النافع.. لا الضار وحده.

قال الرجل: وما الفرق بينهما؟

قال مؤمن الطاق: ما الفرق بين الجراح الجارح.. والجراح وحده؟

قال الرجل: الفرق عظيم.. فالجراح لا يجرح إلا لينفع.. بينما الجارح وحده قد يجرح للضرر المجرد.

قال مؤمن الطاق: فهكذا هذا الاسم.. فهو اسم مقترن بالنافع لا يجوز فصله عنه.. فقد ذكر العلماء أن الأسماء المقترنة أو المزدوجة لا يجوز أن تطلق على الرب مفردة؛ لأنها تجري مجرى الاسم الواحد الذي يمتنع فصل بعض حروفه عن بعض؛ فالمانع يجب أن يقرن بالمعطي، وهكذا الضار بالنافع، والمذل بالمعز، والمحيي بالمميت؛ وذلك لأن هذه الأسماء لا تدل على الحسن والعلو المطلق إلا إذا قرن كل اسم بمقابله؛ وحيث تفيده الثناء على الرب بمعاني الربوبية، وكمال التصرف في الخلق؛ عطاء ومنعاً، ونفعاً وضرراً، وإحياء وإماتة.

قال الرجل: هلا زدتنا توضيحاً؟

قال مؤمن الطاق^(١): من أسماء الله تعالى ما يسمى به مطلقاً من غير قيد، وهي الأسماء المشتقة الدالة على معاني الجلال والكمال والجمال والكمال مثل: الرزاق، الخالق، الباري، المصور، العزيز، الحكيم، الرحمن، الرحيم، السميع، البصير، القوي.. فهذه كلها أسماء تطلق على الله تعالى من غير قيد أو شرط.

(١) انظر: شرح مقدمة القيرواني للشيخ أحمد النقيب.

أما النوع الثاني من الأسماء، فما يطلق على الله تعالى مقيدا، ومن القيود ما يسميه العلماء قيد المقابلة والجزاء، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ (الأنفال: ٣٠)، فمكر الله تعالى بهم لما مكروا.. فلا يجوز أن يؤخذ منها أسماء مطلقة، فنقول: إن من أسماء الله تعالى الماكر أو المكار.. هذا ليس من أسماء الله تعالى ولا يجوز أن نسمي الله تعالى بشيء من ذلك.

وكذلك الأسماء التي قد يتوهم فيها أو منها العجز أو النقص أو العيب فالله تعالى منزّه عنها.. انظر في قول الله تعالى: ﴿وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ﴾ (الأنفال: ٧١)، فلم يقل الله تعالى: (وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فخانهم الله)، لم يقل هذا، لأن الخيانة خدعة في مقام الائتمان، والخيانة من صفات المنافقين والله تعالى يتنزّه أن يصف نفسه بصفة من صفات المنافقين، ولا يسمي نفسه أبداً باسم من أسماء المنافقين.

قال رجل من الحاضرين: لا بأس.. ولكن ما تقول في اسم (المنتقم).. فنحن نجده في تعداد أسماء الله الحسنى؟

قال مؤمن الطاق: لا.. لم يصح اعتبار هذا اسماً.. فلا تسم الله بما لم يسم به نفسه.

قال الرجل: وما تقول في الرواية الواردة به؟

قال مؤمن الطاق: لا شك أنكم تعلمون أن الرواية التي ورد فيها ذكر أسماء الله الحسنى من إدراج بعض الرواة، وليست من كلام النبي ﷺ.. لقد قال الصنعاني في ذلك: (اتَّفَقَ الْحَفَاطُ مِنْ أَئِمَّةِ الْحَدِيثِ أَنْ سَرَدَهَا إِدْرَاجَ مِنْ بَعْضِ الرِّوَاةِ)، وقال ابن تيمية: (اسم المنتقم ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ)

قال الرجل: ولكن الله تعالى قال: ﴿فَانْتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا﴾ (الرّوم: ٤٧)، وقال

:﴿فَلَمَّا ءَاسَفُونَا انْتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ (الزخرف: ٥٥)

قال مؤمن الطاق: الانتقام هنا بمعنى العقاب.. وقد قيده الله بهؤلاء المجرمين.. فلا يصح اعتباره اسما لأجل هذا.

قال رجل من الحاضرين: فما تقول في خلق الله للشر؟

قال مؤمن الطاق: المؤمن يتأدب مع الله تعالى، فلا ينسب إليه الشر بحال من الأحوال.. فليس من الله إلا الخير، وقد قال ﷺ: (كَيِّكَ وَسَعْدَيْكَ، وَالْخَيْرُ فِي يَدَيْكَ، وَالشَّرُّ لَيْسَ إِلَيْكَ)^(١)

فهذا النفي يقتضى امتناع إضافة الشر إليه تعالى.. فلا يضاف إلى ذاته ولا أسمائه ولا أفعاله، فإن ذاته تعالى منزهة عن كل شر، وأسماءه كلها حسنى ليس فيها اسم ذم ولا عيب، وأفعاله كلها حكمة ورحمة ومصلحة وإحسان وعدل لا تخرج عن ذلك أبداً، وهو المحمود على ذلك كله فيستحيل إضافة الشر إليه^(٢).

ولهذا ينزه الله تعالى في الأسلوب القرآني من نسبة الشر إليه، فالطريقة المعهودة في القرآن الكريم هي نسبة أفعال الإحسان والرحمة والجود إلى الله تعالى فيذكر فاعلها منسوبة إليه، ولا يبنى الفعل معها للمفعول، فإذا جيء بأفعال العدل والجزاء والعقوبة حذف وبني الفعل معها للمفعول، والأمثلة على ذلك كثيرة في القرآن الكريم:

ومنها قوله تعالى: ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ (الفاتحة: ٧)، فإنه تعالى ذكر النعمة فأضافها إليه ولم يحذف فاعلها، ولما ذكر الغضب

(١) رواه أحمد ومسلم.

(٢) انظر: طريق الهجرتين: ١٦٦.

حذف الفاعل، وبنى الفعل للمفعول، فقال: ﴿الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ﴾، وقال في الإحسان: ﴿الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾

ومنها قول إبراهيم الخليل عليه السلام: ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ (الشعراء: ٧٨-٨٠)، فنسب الخلق والهداية والإحسان بالطعام والسقي إلى الله تعالى، ولما جاء إلى ذكر المرض نسبته إلى نفسه، ولم يقل: (أمرضني) وقال: ﴿فَهُوَ يَشْفِينِ﴾

ومنه قول الخضر عليه السلام في السفينة: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩)، فأضاف العيب إلى نفسه، وقال في الغلامين: ﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾ (الكهف: من الآية ٨٢) فأضاف الإرادة إلى الله.

ولهذا ليس من أسماء الله الحسنى أي اسم يتضمن الشر، وإنما يذكر الشر في مفعولاته كقوله تعالى: ﴿نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (الحجر: ٤٩)، وقال بعدها: ﴿وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الْأَلِيمُ﴾ (الحجر: ٥٠)، ومثل ذلك قوله تعالى: ﴿اعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ وَأَنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ (المائدة: ٩٨)

ولذلك نفى المحققون من العلماء - كما ذكرنا - صحة تسمية الله تعالى باسم (المنتقم)، فهو ليس من أسماء الله الحسنى الثابتة عن النبي ﷺ، وإنما جاء في القرآن مقيدا، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنْتَقِمُونَ﴾ (السجدة: من الآية ٢٢)، وقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ (آل عمران: من الآية ٤)

أما الحديث الذي في عدد الأسماء للحسنى الذي يذكر فيه المنتقم - إن صح - فقد

ذكر في سياقه البر التواب المنتقم العفو الرؤوف، زيادة على أن الصحيح أنه ليس من كلام
النبي ﷺ.

قال الرجل: لا بأس.. سلمت لك بهذا.. ولكن مع ذلك بما أن الضرر والشر
موجودان.. فلا بد لهما من موجد.. وبما أن الله موجد كل شيء.. فالله هو موجدتهما^(١).
قال مؤمن الطاق: إن الشر المحض يستحيل وجوده في هذا الكون.. لأن كل ما
نتوهمه أو نراه شرا قد يكون خيرا متلبسا بصورة شر، أو شرا انحرف عن مساره مع بقاء
أصل الخيرية فيه.

ولهذا خلق الله تعالى ما نراه من الدواب الشريرة، أو الأفعال التي هي شر لما يترتب
على خلقها من الخير المحبوب، فلم يخلق لمجرد الشر الذي لا يستلزم خيرا بوجه ما.
فالخير هو المقصود من الخلق، والشر إنما قصد قصد الوسائل والمبادئ لا قصد
الغايات والنهايات، فإذا حصلت الغاية المقصودة بخلقه بطل وزال، كما تبطل الوسائل عند
الانتهاء إلى غاياتها كما هو معلوم بالحس والعقل.
قال الرجل: فما تقول في تعذيب الله للمجرمين والظالمين.. أليس في ذلك ضرر
بهم؟

قال مؤمن الطاق: لا.. يستحيل على الله أن يريد الضرر بعباده..
قال الرجل: ولكن النصوص كلها تخبر بذلك.
قال مؤمن الطاق: صدق ربنا ونبينا..
قال الرجل: فكيف توفق بين ما ذكرت وما ذكرت النصوص المقدسة؟

(١) ذكرنا الردود على هذا النوع من الإشكالات بالتفصيل في (أسرار الأقدار) من سلسلة (عيون الحقائق)

قال مؤمن الطاق: لقد ذكرت النصوص المقدسة السر من وراء ذلك العذاب الذي يصيب المجرمين.. لقد ورد فيها ما يدل على تأثير البلاء في تطهير الفطرة وتقويمها، كما قال تعالى: ﴿وَلَنَذِقَنَّهُمْ مِنَ الْعَذَابِ الْأَذْنَىٰ دُونَ الْعَذَابِ الْأَكْبَرِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (السجدة: ٢١)، فأخبر تعالى أنه يعذبهم رحمة بهم ليردهم العذاب إليه كما يعذب الأب الشفيق ولده إذا فر منه إلى عدوه ليرجع إلى بره وكرامته.

وبين الله تعالى سنته في ذلك بقوله تعالى: ﴿مَا يَفْعَلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِن شَكَرْتُمْ وَآمَنْتُمْ وَكَانَ اللَّهُ شَاكِرًا عَلِيمًا﴾ (النساء: ١٤٧)

وهذه الآية - التي جمعت قانون الله في الثواب والعقاب - دليل على أن الحكمة تقتضي كون العذاب مصلحة مؤقتة تقتضيها الرحمة المقترنة بالحكمة.

لقد قال سيد قطب معلقا على هذا مبينا جمال هذه السنة مقارنة بما تحفل به الديانات الأخرى من وثنية: (وأخيرا تجيء تلك اللمسة العجيبة، الموحية المؤثرة العميقة.. أخيرا بعد ذكر العقاب المفزع، والأجر العظيم.. لتشعر قلوب البشر أن الله في غنى عن عذاب العباد.. فما به - سبحانه - من نقمة ذاتية عليهم يصب عليهم من أجلها العذاب. وما به - سبحانه - من حاجة لإظهار سلطانه وقوته عن هذا الطريق. وما به - سبحانه - من رغبة ذاتية في عذاب الناس كما تحفل أساطير الوثنية كلها بمثل هذه التصورات.. وإنما هو صلاح العباد بالإيمان والشكر لله.. مع تحبيبهم في الإيمان والشكر لله.. وهو الذي يشكر صالح العمل ويعلم خبايا النفوس)^(١)

ومن النصوص الدالة على هذا المعنى كذلك قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ

(١) في ظلال القرآن: ٢/ ٧٨٦.

وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْأُونَ مَوْطِئًا يُعْظَمُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نِيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٢٠﴾ (التوبة: من الآية ١٢٠)، فقد أخبر تعالى أن يكتب لهم بهذه الأعمال التي ليست داخلة تحت قدرهم، وإنما هي ناشئة عن أفعالهم أعمالاً صالحة وثواباً جزيلاً.

ومنها قوله تعالى: ﴿وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾ (آل عمران: ١٤١)، فأخبر تعالى أن ألم القتل والجراح في سبيله تمحيص وتطهير وتصفية للمؤمنين.

وينص على هذا المعنى قوله تعالى: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ﴾ (الشورى)، وفي هذا تبشير وتحذير، تبشير بالتطهير من الذنوب بالمصائب، وتحذير بالمصائب من المعاصي، فالعدل يقتضي الجزاء، والرحمة تقتضي التطهير.

قال الرجل: فلماذا لا يغفر الله للعاصين مباشرة، ويدخلون الجنة من غير مقاساة للعذاب، فتغلب الرحمة الغضب؟

قال مؤمن الطاق: إن العدل الإلهي يقتضي المجازاة، كما أن الرحمة الإلهية تقتضي الإحسان، فكان الجمع بينهما، هو إصلاح هذه النفوس لتصلح بعدها للرحمة الإلهية.

التفت إلينا صاحبنا (فريدريك ماكس مولر)، وقال: هذا حديثي في تلك البلدة المعطرة بعطر الإيمان.. ومع أولئك العلماء والصالحين.. لقد عشت في صحبتهم أياماً جميلة.. لكن كلاليب الدنيا سرعان ما جذبتني، فنسيت تلك الأيام.. ونسيت معها تلك المعاني.. لقد بعثتها جميعاً بثمرن بخس حقير..

ولكن الله الرحمن الرحيم تداركني بلطفه، فأعاد إلي ذاكرتي الساعة تلك الأيام
الجميلة التي نعمت فيها بتلك الصحبة الشريفة..

الفهرس

٧	مقدمة السلسلة
١٠	البداية
٣٤	أولا - الله
٣٩	١ - العلم
٣٩	المادة:
٤٤	العقل:
٥٢	الإنسان:
٥٤	الكون:
٦٠	٢ - العقل
٦٢	المناظرة الأولى:
٧٧	المناظرة الثانية:
٨٧	المناظرة الثالثة:
٩١	المناظرة الرابعة:
٩٨	المناظرة الخامسة:
١٠٥	المناظرة السادسة:
١٢٠	المناظرة السابعة:
١٣٤	المناظرة الثامنة:
١٦٥	المناظرة التاسعة:
١٧٥	المناظرة العاشرة:

١٨٠	ثانيا - الواحد
١٨٢	١ - العقل
١٨٥	التكامل:
١٨٧	التناسق:
١٩٢	التمانع:
١٩٤	الوحدة:
١٩٧	الهداية:
١٩٨	الحقيقة:
١٩٩	التعين:
٢٠٠	التركيب:
٢٠١	الفرجة:
٢٠٣	الكلية:
٢٠٥	٢ - الدين
٢٤١	المحكم
٢٤٢	وحدانية الله:
٢٤٥	عبودية المسيح:
٢٥٤	إنسانية المسيح:
٢٦٠	المتشابه
٢٦٣	١ - الكلمة:
٢٨٣	٢ - البنوة

٢٩٣	٣ - الحلول والاتحاد:
٢٩٤	أنا والآب واحد:
٣٠٠	من رأي فقد رأى الآب:
٣٠٢	أنا في الآب والآب في:
٣٠٥	عمانوئيل:
٣٠٨	قال الرب لربي:
٣١٠	صورة الله:
٣١٣	الله ظهر في الجسد:
٣١٥	الثالث:
٣١٩	٤ - خصائص الألوهية
٣١٩	الدينونة:
٣٢١	الغفران:
٣٢٤	النزول:
٣٢٥	السجود:
٣٢٧	المعجزات:
٣٣٣	ثالثا - القدوس
٣٣٤	عقائد اليونان:
٣٣٧	عقائد الهنود:
٣٤٥	عقائد الصين:
٣٤٩	عقائد الفرس:

٣٥٦	عقائد اليهود:
٣٦٤	عقائد المسيحيين:
٣٧٠	١ - قداسة الذات الإلهية
٣٨٠	الشبيه:
٣٨٩	الحاجة:
٣٩٠	الجهل:
٣٩١	العجز:
٣٩٢	الجسمية:
٤٠٠	الزمان:
٤٠١	المكان:
٤١٠	٢ - قداسة الأفعال الإلهية
٤١١	المكر:
٤١٧	الظلم:
٤٢١	البخل:
٤٢٢	الخلف:
٤٢٤	الإهمال:
٤٢٧	العبث:
٤٢٩	الضرر:
٤٣٨	الفهرس